المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية



البحوث والدراسات

المقدمة للمؤتمر

الجزء الثاني

عني بطبعه ومراجعته
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
☎ ٢٢٧٥١٥ - بيروت ص.ب ٨٣٥٥
☎ ٧٢١٦١٢ - صيدا ص.ب ٢٢١

الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ ١٩٨١م



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

البحوث والدراسات

المقدمة للمؤتمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السنة النبوية

في

مواجهة شبهات الاستشراق

للأستاذ أنور الجندي

« مصر »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة النبوية
في مواجهة شبهات الاستشراق

لقد جاءت الحملة الضارية على السنة النبوية كجزء من خطة واسعة من مخطط التغريب والغزو الفكري الواسع المركز الذي يستهدف سيرة الرسول ﷺ والشريعة الاسلامية والقرآن الكريم، والذي كشفت عنه مخططات التبشير والاستشراق منذ أكثر من قرن من الزمان، وقد جُنِّد له عدد ضخم من خصوم الاسلام من المستشرقين ومن دعاة التغريب واتباع مدارس الارساليات في المشرق في

محاولة يائسة لتدمير هذه المنابع الأصيلة من الفكر الاسلامي وبخاصة في مجال العقائد والقيم الأساسية التي قام عليها المجتمع الاسلامي.

«لقد جند الاستعمار بعض المستشرقين - كما يقول الدكتور مصطفى السباعي - لتسميم هذا المنبع الروحي، فنصبوا الفخ باسم البحث العلمي والتفكير الحر، وجاء نفر فوقعوا في الفخ، وراحوا يروِّجون بضاعة الغزاة، اما عن جهل بحقيقة التراث الاسلامي، أو عن انخداع بالاسلوب العلمي المزعوم، واما عن رغبة في الظهور بمظهر التحرر العقلي وشجاعة الرأي، واما عن انحراف فكري ووجداني بتأثير الاستهواء».

ويشير الباحثون في هذا المجال الى أن الحملة على السنة كانت قديمة، وان الذين جددوها من المستشرقين ودعاة التغريب لم يزيدوا عن أن أعادوا ترديد الشبهات القديمة التي رددتها المجوسية والشعوبية ودعاة التأويل والتشبيه والمتاجرون بالشبهات والمفتريات من قديم.

ان هدف الغزو الفكري وحركة التغريب هي هدم مفهوم الاسلام الصحيح الجامع المترابط من القرآن والسنة: بين النص القرآني المنزل، وبين السنة التي يتمثل فيها

التطبيق العملي من حيث عمل الرسول وبيانه ،وتفصيل لما اجمل، وتوضيح مابلَّغ أو تقييد لمطلق، أو تخصيص لعام: ﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم﴾.

ولقد تعددت جوانب الشبهات المثارة حول الشريعة وحول سيرة الرسول، وحول القرآن، وقد تولى علماء كثيرون دحض هذه الشبهات وكشف زيفها، ثم جاءت في السنوات الأخيرة تلك الدعوى الزائفة التي تحاول أن تقول «ان القرآن وحده يكفي» وقد دأب قوم في السنوات الأخيرة الى توجيه الاتهامات الى مصادر السنة ورجالها. وقد كتب هذه الأشياء مستشرقون لهم ولاء ديني معارض ومخالف للاسلام وللمسلمين ،وقد اعتمدوا في ذلك على خيوط جمعوها من فكر المعتزلة وغلاة الشيعة وحكايات الادب التي كان مؤلفوها موضع الشبهة في أمرهم وتخريجهم للحقائق، وكانت أبرز مَقاتِلهم هي الاعتماد على كتب النوادر والمحاضرات والحكايات التي لم تؤلف لتأريخ الرجال ولم تصنف للتحقيق العلمي ،والتي جمعت من المجالس وكانت مادة للتفكه والتسلية. وهذه لا يمكن ان تؤخذ منها الأدلة والشواهد، وقد صدق من قال: ان علم الحديث لا يؤخذ من كتب الفقه وعلم التفسير لا يؤخذ من كتب اللغة لأن لكل علم مصادره التي تعرف منها حقائقه وقضاياه. أما الاعتماد على حياة

الحيوان للدميري، أو ثمار القلوب للثعالبي أو مقامات بديع الزمان للفصل في قضايا السنة فذلك هو التزييف الشديد.

ولقد كانت ظاهرة تسجيل أحاديث القصّاص ونوادر المجالس من السموم الناقعات التي أفسدت العلم الصحيح واعتمد عليها أهل الباطل؛ حتى قال ابن الجوزي: انه ما أمات العلم إلا القصّاص. وللسيوطي كتابه «تحذير الخواص من أكاذيب القصَّاص» وقد أورد فيه فصلا في انكار العلماء على القصَّاص ما أورده من أباطيل.

وحين تراجع تلك الشبهات المثارة حول السنة فيما أورده محمود أبوريَّة، أو حول الشريعة الاسلامية فيما أورده علي عبد الرازق، تجد واضحا أن النصوص كلها المعتمد عليها مستمدة من كتب الروايات، ونوادر المجالس، لا من كتب السنة أو الفقه. وذلك هو المنهج العلمي الذي قدمه المستشرقون وأتباعهم لتزييف المفاهيم الأساسية والأصيلة بالاعتماد على كتب ألف ليلة وليلة والأغاني وغيرها من كتب الشعوبيين واعتبارها مراجع لمضاهاة العلم الصحيح، وإثارة الشبهات في وجه الحقائق العلمية الأصيلة. ونحن نجد أن كل الذين حملوا لواء الشبهات حول السنة النبوية قد اعتمدوا على مصدر أساس هو كتاب جولد زيهر (العقيدة والشريعة في الإسلام) الذي ترجم وطبع بتوجيه

الدكتور طه حسين إبان اشرافه على دار الكاتب المصري اليهودية، وقد نقل أحمد أمين كثيراً من الشبهات عن الحديث النبوي في كتابيه (فجر الإسلام وضحاه) كما نقل عنه الدكتور علي حسن عبد القادر في كتابه (نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي).

وقد رددت هذه الشبهات كتب عدة: منها جورجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الاسلامي)، وابراهيم اليازجي في كتابه (حضارة الاسلام في السلام) وفيليب حتى في كتابه (تاريخ العرب)المطول، وردد هذه الافكار: كتّاب (دائرة المعارف الاسلامية)، وكارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الشعوب الاسلامية) ومؤلف كتاب (السيادة الغربية) وكريمر في كتابه (الحضارة الاسلامية).

ولا ريب أن هذه المؤلفات كلها تحمل أهواء الاستشراق والغزو الفكري في محاولة انتقاص السنة النبوية، الى جانب الشريعة والقرآن وتاريخ الرسول والفكر الاسلامي كله، ولا ريب أن دعوتها الى اثارة الشبهات حول الحديث النبوي والدعوة الى الاكتفاء بالنص القرآني عمل خطير، هو محاولة للفصل بين النص والتطبيق في الإسلام؛ وهو أخطر الجوانب وأهمها: هذا التطبيق المتمثل في «الاسلوب» الذي اتبعه الرسول ﷺ في تنفيذ النص القرآني، ومن هنا فان النص القرآني وحده لا يكفي المسلمين اليوم، ولا يحقق لهم اسلاما

حقيقيا، هذا فضلا عن أن السنة جزء من القرآن بنص القرآن ﴿ونزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم﴾ فهذا البيان الذي يفسر للناس ويطبق، هو بإقرار القرآن نفسه جزءأساسي، وحين يراجع الباحث كتابات المستشرقين يجد أن موقفهم من السنة هو جزء من موقفهم من القرآن وسيرة الرسول تماما، فان السنة هي جزء من حياة الرسول، وهي تفسير للقرآن، فلا بد أن تنالها الشبهات وتصل اليها السموم وعوامل التزييف. يقول العالم الفرنسي المسلم: اتيان دينيه: (انه من العسير أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول أو يدرسون سنته). وقد صرح في مقدمة كتابه (تاريخ حياة سيدنا محمد): انه من المتعذر بل من المستحيل أن يتحرر المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم المختلفة، وانه من أجل ذلك قد بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد ﷺ مبلغا غطى على الواقع وأخفى الصورة الحقيقية؛ وذلك بالرغم مما يزعمه المستشرقون من اتّباعهم لاساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي المحايد. وقد عرض اتيان دينيه لكثير من اتهاماتهم للنبي ورد عليها واتخذ من (لامنس) مثالا واضحا على صحة ما ذهب اليه وحكم به.

تتركز شكوك المستشرقين في السنة حول تأخر تدوين الحديث، فهم يرون أن تأخر تدوين الحديث الذي بدأ في

المائة الثانية للهجرة أعطى فرصة للمسلمين ليزيدوا وينقصوا في الحديث وفي وضع أحاديث لخدمة أغراضهم.

يردد هذا جولد زيهر ودوزي وسبرنجر

وقد شك جولد زيهر في صحة وجود صحف كثيرة في عهد الرسول، راميا من وراء ذلك الى اضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور، وهو يرمي ايضا الى وصم السنة (أو أغلبها) بالاختلاق والوضع على ألسنة المدوِّنين، وهو يزعم أن هؤلاء المدوِّنين لم يجمعوا من الأحاديث الا ما يوافق هواهم، ويرى سبرنجر في كتابه (الحديث عند العرب) ان الشروع في التدوين وقع في القرن الهجري الثاني وان السنة انتقلت بطريق المشافهة. أما دوزي فهو ينكر نسبة هامة (التركة المجهولة) كما يسميها من الأحاديث الى الرسول. وقد رد كثير من الباحثين المسلمين داحضين هذه الأهواء الموغلة في الحقد والخصومة، رد عليهم مصطفى السباعي، وأبو الحسن الندوي، وصبحي الصالح وعشرات:

أولا - ما أورده الدكتور مصطفى السباعي حين قال:
حرص الصحابة على حفظ حديث رسول الله ونقله، وحرص رجال التابعين وتابعي التابعين من

بعدهم على نقل هذا الحديث وجمعه وتنقيته من شوائب التحريف والتزيد،وما قام به علماء السنة من جهود جبارة في تتبع الكذابين والوضاعين وفضح نواياهم ودخائلهم وبيان ما زادوه في السنة من أحاديث مكذوبة، حتى جمعت السنة في كتب صحيحة،وأشبعها النقاد بحثا وتمحيصا ثم خرجوا من ذلك الى الاعتراف بصحتها والتسليم بها، اذا امعنت النظر في ذلك كله ايقنت أن هؤلاء المستشرقين يتخبطون في أودية الأوهام وانهم متأثرون بأوهامهم وعبثهم بكثير من الحقائق وخضوعا الى الهوى والبغض.

ثانيا - ما أشار اليه السيد أبو الحسن الندوي من أن الصحابة بدأوا في تدوين الحديث في عهد النبي ﷺ ،وكانت هناك مجموعات من الأحاديث لعدد من الصحابة منها الصحيفة الصادقة لعبد الله ابن عمرو بن العاص، وكان لعلي بن أبي طالب صحيفة ،وكان لأنس ولعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وجابر بن عبد الله لكل منهم صحيفة، وهناك صحيفة همّام بن مُنَبِّه، فاذا جمعت هذه الصحف والمجاميع كونت العدد الأكبر من

الأحاديث التي جمعت في الجوامع والمسانيد والسنن في القرن الثالث، وقد تحقق أن المجموع الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه ونسخه من غير نظام وترتيب في عصر الرسول وفي عصر الصحابة، وقد شاع في الناس حتى المثقفين والمؤلفين أن الحديث لم يكتب ولم يسجل الا في القرن الثالث الهجري... وأحسنهم حالا من يرى أنه كتب في القرن الثاني وما نشاهد هذا الغلط الا عن طريقين: -

الأول: ان عامة المؤرخين يضطرون إلى ذكر مدوِّني الحديث في القرن الثاني ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التي كتبت في القرن الأول لأن عامتها فقدت أو ضاعت مع أنها اندمجت وذابت في المؤلفات المتأخرة.

الثاني: ان المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذي لا يتصور أن يكون في هذه المجاميع الصغيرة التي كتبت في القرن الأول؛ مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتحررة من المتابعات لا يزال قليلا، فحديث ﴿انما الأعمال بالنيات﴾ مثلا يروى من سبعمائة طريق، فلو جردنا مجاميع الأحاديث من هذه المتابعات والشواهد لبقي

عدد قليل من الأحاديث، فالجامع الصحيح للبخاري لا تزيد الأحاديث التي رويت بالسند الصحيح فيه عن ألفين وستمائة وحديثين. وأحاديث مسلم يبلغ عددها أربعة الآف حديث. ومعظم هذه الثروة الحديثية قد كتب ودون بأقلام رواة العصر الأول، وقد يزيد ما حفظ في الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا في العصر النبوي وفي عصر الصحابة على عشرة آلاف حديث اذا جمعت صحف ومجاميع أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله وعلي وابن عباس.

وبذلك يمكن أن يقال: ان ما ثبت من الأحاديث الصحاح وما احتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودوّن في عصر الصحابة قبل أن يدون (الموطأ) و(الصحاح) بكثير.

وكانت الخطوة التالية أن قام المحدثون فنقَّبوا في البلاد في البحث عن الروايات، المختلفة والأسانيد الصحيحة وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يعرف عن أمة من الأمم في التاريخ؛ يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين من التجول في البلاد والسفر في العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه، ولم يقتصروا على جمع الحديث وتدوينه بل

تعدت عنايتهم الى الوسائط التي وقعت في رواية الحديث وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث، فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم وأسماء آبائهم وحوادث حياتهم وأخلاقهم ومكانتهم في الامانة والصدق والحفظ، وهكذا ظهر علم اسماء الرجال إلى الوجود وكان من مفاخر هذه الأمة التي لا يشاركها فيها امة من الأمم كما قال الدكتور اسبرنجر في مقدمته على كتاب الاصابة. وكان هؤلاء المحدثون أقوياء وعلى جانب عظيم من الصبر والجلد واحتمال المشاق وقوة الذاكرة، وكانت عندهم نهامة للعلم وحرص زائد على اقتباسه والتقاطه من موضعه.

وهكذا نجد ان الشبهة التي اعتمدوا عليها في مهاجمة السنة كانت فاسدة ومضللة ولم يكن لها أي أساس علمي أو تاريخي.

ولعل من الخرافات التي جرى وراءها المستشرقون وأتباعهم فرحين بأنهم التقطوا شيئا ما، هو ما اطلقوا عليه (معراج ابن عباس) والكتاب مكذوب. لا يتداوله الا عامة الناس، وليس له سند يربطه به، ولا رواية ترقى إليه، وقد احتفل به المستشرقون ثم تبين لهم زيفه.

ولقد عرف عن هؤلاء المستشرقين طابع التحامل الواضح

وتزييف النصوص في محاولة دعم شبهاتهم، ومن أقوى الأمثلة على ذلك: ان جولد زيهر حرف عبارة الامام الزهري «ان هؤلاء الامراء اكرهونا على كتابة الأحاديث» الى لفظ (على كتابة أحاديث) فضلا عن اتهامه الامام الزهري بأنه واضع حديث فضل المسجد الأقصى ارضاء لعبد الملك بن مروان ضد ابن الزبير، مع أن الزهري لم يلق عبد الملك الا بعد سبع سنوات من مقتل الزبير.

أما القول الذي يتردد على ألسنة أصحاب الشبهات مثل قولهم:

«لنرجع الى القرآن الكريم ولكن يجب الا نجعل من أنفسنا متعبدين للسنة» فان هذا القول، كما يقول - العلامة محمد أسد (ليوبولد ڤايس) يكشف بكل بساطة عن جهل بالاسلام، ان الذين يقولون هذا القول يشبهون رجلا يريد أن يدخل قصراً ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلي الذي يستطيع به وحده أن يفتح الباب!! ويتساءل: هل هناك مبرر علمي لرفض الحديث على أنه مصدر يستند اليه الشرع الاسلامي؟ ثم يجيب: انه على الرغم من جميع الجهود التي بذلت في سبيل تحدي الحديث على أنه نظام ما، فان أولئك النقاد العصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا أن يدعموا انتقادهم العاطفي الخالص بنتائج من البحث

العلمي، لأن الجامعين لكتب الحديث الأول - خصوصاً الامامين البخاري ومسلما- قد قاموا بكل ما في طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضا أشد كثيرا من الذي يلجأ اليه المؤرخون الأوربيون عادة عند النظر في مصادر التاريخ القديم. ويكفي أن نقول أنه نشأ من ذلك «علم تام الفروع» غايته الوحيدة البحث في معاني أحاديث الرسول وشكلها وطريقة روايتها. وان رفض الأحاديث الصحيحة جملة واحدة أو أقساما ليس حتى اليوم الا قضية ذوق، وان السبب الذي يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثيرين من المسلمين المعاصرين يمكن تتبعه الى مصدره، ان السبب يرجع الى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الاسلام الصحيح. ولكي يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم، فانهم يحاولون ان يزيلوا ضرورة اتباع السنة، لأنهم اذا فعلوا ذلك كان بامكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون على أوجه من التفكير السطحي أي حسب ميول كل واحد منهم وطريقة تفكيره هو، ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للاسلام على أنه نظام خلقي وعملي ونظام شخصي واجتماعي تنتهي بهذه الطريقة الى التهافت والاندثار، وان الذين خلبتهم المدنية

الغربية لا يجدون مخرجا من مأزقهم الا برفض السنة على أنها غير واجبة الاتباع بين المسلمين، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها، وبذلك يصح تحريف تعاليم القرآن الكريم لكي تظهر موافقته لروح المدنية الغربية أكثر سهولة ».

وهذا هو الخطر الكامن وراء مهاجمة السنة واثارة الشبهة حول الحديث النبوي.

لا مشاحة ان السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني للاسلام بعد القرآن باعتباره عقيدة وباعتباره تشريعا وباعتباره أخلاقا، وقد أشار النبي ﷺ الى هذا المعنى في قوله الشريف: ﴿ألا اني أوتيت القرآن ومثله معه﴾، (ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وان ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله).

وقد كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله بالسنَّة كما ينزل عليه القرآن ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن. قال الامام الشافعي: « وسنن رسول الله مع كتابه وجهان: احدهما نص كتاب - ما تبعه رسول الله كما أنزل القرآن، والآخر جملة ما بيّن رسول الله فيها عن الله معنى ما أراده بالجملة، وأوضح كيف فرضها عاما أو خاصا، وكيف أراد أن يأتي به

العباد وكلاهما اتبع فيه كتاب الله ».

ولقد كان الرسول ﷺ يبين للناس القرآن عقيدة وشريعة وأخلاقا على وجوه شتى وعلى أنحاء مختلفة وعلى أساليب متعددة، يبين لهم ذلك بسلوكه وبقوله وباقراراته يقول: (ما تركت شيئا مما أمركم الله به الا وقد أمرتكم به ولا تركت شيئا مما نهاكم الله عنه الا وقد نهيتكم عنه).

وقد علّم النبي الناس بثلاث طرق: تعليماته الشفوية التي هي أقواله، وسلوكه الشخصي الذي هو أعماله، وسكوته الذي يعني موافقته الحكيمة على أفعال غيره من الناس، يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: « ان الاحاديث النبوية مرتبطة في الاسلام بالقرآن كما ترتبط قوانين الدولة بدستورها، فالقرآن يأمرنا بالرجوع مباشرة للحديث النبوي لأخذ التعليمات المفصلة منه فيما يتعلق بأكبر فرضين أساسيين: الصلاة والزكاة (الصلاة واجبنا تجاه الله والزكاة تجاه مجتمعنا) والقرآن يقر السنة ويمنحها حق ايضاح فرائض القرآن العامة والتعريف بها، ولولا السنة لظلت النصوص القرآنية غير مفهومة ولبقيت مجملة. »

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود: « كان بيان رسول الله يشتمل على بيان ما اجمل في كتاب الله، اجمل القرآن الصلاة

والزكاة والحج وفصَّلها رسول الله. بين ما فرض من الصلوات ومواقيتها وسننها وعدد ركعاتها، والزكاة ومواقيتها وكيف عمل الحج والعمرة، كان يبين كيفية الصلاة بقوله وعمله: صلوا كما رأيتموني أصلي، وفي الحج: خذوا عني مناسككم، وفرض الله سبحانه الزكاة ولم يبين مقاديرها ولم يذكر بالتفصيل الزروع والثمار والأموال التي تجب فيها، وقد بينت السنة ان القاتل لا يرث وان الوصية لا تكون في أكثر من الثلث وان الدَّين يُقدَّم على الوصية.

ومما يروى ان عمران بن حصين قال لرجل يريد أن يقتصر على القرآن دون السنة: «انك امرؤ أحمق، أتجد في كتاب الله الظهر أربعا لا تجهر فيها بالقراءة»، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا.

وقد أشار القرآن الى مكانة السنة والى مهمة رسول الله ﷺ في تفصيل ما أجمل القرآن وذلك في آيات بينات:

★ وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

★ وماأتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا.

★ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول.

★ من يطع الرسول فقد أطاع الله.

★ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو

الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا.

★ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم.

ويقول الدكتور عبد الجليل شلبي: إن الآية الكريمة: ﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم﴾. تدل على أن من وظيفة رسول الله ﷺ أن يوضح للناس الأحكام التي نزلت اليهم في القرآن الكريم، وكان لا بد أن يفعل رسول الله وإلا لم يكن مبلِّغاً من عند الله وقد كان هذا البيان بالقول والعمل معاً. فالسنة اذن مرجع الشريعة الكامل وبيانها الموضح كما أن السنة جزء مكمل للقرآن وهي من عند الله تبارك وتعالى كما أن القرآن من عنده.

وقد أشار الأئمة الأعلام الى أنه لا يرى قول لإمام من أئمة المذاهب في القرنين الثاني والثالث الا وقد سبقه اليه صحابي أو تابعي، وان مكانة السنة النبوية والحديث من الشريعة الاسلامية لا تخفى، وأثرها في الفقه الاسلامي منذ عصر النبي والصحابة حتى عصور الاجتهاد.. واستقرار المذاهب، وان من يطلع على القرآن والسنة يجد أن للسنة

الأثر الأكبر في اتساع دائرة التشريع الاسلامي وعظمته وخلوده، هذا التشريع العظيم الذي بهر أنظار علماء القانون في جميع أنحاء العالم هو ما حمل ويحمل أعداء الاسلام في الماضي والحاضر على مهاجمة السنة والتشكيك في صحتها ورواتها من أعلام الصحابة.

هذا وبالله التوفيق،،،

«أنور الجندي»

ردود على الشبهات الواردة في :

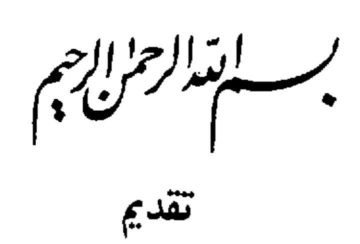
تعدّد الزّوجات
الحروب والغزوات
الحدود في الإسلام
معاملة الرّسول لبني قريظة

لفضيلة الدكتور جمعة علي الخولي «مصر»



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيل الهدى معهم الى يوم الدين... وبعد،

فان الاسلام - رسالة الله الخالدة - يمثل المنهج الرباني الكامل للحياة البشرية بكل مقوماتها وفي جميع جوانبها واتجاهاتها، في عالم الروح أو في عالم المادة، في ضمير الفرد أو في محيط الأمة، وفيما يختص بالمشاعر الفردية، أو بنظام الحكم والدولة، وفيما يتعلق بعلاقة الانسان بربه أو علاقته بغيره من بني جنسه.

وميزة هذا المنهج أنه قائم على أساس معرفة شاملة بقضايا الوجود، وعلم كامل بالكائن الإنساني وطبيعته، وهذا أمر لا يتوفر لمناهج البشر الذين لا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا.. وقد ساء انتشار هذا المنهج وامتداد نوره في الآفاق أعداء الاسلام، فراحوا يسخّرون لمحاربته الأقلام

ويستعينون بالمبشرين والمستشرقين لاثارة الشبه حوله، وتصيد التهم من هنا وهناك كي يشوهوا تاريخ هذا الدين ومعالمه ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

وهذه الشكوك التي تثار ضد الإسلام من قبل أعدائه والحاقدين عليه ليست أقل خطرا من الغزو المسلح لأنها تقتحم على المسلم عقله وقلبه، واذا لم تكن الفكرة الاسلامية واضحة في عقول ونفوس أبنائها اماعت أمام ذلك الغزو الفكري وطاشت، وتكون النتيجـة تشويش فكر المسلم وعاطفته نحو دينه، وهو تشويش بلغ - للأسف - حد الحيرة والشك عند بعض شباب الاسلام.

لذا فقد ضمَّنت هذا المبحث ردودا على شبه أثيرت حول بعض القضايا في الاسلام ، لعل في ذلك مساهمة متواضعة مني في صد جزء من ذلك التيار الحاقد على الاسلام.

والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، انه أفضل مأمول.

(جمعة الخولي)

١ - تعدد الزوجات

الزواج سنة الاسلام، شرعه الله ليعف الانسان نفسه، ويحافظ على بقاء نسله، وليكون طريقا للتواصل والبر والرحمة، وسكنا يثوب اليه الزوجان، فيلقيان عنده أعباء الحياة الخارجية الى حين.

والاسلام يرفع من مكانة الزواج وأهميته، ويسمو بحكمته حتى يجعله من أقوى أسباب التواد بين الغرباء، والتقارب بين البعداء، وتوثيق أواصر القربى بين الأسر بعضها وبعض؛ قال سبحانه: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾(١).

ولقد ذهب كثير من فقهاء المسلمين الى أن الزواج واجب يأثم من تثاقل عنه ما دام قادرا، قال رسول الله ﷺ « النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، وتزوجوا

---

(١) سورة الروم - ٢١.

فاني مكاثر بكم الامم »[1].... كما قال عليه الصلاة والسلام « من كان منكم ذا طول فليتزوج ، فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لا فالصوم له وجاء »[2].. وقد أحاط الاسلام الزواج بما يحفظ عليه استمراره واستقراره، ويبقي على آثاره الطيبة، وغاياته النبيلة.

فكان أن شرع ضمن ما شرع، رخصة تعدد الزوجات الى أربع اذا اقتضته ضرورة ملحة، وألجأت اليه ظروف قاهرة، واشترط على الأزواج العدل والتسوية بينهن في السكن والرزق، وأن تكون لديهم القدرة على تكاليف الحياة الزوجية... قال سبحانه: ﴿.. فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾[3].

وقال ﷺ: « من كانت له امرأتان فمال الى احداهما جاء يوم القيامة احد شقيه مائلا »[4].. وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « ان المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين

---

(١) ابن ماجه: كتاب النكاح جـ ٥٩٢/١ ط ١٣٩٥، ١٩٧٥.
(٢) النسائي جـ ٥٧/٦ كتاب النكاح ط دار الفكر ببيروت ١٣٩٨/١٩٧٨.
(٣) سورة النساء - ٣.
(٤) النسائي جـ ٦٣/٧ كتاب عشرة النساء، وكذا رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة.

الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »[1].

الا أن أعداء الاسلام ومثيري الشغب ضده، اتخذوا من ذلك التشريع الحكيم ذريعة للطعن في نظام الاسلام والحط من قيمة المرأة، ليشككوا في صلاحية هذا الدين ومقومات خلوده وبقائه على امتداد العصور... وقبل الحديث عن التعدد وحكمته وواقعيته في الاسلام، أحب أن أسال أولا : هل الاسلام هو الذي أنشأ التعدد وابتدعه وأطلقه حتى يؤاخذ به، أم هو الذي قيده وضبطه حتى يحمد له..؟

ان الذين كتبوا عن تاريخ الزواج على اختلاف النظم الانسانية بينوا أن التعدد كان معروفا في جميع البيئات قبل الاسلام، يهودية ومسيحية، وعربية وغير عربية.. أباحته اليهودية دون حد، وكان ذلك شائعا في ملوكها وأنبيائها، ولا توجد في أسفار العهد القديم نصوص تحرم التعدد أو تمنعه عن الآباء والأنبياء ولمن دونهم من الخاصة والعامة[2].

كما كان التعدد فاشيا في العالم المسيحي بين العامة ورجال الدين، اذ أن - أسفار العهد القديم - وهي - مقدسة لدى النصارى، تبيحه ولا تمنعه.. ثم إنه لم يرد في

---

(١) مسلم - كتاب الامارة.

(٢) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للأستاذ عباس العقاد ط الهلال/١٧٧.

النصوص الأولى للمسيحية التي تحكيها أناجيلهم المتداولة نص صريح يمنع تعدد الزوجات ،بل إنه يوجد في رسالة بولس إلى « تيموثاوس » ما يفيد أن التعدد جائز فقد جاء فيها: « يلزم أن يكون الأسقف بعل امرأة واحدة »[1] .. وفي ذلك ما يدل على أن الزيادة على الواحدة لغير الأسقف جائزة، وأن منع تعدد الزوجات قاصر على رجال الدين، ومن يعدد منهم ينخرط في سلك العامة، ويمنع من الانخراط في سلك الكهنوت.

كما ثبت تاريخيا أن بين المسيحيين الأقدمين من كان يتزوج أكثر من واحدة، وفي آباء الكنيسة الأقدمين من كان له كثير من الزوجات، يذكر الأستاذ عباس العقاد... أن « وسترمارك » العالم الثقة في تاريخ الزواج قال: « ان تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي الى القرن السابع عشر ،وكان يتكرر كثيرا في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة »[2].

ويقول الشيخ رشيد رضا: وقد فشا التعدد في الرومان فعلا لا قانوناً حتى حظره « جوسنتيان » في قوانينه، ولكنه ظل فاشيا بالفعل، وأباحه بعض البابوات لبعض الملوك بعد

---

(١) رسالة بولس الأولى الى تيموثاوس/الأصحاح الثالث - ٢.

(٢) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه/١٧٨ ط الهلال.

الاسلام كـ « شارلمان » ملك فرنسا الذي كان معاصراً للخليفتين المهدى والرشيد من العباسيين[1]. ويقول المستشرق الفرنسي « اتيان دينيه » الذي أسلم وسمى نفسه « ناصر الدين »: هؤلاء ملوك فرنسا - دع عنك الأفراد الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات وفي الوقت نفسه كان لهم من الكنيسة كل تعظيم واكرام[2].

وهكذا لو ترك اتباع الكنيسة الأمر على عهوده الأولى لكان التعدد جائزا عندهم، لكن الكنيسة خضوعا لمؤثرات أجنبية بعيدة عن تعاليم المسيحية ذاتها هي التي ابتدعت القول بمنع تعدد الزوجات، وأخذ رؤساؤهم الدينيون يؤولون في آيات الزواج كما أولوا في غيرها حتى أصبح التزوج بأكثر من واحدة حرام عندهم كما هو معروف.. وحتى قبل المسيحية واليهودية كان التعدد مباحا مأثورا عن الأنبياء أنفسهم: فابراهيم عليه السلام تزوج سارة وهاجر، ويعقوب تزوج ليئة وراحيل، وفي العهد القديم ما يدل على ان موسى كانت له زوجة أخرى مع ابنة الرجل الصالح[3].

---

(١) حقوق النساء في الاسلام أو نداء الى الجنس اللطيف ط المكتب الاسلامي ١٣٩٥، ١٩٧٥. ص/٦١.

(٢) كتاب محمد رسول الله تأليف « اتيين دينيه » وسليمان ابراهيم ص ٣٩٤ هامشي ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، ط ثانية سنة ١٩٥٨، مصر.

(٣) احكام الأسرة في الاسلام د. محمد سلام مدكور جـ ط ثانية ١٣٨٩/١٩٦٩.

وأن كثيرا من أنبياء بني اسرائيل كانوا يعددون ،ومعروف أن داود وسليمان عليهما السلام كان لهما زوجات كثيرة، ولقد جاء في سفر الملوك الأول ان سليمان عليه السلام كان له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من الجواري[١].

فالاسلام لم يبتدع التعدد، وانما جاء فوجده منتشرا في جميع الطبقات يمارسه اليهود والعرب وغيرهم على أوسع نطاق، دون التقيد بأي اعتبار، قال الطبري: «كان الرجل في الجاهلية يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل»[٢].

فكان لا بد أن يتدخل الاسلام لعلاج هذه الظاهرة التي وصلت الى حد الفوضى في كثير من الأحيان،وأصبح لا دافع من ورائها الا التلذذ الحيواني، والتنقل بين الزوجات كما يتنقل الخليل بين الخليلات.. فكيف كان علاج الاسلام لها؟ ذلك ما نرسمه في الفقرات التالية: -

أولا : بعد أن كان الزواج مطلقا دون حد، متروكا للهوى دون قيد، من شاء فليستكثر ومن شاء فليقلل، قيد الاسلام ذلك بأربع نساء فقط ﴿وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث

---

(١) الاصحاح الحادي عشر - ١.

(٢) تفسير الطبري ج ٢٣٢/٤ ط ثانية سنة ١٩٧٣ - ١٩٥٤.

ورباع﴾[١]... وعلى اثر نزول هذه الآية قام عليه الصلاة والسلام يأمر من كان معه أكثر من أربع أن يمسك منهن أربعا، ويسرح الباقي... روى ابن ماجه ان غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبي ﷺ: اختر منهن أربعاً[٢] وروى أيضاً أن قيس بن الحارث قال: أسلمت وعندي ثماني نسوة فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: اختر منهن أربعاً[٣]. وعن نوفل بن معاوية الرملي قال أيضاً: «أسلمت وعندي خمس نسوة، فقال له رسول الله ﷺ: فارق واحدة وامسك أربعاً، فعمدت إلى أقدمهن عندي عاقر منذ ستين سنة ففارقتها[٤]».

وهكذا ضبط الإسلام نظام التعدد وحدده بما لا يزيد عن أربعة بعد أن كان مطلقاً بدون حد، منطلقاً دون ضابط.

ثانيا: اذا كان الاسلام حدد الزواج بما لا يزيد عن أربعة الا انه جعل لذلك شرطا هو إمكان القدرة على النفقة والقيام بأعباء الزوجية كاملة، وقيدا، هو ضرورة العدل بينهن في المعيشة والمعاشرة، والا ﴿فواحدة أو ما

---

(١) سورة النساء - ٣.
(٢) ابن ماجه، باب النكاح ج ٦٢٨/١، ومسند الشافعي ج ١٦/٢ كتاب النكاح.
(٣) ابن ماجه، باب النكاح ج ٦٢٨/١.
(٤) أخرجه الشافعي ج ١٦/٢ كتاب النكاح ط سنة ١٣٦٩ - ١٩٥٠.

ملكت أيمانكم﴾[1]

وبذلك الشرط والقيد تصان الحياة الزوجية من الفوضى والاختلال، ومن الجور والظلم، وتحفظ كرامة المرأة حتى لا تتعرض للمهانة بدون ضرورة ملجئة واحتياط كامل.. والعدل المشروط هنا هو العدل المادي في المعاشرة والمعاملة، وفي النفقة والمباشرة، وفي كل ما يمكن تحقيق العدل فيه ويدخل تحت طاقة الانسان وارادته بحيث لا تبخس زوجة حقها، ولا تؤثر واحدة دون الأخرى بشيء.. أما فيما يتعلق بمشاعر القلوب وأحاسيس النفوس فذلك خارج عن ارادة الانسان واستطاعته، ولا يطالب بالعدل فيه أحد، وإلى هذا المعنى جاءت الاشارة في قول الله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾[2]

.. ومع أن نبي الاسلام ﷺ كان يعدل بين نسائه كأرفع ما يكون وأنبل ما يكون الا انه مع ذلك كان يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[3]، ذلك أن القلوب بيد الله، يقلبها كيف يشاء، ولا سلطان لبشر عليها.

---

(١) سورة النساء - ٣.

(٢) سورة النساء - ١٢٩.

(٣) النسائي ج ٧/٦٤ كتاب عشرة النساء.

ثالثا: التعدد علاج يقدمه الاسلام لما قد يطرأ على حياة الأسرة من علل وأدواء.. وهذا العلاج محكوم عليه بحكم الحاجة، وبحسب الحالة الطارئة الواقعة، فمن خرج به عن هذه الملابسات فقد ظلم نفسه، وجاوز حدود الله .. والاسلام في تشريعه هذا قائم على أساس أنه دين البشرية العام بمختلف أجناسها وبيئاتها، وقد ضمنه الله عز وجل من الشرائع والأحكام ما يجعله صالحا وافيا بحاجات البشرية الى قيام الساعة، وقد رخص في موضوع العدد لمواجهة حالات واقعة في الحياة البشرية لا يمكن أن يقف حيالها مكتوف الأيدي، وإلا كان قاصرا عن مواجهة ظروف الحياة... وحاشا لشرع الله الكامل أن يكون كذلك... ومن الحالات التي راعاها الإسلام، ورخص في التعدد ازاءها ما يلي: -

١ - اذا عقمت المرأة، أو ثبت أنها عاقر لا تلد، ووجدت لدى الزوج الرغبة الفطرية في النسل والانجاب، أو اذا مرضت الزوجة مرضا مزمنا يطول برؤه أو يستعصي على العلاج، وقد لا يتمكن الزوج معه أن يعاشرها معاشرة الأزواج، وقد لا تستطيع هي الأخرى بازائه أن تقوم بواجباتها كزوجة.. ان المرأة في هاتين الحالتين تكون أمام أحد أمرين: إما أن يطلقها الزوج ويتزوج بأخرى تستطيع القيام بحقوق الزوجية وتحملها، وقد لا يكون هذا من الوفاء

مع زوجة أعطته خدمتها واخلاصها ، واما أن يبقي عليها مع زواجه بأخرى ، وهذا حل قد ترتاح له المرأة العاقلة وتفضله على الطلاق ، لأنه بالنسبة لحالة المرض تكون المرأة بحاجة الى من يقف بجوارها ويتولى شئون علاجها ، وفي حالة العقم نجد أن المرأة في كثير من الأحيان هي التي تقوم بعرض الزواج على الرجل وترغبه فيه ، وقد تقوم هي بالخطبة له ، وتعيش مع غيرها كعيشة الأختين ، وقد كان ذلك أمرا عاديا في صدر الاسلام عندما كان النسوة متدينات مسلمات يعرفن حق الله والزوج ، فلما ساد الجهل بالاسلام ، وفسدت التربية الصحيحة به أصبح الزواج بثانية مثار بغض بين العشائر وخلاف بين الأزواج .

٢ - يوجد لدى بعض الرجال شبق[١] ، لا يستطيعون معه التحكم في غرائزهم ، ولا تكفي المرأة الواحدة لاحصانهم اما لعزوف المرأة عن ذلك الشيء لضعفها العام ، أو لكبر سنها ، أو أنها ذات طبع لا ينشط لتلبية رغبات الزوج كثيرا ؛ فهل يكبت الرجل شهوته - والحالة هذه - أو يطلق لنفسه العنان فيخادن من يشاء من النساء ؟ ان هذا وذاك مما لا يقبله شرع ولا دين ، فلم يبق الا أن يرخص له في الزواج بأخرى مع الابقاء على الأولى وبخاصة وأنه قد توجد لديها

(١) الشبق ، شدة الشهوة ، كما في لسان العرب .

الرغبة الأكيدة في استدامة العشرة وعدم الانفصال بعضهما عن بعض.

٣ - هناك حالات يزيد فيها عدد النساء على عدد الرجال، ويظهر ذلك واضحا في أعقاب الحروب التي تأتي على كثير من الشباب، فماذا يكون الوضع والحالة هذه..؟اننا اذا منعنا التعدد، وقلنا لا بد من الاقتصار على نظام الزوجة الواحدة كنا أمام احتمالات ثلاث أمام ذلك العدد الزائد من النساء:

أ -إما أن تظل البنت حبيسة في بيت أبيها بدون زواج، وتقضي حياتها هكذا، لا تعرف الرجال، ولا يعرفها الرجال، وهذا حل لا ترضاه المرأة لنفسها لأنه يناقض فطرتها وطبيعة تكوينها مهما كابر المكابرون وادَّعوا أنه من الممكن أن تستغني المرأة عن الرجل بالكسب والعمل،فتلك مثالية صعبة التطبيق والتحقيق وجهل بنفسية المرأة وطبيعة تكوينها الجسدي والغريزي وحاجتها الى السكن والانس بالعشير.

ب- وإماأن تتخذ المرأة الرجل خدناً أو خليلا في الحرام، وتتصل به اتصالا غير شريف في الظلام.. وهذا الحل لا ترضاه امرأة شريفة لنفسها، فهو ضد كرامتها ومكانتها الانسانية.

ج - فلم يبق الا الحل الثالث وهو الزواج من رجل متزوج من قبل، يصونها ويحميها من التبذل والضياع..

وهذا الحل هو الذي يقول به الاسلام كرخصة لعلاج حالة واقعية، مقيداً ذلك بالعدل والقدرة على الانفاق والاحصان، وهو حل ترضاه المرأة نفسها عن طيب خاطر ازاء تلك الظروف الطارئة، وتشجعه، وقد تطالب به، كما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية عندما طالبت نساء ألمانيا أنفسهن بتعدد الزوجات لذهاب كثير من رجالها وشبابها وقودا للحروب، ورغبة في حماية المرأة من احتراف البغاء وما يتأدى عنه من أولاد غير شرعيين، ففي عام ١٩٤٨ أوصى مؤتمر الشباب العالمي في ميونيخ بألمانيا باباحة تعدد الزوجات حلا لمشكلة تكاثر النساء وقلة الرجال بعد الحرب العالمية الثانية(١)، وتقول احدى الألمانيات: «ان حل مشكلة المرأة الألمانية هو في اباحة تعدد الزوجات(٢).. فالتعدد على ما به - رحمة بالمرأة، فحياة برجل، أفضل للمرأة من حياة بلا رجل وهي تعلم ذلك جيدا».

ومن يعرف نفسية المرأة يجد أنها - حتى في غير أوقات

---

(١) محاضرات في الثقافة الاسلامية، أحمد محمد جمال/ ١٦٠ ط الثالثة دار الشعب/القاهرة.

(٢) المرجع السابق.

الحروب وزيادة عدد النساء- قد تختار التزوج برجل معه امرأة أخرى عن رضىً واختيار، تقول أستاذة ألمانية: «اني أفضل أن أكون زوجة مع عشر نساء لرجل ناجح على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل فاشل تافه، ان هذا ليس رأيي وحدي، بل هو رأي كل نساء ألمانيا»[١] ... وأخيراً فنحن لا ننكر أن الزواج الثاني شديد على نفسية الأولى، وبغيض إليها، ولكن ماذا نفعل أمام ضرورات هذه أمثلة لها، لا بد أن تتجرع الزوجة الكأس مع ما فيها من مرارة فذلك أخف الضررين.

رابعا - المتمعن في موضوع التعدد في الاسلام يجد أن الفقهاء وكلوا الرضى به والرفض الى المرأة، فمن الممكن أن تقبله ومن الممكن ألا تقبله دون اكراه... كيف؟

المرأة يؤخذ رأيها أولا في موضوع الزواج كما قال ﷺ: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا يا رسول الله وكيف اذنها، قال: ان تسكت[٢]» وفي رواية: «الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر يستأذنها أبوها في نفسها واذنها صماتها»[٣].

---

(١) المرجع السابق نقلا عن الأخبار المصرية.

(٢) البخاري: كتاب النكاح جـ ٢٣/٧ ط الحلبي سنة ١٣٤٥.

(٣) مسلم، كتاب النكاح جـ ٢ - ١٠٣٧ ط الحلبي.

ولما شكت فتاة الى النبي ﷺ موضوع اقدام والدها على تزويجها من ابن عمها على غير رغبة منها وَكَل عليه الصلاة والسلام ذلك الأمر اليها ان شاءت قبلته، وان شاءت رفضته دون ارغام، روى النسائي عن السيدة عائشة رضي الله عنها ان فتاة دخلت عليها فقالت: ان ابي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته فأرسل الى أبيها فدعاه فجعل الأمر اليها فقالت: يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبي ولكني أردت أن أعلم أللنساء من الأمر شيء؟[1].

وعن خنساء بنت خذام الانصارية ان أباها زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحه[2].

فالرأي في موضوع الزواج - تعدادا أو ابتداء - موكول الى المرأة، تقبل منه ما ترى فيه السكن والمودة، وتنتظر من ورائه الخير والأمان، أو ترى فيه ضرورة أخف من غيرها، وترفض منه ما تتوقع من ورائه القلق والمتاعب.

قد يقال: وما شأن الزوجة الأولى؟: قلنا اذا تضررت لها

---

(١) النسائي ج ٨٦/٦ كتاب النكاح، وابن ماجه كتاب النكاح ج ٦٠٢/١ واللفظ للنسائي.

(٢) البخاري كتاب النكاح ج ٢٣/٧ ط الحلبي.

أن تطلب الطلاق ويثبت لها خيار الفسخ.. وللزوجة ان تشترط على زوجها حين العقد بألا يتزوج عليها، فحينئذ لا يسوغ له الزواج من غيرها، فان لم يوف لها فسخ النكاح، يروى هذا عن عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وبه قال شريح وعمر بن عبد العزيز وطاووس والأوزاعي(١).

وبعد: فان الشريعة الاسلامية في اباحتها للتعدد انما اعتبرته نوافذ ضيقة لحالات استثنائية اضطرارية، وأدواء محدودة لحالات قائمة، وقد سلكت فيه مسلكا سائغا ومقبولا لا غلو فيه، ولا افراط، ولعل فيما هو منتشر الآن في البلاد التي لا تسمح نظمها بالتعدد وتحتم على اتباعها الاقتصار على واحدة مهما كانت الظروف والأسباب، أقول: لعل فيما هو منتشر الآن في تلك البلاد من الفوض الجنسية واستباحة الأعراض والتفسخ الأخلاقي والتخالل السري والعلني، والتحايل على النظم ونقضها بشتى الحيل، ان في بعض ذلك ما يكفي كدليل قاطع على سمو التشريع الاسلامي وحكمته

---

(١) المغني لابن قدامه ٥٤٨/٦ ط مكتبة الجمهورية العربية/القاهرة، وكشف القناع عن متن الاقناع للبهوتي ج ٩٨/٦ ط مكة سنة ١٣٩٤.

ولا يقال ان هذا الشرط يحرم الحلال، وانما يثبت للمرأة خيار الفسخ ان لم يف لها، لقول الرسول ﷺ «ان أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج» مسلم كتاب النكاح وما سبق رأي الحنابلة، وقال غيرهم يفسد المهر دون العقد ولها مهر المثل.

التي يلتقي فيها مع الانسان في فطرته وواقعه، ويتوافق مع شئونه وملابسات حياته لأنه ينظر اليها من جميع زواياها القريبة والبعيدة.

يقول «اتيان دينيه»: ان نظرية التوحيد في الزوجة، وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرا تنطوي تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر، جسيمة البلاء، تلك هي: الدعارة، والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين، وان هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الاخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الاسلامية تمام التطبيق، وانما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية[1] ».

ان الغرب اذا كان قد عالج موضوع التعدد، بالاغضاء عن الزنى وتيسير سبله للراغبين فيه والراغبات، وبالاعتراف بالخنا والعلاقات المحرمة، والاعتراف باللقطاء.. وأولاد الزنى الذين امتلأت بهم دور الحضانات وغيرها، اذا كان الغرب رضي لنفسه هذا، فان الاسلام لا يرضى لرجاله هذا السقوط والتحلل من قيود العفة والتسلل من حين لآخر الى بؤر الفسق وأماكن الشيطان.. وانما ينشد لهم مجتمعا نظيفا

---

(١) كتاب «محمد رسول الله» تأليف: «اتيين دينيه» وسليمان ابراهيم ص ٣٩٥ هامش. ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود، ومحمود عبد الحليم محمود ط ثانية سنة ١٩٥٨. نهضة مصر.

طاهرا، يحوطه العفاف والشرف، وتجمله المروءة والتقوى.

« يقول جوستاف لوبون »: ان مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطا، ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تراها في أوربة[1].. وهذه امرأة غربية تقول عن بني جنسها من النساء لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعم البلاء، وقل الباحثون عن أسباب ذلك، واذا كنت امرأة تراني أنظر الى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزنا، وماذا عسى يفيدهن بثي وحزني، وان شاركني فيه الناس أجمعون؟ لا فائدة الا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة، وهو الاباحة للرجل بأن يتزوج بأكثر من واحدة وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة وتصبح بناتنا ربات بيوت، فالبلاء كل البلاء في اجبار الرجل الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة « ان هذا التحديد بواحدة هو الذي جعل بناتنا شوارد وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال[2] » وتقول: أي ظن وخرص يحيط بعدد الرجال الذين لهم أولاد غير شرعيين أصبحوا كلا وعارا وعالة على المجتمع فلو كان تعدد الزوجات مباحا لما حاق باولئك الأولاد وأمهاتهم

(١) كتاب حضارة العرب - لجوستاف لوبون ص ٣٩٧ ط الرابعة ترجمة عادل زعيتر.

(٢) حقوق النساء في الاسلام للسيد رشيد رضا ص ٧٥ نقلا عن جريدة التدن تروت بقلم احدى الانجليزيات.

ما هم فيه من العذاب والهون، ولسلم عرضهن وعرض أولادهن ،ان اباحة تعدد الزوجات تجعل كل امرأة ربة بيت وأم أولاد شرعيين[١].))

ويقول الفيلسوف الألماني شوبنهور: انه من العبث الجدال في أمر تعدد الزوجات ما دام منتشراً بيننا لا ينقصه غير قانون ونظام[٢]... وهو يقصد تعدد الزوجات بصورة غير مشروعة.

وأريد أن اختم الحديث في هذا الموضوع بالفقرتين التاليتين: -

الأولى: ان الواقع والاحصائيات تدل على أن التعدد بين المسلمين يعتبر في حكم الشاذ، وأن الذين يعددون قلة في المجتمع الاسلامي، أما الذين يقتصرون على واحدة فهم الكثرة الساحقة في المجتمعات الاسلامية.. ذلك ان ارتفاع النفقات وتكاليف المعيشة، وما يترتب على التعدد من مشاكل أسرية وخلافات مستمرة، كل ذلك جعل الرجل يفكر أكثر من مرة في الاقدام على مثل هذا العمل.

فالتعدد ليس منتشرا بالصورة التي تزعج المرأة، أو تقلق المفكرين، ان نسبته لا تزيد في معظم بلاد المسلمين عن

(١) المرجع السابق.
(٢) الاسلام روح المدنية للشيخ مصطفى الغلاييني ص ٢٢٦ ط بيروت ١٣٨٠ - ١٩٦٠.

٢٪ فهل من أجل هذه النسبة الضئيلة يصرخ النسوة ويقول المتقولون على الاسلام، وهي ما جاءت الا لظروف مقرونة بقيودها.. مع أننا لم نسمع لهؤلاء صوتا بكلمة استنكار واحدة لما ينتشر في بلاد العرب والمسلمين من عادات الغرب في الفسق والفجور، واتخاذ الخليلات وسهولة بذل الأعراض فأي المسلكين أولى بحملات التنديد والاستنكار؟؟.

الثانية: يبغض الاسلام الذين يعددون لغير ضرورة ملحة، وبلا دافع الا التلذذ الحيواني؛لأنهم بذلك يخرجون به عن الأسباب الأصيلة التي شرع من أجلها ويبتعدون به عن قواعد الاسلام وروحه الحنيف، ويتخذونه وسيلة لقضاء ما تنزى به نفوسهم من شهوات.

لقد نهى النبي ﷺ الرجال أن يكون حتى مجرد التطلع الى الجمال هو الغرض من وراء زواجهم، فما بالك بمن يعدد للشهوة والجمال.. جاء رجل الى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وانها لا تلد أفأتزوجها، فقال عليه الصلاة والسلام: لا، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال:تزوجوا الولود الودود فاني مكاثر بكم الأمم[1].

---

(١) النسائي ج ٦٦/٦ ط دار الفكر ببيروت سنة ١٣٩٨.

وقال عليه الصلاة والسلام: «تزوجوا ولا تطلقوا فان الله لا يحب الذواقين والذواقات[1]» وقد أساء بعض الأفراد لتشريع تعدد الزوجات بسوء استخدامهم له، فراحوا يتخذون من هذه الرخصة - التي ما شرعت لذاتها، وانما كحل يواجه مشكلة، وضرورة تواجه ضرورة - راحوا يتخذون منها وسيلة لاشباع مآربهم الخاصة، واحالة الحياة الزوجية الى مسرح للذائذهم الحيوانية بدون سبب مشروع، فأساؤوا بذلك إلى الاسلام ذاته... وليس ذلك عيب في نظام الاسلام، أو في شرعية التعدد، وانما السبب في سوء استخدامها، ولذلك فانه ينبغي أن يُرد الناس الى الإسلام وتعاليمه في صورتها النقية الصافية، ويؤخذ على أيدي العابثين بأحكامه بشدة وحزم حتى لا يتلاعب بحدود الله وحتى لا يكون هناك منفذ لشكوى أو اساءة.

استطراد في تعدد أوزاج النبي ﷺ:

قلما يتعرض خصوم الاسلام لموضوع تعدد الزوجات فيه دون أن يتناولوا موضوع تعدد أزواج النبي ﷺ؛ ليتخذوا منه مادة انتقاد وغمز لنبي الاسلام، واظهاره لأتباعهم بصورة لا تناسب شرف النبوة ومقامها.

---

(١) الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت.

وقد ناقش كثير من علماء المسلمين هذا الموضوع، وردوا على هؤلاء بردود وجيهة منها: أن النبي ﷺ تزوج وهو في شرخ الشباب امرأة تكبره بخمس عشرة سنة، وقضى معها ما بقي من أيام شبابه، وظل مقتصرا عليها لم يتزوج غيرها الى أن ماتت رضي الله عنها عجوزا في سن الخامسة والستين، وكان عليه الصلاة والسلام وقتها قد جاوز الخمسين، فعلام يدل هذا؟

يقولون ان اختيار الزوجة يمكن أن يفسر نفسية الزوج العاطفية والجنسية والفكرية[1]، فزواج شاب شريف في عنفوان شبابه من زوجة ثيب تكبره بسنين كثيرة- وكان من الممكن أن يخطب ويتزوج بالأفتى والأجمل- مما يدل على أن الدافع الشهواني كان أبعد ما يكون عن نفسية ذلك النبي الجليل عند اختيار الأزواج.

أما بعد وفاتها فقد بدأ عليه الصلاة والسلام يجمع بين أكثر من امرأة لأغراض بعيدة كل البعد عما يزعم المفترون... ذلك أن التعدد بدأ في المرحلة المدنية، فترة الكفاح العملي لنشر الدعوة الاسلامية، ولم يكن لدى النبي عليه الصلاة والسلام الوقت الكافي للتفرغ لشئون البيت والنساء، والا فقل لي بربك: أين مكان اللهو والفراغ في حياة

(١) حتى لا نخطىء فهم القرآن، رسالة للشيخ محمود غريب ط أولى سنة ١٣٩٦ ص ٦٩.

رجل توزع ليله ونهاره بين الجهاد المستمر والحروب المتوالية التي ما تنتهي الا لتبدأ، وبين العبادة وقيام الليل الى أن تورمت منه الأقدام، وبين تلقي الوحي والسهر على مصالح الدولة الناشئة، وبين تربية الأمة وتلقي الوفود والفصل بين قضايا المسلمين، وغير ذلك من مسئوليات الرسالة وأوجالها التي لا تدع لصاحبها فرصة في راحة، أو منفذا لهدوء فأين مكان الشهوة وحظ الجسد من رجل هذه ظروفه ومهامه.

ثم ان حياة النبي ﷺ لم تكن حياة المنعم المترف الذي يزدان بيته بجميل الأثاث والرياش، وتحفل موائده بأطايب الطعام والشراب.. وغير ذلك مما يغري النساء بإقبالهن عليه، وميلهن اليه.

لقد كانت حياته ﷺ حياة الزاهد في الدنيا المتقلل منها قدر ما يمكن.. يقول عليه الصلاة والسلام: «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها[١]...» وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثاً تباعاً من خبز الْبُرِّ حتى فارق الدنيا[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع رسول

(١) الترمذي - باب الزهد.

(٢) المرجع السابق.

الله ﷺ من خبز الشعير يومين متتاليين حتى قبض[1].

وموضوع تجمهر نساء النبي ﷺ وطلبهن التوسعة عليهن في المعيشة معروف مشهور وبسببه نزل قول الله عز وجل ﴿ياأيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا. وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراء عظيما﴾[2] فكلهن اخترن الله ورسوله.. فأين داعي الهوى أو اشباع الشهوة في حياة هذا الزواج.

على أنه من المفيد هنا معرفة السنة التي نزلت فيها الآيات الخاصة بتحديد تعدد الزوجات.. آيات التعدد تقع في صدر سورة النساء، وسورة النساء مدنية نزلت بعد سورة الممتحنة، ومعروف أن صدر سورة الممتحنة نزل عندما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة وما كان من موضوع حاطب ابن أبي بلتعة، ونزلت الآيات تنهى عن موالاة الكفار، أي أن ذلك كان في حدود العام الثامن للهجرة.

وهذا يبين أن آيات التحديد نزلت بعد أن جمع الرسول ﷺ بين جميع نسائه اذ أن آخرهن زواجا به عليه

(١) المرجع السابق.
(٢) سورة الأحزاب ٢٨، ٢٩.

الصلاة والسلام كانت السيدة ميمونة بنت الحارث التي تزوجها سنة سبع من الهجرة[1].. فماذا يفعل الرسول عليه والسلام في العدد الزائد عن الأربعة.. هل يطلق ما زاد عن الأربعة، كما فعل الصحابة، أم ماذا يكون الأمر.. إنه ينبغي أن يوضع في الاعتبار ما يلي: -

١ - ان زوجات النبي ﷺ كن قد حصلن على لقب أمهات المؤمنين من رب العالمين ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾[2].

٢ - أنه حرم على المؤمنين أن يتزوجوا أي واحدة من نساء النبي بعده عليه الصلاة والسلام ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما﴾[3].

اذن فلو طلق النبي واحدة من زوجاته فلن تحل لواحد من المؤمنين، اذ هي أمه وسيكون مصيرها التشريد والضياع.. وهل هذا يليق بأمهات المؤمنين، وزوجات خير المرسلين ،انه ليس الا أن يمسك عليهن لمصلحتهن، ومصلحة الدعوة كما قال القرآن الكريم ﴿لا يحل لك النساء من بعد

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢/٣٧٢ ط الحلبي سنة ١٣٧٥ - ١٩٥٥.

(٢) سورة الأحزاب - ٦.

(٣) سورة الأحزاب - ٥٣.

ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾[1].

وتسأل بعد تأملك في هذه الآية الأخيرة، هل امتاز النبي عليه الصلاة والسلام بشيء دون سائر المؤمنين في هذا الموضوع... انه اذا كان القرآن قد حدد للمسلم أربع زوجات فقط، فانه ان طلق واحدة منهن أو ماتت فله أن يتزوج غيرها، ولا حرج على المستطيع اذا كان عادلا، أما النبي ﷺ فبعد التسع نسوة اللائي تزوجهن حرم الله عليه كل النساء غيرهن بنص الآية السابقة، فهل ميز القرآن النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الزواج، وهل تحمل عبء الأرامل العجائز يعتبر ميزة[2].. على أن الرسول ﷺ اذا كان قد عدد، فهذا أمر لا يلام عليه، وليس موضع مؤاخذة أو اتهام، فقد كان ذلك معروفا في البيئة العربية، ولم يكن عليه الصلاة والسلام فيه خارجا عن الطبيعة البشرية أو شاذا عن اخوانه المرسلين.. الا ان الذي نرفضه بالنسبة لهذا الزواج أن يكون الدافع اليه رغبة جنسية أو شهوة مؤثرة.

لقد كان من وراء ذلك التعدد أغراضا أسمى من ذلك بكثير.. خاصة أن معظم زوجاته كن أرامل وأمهات أولاد،

---

(١) سورة الأحزاب - ٥٢.

(٢) حتى لا نخطىء فهم القرآن، رسالة للشيخ محمود غريب/٦٧ ط أولى سنة ١٣٩٦.

ومتقدمات في السن، ومثل هؤلاء ممن تقل الرغبة الجنسية فيهن عادة.

كان من وراء ذلك الأغراض التشريعية والانسانية والتعليمية وغير ذلك مما يتعلق بمصلحة الدعوة وتبليغ الاسلام، توخى في بعضها عليه الصلاة والسلام توثيق الرابطة بين الاسلام وبعض القبائل،واستطاع عن طريق ذلك أن يصل الى قلوب-زعماء الشرك وأن يصاهرهم فيصهر ما في قلوبهم من حقد على الاسلام، كما حدث عندما تزوج بجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق التي كان من آثارها اسلام جميع قبيلتها، وكزواجه ﷺ من أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وصفية بنت حيي بن أخطب.. وتوخى في بعضها الآخر تكريم أرامل الشهداء الذين ماتوا في الحبشة، أو استشهدوا من أجل الدعوة في سبيل الله، وتركوا أرامل لا يقدرن على تحمل أثقال الحياة وأعبائها الجمة مثل هند أم سلمة المخزومية، وزينب بنت خزيمة، وسودة بنت زمعة.

وكان في بعضها الآخر زواجا تشريعيا كزواجه ﷺ من زينب بنت جحش لهدم قاعدة التبني عند العرب والتي كانت تحرم على الرجل أن يتزوج امرأة ابنهالمتبنى ،ولذلك كان وقع ذلك الزواج شديدا على نفس النبي ﷺ لأنه سوف يطيل عليه الألسنة، ويفتح أفواه المنافقين بالقيل

والقال.. ولمثل هذه الأمور التي كانت تجول في نفس النبي عليه الصلاة والسلام نزل القرآن الكريم يعاتبه: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه...، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج - أدعيائهم[1]﴾ وفي الخطاب بزوجناكها بيان أن ذلك التزويج انما هو من الله، وليس للنبي أي دخل فيه: ومنها توثيق أواصر الترابط بينه وبين صاحبيه الجليلين أبي بكر وعمر وتكريمهما بشرف المصاهرة به عليه الصلاة والسلام لجهادهما الصادق، واخلاصهما العميق في سبيل الدعوة، وذلك ظاهر في زواج الرسول ﷺ بعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر.

وأمر آخر يصح أن يزاد.. وهو أن الدعوة كانت بحاجة الى من يبلغ أحكامها الشرعية الخاصة بالنساء، وهي كثيرة، واذا كنا في موضوع الشهادة العادية في الديون والأقضية مثلا نحتاج الى وجود امرأتين مع رجل اذا لم يوجد رجلان، فما بالك بأحكام واسعة متنوعة تتعلق بصنف يمثل نصف المجتمع، ان زوجة واحدة لا تستطيع القيام بهذا العبء وحدها، فالأمر أكبر من ذلك اذ أنه لا يقتصر على أمور الطهارة والحيض فقط كما قد يتصور البعض وانما كل

---

(١) سورة الأحزاب - ٣٧.

ما يتعلق بأحكام الزوجية وآداب البيت وشئون المرأة عبادة ومعاملة واخلاقا، وبخاصة تلك الأمور التي كان ﷺ يستحي أن يصارح بها النساء، أو يستحين أنفسهن من أن يسألنه فيها من أحكام الجنابة والطهارة وغيرها...، من أمثلة ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل، ثم قال: خذي فرصة ممسَّكة فتطهري بها قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: سبحان الله تطهري بها. قالت عائشة - وكأنها تخفي ذلك - تتبعي بها أثر الدم[١]، ثم انه ﷺ استحيا أو استتر بثوب كما في رواية الترمذي، أي منعه الحياء بأن يصرح لها بوضع القطنة المطيبة بالمسك في المكان الذي كان يخرج منه الدم اتماما للطهارة، فأخذتها السيدة عائشة وأفهمتها المراد، وهكذا كانت أمهات المؤمنين خير مبلغ لمثل هذه الأمور النسائية في حياة الرسول ﷺ، كما كن فيها وفي غيرها من رواية الحديث والاستفتاء خير مرجع بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.. يقول السيد رشيد رضا... «كان الرجال يرجعون بعده عليه الصلاة والسلام إلى أمهات المؤمنين في كثير من أحكام الدين، ولا سيما الزوجية، فمن كان له قرابة منهن، كان يسألها دون غيرها،

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه - كتاب الحيض.

فكان أكثر الرواة عن عائشة اختها أم كلثوم، وأخوها من الرضاعة عوف بن الحارث، وابنا أخيها القاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبي بكر، وحفصة وأسماء بنتا أخيها عبدالرحمن، وعبد الله وعروة ابنا الزبير من أختها أسماء، وروى عنها غيرهم من أقاربها ومن الصحابة والتابعين، وهم كثيرون جداً.

كذلك كان أكثر الرواة عن حفصة أخوها عبد الله بن عمر، وابنه حمزة، وزوجه صفية بنت أبي عبيد، وأم بشر الأنصارية... الخ.

وأكثر الرواة عن ميمونة بنت الحارث أبناء اخواتها ولا سيما أعلمهم وأشهرهم عبد الله بن عباس، وأشهر الرواة عن رملة بنت أبي سفيان ابنتها حبيبة وأخواها معاوية وعنبسة وابنا أخيها وأختها.

وهكذا نرى كل واحدة من أمهات المؤمنين قد روى عنها من علم الدين كثير من أُولى قرباها، ومن النساء والرجال الآخرين.. فهل كان يمكن أن تنقل كل ذلك زوج واحدة يروى عنها كل من روى عن أمهات المؤمنين، ولعل أكثر ما سمعه النساء منهن لم يصل الى الذين دونوا أحاديثهن.

ان امهات المؤمنين التسع اللائي توفي عنهن رسول الله ﷺ كن كلهن معلمات ومفتيات لنساء أمته ولرجالها في ما لم يعلمه عنه غيرهن من أحكام شرعية وآداب زوجية، وحكم نبوية[1].

أجل: لقد ساهمت أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن مساهمة فعالة في نقل السنة النبوية - وهي الأصل والمصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله - بأمانة وضبط الى الأمة الاسلامية.. وناهيك بهؤلاء النسوة اللاتي ما خفيت عنهن صغيرة ولا كبيرة من أمر رسول الله ﷺ، وكن جميعا في اذن عام بأن يخبرن على الناس ما دار في ظلام الليل قولا سمعنه، أو فعلا رأينه من صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، ولقد ذكر رواة السنة ان نساء النبي ﷺ روين عنه عليه الصلاة والسلام أكثر من ثلاث آلاف حديث، كان للسيدة عائشة فيهن النصيب الأكبر فقد روت ألفين ومائتين حديثاً وعشراً[2]... ثم تلتها السيدة أم سلمة حيث روت حوالي ثلاثمائة وثماني وسبعين[3] وتتابع الباقي يروين ما بين

---

(١) حقوق النساء في الاسلام ٨٧، ٨٨.

(٢) اتفق الشيخان منها على مائة حديث وأربعة وسبعين، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين ومسلم بثمانية وستين، انظر مقدمة ابن الصلاح تحقيق د. بنت الشاطىء ص ٧٩٨، ٧٩٩ ط دار الكتب سنة ١٩٧٤ م.

(٣) مقدمة ابن الصلاح ص ٧٦٦ تحقيق د. بنت الشاطىء، ط دار الكتب اتفق الشيخان على ثلاثة عشر منها.

خمسة وستين مثل أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان[١] وستين كحفصة بنت عمر[٢]، وستة وأربعين كميمونة بنت الحارث[٣]، واحد عشر كزينب بنت جحش[٤] وغير ذلك رضي الله عنهن جماوات.

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ٧٩٠ تحقيق د. بنت الشاطىء ط دار الكتب.
(٢) المرجع السابق ص ٧٩١.
(٣) المرجع السابق ص ٨٠٤.
(٤) المرجع السابق ص ٧٩٥.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

٢ - الحروب والغزوات

الاتجاهات المعادية للاسلام تحاول أن تشيع عنه أنه دين يضع القوة في موضع الاقناع، ويعول على السيف في حمل الناس على الاذعان لدعوته، وتستغل الآيات القرآنية التي تأمر المسلمين بقتال الكفار، أو تدعوهم الى الجهاد في سبيل الله فينحرفون بها عن معناها الأصلي، والظروف الملابسة لها، ويخضعونها لمنطق الحقد الدفين، ولسلاح الاثارة والتشويه ضد الاسلام والمسلمين، فيصورون الاسلام كأنه غول بشع ودين بطش ورمح يمارس عملية سفك الدماء، وقتل الأبرياء بحجة الدعوة الى الاسلام، وهم يهدفون من وراء ذلك كله الى صد الناس عن هذا الدين، وابعاد الانسان الغربي عنه، حتى تم لهم ما أرادوا في كثير من الأحيان، ورأينا أديباً مشهورا مثل «برنارد شو» يعجب لعالم اسلامي التقى به في بعض البلدان - لأنه وجده يحاضر في فلسفة السلام - ففاجأه برنارد شو بقوله: «دار حديثك حول فلسفة السلام، وقد كان

الأجدر بك ما دمت مسلما لو تحدثت في فلسفة الحرب، لأن الاسلام انما انتشر بحد السيف».

ولما حاول العالم المسلم أن يُصحِّح فكرة هذا الأديب عن الاسلام قال له: قد نقر سيادة كثير من ضروب الفهم للاسلام، لكن هل توافقك الجماهير المسلمة على تفسيرك وهل يعتقد هؤلاء أن الاسلام لم يسبق له ان انتشر بالقهر وما ينبغي له ذلك[1].

ولم يقف الافتراء عند هذا الحد، بل حاول بعضهم أن ينكر على الأساليب السلمية التي مارسها الاسلام في الدعوة قابليتها لاحراز أي نجاح، لأنها - من وجهة نظره - لم تستطع وحدها أن تحرز أي تقدم للدين من غير استخدام القوة والحرب، فقد قال «فردريك دينون موريس»: من الثابت ان الاسلام لم يكن يصادف نجاحا الا عندما كان يهدف الى الغزو[2]... ولا تزال مثل هذه الافتراءات تتردد على ألسنة أعداء الاسلام، وتلوكها أفواه حاقدة الى اليوم.

لذلك فنحن هنا سنتتبع سير الدعوة بالتحليل الدقيق، لنرى كيف انتشر الاسلام وما هي الظروف التي حمل فيها

---

(١) اسلوب الدعوة في القرآن، محمد حسين فضل الله ص ١٠١ ط ثانية سنة ١٣٩٢ نقلا عن مجلة «المسلمون» العدد ١٢ سنة ١٣٨٣.

(٢) المرجع السابق/١٠٢.

السيف في الغزوات والحروب، وما حقيقة المعارك - التي دارت بين الاسلام وبين الفرس والروم وغيرهما من خارج شبه الجزيرة العربية، ثم ما هي طبيعة الجهاد في الاسلام وبواعثه وأهدافه؟ فنقول.. وعلى الله الاعتماد: بدأت الدعوة برجل اشتهر بالأمين، يسر بالدعوة الى زوجه وصديقه وابن عمه الصغير ومولاه فيؤمنون، ثم يجهر بها فيلقى السخرية والاستهزاء... وبين ضحكات الساخرين ونكات المستهزئين، تلقى الدعوة في قلوب المستضعفين مواطن تأمن لها، وجوانح تستقر فيها، فيدخل هؤلاء في الدين مضحين بأنفسهم وهم في ذلك انما يلبون نداء الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾[1]، «ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه[2]» ثم يشتد الأذى، ويعرض النبي نفسه على القبائل في موسم الحج وفي الأسواق، فتصادف الدعوة هدى في نفوس ستة رجال من يثرب، فيؤمنون[3]، ثم رجعوا الى المدينة يتحدثون عن محمد ودعوته.. حتى اذا استدار العام عاد هؤلاء الستة مع ستة

---

(١) سورة الروم - ٣٠.

(٢) البخاري - كتاب الجنائز والقدر، وفي التفسير عند سورة الروم.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤٢٩/١ ط ثانية سنة ١٣٧٥ - ١٩٥٥، البداية والنهاية ١٤٩/٣.

آخرين في وفد التقوا بالنبي ﷺ ليبايعوه عند العقبة[١].

وفي العام المقبل يجيء وفد يزيد على السبعين ليوثقوا اسلامهم مع رسول الاسلام وكانت بيعة العقبة الكبرى[٢].. هؤلاء الناس أمثلة لانتشار الاسلام عن طريق الايمان الخالص والاقناع الحر، فهم لم يدخلوا في الاسلام نتيجة حرب أو جهاد، وانما جاءوا من يثرب لما وقر في نفوسهم من الاسلام مقتنعين بما آمنوا به، لم تكرههم قوة، ولم تضغط عليهم سلطة، مع أن لقاءهم بالنبي عليه الصلاة والسلام كان عابرا، وصحبتهم له كانت خاطفة وكان الظن الا يكون لها هذا الأثر، فكم حدث قبلها من لقاءات... الا أن وحي السماء مس شغاف قلوبهم، وأنار أفكارهم، والتقى مع فطرتهم، فاستجابوا له طائعين مختارين.

ولما اشتد الأذى بالرسول وأصحابه، وأخذ يتخذ ألوانا أقسى وأعنف، اضطر صاحب الدعوة الى أن يهاجر الى المدينة، ويخرجه قومه والمؤمنين، تاركين بلدهم الحبيب وديارهم وأموالهم.. فالى هنا.. هل انتشر الاسلام بالسيف وهل نجحت الدعوة في تلك الحقبة بالقوة؟!

لا شك في أن الاسلام قد انتشر لأنه صادف قبولا في

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ / ٤٣١، ٤٣٣ ط ثانية سنة ١٣٧٥ – ١٩٥٥.
(٢) المرجع السابق ج ١ / ٤٤١.

النفوس، وهوى في القلوب ولم يكن محمد عليه الصلاة والسلام يملك السيف ولا القوة ولا المال يغري به أحدا. بل لقد كان المسلمون هم ضحايا القسر والتعذيب، ولم يكن يقدرون على دفع أذى مشركي قريش في مكة.

ثانيا - فترة الغزوات:

أما غزواته عليه الصلاة والسلام فكانت كلها ردا على اعتداء أو اتقاء لهجوم، وأخبار هذه الغزوات كلها معروفة في سجل التاريخ الاسلامي، محفوظة بأسبابها ومقدماتها... ونتائجها، ونحب أن نشير الى أنه ليس من غرضنا هنا السرد التاريخي أو البيان التفصيلي لذلك اللقاء المسلح الذي دار بين الدعوة وخصومها، ممثلا في تلك الحروب والغزوات فهذا مما لا يتسع له هذا البحث، وانما نريد أن نقف على حكمة الغزوات وأسباب القتال في الاسلام، حتى نتعرف على أسلوب الدعوة ومسيرتها في هذه الفترة.

بدر:

من الثابت تاريخا وحقيقة أن المسلمين انما خرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله، وأنه لولا وطأة الأذى، واختناق الدعوة وعدم قدرتها على التنفس ما

خرجوا من بلد هي أحب البلاد الى نفوسهم، وأعزها في قلوبهم، وانظر الى هذه العواطف المشبوبة، والكلمات الحزينة التي ودع بها المسلمون مكة.

السيدة عائشة تقول: لولا الهجرة لسكنت مكة، فاني لم أر السماء بمكان أقرب الى الأرض منها بمكة، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة، ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة[١] وعبد الله بن أم مكتوم ينشد يوم عاد الى مكة يوم الفتح :-

يا حبذا مكة من وادي أرض بها أهلي وعوادي
أرض بها ترسخ أو تادي أرض بها أمشي بلا هادي[٢]

بل ان هذا الحنين ليبلغ مداه في نفس الرسول ﷺ فيتلفت بعينه وقلبه ويقول وهو خارج منها: «والله اني لأخرج منك واني لأعلم انك أحب بلاد الله الى الله وأكرمها على الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت[٣]».

الا أن القوم لما وازنوا بين مطالبهم الخاصة وبين مطالب دينهم، رجحوا الثانية ولما قارنوا بين حاجتهم العاجلة ومدخرات الدار الآخرة رجحوا الآخرة على الأولى، فالقوم

---

(١) مواقف اسلامية، د. عبد العزيز كامل.. سلسلة اقرأ... القاهرة.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١٤١/٢.
(٣) عيون الأثر ج ١٨١/١ ط دار المعرفة بلبنان.

اذن أهينوا وظلموا فخرجوا مخلفين وراءهم ما يملكون من مال ومتاع، ومتى وقع الظلم على أحـد ثبت له الحق في دفع الظلم عن نفسه، والأخذ بحقه من ظالمه، وقريش ظلمت المسلمين وأخرجتهم من مكة، فمن حق المظلوم أن يؤدب الظالم عند قدرته عليه،والقانون الدولي الآن يبيح لمن ظلم أن يدافع عن نفسه، وان يسعى ولو بالقوة للحصول على حقه، والمسيحية نفسها لا تستنكر استعمال القوة في سبيل الدفاع عن الحق، ولقد جاء في انجيل لوقا على لسان المسيح: «لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك ومن ليس له فليبـع ثوبه وليشتر سيفا[١].. »فالمسيح عليه السلام يريد من تلاميذه أن يستعدوا لحمل السيف والدفاع به عند اللزوم، فالمسيحية مع ما عرف في تعاليمها من ايثار السلامة والسماحة لا تنكر القتال على اطلاقه، ومما جاء في انجيل متى: «لا تظنوا اني جئت لألقي سلاما على الأرض ما جئت لألقي سلاما بل سيفا[٢]».

ومن قبـل المسيحيـة التوراة.. وشواهد القتال فيها كثيرة... واذن، فما دام استخدام السيف واستعمال القوة في مقـام الدفـاع أمرا مشروعـا قديما وحديثا في المسيحية

---

(١) انجيل لوقا - الاصحاح ٢٢/٣٥.
(٢) الاصحاح العاشر/٣٤.

واليهودية، فلماذا ينكر على المسلمين استعماله.. هذه واحدة.

أمر آخر المسلمون يوم خرجوا الى بدر ما كانوا ينوون قتالا، أو يبغون حربا؛وانما خرجوا - كما يذكر ابن اسحق - لما ترامت اليهم الأنباء بأن قافلة لقريش بقيادة ابي سفيان ابن حرب قادمة من الشام في طريقها الى مكة، فندب النبي ﷺ المسلمين اليها وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها[1] »فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا. وفي زاد المعاد أنه ﷺ: أمر من كان ظهره حاضرا بالنهوض ولم يحتفل بها احتفالا بليغا[2]، وقال ابن القيم:« وجملة من حضر بدرا من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا: من المهاجرين ستة وثمانون ومن الأوس واحد وستون، ومن الخزرج مائة وسبعون،» وانما قل عدد الأوس عن الخزرج وان كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء، لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة وجاء النفير بغتة، وقال النبي ﷺ: لا يتبعنا الا من كان ظهره حاضرا ،فاستأذنه رجال ظهورهم كانت في علو المدينة أن

---

(١) سيرة بن هشام ج ١/٦٠٧ ط ثانية.

(٢) زاد المعاد ج ٢/٩٥ ط الحلبي ١٣٩٠، ١٩٧٠.

يستأني بهم حتى يذهبوا الى ظهورهم فأبى، ولم يكن عزمهم على اللقاء، ولا أعدوا له عدة، ولا تأهبوا له أهبة، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[1].. كما قال تعالى: ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾[2].

ومع أن العير أفلتت واستطاع أبو سفيان - لما علم بالنبأ - أن يهرب من طريق آخر، الا أن قريشا أصرت على الخروج وقال أبو جهل: «والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم فيها ثلاثا ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً[3].

وكان لا بد من اللقاء مع كره بعض المسلمين له لعدم اتقان ما ينبغي له من عدد وعدة، ولكن شاء الله أن يكون للموقف وجه آخر، ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون، واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون

---

(١) زاد المعاد ج ١٠١/٢ ط مصطفى الحلبي سنة ١٣٩٠/١٩٧٠.

(٢) سورة الأنفال/٤٢.

(٣) السيرة لابن هشام ج ٦١٩/١ ط ثانية.

لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون[1]﴾ ..فارادة الله سبحانه هي التي هيأت هذا اللقاء، ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة وان الله لسميع عليم[2]﴾ ..وقدرته سبحانه هي التي حسمت النزاع وقررت النتائج ﴿اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب﴾[3] «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾[4].. ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾[5].

وان في نصر هذه القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة لما يؤكد أن النصر مع الايمان وأن العقيدة الراسخة تصنع المعجزات.

وبعد هذه الوقفة المستأنية التي كان لا بد منها ازاء

---

(١) سورة الأنفال ٦، ٧، ٨.

(٢) سورة الأنفال/٤٢.

(٣) سورة الأنفال/١٢، ١٣.

(٤) سورة الأنفال/١٧.

(٥) سورة آل عمران.

غزوة بدر لأنها كانت بداية الكفاح المسلح بين المسلمين والمشركين، والمدخل الى المعارك الدامية التي تلتها فاننا سوف نوجز الحديث عن الغزوات بعد ذلك في كلمات.

غزوة بني قينقاع من يهود المدينة:

قال ابن اسحق: كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد[1]، كما ذكر ابن هشام موضوع هتكهم لحرمة سيدة من نساء الأنصار[2]، لذلك خرج اليهم المسلمون وانتصروا عليهم فطلبوا الجلاء عن بلادهم فسمح لهم بذلك.

غزوة بني غطفان:

لم يخرج المسلمون لقتالهم الا بعد أن علموا أن جمعا من بني ثعلبة ومحارب بذي قرد من غطفان تجمعوا برئاسة دعثور المحاربي يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ[3].

غزوة أحد:

لم يخرج المسلمون اليها الا بعد أن تجمعت قريش بعددها

---

(١) السيرة لابن هشام ج ٢/٤٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢/٣٤ ط ١٣٧٦.

وعدتهـــا واستنفرت حلفاءهـــا لتثـــأر من محمـــد ﷺ وأصحابه[1].

غزوة بني النضير:

وذلك لنقضهم العهد مع الرسول ﷺ، ومحاولة إلقاء صخرة على النبي ﷺ لما كان في ديارهم[2].

غزوة ذات الرقاع:

وذلك لما كان من عامر بن الطفيل، وقتل أكثر من سبعين من المسلمين والفرار من المؤمنين خديعة وغدرا مما يدل على الاستهانة بالرسول وجيشه[3].

غزوة دومة الجندل:

وكان سببها أن رسول الله ﷺ بلغه أن جمعا حول دومة الجندل يظلمون من مَرَّ بِهِم وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة[4].

غزوة بني المصطلق:

رغم أنهم كانوا ممن ناصر المشركين في أُحد الا أن

---

(١) السيرة جـ ٢/٦١ ط ثانية.
(٢) المرجع السابق جـ ٢/١٩٠، ١٩١.
(٣) خاتم النبيين ـــــ محمد أبو زهرة جـ ٢/٢٧٧ ط أولى سنة ١٩٧٣ م.
(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبري جـ ٢/٥٦٥ ط دار المعارف سنة ١٩٦١.

المسلمين لم يخرجوا اليهم الا بعد أن علموا أنهم يجمعون الجموع بقيادة الحارث بن أبي ضرار لحرب المسلمين، والاغارة على المدينة[1].

غزوة الأحزاب:

وفيها تجمّع كل طوائف الكفار واليهود وأحاطوا بالمدينة يريدون الاجهاز على الاسلام والفتك بأهله لولا تدخل عناية الله عز وجل التي أنقذتهم[2].

غزوة بني قريظة:

وهم الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ وخانوه في أحلك الظروف وانضموا الى المشركين يوم الخندق[3]، وفي هذا البحث تفصيل واسع حول هذا الموضوع وموقف النبي ﷺ بالنسبة لهم.

غزوة بني لحيان:

وهم الذين غدروا بعاصم بن ثابت وباخوانه أصحاب سرية الرجيع الذين أرسلهم النبي ﷺ مع وفد عضل والقارة، فغدروا بهم وقتلوهم جميعا الا ثلاثة نفر[4].

---

(١) السيرة لابن هشام جـ ٢/٢٩٠.

(٢) السيرة لابن هشام جـ ٢/٢١٥/٢١٦ ط ثانية.

(٣) المرجع السابق جـ ٢/٢٣٤ ط ثانية.

(٤) سيرة ابن هشام جـ ٢/١٧٩ ط ثانية.

صلح الحديبية:

ومعروف أن المسلمين ما خرجوا يومها الا لزيارة البيت وتعظيمه،وكان ما كان من رفض قريش وابرام الصلح.. وتأجيل الزيارة الى عام قادم.

غزوة خيبر:

وكانت مركز النشاط وتجمعات اليهود الذين أجلوا عن المدينة كيهود بني النضير، الذين أصبحوا قوة مناوئة للمسلمين، وموطن غدر واثارة لهم، وغير خاف علينا ما قام به زعماء بني النضير في غزوة الأحزاب، وحملهم بني قريظة على نقض العهود التي كانت مبرمة بينهم وبين رسول الله ﷺ، فكان لا بد من اتخاذ موقف حازم معهم.

مؤتة:

وكان أول لقاء بين الاسلام والمسيحية، عندما أرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير الأزدي رسولا من قبله الى أمير بصرى يدعوه الى الاسلام ضمن دعوته عليه الصلاة والسلام الرؤساء والملوك الى الله، فاعترضه في الطريق شرحبيل بن عمرو الغساني ولما علم أمره ضرب عنقه(١).

---

(١) زاد المعاد لابن القيم جـ ٢/١٥٥ ط المكتبة العلمية - لبنان.

فتح مكة:

لما ظلت قريش على سياستها القديمة، من نقض للعهود، وغدر بالمسلمين،. وحلفائهم خرج اليهم المسلمون وكان الفتح الأعظم[١].

غزوة حنين:

أوغرت صدور هوازن وثقيف بفتح مكة، وغاظهم تألق نجم الاسلام، فأجمعوا أمرهم على السير لقتال المسلمين[٢] وكان ذلك سبب خروج المسلمين اليهم.

حرب الفرس بالعراق:

وذلك لما ارتكبه كسرى عندما أرسل عليه الصلاة والسلام كتابا يعرض عليه فيه الاسلام فانه مزق الكتاب، وطلب الى عامله باليمن أن يستتيب هذا الذي يزعم أنه نبي أو يأتيه برأسه.

غزوة تبوك:

ولم يخرج المسلمون اليهم الا بعد أن بلغهم أن الروم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢/٣٩٤ ط ثانية.

(٢) طبقات ابن سعد ج ٢/١٤٩.

جمعت الجموع تريد غزو المسلمين في بلادهم حتى تنفرد هي بالسلطات والقهر[1].

وأما سراياه ﷺ:

فلم تكن لقطع الطريق، وترويع الآمنين كما يزعم الحاقدون؛ وانما كانت لرد اعتبار المسلمين وتأمين انطلاق الدعوة هنا وهناك، كما كانت لرد كيد الغادرين... وانظر مثلا سرية أبي عبيدة بن الجراح الى القَصَّة لما بلغ المسلمين أن بذلك الموضع ناسا يريدون الاغارة على نعم المسلمين التي ترعى بالهيفاء[2]، وسرية زيد بن حارثة الى بني سليم بوادي القرى لاعتدائهم على دحية بن خليفة الكلبي أثناء رجوعه من عند قيصر[3]، وسرية ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص التي كانت عندما بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعا من قضاعة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى ليغيروا على المدينة[4]، وسرية علي بن أبي طالب لما بلغ المسلمين أن بني سعد بن بكر يجمعون الجموع لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين[5]، وسرية عمرو بن أمية الضمري الى أبي

---

(١) زاد المعاد ج ٣/٣ ط الحلبي سنة ١٣٩٠.

(٢) طبقات ابن سعد ج ٨٦/٢.

(٣) المرجع السابق ج ٨٨/٢.

(٤) المرجع السابق - ج ١٣١/٢.

(٥) المرجع السابق ٨٩/٢.

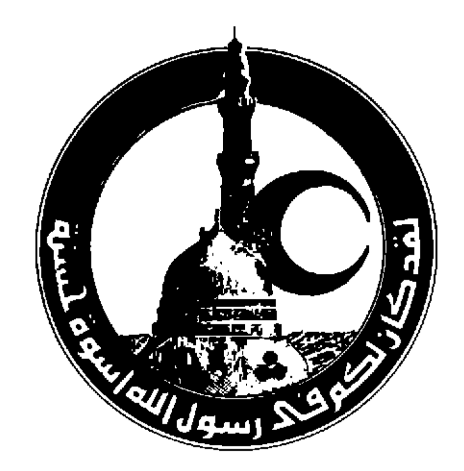
سفيان جزاء ارساله من يقتل النبي ﷺ غدراً[1].

وبعد هذا العرض السريع.. فهذه ظروف استخدام السيف والقوة في الحروب والغزوات، لم يقدم عليها المسلمون الا في أشد الأوقات حاجة اليها، ولم يكن الدخول في الاسلام وراء واحد منها، وانما تأديب البغي، ورد العدوان، وتأمين الدعوة لا أكثر.

يقول ابن القيم عن فترة الغزوات والسرايا هذه في ترتيبه لمراحل الجهاد في الاسلام «ثم أمره - أي أمر الله نبيه - أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله[2]».

---

(١) البداية والنهاية ج ٦٩/٤ ط أولى سنة ١٩٦٦، وطبقات ابن سعد ج ٩٤/٢.
(٢) زاد المعاد ج ٩١/٢ ط الحلبي سنة ١٣٩٠، ١٩٧٠.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الدعوة بعد صاحبها عليه الصلاة والسلام

ولما انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الأعلى سار من بعده خلفاؤه الاطهار يكملون المسيرة الطاهرة.

وكانت الفتوحات الاسلامية:

وهذا جانب نحب أن نقف عنده قليلا، لأن الفتح الاسلامي كان حركة المسلمين التي غادروا فيها ديارهم ومواطنهم الى بلاد أخرى، فقد يتوهم واهم أن تلك الحروب التي اقترنت بانتشار الاسلام في الخارج كانت طريقا لارغام الناس على الدخول في الاسلام، على أن بعض المبشرين والمستشرقين رد خروج المسلمين بعد رسولهم الى المجال الخارجي الى أغراض مادية وأن الجوع والحرمان وطلب الغنائم هو الذي أخرجهم من جزيرتهم وجعلهم يتطلعون الى ما في أيدي البلاد الغنية ويغيرون عليهم للنهب والاختلاس.

وقبل مناقشة هذه الافتراءات أحب أن أقول كلمة عن بواعث الجهاد والحرب في الاسلام تكون أساسا بين يدي الحديث عن الفتوحات الاسلامية وتفسر لنا انطلاق هذه الجموع الراشدة.. وأجملها في الفقرات التالية:-

أولا: لقد جاء الاسلام ليكون دين الانسانية كلها ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾[1] ﴿وما أرسلناك الا رحمة للعالمين﴾[2] ﴿قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا﴾ وقد جمع الله في هذا الدين كل ما تصبو اليه الانسانية من مراقي التقدم والفلاح وعوامل البر والخير، وأسباب العدل والانصاف ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾[4].. فمن تحقيق كلمة الله أن تساق رحمة الله الى العالمين وأن يصل هذا الخير الذي جاء به الاسلام الى الناس جميعا.

ثانياً: من حق الشعوب الا يحول بينها وبين دعوة الخير حائل، وألا تصدهم عنها قوة لأنهم ربما يقتنعون بمبادئها فيؤمنون بها.. لكن لنفرض أن سلطة غاشمة. وقفت في طريق هذا الخير ومنعته أن يصل الى الناس، إنه يكون من

---

(١) سورة آل عمران - ١٩.
(٢) سورة الأنبياء - ١٠٧.
(٣) سورة الأعراف - ١٥٨.
(٤) سورة النحل - ٩٠.

تحقيق كلمة الله أن تقاوم مثل هذه القوة، وأن تزاح من طريق الدعوة ولو بشبا السيوف حين لا يكون بد من ذلك، لأنها تصد عن سبيل الله، وتكون هذه المقاومة لا بغرض فرض الاسلام على الناس واجبارهم عليه، ولكن لمنحهم حرية المعرفة، وخيرة الهداية في جو تتمتع فيه العقول بالنظر الحر، والرؤية المجردة.

فالاسلام لا يكره أحدا على اعتناقه، ولكن يكره الذين يقفون في طريقه، ويمنعون الناس ابتداء من حق الاستماع اليه والاطلاع على ما فيه، ولذلك فلا بد من أن تزول العقبات من طريق ابلاغ الدعوة الى الناس كافة كما جاءت من عند الله، وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يستمعوا له ويعوا.

ثالثا: للناس بعد وصول الدعوة اليهم أن يتركوا أتم ما يكونون حرية في اعتناق هذا الدين لا يجبرهم على الدخول فيه أحد، ولا يكرههم على اعتناقه بشر، المهم أن ينكشف لهم وجه الحق، ومن شاء بعد هذا العرض السلمي والبيان الوادع أن يؤمن.. ومن شاء أن يكفر لا اكراه ولا اعنات.

رابعاً: إذا اعتنق الناس الاسلام ثم حاولت قوة أن تفتنهم عن دينهم، أو تصرفهم عن عقيدتهم كان لا بد من

التعرض لهم، وردهم عن غيهم.. والمسلمون الآن يسامون الفتنة ويلاقون أقبح العذاب في فلسطين، وأرتيريا وأوغندا وتشاد، وغيرها من المناطق الشيوعية، والوثنية، والصهيونية، والمسيحية من بلاد العالم، فهل اذا سارت اليهم قوة عادلة شريفة، لتنجدهم مما هم فيه، قال البعض هذا تعصب.. وتعسف في نشر الاسلام.

ان الجهاد حينئذ واجب مقدس لدرء الفتنة، ورد العدوان، واعلاء كلمة الله مهما ادعى الأفاكون.

خامسا: من أهداف الاسلام اقرار العدالة في دنيا الناس، ومنع الفساد أن يقع في الأرض وحماية الضعفاء من الظلم والطغيان.. فاذا كانت هناك نظم طاغية في جوانب من الأرض تظلم الناس وتفتات على حقوقهم وكرامتهم، وتحبس ضمائرهم أن تنطلق وعقولهم أن تفكر، فمن حق الاسلام والحالة هذه أن يقاتل الباغين، وأن يمنع الفساد في الأرض قياما بشريعة الله في العدالة الانسانية، دون ما غاية سوى تحقيق كلمة الله في الأرض، ولو لم يتعرض له هؤلاء من قريب أو بعيد، كما كان الحال في تلك الأمم والشعوب التي كانت تئن تحت وطأة الفرس والروم، والتي وجدت في الاسلام منقذا لها مما هي فيه فرحبت به وسارعت اليه، ذلك أن نصرة المظلوم، واعانة المضطهد المكلوم، وانقاذه مما

نزل به من غيوم أمر يهدف اليه الاسلام، ويسعى الى تقريره بين المسلمين وغير المسلمين على سواء.

ان الاسلام يدعو الى قتال المسلمين البغاة، لرد البغي وتحقيق العدل لأنه جاء لرفع الظلم عن كاهل الناس جميعا.. ويقول سبحانه: ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين﴾(١).

فاذا كان الاسلام يقاتل البغاة المسلمين، فانه كذلك يقاتل البغاة من غير المسلمين وهل لو لم يتحرش الفرس والروم بالمسلمين ما كانوا يتعرضون لهم؟! انهم يحاربونهم ليوقفوهم عند حدهم، دفعا للظلم، واقامة للعدل وحماية للضعفاء، واعلاء لكلمة الله، وتقريرا لكرامة أناس ذلت عقولهم بقيود من البغي يجب أن تحطم.. يقول سبحانه: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾(٢). فهل يسمع المسلمون مثل هذه الاستغاثة ثم يسكتون؟

---

(١) سورة الحجرات - ٩.

(٢) سورة النساء - ٧٥.

لا بد أن يتحركوا... ولو أنهم سكتوا ووقفوا بالاسلام عند حدود شبه الجزيرة العربية وتركوا هؤلاء يهانون في بلادهم ويئنون من ظلم القياصرة والأكاسرة لاعتبروا مقصرين في جنب الله وفي حق الرسالة التي يمثلونها.

ولذلك يقول الأستاذ سيد قطب متسائلا: «ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون اذن عن دفع المد الاسلامي الى أطراف الأرض، وكيف كانوا يدفعون هذا المد، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية من أنظمة الدولة السياسية، وأنظمة المجتمع العنصرية، والطبقية والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية، والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك.. إنها سذاجة أن يتصور الانسان دعوة تعلن تحرير نوع الانسان في كل الأرض، ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان، انها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد تخاطبهم بحرية، وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات، أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية فلا بد من ازالتها أولا بالقوة للتمكن من مخاطبة قلب الانسان وعقله، وهو طليق من هذه الأغلال»[1].. وهكذا قاتل الاسلام الفرس والروم ما

(١) في ظلال القرآن جـ ١٤٣٦/٩ ط الرابعة ١٣٩٧ هـ م بتصرف يسير.

في ذلك شك.. ولكن هل قاتلهم ليدخل الناس في الاسلام.. انه قاتلهم ليثبت كرامة الانسان، وليقرر حرية التدين، وليكسر القيود التي فرضوها على العقول والضمائر، ليتجه الناس الى الجهة التي يؤثرونها دون وجل أو خوف.

وشبيه بشعوب الفرس والروم تلك الشعوب المقهورة في العصر الحاضر، كشعوب روديسيا في جنوب أفريقيا، وموزمبيق وأنجولا، وجزر القمر، وغيرها من الشعوب التي تغلب على أمرها في هذه الأيام، وتكاد تختنق، وما أحوجها اليوم الى قوة عادلة طاهرة، قوة كقوة أبي بكر وعمر، والخلفاء الراشدين تنقذها مما هي فيه من عسف وهوان.

وهي يوم تفعل ذلك انما تنعش المضطهدين باسم الله، وتنقذهم من البلاء النازل بهم فهي لا تحارب أمما ولا شعوبا، وانما تحارب حكومات ظالمة، وقوى غاشمة، فاذا أقرت العدل، ورفعت الظلم تركت الناس وما يدينون مؤمنة بقول الحق جل شأنه: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾[1].

وبعد.. فلقد انتضى الاسلام السيف، ولكن هل حمله ليرهب به الناس، أو ليكره أحداً على الدخول فيه.. كلا.. وإنما ليكفل الأهداف السابقة وليقيم نظاماً آمناً يستقر الناس

(١) سورة القصص - ٥٦.

في ظله، ويعيشون في إطاره وإن لم يعتنقوا عقيدته.

واذا كان الاسلام لم يحاول أن يستخدم وسائل القهر العقلي لإكراه الناس على الدخول فيه، ولم يحاول أن يتخذ من ذلك وسيلة للاقناع، وذلك كتلك المعجزات الحسية والضغوط القوية التي حدثت في الديانات التي قبله مع الأنبياء السابقين، كطوفان نوح ونار ابراهيم، وناقة صالح، وعصا موسى، ورفع الجبل له، وابراء الأبرص والأكمه وتحويل الطين طيرا باذن الله لعيسى، وغير ذلك من الآيات الحسية والتغييرات المادية والكونية المعروفة.

أقول.. اذا كان الاسلام لم يستخدم مجرد وسائل القهر العقلي لإلزام الناس به ولم يشأ أن يجعل مثل هذه الوسائل طريقا لحمل الناس على اعتناقه، أتراه يجعل القهر المادي، والارغام الحسي وسيلة للاقناع والاقتناع.. انه من باب أولى ألا يكون كذلك.

وقد شاء الله لهذا الدين - احتراما للانسان وتكريما له أن يخاطب فيه العقل الانساني والملكات المدركة، فجعل معجزته الكبرى «القرآن الكريم»[1]، ولذلك فان كل ما

(١) هذا لا يعني أن حياة النبي ﷺ كانت خلوا من المعجزات الحسية بل لقد وقع على يديه ﷺ أكثر من معجزة حسية كانشقاق القمر وحنين الجذع، وتكثير الطعام ونطق الضب، وغير ذلك من المعجزات الحسية التي شارك فيها النبي عليه الصلاة والسلام اخوانه الأنبياء، الا ان الله سبحانه وتعالى جعل معجزة التحدي في الاسلام هي القرآن الكريم ليكون معجزة خالدة الى يوم الدين (انظر المعجزات النبوية اعداد وترتيب وليد الأعظمي - ط المكتب الاسلامي.

يطلبه الاسلام أن يجد الجو الحر الذي يعرض فيه مبادئه، وينشر هدايته.

والاسلام الذي يريد لنفسه هذا الحق يعطيه لغيره كذلك، ويقرره له، ولا يرى حرجا في المناقشات الدينية اذا كان عمادها الحجة والدليل، ﴿هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾[1]. ﴿قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾[2]، ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارةٍ من علم ان كنتم صادقين﴾[3]، ﴿نبئوني بعلم ان كنتم صادقين﴾[4].

بل انه يستحث مخالفيه في العقيدة الى مزيد من التفكر والجدل المنصف عندما يخاطبهم بقوله: ﴿وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[5]، فالقرآن يقول على لسان الرسول ﷺ مخاطبا المشركين ان أحدنا لا بد أن يكون على هدى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال.. لكن أي الفريقين على هدى، وأيهما على ضلال!؟ يدع القرآن تحديد ذلك ليثير فيهم التفكر الهادىء، والتدبر المستأني في جو لا تغشى عليه العزة، بالاثم... هذا الجو، الحر الهادىء، هو

(١) سورة الأنعام - ١٤٨.
(٢) سورة البقرة - ١١٦.
(٣) سورة الأحقاف - ٤.
(٤) سورة الأنعام - ١٤٣.
(٥) سورة سبأ - ٢٤.

الذي يريده الاسلام، له ولغيره، ولا يستأثر به، لأنه واثق من قوة تعاليمه، ونبل شرائعه، فذلك الذي يغري بالقبول والاتباع، ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[1].

فإن أُذن للاسلام في البلوغ، وسمح له بالاعلان والاعلام، كان ذلك حسنا.. والا فالاسلام يمتشق الحسام، لأنه يرى الفصل بينه وبين الناس صد عن سبيل الله وصرف الناس عن حق قد يعتنقونه، وخير قد يألفونه.. والحرب حينئذ تكون ضرورة اقرارا لمنهج الله في الحياة وتقريرا للكرامة الانسانية بين البشر، واثباتا لحق الناس في أن يستمعوا الى ما يرون فقد يؤمنون.

---

(١) سورة الرعد - ١٧.

٣ - الحدود في الاسلام

الحدود في الاسلام جزء من نظام إلٰهي كامل أنزله رب العالمين على خاتم رسله ليكون دستورا يكفل لمن اتبعه السعادة والأمان والاستقرار الى قيام الساعة ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾[1].. وأساس الحدود في الاسلام انها ضابط يحفظ التوازن بين حقوق الفرد والجماعة معا.. فمن حق الفرد على الجماعة تحقيق مصالحه وحفظها، وصيانة حياته ومقوماتها والعمل على حمايته ليس فقط من غيره بل من نفسه أيضا.. وللمجتمع كذلك الحق في صيانة كيانه من كل اعتداء أو مساس، وفي الحصول على حياة آمنة وادعة تتسم بالطهر والعفاف.. وجميع الجرائم التي حرمها الاسلام انما هي من النوع الذي لو ترك وشأنه لأدى الى اضطراب المجتمع، وإشاعة الفوضى والقلاقل فيه.

وينبغي أن يعلم أن الاسلام لا يعتمد على العقوبة في

---

(١) * سورة البقرة - ١٣٨.

إنشاء الحياة النظيفة بين الناس ولا يتخذها الوسيلة الوحيدة لذلك، وانما يعمل على الوقاية من الجريمة ومحاربتها بالضمير الوازع، والنفس المهذبة، والسلوك المستقيم، وتوفير أسباب الحياة النظيفة لكل الناس، فمن ارتضى هذه الأسباب واتخذها منهج حياته ارتقى وعز بالاسلام، وسعد بالمجتمع، وسعد به مجتمعه.. ومن هجر هذه الأسباب ونفر منها وسعى في الأرض فسادا، دون رادع من خلق أو وازع من ضمير، فهو كمن يتمرغ في الوحل مختارا، وحق للاسلام أن ينزل به عقابه ليحمي الناس من شروره، ويوفر للمجتمع أمنه واستقراره.

والاسلام لم يرصد عقوبة دنيوية لكل انحراف أو معصية، بل إن هناك كثيرا من الانحرافات والمحرمات، اكتفى الاسلام فيها بأن أنذر مرتكبيها بغضب الله وعقابه، وترك تقدير عقابهم الدنيوي للقاضي حسبما يراه كافيا في التأديب والتعذير، ويتلاءم مع أثر المخالفة في المجتمع، وذلك مثل الكذب، الرياء، أكل الربا، شهادة الزور، خيانة الأمانات، أكل الميتة والمحرمات، الغش في المعاملات، التطفيف في الكيل والميزان، عقوق الوالدين،.. الغيبة والنميمة..... الخ.

أما الجرائم التي أرصد لها الاسلام حدودا معينة فهي

جرائم محدودة بعضها جاء به القرآن الكريم، وبعضها الآخر ورد في السنة وهي.. السرقة ،الزنى، القذف، شرب الخمر، الردة، البغي، الحرابة.. وهي التي تسمى بقطع الطريق، ثم جريمة قتل العمد وشبهه والخطأ، والعقوبة المقررة للجرائم السبعة الأولى تسمى حدا، بمعنى أن العقوبة المقررة فيها هي حق الله تعالى.

وحينما يقول الفقهاء إن العقوبة حق الله تعالى يعنون بذلك أنها لا تقبل الاسقاط لا من الفرد المجني عليه، ولا من الجماعة أو ولي الأمر، وهم يعتبرون العقوبة حقا لله كلما استوجبتها المصلحة العامة، وهي دفع الفساد عن الناس وتحقيق الأمن والسلامة لهم[1].

أما العقوبات المتعلقة بجرائم القصاص والدية فلا تسمى حدا[2] - عند بعض الفقهاء لأنها حق الأفراد بمعنى أنه اذا عفا المجني عليه أو وليه عن القصاص أو الدية سقطا.

وعلة التفريق هنا أن جرائم الحدود يصيب ضررها المباشر الجماعة أكثر مما يصيب الأفراد أما جرائم القصاص

---

(١) التشريع الجنائي الاسلامي، عبد القادر عودة ج ١/٧٩.

(٢) ذهب البعض الى أن الحد يطلق على كل عقوبة مقدرة بتقدير الشارع سواك كان ذلك في جريمة الاعتداء فيها على حقوق الله، أم كان الاعتداء فيها على حقوق العباد، انظر فتح القدير ج ٥/٤ ط دار احياء التراث العربي ببيروت، وكتاب العقوبة للشيخ محمد أبو زهرة ص/٧٠ ط /١٩٧٤ م.

والدية فمع مساسها بكيان المجتمع الا أن ضررها المباشر يصيب الأفراد أكثر مما يصيب الجماعة، ولقد كانت الشريعة عملية واقعية في اعطائها حق العفو للمجني عليه بالنسبة للقصاص والدية لأنهما يتصلان اتصالا وثيقا بشخصه، ولأن العفو هنا لا يكون الا بعد حصول التراضي والتنازل وصفاء النفس بين الطرفين، وذلك هو غاية عقوبة القصاص والقصد من ورائها.

لكن يلاحظ هنا أن الشريعة أباحت في حال عفو المجني عليه، وسقوط القصاص أو الدية عن الجاني أباحت لولي الأمر معاقبة الجاني بعقوبة تعزيرية ملائمة لظروف الجريمة والمجرم[١]، وأوجب ذلك الامام مالك[٢] حتى لا يستغل أسلوب الاغراء المادي للافلات من العقاب أو يساء استعمال حق العفو عن المجني عليه.

والعقوبات المقررة في الاسلام عقوبات ملائمة للجرائم المرصودة لها، وقد شرعت على أساس محاربة الدوافع الخاصة بكل جريمة، فهي في الزنى الرجم للمحصن، والجلد لغير المحصن وتغريب عام، وهي في السرقة القطع، وفي القذف والشرب الجلد، وهي في الحرابة وقطع الطريق كما

---

(١) التشريع الجنائي ٢٤٥/١ ط دار الكتاب العربي - بيروت.

(٢) مواهب الجليل ٢٦٨/٦ عن المرجع السابق.

قال سبحانه: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعَون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفَوا من الأرض﴾[1].

وهي في الردة والبغي القتل، وهي في القتل والجرح العمد القصاص، وفي القتل الخطأ الدية، وعلة التشديد في هذه الجرائم بالذات أنها من الخطورة بمكان والتساهل فيها يؤدي الى انهيار الأخلاق، وفساد المجتمعات، اذ هي جرائم رئيسية تتصل بالحياة العامة ولا يقتصر ضررها على مرتكبيها فقط، ولكنه يتعدى الى الأفراد والجماعات، فالقتل العمد عدوان على الحياة التي اختص الله وحده بمنحها للانسان، فهو عدوان على حق الله، زد على ذلك ما يترتب على هذه الجريمة من الاستهانة بحرمة الدماء، وتأريث الأحقاد والعداوات، واشاعة الفتن والذعر بين الناس، ولذلك كان قتل نفس واحدة بمثابة عدوان على البشرية كلها، من أجل ذلك ﴿كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾[2]، وكان قتل النفس عمدا هو الجرم الذي لا يكفر عنه دية ولا عتق رقبة ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه

---

(١) سورة المائدة – ٣٣.

(٢) سورة المائدة – ٣٢.

جهنم خالدا فيها﴾[1] وكان القصاص هو الجزاء العادل ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾[2].

وجريمة الزنى تشيع الفوضى الجنسية في بيئات الانسان، وتظهر الشخص منتكسا قذرا كالحيوان، وما يترتب على ذلك من اختلاط الأنساب، واثارة الأحقاد وتهديد بنيان الأسرة والذرية.. وفي السرقة عدوان على أموال الناس، وحرمانهم من الاستمتاع بأمنهم وأموالهم اللذين من حقهم أن يستمتعوا بهما... وقطع الطريق فيه ترويع للآمنين والاعتداء على أموال الناس ودمائهم بشكل جماعي أشبه ما يكون بالعصابات المسلحة التي تستهين بالانسان وما يملكه الانسان.

والقذف فيه تجريح للأعراض، وتلويث للسمعة، وإشاعة للسوء والشكوك في جو الأسر وتلك حالات تهدد البيوت بالانهيار، وفي شرب الخمر - أم الخبائث - سلب للعقل - أشرف ما وهب الله للانسان وميزه به عن الحيوان - كما أنها تعرض شاربها للعربدة... والتعدي على حرمات الناس وتحطم قوى الشباب، وتضر بنفوسهم وعقولهم وجسومهم، وكم شرح الأطباء ما لها من ضرر جسيم على النفس والجسم وأجمعوا على ضررها البالغ وأثرها السيء على

---

(١) سورة النساء - ٩٣.

(٢) سورة البقرة - ١٧٩.

الأمة في دينها ورجالها وأخلاقها[١]... وفي الردة كفر بالاسلام ونظامه، وتجريح له واستهانة به، وخروج على نظام الجماعة المسلمة، ذلك أن الاسلام عقيدة وشريعة أو دين ودولة فالخارج عن الاسلام أقل ما يوصف به أنه خارج على نظام الدولة، وهو يشبه في أيامنا هذه جريمة الخيانة العظمى، وعقوبتها الاعدام، يقول الاستاذ علاَّل الفاسي: «وقع اجماع المسلمين منذ انشاء المذاهب الفقهية على قتل المرتد مستدلين لحديث «من بدل دينه فاقتلوه» ولكنهم لا يعتبرون قتله عقابا له على كونه لم يعد مسلما وانما يعتبرون ذلك نتيجة خيانته للملة الاسلامية التي انخرط في عداد أفرادها ثم غدرها، فلو ستر كفره لم يتعرض له أحد ولم يشق على بيضة قلبه كما كان يقع للمنافقين[٢]».

أما ما عدا هذه الجرائم من مخالفات- وسبق ضرب أمثلة لها - فقد ترك التصرف بشأنه لولي الأمر فيؤدب المخطىء عن طريق ما يسمى في الفقه الاسلامي بالتعزيز. والتعزير: التأديب، وهو عقوبة لم تحدد الشريعة مقدارها وتركت للقاضي التقدير الملائم لنوع الجريمة ولحال المجرم وسوابقه... ولقد أعطى الشارع قاضي المسلمين صلاحية فرض العقوبة

---

(١) انظر كتاب الاسلام والطب الحديث د. عبد العزيز اسماعيل.

(٢) مقاصد الشريعة الاسلامية ط الرباط سنة ١٩٦٣ ص ٢٤٩.

المناسبة والتي يراها كفيله بتأديب الجاني واصلاحه، وحماية الجماعة وصيانتها وهي تبدأ بالزجر والنصح، وتتراوح بين الحبس والنفي والتوبيخ والغرامات المالية، ومصادرة أدوات الجريمة، والحرمان من تولي الوظائف العامة، ومن أداء الشهادة.. الخ.. وقد تصل الى أشد العقوبات كالحبس والجلد والقتل وذلك في الجرائم الخطيرة، كالتجسس لحساب العدو مثلا، أو معتاد الجرائم الخطيرة[1].

وبعد: فانه لا يزال البعض يتحرج من اقامة حدود الاسلام، ويثير حولها عجاجة من غبار، ويصفها بالقسوة والشدة، وعدم مسايرتها لروح العصر الذي ارتقت فيه المدارك والطباع الانسانية، ولكن يبدو أن هؤلاء يجهلون فقه الحدود الاسلامية، وحكمتها، ولا يعرفون متى تقام ومتى لا تقام، ومتى يؤخذ بتلابيب المجرم، ولهؤلاء وأمثالهم أسوق الفقرات التالية في مغزى الحدود والملابسات المحيطة بها، والظروف التي تراعى عند اقامتها وأثرها في القضاء على الجريمة، وفي سلامة المجتمع وأمنه، فنقول والله المستعان:

١ - ان الذي شرع الحدود وحدد العقوبات هو عالم

---

(١) التشريع الجنائي جـ ٦٨٨ نقلا عن الطرق الحكمية لابن القيم/ ١٠٦، الحسبة لابن تيمية ٥٨، حاشية ابن عابدين ٤/ ٢٤٧، على أن الشافعية ومعظم المالكية لا يبيحون القتل تعزيزا ويفضلون أن يحبس الجاني الذي يستضر بجرائمه الى غير أمد لكف شره عن الجماعة، ويؤيدهم في هذا الاتجاه بعض الحنابلة (انظر المرجع السابق).

الغيب والشهادة، الخبير بمسالك النفوس ودروبها، العليم بما يصلحها ويقومها ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1] وإذا كان الأمر كذلك فتشريع الله لعباده أمرا أو نهيا، حكما أو حدا بعيد عن كل معاني النقص والقصور، والمبالغة والهوى، وغير ذلك من صفات الجهل والعجز التي يتصف بها البشر وتتسم بها مناهجهم، واذا كانت الحدود من تشريع الله، فان الله أرأف بعباده وأرحم مما يظن القاصرون، وهو أخبر بما يصلح حياتهم ويهذب طباعهم فليس لمتشدق أن يتحدث عن قسوة الحدود وشدة العقوبات، لأنه ليس أبصر بمصلحة الخلق، وأرحم بهم من خالقهم، ومن يظن غير ذلك فقد خرج من الايمان.

٢ - المتأمل في تشريع الحدود يجد أن علاج النفس الانسانية بها يتسم بالحكمة والرحمة معا: أما الحكمة فتتجلى في أن لكل جرم حدا معينا، ولكل مخالفة عقوبة خاصة دون غلو أو زيادة، ودون مبالغة أو افراط، بحيث تلحظ أن الشارع قد سار في هذه الأمور كما سار في غيرها - على أدق المقاييس وأعدلها - فالذي يريد أن يستمتع بنشوة اللذة عليه أن يتوقع أنه سيذوق من الألم أشده.. والذي يريد الثراء من كسب غيره يعامل بنقيض مقصوده، وتقطع منه

(١) سورة الملك - ١٤.

أداة كسبه.. والذي يريد أن يحقر غيره بالقذف سيجد التحقير من الجماعة كلها، فتسقط شهادته، ويمشي بينهم لا يوثق له بكلام.

وهكذا.. وهكذا.. ناسبت كل عقوبة جريمتها، ووضعت على أساس محاربة الدوافع التي تدفع اليها كل جريمة، فهي لم توضع اعتباطا وانما وضعت على أساس طبيعة الانسان وفهم لنفسيته وعقله، ولهذا كانت العقوبة في الشريعة الاسلامية قائمة على واقعية علمية فنية تامة الضبط والأحكام، لأنه مما لا شك فيه أن العقوبة التي تقوم على أساس العلم بالطبيعة البشرية، وفهم نفسية المجرم هي العقوبة التي يكتب لها النجاح لأنها تحارب الاجرام في نفس الفرد وداخله، قبل أن تحاربه في حسه وظاهره، الأمر الذي يجعل الشخص يبتعد حتى عن مجرد التفكير في اقتراف المنكر.

يقول الامام ابن القيم: «لما تفاوتت مراتب الجنايات لم يكن بد من تفاوت مراتب العقوبات، وكان من المعلوم أن الناس لو وكلوا الى عقولهم في معرفة ذلك وترتب كل عقوبة على ما يناسبها من الجناية جنسا ووصفا وقدرا، لذهبت بهم الآراء كل مذهب، وتشعبت بهم الطرق كل متشعب، ولعظم الاختلاف، فكفاهم أرحم الراحمين مؤونة ذلك، وأزال عنهم كلفته، وتولى بحكمته وعلمه ورحمته تقديره نوعا وقدرا،

ورتب على كل جناية ما يناسبها من العقوبة وما يليق بها من النكال، وأنت تلحظ أن هناك تناسب جيد بين الجريمة وعقوبتها المقررة لها بحيث لو وضعت واحدة مكان أخرى أو لو عممت عقابا واحدا على جرائم متعددة لظهر لك على الفور الاختلال والاضطراب وعدم العدل في الأحكام... فالشريعة مثلا عاقبت على السرقة بقطع اليد، ولكنها لم تعاقب على القذف بقطع اللسان، ولم تعاقب على الزنى بالخصاء، وعاقبت في القتل بالقصاص، ولكنها لم تعاقب في اتلاف المال بالقصاص، وسبحان اللطيف الخبير[1]..» هذا عن أن الحدود حكمة.. وأما أنها رحمة.. فهي كذلك بالنسبة للمنحرف ذاته، وبالنسبة للمجتمع الذي يعيش فيه... أما بالنسبة للمجتمع، فذلك ظاهر لما تجلبه له من شيوع الأمن والحماية للأموال والدماء.. وبما تدفعه عنه من أذى العدوان والقلق والترويع، فاذا أرخص الاسلام دم قاتل، فلكي يحقن ألوف الدماء ويحيط الجماعة كلها بما يحفظ عليها حياتها وأمنها ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾[2]. أي حياة هادئة مطمئنة لا بغي فيها ولا عدوان.

---

(١) أعلام الموقعين جـ ٨٢، ٨٣.

(٢) سورة البقرة - ١٧٩.

زد على ذلك ما في إقامة الحدود من بركات تعم المجتمع بأسره، وفي الحديث: «حد يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا»[1] وفي رواية أربعين ليلة أما أن الحدود رحمة بالمعتدي فيتجلى ذلك في مغفرة الله ورحمته التي تحوطه بعد اقامة الحد عليه، فالحدود كفارات للآثام وجوابر لها، تغسل أثرها وتمحو ذنبها، وكون الحدود جوابر لا ينفي أنها زواجر كذلك.. وفي حديث الرسول ﷺ عن ماعز: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»[2] وعن الغامدية: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم»[3] كما جاء في السنة: «من أصاب في الدنيا ذنبا، فعوقب به فالله أعدل من أن يثنّي على عبده العقوبة»[4].. وروي «أن السارق اذا تاب سبقت يده الى الجنة وان لم يتب سبقت يده الى النار»[5]، فالحد أشبه بجرعة من الدواء الكريه يشربها الانسان ليحصل بعد ذلك على الراحة، وفي الحديث: «من أصاب منكم حدا فعجلت له عقوبته فهو كفارته»[6].

---

(١) ابن ماجه - باب اقامة الحدود.

(٢) رواه الخمسة واللفظ للترمذي انظر التاج ٣/ ٢٥.

(٣) رواه الخمسة، انظر التاج جـ ٢٧.

(٤) ابن ماجه - باب الحد كفارة.

(٥) ذكر ابن تيمية هذا الخبر في كتابه السياسة الشرعية ص ٣٥ ط السلفية سنة ١٣٨٧/ القاهرة.

ابن ماجه - باب الحد كفارة.

يقول ابن القيم: «بلغ من رحمة الله تعالى وجوده أن جعل تلك العقوبات كفارات لأهلها وطهرة تزيل عنهم المؤاخذة بالجنايات اذا قدموا عليه؛ ولا سيما اذا كان منهم بعدها التوبة النصوح والانابة فرحمهم بهذه العقوبات أنواعا من الرحمة في الدنيا والآخرة[1]».

٣ - لا يرى الاسلام العقوبة غاية في ذاتها، ولكنه يراها وسيلة - ضمن وسائل كثيرة أخرى لتقويم النفس الانسانية وكفها عن الانحراف، ولذلك فان الاسلام لا يتربص بالمجرم لكي يوقع عليه العقاب، ولا ينتظر عثرة العاثر ليبطش به أو ينتقم منه، انه طالما نصح بالستر عليه لعله يتوب أو يستغفر، دليل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «تعافوا الحدود بينكم فما بلغني من حد فقد وجب[2]»، وعنه ﷺ: اجتنبوا هذه القاذورة التي نهى الله عز وجل عنها فمن ألم فليستتر بستر الله عز وجل، فانه من يُبْدِ لنا صفحته نقم عليه الحد[3]، وقال عليه الصلاة والسلام: «من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»[4]، ويكره الاسلام أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا حتى لا تجرح أعراض الجماعة

---

(١) اعلام الموقعين ٢/ ٨٣ ط سنة ١٣٨٩.

(٢) أبو داود في كتاب الحدود.

(٣) رواه البيهقي ٨/ ٣٣٠ والحاكم ٤/ ٢٤٤، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ ٢٧٢.

(٤) ابن ماجه باب الحدود.

المسلمة، ويلوث جوها بالقيل والقال... ولما جاء ماعز الى النبي ﷺ قال لهزال - رجل حرضه على الاقرار-: لو سترته بثوبك كان خيراً لك»[1]... ويروى أن ماعزاً مر على عمر قبل أن يقر فقال له عمر: أأخبرت أحدا قبلي؟ قال: لا، قال فاذهب فاستتر بستر الله تعالى وتب الى الله، فان الناس يعيرون ولا يغيرون، والله تعالى يغير ولا يعير، فتب الى الله تعالى ولا تخبر به أحدا، وذهب الى أبي بكر فقال مثل ما قال عمر، ثم ذهب الى هذا الرجل الذي لامه النبي ﷺ فأمره بما أقر به[2]... وهذا يدل على أن الجريمة اذا ارتكبت في غير اعلان ينبغي سترها وعدم كشفها.

٤ - اذا ضبط الجاني وجيء به الى القاضي هل يقام عليه الحد فوراً؟ لا.. انه يدرأ ما كان هناك مخرج منه لقوله ﷺ: «ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان كان له مخرج فخلوا سبيله، فان الامام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة[3]...» فحين توجد أي شبهة، فمبدأ الاسلام هنا هو قول النبي ﷺ: «ادرأوا الحدود بالشبهات»[4]، ولذلك يقول عمر بن الخطاب: «لأن أعطل

---

(١) أبو داود باب الحدود.

(٢) العقوبة في الفقه الاسلامي - محمد أبو زهرة/ ٢١٩.

(٣) الترمذي/ باب الحدود.

(٤) ابن عدي في الكامل.

الحدود بالشبهات أحب الي أن أقيمها بالشبهات »[١] ، ولهذا لم يقطع عام الرمادة عندما انتشرت المجاعة[٢]، ولم يقطع كذلك عندما سرق غلمان حاطب بن أبي بلتعة ناقة رجل من مزينة بعد أن تبين أن سيدهم يجيعهم وغرم السيد ضعف ثمن الناقة تأديبا له[٣].

ولعل القصد من وراء الأخذ بمبدأ الشبهة التي تدرأ الحد هو التقليل من العقوبات ما أمكن، اذ القليل منها كاف في الزجر والتخويف[٤] ومن أمثلة ذلك ما ذكره الفقهاء. من أنه لا قطع اذا كان السارق والدا أو زوجا[٥].، أو كان في ظروف مجاعة، وبالنسبة للقذف قالوا لا حد بالتعريض[٦]، وبالنسبة للزنى قالوا لا حد اذا لم يصرح الشهود أو المقر بالعبارات الدالة عليه من غير احتمال فان الحد لا يقام[٧] كما جاء في كتاب المغني لابن قدامة: أنه اذا ادعى أحد الجهل بفساد نكاح باطل قبل قوله لأن عمر رضي الله عنه قبل قول

---

(١) التشريع الجنائي ج ٢٠٨.

(٢) العقوبة في الفقه الاسلامي/ ٢٥٩ ط دار الفكر.

(٣) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ط الهلال ص ٢٦٥.

(٤) لا ينكر قاعدة درء الحدود بالشبهات الا أهل الظاهر الذين لا يسلمون بصحة ما ورد عن الرسول والصحابة في هذا المجال (انظر فتح القدير ٤/ ١٣٩).

(٥) العقوبة في الفقه الاسلامي ٢٢٦.

(٦) العقوبة في الفقه الاسلامي - ٢٥٩.

(٧) العقوبة في الفقه الاسلامي ٢٤٢.

المدعي الجهل بتحريم النكاح في العدة، ولأن مثل هذا يجهل كثيرا ويخفى على غير أهل العلم[1] فالتضييق في الحدود أمر محبب في الاسلام حتى يكون العقاب قليلا مانعا بدل أن يكون عاما جامعا.. على أن الفقهاء وان كانوا اتفقوا على أن الشبهات تدرأ الحدود الا أنهم لم يتفقوا على كل الشبهات، فما يراه البعض شبهة صالحة للدرء قد لا يراه الآخرون كذلك، وتلك أمور كلها من مصلحة المتهم، ومن أمثلة ذلك أن كل نكاح أجمع على بطلانه كنكاح الخامسة أو المتزوجة أو المعتدة أو المطلقة ثلاثا يدرأ فيه أبو حنيفة الحد ولو كان الجاني عالما بالتحريم لأن العقد في رأي أبي حنيفة شبهة والشبهة تدرأ الحد[2]، ولا يرى مالك والشافعي وأحمد درء الحد في هذه الحالات لأنهم لا يعتبرون العقد شبهة[3].

ويجعل أبو حنيفة التفاهة شبهة في المال تدرأ الحد عن سارقه، ويرتب على ذلك ألا قطع في التراب والطين والتبن والحصى وأشباهها الا اذا أخرجته الصنعة عن تفاهته كان القطع واجبا، ويخالف مالك والشافعي وأحمد مذهب أبي

---

(١) المرجع السابق/ ٢٣٢.
(٢) التشريع الجنائي ج ٢١٠ عن فتح القدير ٤/ ١٤٣، ١٤٨.
(٣) المرجع السابق عن شرح الزرقاني ج ٧٦، ٧٧ واسنى المطالب ج ١٢٧.

حنيفة ولا يرون شبهة في تفاهة المال ما دام يبلغ النصاب[١].

ولا يرى أبو حنيفة الحد في سرقة ما يتسارع اليه الفساد كالطعام الرطب والبقول واللحم وفي سرقة باب المسجد لشبهة عدم تحريزه[٢] ويرى مالك والشافعي وأحمد القطع في كل هذا[٣].

٥ - يوفر الاسلام الضمانات الكاملة والكافية لكل متهم، حتى لا يؤخذ بغير دليل ثابت ولذلك كان من المبادىء المقررة في الشريعة أنه لا يصح الحكم بالعقوبة الا بعد التثبت من أن الجاني ارتكب جريمته،فان كان هناك شك في ارتكاب الجاني لجريمته، ولم تتقرر بالنسبة له أدلة الاثبات وجب العفو عنه، وأصل ذلك المبدأ قول النبي ﷺ: «ان الامام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة »[٤]، ومن جهة أخرى نجد أن أدلة الاثبات التي قررتها الشريعة في الحدود دقيقة قلما تثبت الا على محترفي الاجرام.. فهي في الزنى مثلا الاقرار أو أربعة

---

(١) المرجع السابق نقلا عن فتح القدير ٤/ ١٤٨، وبدائع الصنائع جـ ٦٧، ٦٨.

(٢) المرجع السابق عن فتح القدير ٤/ ٢٣٠.

(٣) المرجع السابق عن شرح الزرقاني ٨/ ٩٩ وأسنى المطالب ٤/ ١٤٠.

(٤) الترمذي - باب الحدود.

شهود رجالا يقرون برؤية الفعل ،فاذا لم يتكامل العدد أربعة وأصر واحد أو اثنان أو ثلاثة على قولهم اعتبر من أصر قاذفا ويحد حد القذف[1] وذلك لقوله تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾... وفي القذف بشهادة اثنين أو بالاقرار بعد الدعوى[2]، وفي السرقة الاعتداء على مال الغير المتقوم المحرز خفية.. الخ تلك الشروط.. ولا بد معها من الاقرار... وشهادة اثنين[3]، وفي الشرب مثل السرقة بالاقرار أو بشهادة اثنين[4]... ومثل هذه الشروط لا تنطبق الا على المصر المجاهر بمعصيته الذي تكررت منه حتى أمكن أن تقع منه علنا، ويضبط متلبسا بها، ومن حق المجتمع أن يحمي نفسه ممن لا يأبه بحرمة الله دون استثناء لأي اعتبار كان، ولذلك كان ﷺ يقيم حدود الله دون مجاملة، وقد رفض الشفاعة فيها من أعز أحبابه أسامة بن زيد وقال له: أتشفع في حد من حدود الله؟! انما هلك بنو اسرائيل أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف

---

(١) المغني جـ١٠/٧٢ ط أولى سنة ١٣٨٩، والجريمة في الفقه الإسلامي ٧٨ وذكر المغنى عن الشافعي في المسألة قولين أحدها لا حد عليهم.

(٢) الجريمة في الفقه الاسلامي/ ٨٣.

(٣) المرجع السابق/ ٨١.

(٤) المرجع السابق.

تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[١]، وعنه ﷺ قال: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره»[٢].

٦ - ذهب بعض العلماء الى أن توبة الجاني تسقط الحد عنه وتكون سببا للتجاوز عنه واخلاء سبيله، واستدل هؤلاء بقوله تعالى في آخر آية المحاربة: ﴿الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾[٣].. وحجتهم في ذلك أن القرآن نص على سقوط عقوبة المحارب بالتوبة، وجريمة الحرابة هي أشد الجرائم، فاذا دفعت التوبة عن المحارب عقوبته كان من الأولى أن تدفع التوبة عقوبة ما دون الحرابة من الجرائم وأن القرآن لما جاء بعقوبة الزنى الأولى رتب على التوبة منع العقوبة، وذلك في قوله تعالى: ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾[٤]... وذكر القرآن حد السارق وأتبعه بذكر التوبة في قوله تعالى: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه﴾[٥].

---

(١) رواه الخمسة، انظر أبواب الحدود.
(٢) مجمع الزوائد جـ ٢٥٩ ط ثالثة.
(٣) سورة المائدة ٣٤.
(٤) سورة النساء ١٦.
(٥) سورة المائدة ٣٩.

وقد أيد ابن القيم هذا الرأي ودافع عنه بقوله: «وأما اعتبـار توبة المحارب قبل القدرة عليه دون غيره، فيقال أين في نصوص الشارع هذا التفريق؟ بل نصه على اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه، أما من باب التنبيه على اعتبار توبة غيره بطريق الأولى فانه اذا دفعت توبته عند حد الحرابة مع شدة ضررها وتعديه، فلأن تدفع التوبة ما دون حد الحرابة بطريق الأولى والأحرى، وقد قال الله تعالى ﴿قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾[1]، وقال النبي ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[2] والله تعالى جعل الحدود عقوبة لأرباب الجرائم ورفع العقوبة عن التائب شرعا وقدرا، فليس في شرع الله وقدره عقوبة تائب البتة، وفي الصحيحين من حديث أنس قال: «كنت مع النبي ﷺ فجاء رجل وقال: يا رسول الله اني أصبت حدا فأقمه عليَّ قال: ولم يسأل عنه، فحضرت الصلاة فصلى مع النبي ﷺ، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة، قام اليه الرجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً فأقم فيَّ كتاب الله قال: أليس قد صليت معنا؟ قال: نعم، قال: فإن الله تعالى قد غفر لك ذنبك» قال ابن القيم: «فهذا لما جاء تائباً

---

(١) سورة الأنفال ٣٨.

(٢) ابن ماجه في الزهد، والبيهقي في شعب الايمان.

بنفسه - من غير أن يطلب - غفر الله له، ولم يقم عليه الحد الذي اعترف به، وهو أحد القَوْليْن في المسألة، وهو احدى الروايتين عن أحمد، وهو الصواب.. فإن قيل فـ« ماعز » جاء تائباً، و« الغامدية » جاءت تائبة، وأقام عليهما الحد قيل لا ريب في ذلك، وبهما احتج أصحاب القول الآخر، وسألت شيخنا عن ذلك فأجاب بما مضمونه: ان الحد مطهر وان التوبة مطهرة، وهما اختارا التطهير بالحد على التطهير بمجرد التوبة وأبيا الا أن يطهرا بالحد فأجابهما النبي ﷺ الى ذلك وأرشد الى اختيار التطهير بالتوبة على التطهير بالحد، فقال في حق ماعز: هلا تركتموه يتوب فيتوب الله عليه... ولو تعين الحد بعد التوبة لما جاز تركه، بل الامام مخير بين أن يتركه كما قال لصاحب الحد الذي اعترف به: اذهب فقد غفر الله لك، وبين أن يقيمه كما أقامه على ماعز والغامدية لما اختارا اقامة الحد وأبيا الا التطهير به، ولذلك ردهما النبي ﷺ مرارا وهما يأبيان الا اقامته عليهما ثم يقول: « وهدا المسلك وسط بين مسلك من يقول لا تجوز اقامته بعد التوبة البتة، وبين مسلك من يقول لا أثر للتوبة في اسقاطه البتة، واذا تأملت السنة رأيتها لا تدل الا على هذا القول الوسط[1]، لكنه اذا أخذ بهذا الرأي الذي يسقط الحد

---

(١) أعلام الموقعين جـ ٦٤ ط دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٩.

بالتوبة، فانه ينبغي أن يراعى ما يأتي: -

(أ) أن يكون ذلك فيما يتعلق بحق الله تعالى كشرب الخمر مثلا، ولا يكون مما يمس حق الأفراد، كالقتل أو الضرب، فلا بد في ذلك من عفو أصحابها.

(ب) أن تكون تلك التوبة عن الجريمة الأولى، فاذا عاد الى انحرافه مرة أخرى وضبط... وادعى التوبة، فينبغي أن يعاد النظر في قبول توبته حتى لا يتغفل القضاء أو يستهين بحدود الله تعالى، فقد يكون كاذبا ويكون قد خدع القضاء بها أولا، فلا يخدعه ثانيا، لأن فعله هذا يثبت أن التوبة الأولى لم تكن صحيحة، لأن شرط التوبة الصحيحة التي تقبل الغفران ألا يقع الشخص في الفعل الذي تاب منه مرة أخرى، ولا شك في أن الثانية من نوع الأولى ولا فرق بينهما، ثم ان النفس اذا تمرست بالمعصية - أحاطت بها واستولت عليها، ولذلك قال تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1].

٧ - كثير من هذه العقوبات منصوص عليها في التوراة، وصدق عليها الانجيل لأن ما لا نص عليه في

---

(١) انظر العقوبة في الفقه الاسلامي/ ٢٧٦ - والآية من سورة البقرة - ٨١.

الانجيل بالمنع أو الاباحة تتبع فيه نصوص التوراة، لأن عيسى عليه السلام قال: «ما جئت لألغي الناموس بل جئت لأحيي الناموس»... ويقول الله عز وجل في هذاالشأن: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف، والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص؛ فمن تصدق به فهو كفارة له، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة﴾[١].. ويقول عليه الصلاة والسلام: «انما أهلك من كان قبلكم أنه كان اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»[٢]. وفي سفرى الخروج[٣] والتثنية[٤] أمثلة على عقوبات القتل والغدر والضرب وسائر أنواع القصاص[٥] فالذي يهاجم الاسلام من الأوروبيين في تشريع العقوبات فهو يهاجم الأديان السابقة كذلك، على أنه اذا كان اليهود والمسيحيون قد تركوا تلك الأحكام واستغنوا عنها فنحن المسلمين ليس عندنا استعداد

---

(١) سورة المائدة ٤٥، ٤٦.

(٢) رواه الخمسة - انظر أبواب الحدود.

(٣) الاصحاح ٢١، ٣٥.

(٤) الاصحاح/ ٩.

(٥) لا نذكر هذه الشواهد على أنها صحيحة لأن فيها امورا تخالف النقل والعقل مثل من شتم أباه أو أمه يقتل، كما لا نذكرها على أنها التوراة الحقيقية، وانما لنلطم بها وجه الذين يطعنون في عقوبات الاسلام ونثبت لهم وللأوروبيين أن القصاص وكثير من العقوبات موجود في الكتب السابقة.

لترك ديننا، والتخلي عن شريعتنا، لأننا لا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض.

٨ - اذا تعلل بعض الرقعاء بأن الحدود لا تناسب أذواق العصر ومداركه لأنها وضعت لنفوس قاسية غير مدركة، أما الآن فقد أرهفت الأحاسيس وعلت المدارك فلا سبيل الى مثل هذه العقوبات، قلنا لهم: مصداق هذا الادعاء ألاَّ توجد أسبابه، فلا توجد السرقة التي أوجبت عقوبتها، ولا يوجد الزنى الذي أوجب عقوبته.. وهكذا... ولكن الجرائم ما زالت قائمة، وقد تعددت أسبابها، وتفتحت أبوابها، وتفننت العقول في طرائقها، وتصفحْ أي جريدة في أي بلد في العالم تجدها لا تخلو من جرائم السرقة والقتل والنصب والاختلاس، حتى صار الشخص لا يأمن على نفسه وماله في كثير من بلدان العالم.

ولقد نشرت جريدة الأخبار القاهرية منذ أربع سنوات ما يلي نقلا عن وكالات الأنباء: قتل المجرمون في الولايات المتحدة أكثر من عشرين ألف شخص خلال عام ١٩٧٣ م، وسرق اللصوص ممتلكات وأشياء تزيد قيمتها على ألفين وستمائة مليون دولار، وذلك بعد أن زادت موجة الجريمة خلال سنة ١٩٧٤ بنسبة ١٨٪ عن العام الأسبق.

وذكر تقرير مكتب التحقيقات الفيدرالية في عام

١٩٧٤ م أن عشرة ملايين ومائة ألف جريمة خطيرة وقعت في الولايات المتحدة وذلك بزيادة مليون ونصف مليون جريمة عن عام ١٩٧٣ م، وكان ثلث الذين اعتقلوا لارتكاب الجرائم الخطيرة من الشباب المراهق تحت العشرين[١]... ومثل ذلك كثير في البلدان التي لا تقيم حدود الله، فكثرة أسباب العقوبة دليل على شدة الحاجة الى الحدود والعقوبات دليل على أن النفوس لم تسم عن نفوس السابقين، وان ارتفعت في مجال العقل والفكر، لأن العقل وحده لا يكفي، بل لا بد له من خلق كريم يسيره، وهداية إلهية تهديه سواء السبيل.

واذا بدا للبعض أن العقوبات شديدة موجعة، فذلك شأن العقوبة دائما،... فاسمها مشتق من العقاب، ولا يكون العقاب عقابا اذا كان موسوما بالرخاوة والضعف بل يكون لعبا وعبثا، أو شيئا قريبا من هذا[٢].

أما الغقوبات فشأنها أن تكون رادعة بحيث تكف عن الجريمة قبل وقوعها، فاذا وقعت كانت كفيلة بتأديب الجاني وزجر غيره، والا ما حققت المقصود منها، يقول أحد الفقهاء عن العقوبات: «انها موانع قبل الفعل زواجر

(١) جريدة الأخبار

(٢) التشريع الجنائي جـ ٥٦٤ فقرة ٤٦٢.

بعده »[1] أي العلم بشرعيتها يمنع الاقدام على الفعل، وايقاعها بعده يمنع العود إليه، ثم إن عدم الردع في العقوبات الحاضرة، دليل على الحاجة الى العقوبات السماوية، واذا كان السجن الآن هو أبرز العقوبات على مخالفات العصر أو هو العقوبة الأساسية التي يعاقب بها في كل الجرائم بسيطة كانت أو خطيرة فهل ترى ذلك أغنى شيئا؟

ان الجرائم لم تقل، بل هي في ازدياد مستمر.. كما تدل على ذلك سجلات المحاكم وملفات المحامين.. وفوق أن السجن لم يقض على الجريمة، ولم يوقف نشاطها فان العلاج به فيه كثير من العيوب نشير الى بعضها: -

١ - تكليف الدولة كثيرا من النفقات والأموال الباهظة التي لا بد من رصدها للانفاق على نزلاء السجون، وموظفيها وعمالها، زيادة على تكاليف بنائها وانشائها، وكم يرصد من أجل ذلك من أموال، ان ميزانية السجون من الميزانيات الضخمة التي يدفعها المجتمع وهو في حاجة اليها دون فائدة أو جدوى، ذلك أنك تسأل هل استطاعت السجون المسماة بدور الاصلاح والتقويم أن تقوم بهذا الغرض فعلا من حيث علاج المجرم والقضاء على الجريمة؟.

---

(١) المرجع السابق نقلا عن شرح فتح القدير ٤/ ١١٢.

ان الواقع يؤكد عكس هذا، فان الحبس لا يمنع المجرم من مزاولة هوايته الا مدة الحبس فقط، ثم يعود بعده سيرته الأولى كأعتى ما يكون، لأنه يعيش بين قوم ألفوا الاجرام واعتادوه، فيخرج من سجنه وقد أصبح استاذا في الجريمة بعد أن أخذ قواعدها من مدرسة الجريمة، ولذلك فانه قد يكون في الحبس بعض من لم يتمرس على الجريمة لأنه ليس مجرما حقيقيا، لكنه باختلاطه مع زملائه، وتبادل المعلومات.. والخبرات معهم يخرج وقد أصبح خبيرا متخصصا.

٢ - يحول السجن بين اللصوص وبين العمل خلال فترة السجن، وغالبا ما يكونون أصحاب قدرة ونشاط، وفي ذلك تعطيل للمواهب والقدرات، وكان من الممكن - لو أنهم عوقبوا بعقوبة أخرى غير الحبس تكفي لتأديبهم، كان من الممكن أن يستغلوا جهدهم المعطل في العمل فيستفيدوا ويفيدوا مجتمعهم.

٣ - كثيرا ما يعود السجن على السجين بالضرر البالغ في صحته وجسده نظرا للازدحام الموجود فيه، وعدم الرعاية الصحية والنظافة الكاملة، ولذلك فالسجن غالبا ما يكون وسيلة لنقل الأمراض ونشرها بين

المسجونين، وسببا لافساد أخلاقهم.

٤ - السجن فيه اهدار لانسانية الانسان، لأن السجين ينادى عليه هناك برقمه لا باسمه وفي ذلك الغاء لشخصية الانسان وذاته، واشعاره بالاهانة وعدم الكرامة، ومن شعر بفقد كرامته وانحطاط انسانيته هانت عليه كثير من الجرائم.

٥ - في مدة حبس السارق تكون النتيجة اضطراب اسرته، وعدم استقرارها وفي ذلك من تيسير الانحراف وطرق الاجرام ما فيه.

٦ - بعد أن يخرج السارق من السجن نجده محكوما عليه بالموت الأدبي ان لم يكن المادي أيضا - وذلك لأن الجمهور ينبذه ولا يفتح له صدره أو ييسر له طريقا لاستئناف حياة نظيفة، وقد يضطره ذلك الى أن يزاول الاجرام من جديد، وبصورة فيها تصميم على الانتقام فيمرن عليه ويتشبع بدمه ويصبح عنده حرفة وعادة، وكثيرا ما قرأنا في الصحف عن أشخاص خرجوا من السجن، ولما نووا الاستقامـة، أخذوا يبحثون عن عمل شريف فأوصد المجتمع في وجوههم أبوابه، ووصمهم بعار الانحراف والخيانة، ولذلك كنت

تجدهم يناشدون المجتمع حياة أنقى، وسيرة أطهر.

وبعد... فلقد أخفقت عقوبة الحبس في تأديب المجرمين، كما أخفقت سائر القوانين الوضعية في تنظيف المجتمع من الانحرافات والسوءات، فهل لنا أن نعود الى طريق الكمال والطهر والعفاف.. الى شرع الله.. ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجرْكُم من عذاب أليم، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾[١].

(١) سورة الأحقاف - ٣١، ٣٢.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

٤ - معاملة الرسول ﷺ لبني قريظة

أما بالنسبة لمعاملة الرسول ﷺ لبني قريظة، فلا نريد أن نتعجل الحكم ونقول أنه عليه الصلاة والسلام عالج الأمر بالعلاج الوحيد الذي لا ينفع غيره أو حل عقدته بالسلاح الذي يناسبه.. لا نريد أن نتعجل الحكم بذلك قبل أن نقف على حيثياته وظروفه... معروف أنه بمجرد قدوم النبي ﷺ المدينة عقد بينه وبين اليهود الموجودين بها معاهدة رائدة بمثابة أقدم دستور مسجل في العالم[١]. كان من بنود هذه المعاهدة: -

(أ) التزام كل من المسلمين واليهود بالمعايشة السلمية فيما بينهما وعدم اعتداء فريق منهما على الآخر في الداخل[٢].

(ب) تعهد كل من الطرفين بالدفاع المشترك عن المدينة ضد

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة د. محمد حميد الله ط ثالثة سنة [illegible]

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ٥٠١ ط ثانية سنة ١٣٧٥.

أي اعتداء خارجي وعلى اليهود أن ينفقوا مع المؤمنين ما داموا محاربين[1].

وحدث في العام الخامس من الهجرة أن مر المسلمون بظروف قاسية عندما تجمعت أكبر قوة معادية للمسلمين في ذلك الوقت للقضاء عليهم داخل المدينة، وأحاطت جيوش الأحزاب بالمدينة في عشرة آلاف مقاتل[2] من مشركي قريش وقبائل غطفان وأشجع وأسد وفزارة وبني سليم، على حين لم يزد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل[3]، وكان المتوقع أن ينضم يهود بني قريظة الى صفوف المسلمين ضد القوات الزاحفة على المدينة بناء على نصوص المعاهدة المبرمة بين الفريقين.. لكنّ الذي حدث هو عكس هذا، فقد فوجىء المسلمون ببني قريظة يخونونهم في أخطر أوقات محنتهم ولم يرعوا للجوار حقا، ولا للعهود حرمة، ولقد كانوا يسعون من وراء انضمامهم هـذا الى صفوف الأحزاب التعجيل بسحق المسلمين والقضاء عليهم قضاء تاما.

ولقد أحدث نقض بني قريظة لعهدهم مع المسلمين، واعلانهم الانضمام الى صفوف الغزاة فزعا شديدا في صفوف

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق جـ ٢١٧ ط ثانية.
(٣) السيرة لابن هشام جـ ٢٢٠ ط ثانية.

المسلمين لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث هذا في مثل تلك الظروف، لدرجة أن الرسول ﷺ حرص أول الأمر على كتمان الخبر على المسلمين لما كان يخشى من وقعه على نفوسهم، وبمجرد أن انتهى الى سمعه النبأ أرسل وفدا مكونا من سعد ابن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وعبد الله بن رواحة وخوَّات بن جبير ليذكروا القوم بما بينهم وبين المسلمين من عهود، ويحذروهم مغبة ما هم مقدمون عليه، وأوصاهم قائلا: «انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فان كان حقا فالحنوا لي لحناً أعرفه، (أي الحوا لي في الكلام تلميحا دون تصريح)، حتى لا يفت ذلك في عضد الناس، وأما ان كانوا على الوفاء.. بيننا وبينهم فاجهروا به للناس...» فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، وقالوا عن رسول الله ﷺ: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبينه، فرجع الوفد وأخبر رسول الله تلميحا لا تصريحا، بأن قالوا له: عضل والقارة، أي كغدر عضل والقارة، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معاشر المسلمين[1].

وهكذا ركب القوم رؤوسهم، وقرروا الانضمام الفعلي للغزاة، وأخذوا يمدونهم بالمال والعتاد... وكانت خيانتهم

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢٢٢ ط ثانية.

الأثيمة تلك بمثابة طعنة للمسلمين من الخلف أشق على نفوسهم من هجوم الأحزاب من خارج المدينة ، لأنهم ما كانوا يظنون أن يأتيهم الروع من مأمنهم الحصين، وعند ذلك عظم البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن، وظهر النفاق من بعض المنافقين يفتون بذلك في عضد المسلمين ويرجفون به في المدينة ، حتى إن أحدهم ليقول: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط[١].

هكذا كان الوضع ابان معركة الأحزاب حتى لتصور السيدة أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ظروف المسلمين وقتئذ بقولها: « شهدت مع رسول الله ﷺ مشاهد فيها قتال وخوف ، شهدت المريسيع ، وخيبر ، وكتاب الحديبية ، وفي الفتح ، وحنين ، لم يكن ذلك أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق ، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة ، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري ، فالمدينة تحرس حتى الصباح تسمع فيها تكبير المسلمين حتى يصبحوا خوفا »[٢]، لكن عناية الله تدخلت لنصرة الايمان وأهله

---

(١) المرجع السابق، نفس الصحيفة.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٥٤٨ ط سابعة سنة ١٣٩١.

وهزيمة الشرك وحزبه، وشاء الله أن يندحر ذلك التحالف الوثني اليهودي ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال﴾[١].

وبعد أن ولى المشركون وحلفاؤهم الأدبار، يحملون معهم كل معاني الاخفاق، رجع المسلمون الى منازلهم بالمدينة يغسلون أنفسهم من وعثاء الجهاد والتعب ويلتقطون أنفاسهم بعد قلق نفسي بالغ دام شهرا كاملا.. ويبدو أن البعض ظن أن الموضوع انتهى الى ذلك الحد؛ لكن أيترك الناكثون للعهود دون محاسبة وتأديب.. ذلك ما لا يكون... وتأباه العدالة الالهية، ولذلك كان عقابها عاجلا، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء المرابطة في غزوة الأحزاب في بيت أم سلمة رضي الله عنها اذ تبدى له جبريل عليه السلام فقال: «أوضعت السلاح يا رسول الله!؟ قال: نعم، قال: ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا أوان رجوعي من طلب القوم، ثم قال: ان الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض الى بني قريظة فاني عامد اليهم فمزلزل بهم[٢]»، فنادى عليه الصلاة والسلام في المسلمين: «ألا لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة» فسار الناس فأدرك بعضهم العصر في

---

(١) سورة الأحزاب - ٢٥.

(٢) السيرة لابن هشام جـ ٢٣٢ ط ثانية.

الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلي ، ولم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدا منهم[١]... وتبعهم عليه الصلاة والسلام بعد ان استخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وحاصر القوم شهرا أو خمسة وعشرين يوما[٢]... ولما طال عليهم الحصار عرضوا على الرسول ﷺ أن يتركهم ليخرجوا الى « أذرعات ».. بالشام تاركين وراءهم ما يملكون ، ورفض عليه الصلاة والسلام الا أن يستسلموا دون قيد أو شرط ، واستسلم يهود بني قريظة ، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فوكل عليه الصلاة والسلام الحكم فيهم الى سعد بن معاذ أحد رؤساء الأوس[٣].. وفي اختيار سعد دلالة على حكمة الرسول ﷺ ، وبعد نظره وادراكه لنفسيات هؤلاء القوم ، لأن سعدا كان حليف بني قريظة في الجاهلية ، وقد ارتاح اليهود لهذا الاختيار ، وظنوا أن الرجل قد يحسن اليهم في حكمه ، لكن سعدا نظر الى الموقف من جميع جوانبه ، وقدره تقدير من عاش أحداثه وظروفه ، وشاهد كروبه ومآزقه ، وعرف النذر المستطيرة التي تراءت في الأفق

---

(١) صحيح البخاري ، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبري ، جـ ٥٨٣ والسيرة لابن هشام جـ ٢٣٤ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك جـ ٥٧٦ .

فأوشكت أن تطيح بالعصبة المؤمنة لولا عناية الله عز وجل التي أنقذت الموقف... وسعد هو نفسه الذي شفع لديهم بادىء ذي بدء ليرجعوا عن غدرهم وغيهم، لكن القوم مضوا في عنادهم لا يقدرون للنتائج عاقبة، ولا يراعون الله في حلف ولا ميثاق، ولذلك لما كلم في شأنهم أكثر من مرة قال رضي الله عنه: «لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم»[1].

وبعد أن أخذ رضي الله عنه المواثيق على الطرفين أن يرضى كل منهما بحكمه[2] أمر بني قريظة أن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح ففعلوا، ثم قال: «إني أحكم أن.. تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وأموالهم» فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة[3]، أي سماوات. وأمر عليه الصلاة والسلام بتنفيذ الحكم، فسيقوا الى خنادق في المدينة، فقتل رجالهم وسبي نساؤهم وذراريهم ومن لم ينبت من أولادهم، ولاقى بنو قريظة أسوأ مصير على أفظع خيانة.. وهذا مصداق قول الله عز وجل: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من

---

(١) المرجع السابق ٥٨٧.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج ٥٨٧.

(٣) الطبقات الكبرى ج ٧٥ ط بيروت ١٣٧٦.

صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾[1]. وهنا يحلو للبعض أن يتقولوا على الاسلام، وأن يتطاولوا على تصرف الرسول ﷺ ومعاملته لبني قريظة، ويعتبرون أن الاعدام الجماعي الذي تم لهؤلاء الناس يتسم بالوحشة والقسوة، وكان من الممكن أن يعاقبوا بأي عقاب آخر كالاجلاء أو النفي.. ونقول لهؤلاء: -

أولا: ماذا لو أن نتيجة غزوة الأحزاب تمت حسبما كان يخطط لها بنو قريظة وأحزابهم، ألم تكن هي الابادة التامة للمسلمين أجمعين، على أن اليهود لم يقدموا على هذا العمل الخسيس الا بعد أن تكون لديهم ما يشبه اليقين بأنهم - بمساعدة المشركين - سوف يقومون بتدمير الكيان الاسلامي تدميرا كاملا، واستئصال شأفة المسلمين استئصالا كليا، ولهذا لم يترددوا في الغدر بحلفائهم المسلمين وعلى تلك الصورة البشعة..[2] ولقد كانوا حريصين الحرص كله على المصير الى هذه النتيجة، حتى لقد طلبوا من الأحزاب والمشركين أن يسلموا اليهم سبعين شابا من أبنائهم رهائن

---

(١) سورة الأحزاب ٢٦، ٢٧.

(٢) غزوة بني قريظة - محمد أحمد باشميل - ٢٤٣

عندهم ليضمنوا أن جيوش الأحزاب لن تنسحب من منطقة المدينة الا بعد أن تفرغ من المسلمين وتقضي عليهم قضاء تاما[١]... على أن اليهود ترددوا في الاشتراك مع صفوف المشركين في بداية الأمر وأخذ كعب بن أسد القرظي يقول لحيي بن أخطب الذي جاء يغريه بالانضمام اليهم أخذ يقول له: «انك امرؤ مشؤوم واني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه[٢]...» لكنهم لما تلقوا تأكيدات تفيد أن وضع المسلمين يائس، وأنهم لن يصمدوا طويلا أمام تلك الأعداد الضخمة سارعوا بالانضمام اليهم، فاليهود لو أمكنهم القدر - لا قدر الله - من رقاب المسلمين ما ترددوا لحظة في القتل والابادة تمشيا مع مزاجهم الدموي الذي لا يرى بأسا في قتال الآخرين واستحلال دمهم ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[٣].

وفي سفر التثنية: «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وان لم

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٣٤٧ ط التجارية سنة ١٣٨٢.

(٢) عيون الأثر لابن سيد الناس جـ

(٣) سورة آل عمران - ٧٥.

تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة اعدائك التي أعطاك الرب الهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريما[1]» أي تستأصلها استئصالا.

ولذلك يعلق مولانا محمد علي، على هذا النص في كتابه «حياة محمد ورسالته» بقوله: «وهكذا حكم سعد وفقا للشريعة الموسوية بقتل ذكور بني قريظة وبسبي نسائهم وأطفالهم ومصادرة ممتلكاتهم.. ومهما بدت هذه العقوبة قاسية، فقد كانت على وجه الضبط العقوبة التي كان اليهود ينزلونها - تبعا لتشريع كتابهم - بالمغلوبين من أعدائهم، فأي اعتراض على قسوة هذه العقوبة هو في الواقع انتقاد لا شعوري للشريعة الموسوية، وتسليم بأن شريعة أكثر انسانية يجب أن تحل محلها، وأيما مقارنة بالشريعة الاسلامية في هذا الصدد خليق بها أن تكشف - في وضوح بالغ - أي قانون

---

(١) سفر التثنية - الاصحاح العشرون ١٠، ١٨.

رفيق عطوف رحيم قدمه الاسلام الى الناس »[١].

ثانيا: ان اليهود لم يلقوا من المسلمين طيلة الأعوام التي تلت المعاهدة الا كل بر ووفاء، كما شهدوا أنفسهم بذلك، فعندما ذهب حيي بن أخطب الى كعب بن أسد القرظي يغريه بنقض العهد مع رسول الله ﷺ قال: دعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد الا صدقا ووفاء[٢].. لكنه لم يزل به حتى أقنعه بالخيانة ونقض العهد.

ثالثا: هذا الحكم وان كان صادرا من سعد بن معاذ، إلا انه بمثابة الحكم الصادر من النبي ﷺ؛ اذ هو أقره، وتقرير الرسول ﷺ كقوله وفعله مما هو معروف عند أهل الحديث.. ورسول الله لا ينطق عن الهوى، فكأن ذلك هو حكم السماء في هؤلاء الخونة الغادرين، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[٣]... وفي رواية الطبري: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله[٤]... ثم أليس جبريل عليه السلام هو الذي وقف على النبي عليه الصلاة والسلام وهو يغسل رأسه ابان مرجعه من غزوة الأحزاب ويأمره بالمسير الى بني قريظة

(١) حياة محمد ورسالته ص١٧٥ نقلاً عن غزوة بني قريضة/ محمد أحمد باشميل - ١٧٩.

(٢) البداية والنهاية ٤ / ١٠٣ ط ١٩٦٦ م.

(٣) السيرة لابن هشام ج ٢ / ٢٤٠ ط ثانية.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ج ٢ / ٥٨٧.

ويقول له: ان الله يأمرك يا محمد بالمسير الى بني قريظة، فاني عامد اليهم فمزلزل أركانهم، وفي رواية: قم فشد عليك سلاحك فوالله لأدقنهم كدق البيض على الصفا[1]... فعلام يدل هذا الا أن يكون الهلاك التام والعقاب الصارم من رب العالمين لكل مجرم خئون.

رابعا: ان قانون أي دولة الآن يحكم بالاعدام على من يخون وطنه ويقيم اتصالات مع العدو أو يتجسس لحسابه، يقول أحد الكتاب المعاصرين: لو درس الذين يطعنون في حكم سعد على بني قريظة القوانين المعاصرة دراسة ناقدة وطبقوها على قضية بني قريظة لرأوا أن قوانين القرن العشرين لا تختلف في شيء عما أصدره سعد بن معاذ، لقد كان بين الرسول وبين يهود بني قريظة معاهدة تحفظ حقوق الفريقين وتقضي على كل فريق أن ينصر الآخر اذا واجهه خطر في حرب، ولكن اليهود تآمروا فانضموا الى أعدائه وأوقعوه بين شقي الرحى في المدينة مصطليا بنار أعدائه المشركين من جهة واعتداء حلفائه اليهود في ساعة العسرة من جهة ثانية... فاقترفوا بذلك الغدر ثلاث جرائم:

١ - رفع السلاح ضد سلطان المدينة مع الأجنبي المعتدي.

٢ - دس الدسائس لدى العدو ضد المسلمين.

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس جـ٢/٦٨ ط دار المعرفة بلبنان.

٣ - تسهيل دخول العدو للبلاد.

وقوانين العقوبات العصرية تجعل الاعدام عقوبة كل جريمة من الجرائم الثلاث[١].

خامسا: قد يقال كان من الممكن أن يعامل النبي ﷺ يهود بني قريظة كما يعامل القائد المنتصر رجال جيش عدوه الذي انهزم أمامه واستسلم، أو يعاملهم كما عامل يهود بني النضير وبني قينقاع.. والجواب على ذلك أن بني قريظة لم يكونوا أسرى حرب حتى يميل بهم الى الشفقة، ولم يكونوا في حالة حرب مع المسلمين، وانما كانوا أصدقاء متحالفين - يشكلون مع المسلمين وحدة وطنية ملزمة بالدفاع المشترك عن المدينة ضد أي عدوان، لكنهم ظهروا أخطر من الأعداء، وشرا منهم، اذ يبيتون لأناس يأمنونهم ويخصونهم بحقوق الجار، وواجبات الذمام، فكانوا بمثابة الخائن المتآمر المتواطىء مع العدو على أمته ووطنه في حالة الحرب القائمة، وهذه خيانة عظمى ليس لها في جميع الشرائع الا الاعدام السريع.. وموقفهم هنا يختلف اختلافا واضحا عن موقف بني قينقاع وبني النضير، فالأولون قد أبدوا البغضاء من أفواههم وأشاعوا الريب والشكوك ورأوا في الدعاية

(١) غزوة بني قريظة - محمد أحمد باشميل نقلا عن مقال للدكتور محمد رجب البيومي بمجلة الحج العدد ١٢ السنة ١٨.

المغرضة سلاحا لا يفل.. وبنو النضير قد ائتمروا على قتل الرسول ﷺ، وتحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة دون أن تتيح لهم الفرصة طريقا يصلون منه الى التنفيذ، وهؤلاء وأولئك أهون خطبا من الذين سلوا السيوف ووقفوا في صفوف العدو وأوقعوا الهلع في قلوب يحيط بها الروع من كل ناحية، فتعادل الكفتين بينهما طيش لا يقره إنصاف، وقد جلا بنو قينقاع وبنو النضير عن المدينة، فكانوا مثار القلق والفتنة ومبعث الضيق للمسلمين، فهم الذين حزبوا الأحزاب وجمعوا القبائل مع المشركين ليوم الخندق فأعطوا بمؤامرتهم المزعجة محمدا درسا حاسما يحتم استئصال شأفتهم، وتتبع أفاعيهم في كل مكمن، ليطفىء لهبا يستعر اذا هبت عليه الريح[١].

فعلى الذين يستبشعون الحكم على بني قريظة، ويصفونه بأنه كان قاسيا شديدا... عليهم أن يحيطوا علما بجوانب الموضوع وظروف القضية من جميع أطرافها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) المرجع السابق - ٢٧٤.

بحث حول غزوة بني قريظة

للأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي

« الهند »


لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ه

بسم الله الرحمن الرحيم

لما انتصر الحق وزهق الباطل في غزوة بدر الكبرى، وانهزمت قريش هزيمة منكرة، وأصبحت المدينة دولة جديدة اسلامية، فاضطر الرسول ﷺ لتطويرها وابقائها الى اتخاذ الاجراءات الثلاثة الآتية:

(١) الترتيبات اللازمة لحفظ الشؤون الداخلية.

(٢) الاحتفاظ بالثغور.

(٣) توسيع الحدود وتمديد رقعتها.

ان حفظ الشؤون الداخلية يتطلب أن تنقذ الدولة من المعاندين الفتاكين الذين يتغلغلون في النشاطات الهدامة

والحركات المدمرة، ويبذلون الجهود المتواصلة الجبارة لهدم بناء الدولة وكيانها كما تنطق به التشريعات الدولية والدساتير السياسية فما اجلى الرسول ﷺ قبائل اليهود وما قتل رجالا منهم الا لاقامة التحصينات الداخلية وللذود عن حمى الدولة الاسلامية الجديدة.

أما الغزوات التي قام بها الرسول ﷺ فهي على قسمين:

(١) هجم أعداء الاسلام والمسلمين على المدينة أولا فوقف في وجوههم وصد غاراتهم وحافظ على ثغور الدولة الاسلامية.

(٢) أو اطلع النبي عليه السلام على ان الاعداء يرسمون الخطط لشن الغارة على المدينة فتقدم نحوهم وسارع اليهم حتى رد كيدهم واخفق خطتهم، اما فتح مكة فقد وقع لتوسيع نطاق الحدود لأنها كانت مولدا للرسول عليه السلام وتحمل في أرضها قبلة الإسلام والكعبة المشرفة التي تتجه إليها قلوب المسلمين من جميع أنحاء العالم.

الترتيبات اللازمة لحفظ الشؤون الداخلية

لم يكن في المدينة من يهدد بناءها ويجعل موقف المسلمين

موقفا حرجا تجاه التحصينات الداخلية سوى اليهود والمنافقين وكلاهما كانا يمسان صيانة الحياة المدنية وهدوئها. غير أن دراستنا هنا تقتصر بأمر اليهود ويحسن بنا أن نلقي ضوءا على مؤامراتهم وممارساتهم المعادية قبل بيان الاجراءات التي اتخذها النبي ﷺ.

ذكر اليهود في القرآن الكريم

ان الآيات القرآنية التي تشتمل على ذكر اليهود، على نوعين: الأول: الآيات التي تذكرهم بوجه خاص في ضوء أعمالهم ونشاطاتهم وآرائهم ومعتقداتهم، والثاني: الآيات التي تجمع بين ذكر اليهود وذكر النصارى، وتخاطبهما جميعا باسم «أهل الكتاب» الجامع.

والمعاني التي تتضمنها تلك الآيات القرآنية تتلخص فيما يلي:

(١) ابلاغ الدعوة اليهم بطريق الترغيب والتشويق والملاطفة والمداراة.

(٢) الاشارة الى المعتقدات الفاسدة التي تعتنقها اليهود، والتنبيه على الأعمال المنكرة التي يعتادونها.

(٣) التنبيه على المواقف المعاندة التي اختارها اليهود نحو المسلمين، والدلالة على ما يتعاملون معهم معاملة المكر

والخديعة والعداء، وتحذ المسلمين من مكائدهم ودسائسهم.

والآيات التي سيقت لاستمالة اليهود وتأليف قلوبهم تثنى على الرسول موسى عليه السلام والكتاب المنزل عليه «التوراة» والرسل الآخرين الذين بعثوا في بني اسرائيل لارشادهم واصلاحهم، حيث لا يدرك شأو القرآن في هذا الباب أي كتاب الهي آخر فيمدح رسل الديانات الأخرى وصحفهم والكتب المنزلة عليهم. والحقيقة أن القرآن يدعو إلى وحدة الديانات السماوية والشرائع الإلهية، ولذا يذم بقوة الذين يفرقون بين الرسل ويفضلون بعضهم على بعض ويحطون من شأن الآخرين.

وهذه حقيقة لا تجحد ان رسالة القرآن عن وحدة الدين توافق الفطرة والعقل والمنطق السليم. وهذه هي الدعوة التي يقدمها القرآن في اسلوب قوي ولغة مؤثرة رائعة حيث يقول: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾.

ثم جعل الله بيت المقدس قبلة لتجسيد فكرة وحدة الدين وان حوّلها بعد الى كعبة الله المشرفة.

يقول القاضي البيضاوي في تفسير سورة البقرة: ما جعل بيت المقدس قبلة للمسلمين الا لتأليف قلوب اليهود واستمالتهم.

ان غرض تحويل القبلة هو تعيين المكان الذي يليق بان يكون قبلة المسلمين، لأن أمر اختيار القبلة من فروع الدين وهي لا تزال تتبدل في شرائع الانبياء والرسل، والأصل الرئيسي هو الإيمان بالله وحده والقيام بعبادته كما قال الله سبحانه: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ - الآية..

ولأن فكرة وحدة الدين تتطلب أولا ان يبرهن النبي ﷺ على اثبات رسالته، ثم يطالب من اليهود الاقناع بها واتباعه في دعوته ورسالته وشريعته. فالقرآن ذكّرهم بأن هذا هو النبي المبعوث الذي بشر به في التوراة والانجيل، فعلى هذا كانت تنتظره اليهود بشدة وتقول للأوس والخزرج افتخارا واعتزازا بأن ذلك النبي سيظهر بيننا فنحن نؤمن به ونستولي عليكم.

وان القرآن الكريم قد أقام البراهين القاطعة والدلائل الساطعة على إثبات نبوة محمد ﷺ وتوكيدها حتى ظهر الأمر بينا كالشمس في رابعة النهار، ولم يبق اي ريب في أنه

عليه السلام هو النبي الموعود المذ ن في التوراة والانجيل، وما وسع اليهود الا ان يعترفوا بنبوته، ولكن اليهود هم اليهود؛ أشربت في قلوبهم الخديعة والمكر والغدر والخيانة فلم يؤمنوا برسالته ومع ذلك استمر القرآن في الارشاد والتوجيه ولم يهمل أمرهم.

القرآن يذكر النعم الجليلة والمنن العظيمة على اليهود

ثم ذكرهم القرآن بالنعم التي اسبغها عليهم من الانقاذ من عذاب فرعون وظلمه وقهره، وتفضيلهم على العالمين حيث جعل الله النبوة والكتاب والايمان والعلم والأعمال الصالحات الباقيات والسيطرة، والملك، والعدالة والحكم، والعلم، ومساعدة الأنبياء ومناصرتهم، وتظليل الغمام عليهم في ميدان التيه حينما كانوا لا يجدون فيه ما يسترهم من الشمس ويقيهم من وهجها وحرارتها، وهم كادوا يتحرقون بأشعتها المحرقة المؤلمة، وانزال المن والسلوى حينما وقعوا في ضيق الحياة والاضطراب والبلبلة بسبب الجوع وانفجار عيون الماء من الحجر بعدما عطشوا واضطروا الى الماء وقالوا: من لنا بالماء؟ ولكنهم ما امتنعوا عن عصيانهم وبغيهم حتى ارتكبوا أعظم الكبائر وأكبر الجرائم: قتل الأنبياء، والرسل فغضب الله عليهم فسلط عليهم الروميين الذين اراقوا

دماءهم واستأصلوا شأفتهم وشردوهم واذاقوهم سوء العذاب.

هذه الوقائع قد بينها القرآن للاعتبار والاتعاظ وكشف اللثام عن مكائد يهود المدينة وغدرهم وطباعهم الفاسدة التي تدفعهم الى استحلال ما حرمه الله عليهم من الربا والارتشاء، واشتراء الآيات بالاثمان القليلة ونهب الأموال، وتوجيه الطعن والانتقاد الى المسلمين.

ولما لم ينفع تذكيرهم بالنعم وذهبت جميع الجهود في اقناعهم أدراج الرياح وما رضوا عن المسلمين فضلا عن اعتناق الاسلام، فأشار القرآن الكريم الى ما يوجد بين اليهود والنصارى من فارق أصيل وقال: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون﴾ الآية.

موقف النبي عليه الصلاة والسلام من اليهود

ان النبي ﷺ كان يعرف اليهود كل المعرفة ويعلم كل ما يقومون به من الحركات المعادية سرا وعلانية، ولكن الاسلام يحث المسلمين على أن يعاملوا الناس معاملة الرفق والمودة والعدل والمساواة وان كانوا أعداء، وهذه الآية

تنطق به ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنَّكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ الآية، أما اليهود فقد منحهم النبي عليه الصلاة والسلام بوجه خاص حرية البقاء على دينهم والتمسك بشريعتهم ، واعتبر دماءهم وأموالهم كدماء المسلمين وأموالهم.

نكتفي هنا بذكر نماذج من سماحة النبي ﷺ وحسن معاملته مع اليهود.

روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن طعمة بن أبيرق سرق مرة درع قتادة بن النعمان رضي الله عنه وأخفاها في بيت يهودي ، فصاحب الدرع لما تحسس وجدها عند يهودي قذفها الناس عليه ، فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ يهتف ويصف الحقيقة ، فلما رأى الناس ذلك جاءوا أيضا الى الرسول عليه الصلاة والسلام ليعذروا صاحبهم وكان نبي الله ﷺ قد هم بعذره حتى أنزل الله في شأنه: ﴿انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما﴾ ولكن قال المحدثون عن هذه الرواية: اسنادها ضعيف. يرجع لتفسير ابن الجوزي ص-١٩-ج٢

وذات يوم استسلف رسول الله ﷺ ، شيئا من يهودي

فجاءه اليهودي يوما يطالب الدين واخذ يجر رداءه ويتكلم بكلام غليظ شديد يقلل من شأن الرسول عليه الصلاة والسلام ويسيء اليه، فأخذ الغضب من عمر بن الخطاب كل مأخذ فزجر اليهودي زجرا شديدا، ولكن الرسول عليه السلام ما تأثر بكلام اليهودي الغليظ بل ابتسم وقال لعمر: لا يناسبك هذا الغضب كان يجب عليك أن تنصحه بالرفق وتقول لي أدّ دينه، ثم أمره بأداء دينه واضاف عشرين صاعا من تمر من عنده له.

قضاء المخاصمات بين اليهود

هذا من شأن عبقرية محمد ﷺ أن اصحابه ليسوا وحدهم الذين يؤمنون بعدله وحسن قضائه بل اليهود أيضا كانوا يعتقدون بقضائه العادل فكانوا يأتون اليه لتسوية النزاعات فيما بينهم.

ذات يوم جاء الى النبي عليه السلام بنو النضير وهم كانوا يأخذون دية كاملة على قتلاهم لقوتهم وشرفهم، وبنو قريظة. الذين كانوا يأخذون نصف الدية لضعفهم وهما يتحاكمان الى النبي عليه الصلاة والسلام. فجعل الدية سواء فنزل القرآن: ﴿سماعون للكذب. أكالون للسحت، فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن

يضروك شيئا، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين﴾ ثم بين الله أثر هذه الواقعة ببيان حال من أغرب أحوال هؤلاء القوم بقولـه: ﴿وكيـف يحكمونـك وعندهم التوراة فيها حكم الله، ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾

« المدارة الكاملة والمواساة البالغة »

كان يقضي النبي عليه الصلاة والسلام في ضوء التوراة قضاءا عادلا بين المسلمين واليهود ويؤلف قلوبهم. فلما وصل المدينة وجدهم يصومون صوم عاشوراء فاستحسنه وصام بنفسه أيضا. وهكذا ذات يوم جاء رجل منهم الى النبي عليه السلام وقد لُطِمَ وجهه فقال: يا محمد - «ﷺ» - ان رجلا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي، قال: ادعوه، فدعوه، قال: لم لطمت وجهه؟ قال: يا رسول الله. اني مررت به فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وعلى محمد. فأخذتني غضبة فلطمته. قال: لا تخيروني بين الأنبياء، فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق.. فاذا أنا بموسى وهو آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جزي بصعقة الطور كما روى البخاري في تفسير سورة الاعراف. (ج ٣ سيرة النبي لمولانا النعماني.

الجزء الأول ص ٣٥٢ ج ٣ التفسير لابن الجوزي ج ٣-ص ٣٦٠).

«تكريم اليهود»

يملي تاريخ اليهود المظلم علينا أنهم كانوا ينهمكون في نخر كيان الاسلام والمسلمين أكثر من كفار قريش، مع ذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يقدرهم ويكرمهم بسبب كونهم من أهل الكتاب، فكانت معاملته اياهم ايسر وأخف وأكرم من معاملته لقريش وغيرها من القبائل العربية الوثنية، فكلما كان يقوم هو وأصحابه احتراما لجنازة المسلمين التي تمر عليهم كانوا يقومون لجنازة اليهودي أيضا. فمرة مرت جنازة عليه وهو بين أصحابه فقام لها وفقا لعادته فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه هي جنازة اليهودي؟ فأجاب قائلا: أليست هي ذات روح؟

الاغماض عن اليهود والعفو عنهم

ان عبقريــة محمـد ﷺ كانـت صورة كاملـة للعفو والتسامح، وكان في معاملة اليهود يذهب الى أقصى حدود العفو والكرم، فكان يتسامح عنهم، ويغمض العين عن مكائدهم.

ذات يوم دخل رهط من اليهود على الرسول عليه السلام. فقالوا: السام عليكم فقالت عائشة رضي الله عنها وهي موجودة هناك: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: مهلا يا عائشة، ان الله يحب الرفق في جميع الأمور فقالت: يا رسول الله: الم تسمع ما قالوا؟ قال: قد قلت: عليكم.

العلاقات الاجتماعية بين اليهود والمسلمين

لا شك أن الاسلام ورسالته عن حسن المعاملة تشمل جميع الناس وان كانوا مشركين، وهو يؤكد على الاحسان الى المشركين فماذا ترى في اليهود؟ وهم أهل الكتاب وأصحاب الرسالة الالهية وأهل التوحيد.

كانت تأتي نساء اليهود الى بيت النبي عليه السلام. فمرة دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي مصابة بمرض وعندها يهودية ترقيها فقال لها: ارقني بكتاب الله إلى جانب ذلك كان يراعي النبي عليه الصلاة والسلام حقوق الجوار ايضا.

والاسلام دين الانسانية لا دين امة فكما يتمتع المسلمون بالتبرعات والصدقات ينتفع غيرهم بها ايضا من أهل الكتاب والمشركين، فمرة تصدق النبي عليه السلام على اسرة يهودية. وتصدقت ام المؤمنين صفية رضي الله عنها على ذوي القربى

من اليهود بمال ضخم

(ج ١ الصحيح للامام البخاري. باب من قام بجنازة يهودي. ج ٣ الصحيح للبخاري، باب الرفق في الامر كله- ج ٣ الموطأ للامام مالك، وعمدة القارىء. ج ٣ ص ٣٦٣ وج ٤ كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف ص ٧٣).

معاملة اليهود

ليست هذه مأساة لتاريخ اليهود فحسب بل هي كارثة مؤلمة في تاريخ الانسانية جمعا، ان جميع هذه المعاملات الودية لم تثمر شيئا ولم تنتج أي فائدة في استمالة اليهود الا ماشاءالله، وهم أيضاً ما كانوا ليؤمنوا فنافقوا، ساعدوا الرسول ﷺ في أول الأمر حينما جاء الى المدينة، لكي يكون الرسول مثقلا ولا يخالفهم في قولهم، ولكن ما تحققت هذه الامنيات الحلوة وخابت الآمال بعد تحويل القبلة. ولما أخذ القرآن في توجيه الانتقاد الى معتقداتهم الفاسدة وأعمالهم الباطلة استولى عليهم اليأس، فاستعدوا وتأهبوا للمقاومة بطرق شتى من اساءة الأدب ونسج المؤامرات والحاق الضرر، والاستهزاء بتعاليم الاسلام وتحقيرها، ونشر عواطف الاستنكار بين الناس، والدعايات المضللة ضد الاسلام والمسلمين باستخدام الشعراء والخطباء في كل قبيلة، ونقض المواثيق وتحريض

الانصار على الارتداد من الاسلام - بالتشويق والترغيب، والانضمام الى قريش في مكة لتدبير المؤامرات حتى خطة دنيئة لقتل الرسول عليه الصلاة والسلام.

واذا استعرضنا مثل هذه الأعمال الشنيعة لليهود وجدناها نوعين:

(١) الاعمال التي تنبنى على خبث طويتهم وفساد نيتهم، ولكن لا تتضمن الغدر والخيانة.
(٢) النشاطات التي تنبني على الغدر والمكر والخداع والخيانة - فنترك الأولى ونتحدث عن الثانية في ضوء وقائع وأحداث تاريخية.. ان الميثاق الذي عقده النبي ﷺ مع اليهود يشتمل على البنود العديدة منها بند يصرح بأنهم لا يساعدون أعداء الاسلام والمسلمين، ولو أغير عليهم فيعاضدونهم ويعاونونهم.

فما مضت أيام على هذه الاتفاقية حتى حوّلت القبلة فما بقوا على عهدهم وميثاقهم وبدأوا يحاربون، ثم لما وقعت غزوة بدر الكبرى اهتزوا وطربوا واغتنموا هذه الفرصة للمؤامرة والغدر ونقض العهد ولكن عاقبة الغزوة زادتهم حزنا ويأسا، وبعد ذلك لو كان فيهم الوعي لمسير الاحداث وبعد النظر لأدركوا الظروف ورجعوا الى وفاء العهد،

ولكنهم ما ازدادوا الا طغيانا وعصيانا الى أنهم ساهموا في ممارسات المشركين ضد المسلمين مع أنهم أهل الكتاب، وتخالف شريعتهم وحياتهم الحياة الشركية والوثنية، وقد ذكر ابن اسحق قائمة لمثل هؤلاء الأشقياء تشتمل ٦٧ رجلا من بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع الذين كانوا في طليعة المعاندين للنبي عليه السلام والمسلمين.

« تأييد المشركين »

زار الوفد المبعوث عن بني النضير وقبائل اليهود قريشا وغطفان وبني قريظة وهو يضم زعماء هم وقادتهم مثل حيي بن اخطب وسلام بن أبي الحقيق وأبو رافع والربيع بن الربيع بن ابي الحقيق وأبو عمار وأمثالهم. ففي أثناء جولتهم في قريش قالوا لهم: أنتم أحبار اليهود وأهل الكتاب والعلم، تعلمون فيما نختلف عن المسلمين، فأخبرونا أي دين حق ديننا أم دينهم؟ أجاب الأحبار: دينكم خير من دين محمد، وأنتم أهدى منهم، فأنزل الله تنبيها على هذا العمل المشبوه والمؤامرة الخبيثة والطاغوت﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾، وبعد ذلك نطق القرآن تهدئة لقلق الرسول ﷺ وتسلية لقلبه: ﴿أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾ الآية.

منع الناس عن اعتناق الاسلام

كان في ذلك الوفد نفسه اخوان من أشر خلق الله وأفسدهم، ما كانت مهمتها الامنع الناس عن الاسلام، هما حيي بن اخطب، وابو ياسر بن أخطب وصفهما ابن هشام بقوله: وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الاسلام بما استطاعا، وصور القرآن موقفهما في هذه الآية: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ - الآية، وفي آية أخرى من سورة الكوثر: ﴿ان شائنك هو الأبتر﴾ وأما النفوس الطاهرة البررة من اليهود الذين قبلوا الاسلام مثل عبد الله ابن سلام وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسعد بن عبيد. فكانت اليهود ترمي اليهم سهام الطعن بأنهم اراذل لؤماء وإلالم يرغبوا عن دين آبائهم الى دين جديد.

كعب بن الأشرف

كان العرب يهتمون بشخصيات الشعراء، لأن لهم أثرا بالغا في نشر الدعاية. فهم يشعلون نار الحقد والغضب ضد من شاءوا من القبائل بقصائدهم، فاستخدم اليهود هذه الوسيلة الناجحة عن شعرائهم المجيدين النابغين ضد

الرسول ﷺ وأصحابه. وكان منهم شاعر عبقري نابغ هو كعب بن أشرف، وكان الى جانب ذلك مشرق الوجه، جذّابا، عزيز الجانب، موفور القوة، ذا سلطة وسيادة، وكان يساهم في الحركات المعادية للاسلام مساهمة فعالة ولا يفلت أية فرصة لإلحاق الضرر بالمسلمين، والغدر بهم، فلما انتصر المسلمون في موقعة بدر ثارت ثائرة غضبه فجاء الى مكة لتعزية قريش في قتلاهم في بدر، وانشد عدة قصائد يحث فيها القرشيين على الأخذ بثأرهم بل بلغ من وقاحته أن أنشد عند عودته الى المدينة في حضور المسلمين قصيدة تنطوي على وصف جمال النساء المسلمات منهن اخت ميمونة وزوجة العباس لبابةِ بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها.

معاهدة اليهود مع قريش وعظفان

استمر اليهود في عدائهم للرسول عليه السلام وأصحابه على غير هدى، فخرج وفد من رؤسائهم الذين سبق ذكرهم الى قريش في مكة، وحرضوهم على الاغارة على الرسول عليه السلام وقالوا لهم: انا سنكون معكم حتى نستأصلـه. فاجتمعوا لذلك واستعدوا له. ثم غادر الوفد الى غطفان وقالوا لهم مثل ما قالوا لقريش.

تفريق صفوف المسلمين وتمزيق جمعهم

قام اليهود بعداء المسلمين ونقض عهدهم وبذلوا الجهود المكثفة لبذر بذور الفرقة والانقسام بين صفوف المسلمين وتشتيت تضامنهم وتكافئهم الذي أودعه فيهم الاسلام. فروى ابن هشام رواية توضح مدى استغلال اليهود لموقعة بعاث في تفريق صفوفهم يوما. مَرَّشاس بن قيس - وكان شيخا قدعَسَا، عظيم الكفر شديد الضغينة على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فأمر فتى من يهود كان معه بأن يعمد اليهم ويجلس معهم ثم يذكر يوم بعاث وما كان قبله وينشدهم بعض ما كانوا تبادلوه فيه من الأشعار. فنجح هذا الشهاب اليهودي في اثارة مشاعر الفريقين حتى تواعدا على القتال، فلما سمع ذلك النبي عليه السلام غضب وابدى تألمه وخرج اليهم يقول: يا معشر المسلمين. الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! بعد أن هداكم الله للاسلام، وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم.

ففطن الجميع الى مؤامرة اليهود، فبكوا، وتعانق الأوسيون والخزرجيون وتعاهدوا على التعاون والتضامن ومواجهة كيد اليهود.

المقاطعة الاقتصادية للمسلمين

كان اليهود أوفر غنىً وأكثر مالا وثروة من المسلمين، فالنبي ﷺ والمسلمون كانوا يعاملونهم معاملة البيع والشراء والقرض و الوديعة والتعاطي بالنسبة، ولكنهم أبدوا دائما صورا كثيرة للمخالفة والمعاندة فقاطعوا معاملات المسلمين التجارية ومواقفهم الاقتصادية، وتعاهدوا فيما بينهم بأن لا يؤدوا ديون المسلمين ولا ودائعهم، اضافة الى ذلك كان ينشر المنافقون دعاية المقاطعة بين الناس، فنزل القرآن عن هؤلاء المنافقين: ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ ويصف القرآن اليهود: ﴿ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيلٌ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

وقوف النبي عليه السلام موقفا حازما من اليهود

كانت معاملة الرسول ﷺ مع اليهود تبنى على الملاطفة

والمداراة حتى الآن. وكان يصبر عليهم ويغض الطرف عن مكايدهم ولا يعاتبهم الا بما يكف أيديهم، ولكن بعد موقعة بدر الكبرى لو كان ترك حبل يهود المدينة على غاربهم لاستفحل أمرهم وأصبحوا مصادر فتنة وشغب. لأنه عليه السلام كان قد ادرك ان معركة بدر ستسبب في نشوب معارك دامية وحروب طاحنة فلا بد من اتخاذ الموقف الحاسم نحو اليهود.

بنو قينقاع

كانت تسكن في المدينة وحولها قبائل اليهود المختلفة وفي المدينة ثلاثة قبائل قوية: بنو النضير، بنو قريظة، بنو قينقاع. وكان بنو قريظة وبنو النضير في ناحية المدينة الخارجية ولهم حصون منيعة، وأما بنو قينقاع فهم كانوا يسكنون في داخل المدينة وكانت أحياؤهم بجوار أحياء المسلمين وهم يتخذون الصياغة والتجارة مهنة لأنفسهم فلهم سوق باسم (سوق بني قينقاع).

فكان من مقتضيات الحكمة والحنكة ان يبدأ النبي عليه الصلاة والسلام السياسة الحازمة الايجابية بقبيلة بني قينقاع وهم كانوا أول من نقض العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ وغدر من اليهود: قال ابن سعد عنهم: فلما

كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد ونبذوا العهد. وقالوا: لم يلق محمد من يحسن القتال، ولو لقينا لاقى عندنا قتالا لا يشبهه قتال أحـد.

وفي سيرة ابن هشام: ان اليهود ما جاءوا الى الرسول عليـه السلام وانما جاءهم الرسول ﷺ بعد وقعة بدر، فجمعهم في سوق لهم بالمدينة وقال لهم: «يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فانكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله اليكم» ولكن هؤلاء اليهود كعادتهم دائما أصروا على ضلالهم وعنادهم فقالوا: يا محمد: انك ترى أنا قومك!! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب. فأصبت منهم فرصة، انا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس» وهذه رواية ابن هشام أصح الروايات عندنا.

وقد حدث في تلك الأيام أن فتاة عربية من قبيلة عربية تجاور المدينة. كانت قد اعتادت أن تجلب اللبن الى المدينة، وبينما هي يوما في الحي الذي يسكنه بنو قينقاع، اذ اعترض طريقها بعض شباب اليهود الذين بهرهم جمالها، فطلبوا منها أن تكشف الخمار عن وجهها، ثم غافلها أحد الصياغ وربط الخمار بالمقعد الذي كانت الفتاة تقعد عليه بحيث اذا هبت واقفة انكشف وجهها، وقد تم له ما أراد،

وتعالت ضحكات اليهود، ووقفت الفتاة وسطهم حائرة مضطربة، فشاهد احد المسلمين موقف الفتاة الحرج، فتقدم شاهرا سيفه واغمده في صدر الصائغ اليهودي، فهجم الشباب اليهود على المسلم وقتلوه، واندفع المسلمون بأسلحتهم كما تزود يهود بني قينقاع بسلاحهم، ورأى الرسول عليه السلام ان يقاتل هؤلاء اليهود فقد نقضوا العهد الذي عقده معهم.

ومن الأمثال الانجليزية السائرة ان جميع الحروب العظيمة ما نشبت الا بأمر يسير وما معظم النار الا من مستصغر الشرر، وهذه الحادثة ايضا لا تحمل الأهمية ولكنّها سببت في الاغارة على بني قينقاع، فلما رأى بنو قينقاع سيل المحاربين المسلمين أغلقوا أبواب القلاع، فسار الرسول عليه السلام وحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى اضطروا الى النزول على حكمه عليه السلام.. وهنا يبدو تحالف اليهود مع المنافقين، فجاء رئيس الخزرج عبد الله بن أبي ابن سلول الى الرسول ﷺ يتشفع لبني قينقاع بإلحاح وضراعة، فقال عليه السلام: «اتركني. يقول الراوي: كان الرسول عليه السلام حينئذ في أشد الغضب حتى كان يرى أثره في وجهه - فقال وهو في غضب: يا عدو الله ابتعد عني، فقال ابن أبي: والله لا أذهب من هنا، الا أن تتخلصهم لي، فقال له الرسول عليه السلام: لهم الامان بسببك وأخلي سبيلهم على

أن يتم جلاءهم عن المدينة وسمح لهم باصطحاب النساء والذراري وجميع الأمتعة سوى الأسلحة، فرحل بنو قينقاع إلى شمال الحجاز حيث استقروا في أذرعات بالشام وخرجوا من المدينة المنورة.

هذه واقعة تدل على سماحة الاسلام وتكسبه مزيدا من البهاء والاشراق حيث ان الرسول عليه السلام ما أصابهم بالجرح أو التلف في الأنفس مع أنهم كانوا أعداء أشداء ألداء. هذه الآية نزلت فيهم: ﴿واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين﴾ «الانفال».

قد يدعي أعداء الاسلام من الانكليز وغيرهم: ان الاسلام انتشر في العالم بالسيف ويستدلون عليه بما قال رسول الله عليه وسلم لبني قينقاع: يا معشر اليهود. احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة «وأسلموا» لأن هذا. اللفظ يدل على أن الرسول هددهم وأجبرهم على الاسلام.

تعالوا نفكر في أن الاسلام هو دين السلام، والقرآن يدعو الانسانية الى الصلح والسلم فلا نجد فيه أي اشارة الى أن يغار على الذين لا يقبلون الاسلام من غير روية وانما هو يشتمل على التوجيهات الحربية، ولكنها لا تنفذ الا بعد ظهور أعداء الله ورسوله والحاقهم الضرر بالمسلمين بغير حق، بل

أمر الله رسوله بان لا يجبر الناس ولا يكرههم لاعتناق الاسلام﴿فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ ومنها ﴿انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل﴾ومنها ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ ومنها ﴿فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ﴾.

معنى كلمة اسلموا

فلو كان الأمر كذلك فكيف أمكن للرسول عليه السلام أن يريد بأَسلموا طلب الإيمان لأن لفظ الإسلام ما استعمل في القرآن في آية وأريد به الإيمان، بل بين الإيمان والاسلام عموم وخصوص مطلق تشير اليه هذه الآية ﴿قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾ ويؤيد الفرق بين الاسلام والايمان ما ورد في صحيح مسلم أن رجلاً جاء الى النبي ﷺ وسأله عن الاسلام والايمان والاحسان، فأجاب الرسول عليه السلام جوابا يشير الى هذا الفرق. فلما لم يستلزم الاسلام الايمان وهو هدف أساسي للشريعة استعمل هنا «اسلموا» لطلب الايمان؟ نعم من الأحاديث النبوية ما أريد فيها

بالاسلام الايمان والذي يتعين من معنى الاسلام بالسياق هو أن المراد بأسلموا أطيعوا وانقادوا دون آمنوا.

قتل كعب بن أشرف

فلما تم أمر بني قينقاع توجه الرسول عليه السلام الى الذين كانوا يواصلون الجهود لاستئصال الاسلام والمسلمين، منهم كعب بن الأشرف لأنه يشبب بنساء المسلمين وينتهك الاعراض مما أثار غضب الرسول عليه السلام. فقال: من لي بابن الأشرف هذا فانه قد آذى الله ورسوله. فقام محمد بن مسلمة رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم فقال: فأذن لي أن أقول شيئاً قال: قل، فأتاه محمد بن مسلمة فقال: ان هذا الرجل قد سألنا صدقة وانه قد عنانا، واني قد أتيتك استسلفك وسقا أو وسقين فقال: نعم ارهنوني، قالوا: أي شيء تريد، قال: ارهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب!؟، قال: فارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال: رهن بوسق أوبوسقين؟!فقالوا: هذا عار علينا ولكنا نرهنك السلاح، فواعده إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته أين تخرج هذه الساعة، فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة وقالت: اسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم قال: إنما هو

محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، ان الكريم لو دعي إلى طعنةٍ بليل لأجاب. ويدخل محمد بن مسلمة معه برجلين فقال: إذا ما جاء فإني آخذ بشعره فَأُشْتَمُّهُ فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفح منه ريح الطيب فقال: ما رأيت كاليوم ريحاً وقال: أنت أعطر العرب وسيد العرب وأكمل العرب، ثم قال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فشمه وأصحابه، ثم قال: أتأذن لي، فقال: نعم فلما استمكن منه قال: دونكم فاقتلوه، ثم أتوا النبي ﷺ وأخبروه فسر عليه السلام غاية السرور وقدر جهودهم وشكر مساعيهم، فخافت اليهود لهذه الوقعة، فليس بها (أي في المدينة) يهودي إلا وهو يخاف على نفسه.

اجلاء بني النضير

كان من المتوقع بعد اجلاء بني قينقاع أن تعتبر وتتعظ القبيلتـان اليهوديتـان غـير أنها زادتا الاتصال بقريش وشجعـهم على المؤامرات ما أصاب المسلمين في موقعة أحد من قريش، فحدثت الغزوات والسرايا بعد غزوة أحد بهذا العدد نحو سرية أبي سلمة، سرية بن أنيس، سرية بئر معونة، سرية الرجيع. وفي تلك الأيام وقعت حادثة كشفت اللثام

عن وجه بني النضير فاستفحل أمرهم ولم يبق بدّ من تلافي شرورهم واخماد نار عدائهم، فقد تقدم في السنة الرابعة من الهجرة أبو البراء الكلابي رئيس بني كلاب وتظاهر برغبته في الاسلام، وطلب من الرسول ان يزود قومه ببعض المسلمين الذين يبلغون دين الاسلام ويقومون بتعليم الكتاب والسنة، فقال النبي ﷺ، أخاف من نجد قال: أبو براء: أنا أضمن لهم «فبعث الرسول عليه السلام معه جماعة من الأنصار يبلغ عددهم سبعين وهم أهل التقوى والسيرة الطيبة، معروفون بالقراء يحفظون القرآن فهم كانوا يجمعون الحطب طول النهار ويبيعونه مساء ويقضون حياتهم البسيطة، فأقاموا عند بئر معونة وأرسلوا حرام بن ملحان بكتاب الرسول ﷺ الى عامر بن طفيل رئيس بني عامر فقتله عامر وجمع ما حوله من القبائل، من عصيّة ورعل، وذكوان للاغارة على المسلمين، فألف جيشا وتقدم الى الامام، وأما أصحاب رسول الله ﷺ فهم كانوا ينتظرون عودة (حرام ابن ملحان) فلما تأخر رحلوا فقابلوا جيش عامر في الطريق فهاجموا المسلمين وقتلوهم عن آخرهم سوى رجل واحد (عمرو بن أمية) فاخلى عامر سبيله قائلا: ان أمي نذرت عتق عبد فأعتقك. فلما وصل الخبر الى النبي عليه السلام أخذه الحزن وبلغ الهم مبلغه فدعا عليهم في صلاة الفجر

طول الشهر.

وأما (عمرو بن أمية) فقد رجع الى المدبنة، وفي طريقه اليها التقى برجلين من بني عامر معهما أمانٌ الرسول عليه السلام، فظن عمرو انهما ينتميان الى أعدائه وأراد ان يأخذ بثأر إخوته المسلمين القتلى فقتل هذين الرجلين من غير علم بأمان النبي عليه السلام لهما، فلما سمع عليه السلام أبدى الأسف البالغ وقال أؤدي ديتهما.

كان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف فرأى النبي عليه السلام أن يخرج الى بني النضير لاجراء المفاوضات حول أداء الدية، فرحبوا به وأصحابه واستقبلوهم بكل حفاوة وحرارة، فجلس الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه الى جنب جدار من بيوت بني النضير، وتآمر بنو النضير بأن يلقي رجل منهم صخرة على محمد من السقف فيقتله، ولكن الله عز وجل أعلم رسوله بالمؤامرة فعاد الى المدينة مع أصحابه.

وأثارت هذه المؤامرة ثائرة الرسول عليه السلام على بني النضير وبعث محمد بن مسلمة يطلب منهم الجلاء عن المدينة خلال عشرة أيام والا يحاربهم بعدها، فرفض بنو النضير الجلاء اعتمادا على بني قريظة والمنافقين الذين يشجعونهم

ويقولون لهم: اثبتوا وتمتعوا ، انا معكم ، وان قوتلتم قاتلنا معكم وان اخرجتم خرجنا معكم، فصور القرآن هؤلاء المنافقين: ﴿الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وان قوتلتم لننصرنكم﴾[1].

فلما مضت عشرة أيام وخمسة عشر يوما تحصن بنو النضير فحاصرهم الرسول عليه السلام وأمر المسلمين بقطع النخيل التي حالت دونه ، فاحتج بنو النضير على هذه العملية ، فقال الله عز وجل في القرآن مؤيدا رسول الله ﷺ: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين﴾[2] واللِّينة قسم من التمر الرديء ضد العجوة وقطعها لا يضر وما قطع كل الأشجار وانما قطع بعضها. وهذا ايضا لا يضر عندما يكون لمصلحة من مصالح الحرب والسياسة ،فاندفع احتجاج بني النضير، ونقد الكتاب الاوربيون عمل قطع النخيل.

ولم تبق قبائل اليهود على وعدها وعجز بنو النضير عن الثبات على قتال المسلمين فرضوا بالجلاء ، فأمرهم الرسول عليه السلام بالجلاء عن المدينة ولهم ما حملوا من أموالهم

(١) سورة الحشر - آية ١١

(٢) سورة الحشر آية / ٥

وأمتعتهم وللرسول أسلحتهم، وغادر بنو النضير المدينة مع احمال بعير من أحسن ما في بيوتهم من الأثاث.

رحل بعض بني النضير الى الشام ونزل معظمهم بمدينة خيبر ومنهم عمالقة اليهود سلام بن أبي الحقيق وحُيَيٌّ بن أخطب وكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق فاستقبلهم اهل خيبر واغتنموا قدومهم ودانوا لهم.

فلما هدأت ظروفهم واطمأنت قلوبهم كرروا المؤامرة فمدّوا يد المساعدة الى بني قريظة، وحرضوا قريشا على الاغارة على المدينة، ودعوا غطفان وقبائل سليم الى انجاح خطتهم وتحقيق هدفهم فوقعت غزوة الاحزاب.

وجه ذهاب الرسول ﷺ الى بني النضير

أغلب الروايات تصرح ان بني النضير كانوا عقدوا للرسول عليه السلام حلفاً عند قدومه الى المدينة، يقضي بالتعاون على أداء الدية فقد جاء في نص المعاهدة (وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة)، (وان اليهود يقفون مع المسلمين ما داموا محاربين) فخرج النبي ﷺ اليهم يستمدهم في دية المقتولين من بني عامر. ولكني أقول: ان الرسول عليه السلام رأى أن يستشير بني

النضير في أمر أداء الدية، كيف تؤدى وكم تؤدى؟ لانهم حلفاء بني عامر يعلمون كيف يتسلم بنو عامر ديتهم، فخرج الرسول عليه السلام لهذا الغرض فقط دون غيره لأن بني النضير ما اشتركوا في المعاهدات التي عقدها الرسول عليه السلام مع قبائل اليهود فروي ان بني النضير أرسلوا الى النبي عليه السلام وقالوا: له اخرج الينا في ثلاثين رجلا من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبرا حتى نلتقي بمكان فيسمعوا منك، فان صدقوك وآمنوا بك آمنا بك، فلم يطمئن الرسول عليه السلام من غدرهم ومكرهم فقال لهم: أعطوني موثقا فأبوا أن يعطوه عهدا فتركهم الرسول عليه السلام وغدا الى بني قريظة ودعاهم الى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم، ولكن بني النضير ما رضوا عن المعاهدة.. فأرسلوا الى النبي عليه السلام ثانيا أخرج الينا في ثلاثة رجال ايضا مع ثلاثة أحبار، فان آمنوا بك آمنا ايضا، فرضي الرسول عليه السلام واستعد له، ولكن أخبر في أثناء الطريق خبرا صحيحا أن بني النضير قاموا هناك متسلحين غادرين يريدون القتال.

والى ذلك فقد ورد ان بين بني النضير وبني عامر عقدا حلفا، فكيف يسبب هذا العقد بينهما اشتراك بني النضير في اداء الدية مع المسلمين؟ فالصحيح هو ان الرسول عليه

السلام ما جاء الى بني النضير للتشاور في أمر الدية.

وينبغي ان يلاحظ أنه قد قُتِلَ سبعون من أصحاب رسول الله ﷺ ومع ذلك فانه اهتم بوفاء العهد الى حد خروجه بنفسه إلى بني النضير للتشاور في أمر الدية مخاطراً بنفسه وبأصحابه.

بنو قريظة: كان يساهم بنو قريظة ايضاً في المؤامرات التي قام بها بنو قينقاع وبنو النضير ضدالرسول عليه السلام، ولكنهم رضوا على المكث في المدينة بعد اجلائهما فاذن لهم الرسول عليه السلام وجدد لهم المعاهدة التي تنص بأنه اذا أغار العدو على المدينة فلا يساعدهم بنو قريظة، ولكنهم عادوا الى ما جبلوا عليه من الغدر والخيانة، كما قال حيي ابن أخطب: ما عقد اليهود المعاهدة مع الرسول عليه السلام الا لالحاق الضرر بهم كلما سنحت لهم الفرصة.

غزوة الخندق: كما مر أن زعماء بني النضير حرضوا قريشا وغطفان وسليما والقبائل الأخرى على الاغارة على المدينة، وسولوا لهم الفتح والنجاح، فتحزبت الأحزاب واعدت قواتها حتى بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل، وكان لكل قبيلة قائد فخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب. وخرجت غطفان بقيادة عيينة بن حصن الفزاري وخرج

ايضاً بنو مرة بقيادة الحارث بن عوف، وخرجت قبيلة اشجع بقيادة مسعود بن رخيلة، وبنو سليم بقيادة سفيان بن عبد شمس، وبنو أسد بقيادة طليحة بن خويلد الأسدي. وهذه الاحزاب كانت متسلحة بأسلحة العرب فكان عدد الفرسان ستمائة وعدد الأبل مائة وخمسين.

غزوة دومة الجندل: كانت تتزود الاحزاب بالأسلحة وتستعد للاغارة حتى أخذ بنو النضير الذين رحلوا الى نواحي المدينة الشماليةفـي العداء ،فأحرقوا المستعمرات التي كانت امتدت على طريق فلسطين، وكان توطّد نفوذ بني النضير في سكان دومة الجندل التي تقع على بعد خمسة أميال، فهم كانوا يؤذون القوافل التي تمر بهم من الشام الى المدينة ،فخرج الرسول عليه السلام للغزوة في ربيع الأول للسنة الخامسة من الهجرة ومعه ألف مقاتل، ولكنه اطلع على خطط قريش وغطفان فعاد الى المدينة.

حفر الخنـدق: لما علم الرسول عليه السلام بالهجوم، المفاجىء الخطر ولم يجد الوقت الكافي للخروج الى مكان مناسب يقابل فيه هذه الجموع الكبيرة، بدأ يفكر في طريقة للدفاع عن المدينة واستشار المسلمين، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على الرسول ﷺ بأن يحفر الخندق الذي يحيط بالموقع الحساس الذي تظن اغارة الاعداء منه،

فقبل عليه السلام هذا الاقتراح ثم خرج مع عدة من أصحابه يتفقد الأمكنة التي تجدر بالهجوم ونزول الجيش الإسلامي، وأراد أن ينقل الصبيان والنساء والأنعام وأثاث البيوت الثمينة في أطراف المدينة، وعين مقر المعسكر الإسلامي في وادي جبل سلع.. وكانت المدينة محاطة بالبساتين التي تحصنها إلا أن الجانب الشمالي كان منفذاً يخشى منه هجوم شديد،فأمر الرسول عليه السلام المسلمين بحفر الخندق في الجانب الشمالي الحساس،وقسم عشرين متراً من الأرض لكل طائفة تشتمل على عشرة رجال.

كان المسلمون يدأبون في حفر الخندق والرسول ﷺ يعمل معهم طول النهار، وهم لا يبالون بالجوع والعطش والبرد القارص المؤلم فلما رأى النبي ﷺ أصحابه في هذا الموقف الحرج الضيق، يحفرون الخندق وينقلون التراب على ظهورهم رق لهم قلبه وترقرقت لهم عينه فقال: اللهم لا عيش الا عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرة. فقالوا: نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا.. وكان الرسول عليه السلام ينقل التراب بنفسه حتى اغبر بطنه ﷺ.. وعن جابر رضي الله عنه: كنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجئنا النبي ﷺ وقلنا: هذه كدية عرضت في الخندق فقال: أنا نازل فأخذ المعول وضرب فعاد

كثيبا أهيل[١].

الهجوم على المدينة

تم حفر الخندق في ستة أيام أو أربعة وعشرين يوما أو غير ذلك، فجاءت الاحزاب المدينة وحاصروها حيث ان قريشا وبني كنانة والاحابيش نزلوا بمجتمع الأسيال من رومة وغطفان وحلفائهم أقاموا في ذنب نَقْمَى إلى جانب أحد. ونصب الرسول عليه السلام المخيمات العسكرية لثلاثة آلاف مقاتل[٢]. ونظم صفوفهم خلف الخندق، وجعل ابن ام مكتوم واليا ومشرفا على شؤون المدينة، وكلف سلمة بن اسلم مع ٢٠٠ رجل يراقب بني قريظة حتى لا يلحقوا بالمسلمين أي ضرر، وكان من عادة الرسول عليه السلام أن كان ينصب خيمته في المكان العالي المنيع لكي يشرف على المسلمين ويكشف عن الأعداء فنصب خيمة على جبل سلع في مكان حصين.

فتقدم ابو سفيان مع الجيش العرمرم وتقدم الرسول مع ثلاثة آلاف مقاتل، وكان المنافقون يطلبون الفرار من مقاومة الأحزاب فصور القرآن حالتهم: ﴿يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا﴾[٣] فحينئذ صار

---

(١) صحح البخاري باب غزوة الخندق ج ٣ - سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٣١

(٢) سيرة ابن هشام

(٣) سورة الاحزاب آية ١٣.

الموقف حرجا وصفه القرآن ﴿اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً﴾.

فخرج رئيس الاحزاب ابو سفيان بن حرب يستعرض جيشه وأحوال المسلمين ففوجىء بذلك الخندق وقال: لماذا لا تنزلون في ميدان القتال، من أين اتخذتم هذه الطريقة. فرد الرسول عليه السلام بأن ربي الله علمني هـذه الطريق، فالأعداء كانوا يحاولون عبور الخندق غير أنهم كلما قربوا منه أصيبوا بوابل من سهام المسلمين أو خافوا على أنفسهم من الوقوع في الخندق؛ومع ذلك فازت كتيبة من فرسان الاعداء مرة في اجتياز الخندق من مكان ضيق وكان فيها عمرو بن عبدوُدٍّ العامري وعكرمة بن أبي جَهْل، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب الفهري، وكان في ذلك المكان الضيق على بن أبي طالب رضي الله عنه مستعدامعأصحابه، فرأى هذه الكتيبة تجتاز الخندق فحرَّض أصحابه على القتال وقال علي رضي الله عنه لقائد الكتيبة عمرو بن عبدود: اعتنق الاسلام أوانزل، فأجاب لا يمكن أن أعتنق الاسلام واما القتال فاني أكرهه لأنك... رفيقي فانا عمك. قال علي رضي الله عنه:اني اريد القتال على كل حال، فنزلا

للقتال وثار النقع بينهما حتى حال دونهما ، فلما انقشع الغبار رأى الناس أن عليا على صدر عمرو يقطع رأسه فرأى بقية أفراد الكتيبة هذا المنظر الرهيب فاندهشوا ورجعوا على الأعقاب.

استمالة بني قريظة

رأت الاحزاب ان الخندق قد اتعبهم،وجهودهم المكثفة ما نجحت في إلحاق الضرر بالمسلمين،وما اثبتت لهم التفوق العسكري ، فحرضوا بني قريظة أن يهجموا من الشرق وبعث أبو سفيان إليهم عكرمة بن أبي جهل مع رجال من قريش وغطفان وقال لهم في رسالة: ان جمالنا وأفراسنا تأخذ في الهلاك ولا نتمكن من مكث طويل فتحزبوا وانضموا الينا فنحن نغير على محمد مجتمعين ، ولكن بني قريظة ما اجترأوا على نقض العهد الذي عقدوه للرسول عليه السلام لأنه قد سلط عليهم كتيبة تضم مائتي رجل ،ثم قام حيي بن اخطب زعيم يهود بني النضير بمهمة تحريض بني قريظة على نقض عهدهم للرسول عليه السلام ، فخرج الى حصنهم المنيع ولكن كعب بن أسد زعيمهم أغلق باب حصنه دونه ، وألح حيي بن اخطب عليه ان يفتح له الباب ليحادثه فقال كعب: ويحك يا حيي انك امرؤ مشؤوم ، واني قد

عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه الا وفاء وصدقا، وما زال حيي يلح عليه حتى فتح كعب له باب الحصن فقال: قد جمعت الاحزاب زعماء قريش وغطفان الذين عقدوا العزم على استئصال محمد وأصحابه، وأجاب كعب: اتركني على حالي، وما زالت تدور المفاوضات بين الزعيمين اليهوديين حتى نجح حيي في اغواء كعب بنقض عهده للرسول عليه السلام، وبنو قريظة وان عقدوا المعاهدة مع الرسول عليه السلام ولكنهم ما قاموا عليها وانما كانوا ينتظرون الفرصة للهجوم على المسلمين، ولما نقل الرسول عليه السلام النساء المسلمات الى حصن منيع قرب بني قريظة تأهب اليهود للاغارة عليهن وبعثوا عينا تفحص عن ازواج النبي عليه السلام ومنزلهن. فهذا الجاسوس كان يتجول حول الحصن فرأته صفية رضي الله عنها واجترأت فضربته بخشبةٍ كبيرةٍ فمات.

فلما سمع النبي ﷺ أن حيي بن أخطب قد أقام في بني قريظة وقد حرضهم على نقض عهدهم، بعث اليهم للاستطلاع سيد الخزرج سعد بن عبادة رضي الله عنه - وزعيم الأوس سعد بن معاذ وصحبهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير وقال لهم: «اذا صدق ما سمعنا فاخبروني بحيث لا يكون له أثر في نفوس المسلمين والا أخبروني

واضحا على أعين الناس » فلما وصلوا وجدوهم مصرين على غدرهم وخيانتهم ويقولون عن رسول الله: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فرجعوا وأخبروا بالموقف الذي شاهدوه، فقام عليه السلام وواجه الظروف العصيبة بفرح حتى لا يلحق بالمسلمين الضعف والخور.

هؤلاء هم بنو قريظة الذين كانوا يرزحون تحت أعباء ظلم بني النضير فأنعم الرسول عليه السلام عليهم حيث سوى بينهم وبين بني النضير في أداء الدية وفـي نفوسهم وأموالهم؛ ولكنهم نقضوا العهد بينهم وبينه وساعدوا المشركين الاعداء بل لو لم يخافوا الكتيبة التي عينها الرسول عليه السلام ضدهـم لحاربوا علانية، فصور القرآن حالهم ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب ﴾.

رواية تجدر بالنقد: روي أن نعيم بن مسعود رضي الله عنه زعيم غطفان قدم على النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، اني قد أسلمت وان قومي لم يعلموا باسلامي فمرني بما شئت. فقال عليه السلام: انما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة. فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديما في الجاهلية، فقال لبني قريظة، قد

عرفتم ودي اياكم وخاصة ما بيني وبينكم فقالوا له: صدقت، لست عندنا بمتهم فقال لهم: ان قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه الى غيره وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد عليه السلام وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساءهم بغيره فليسوا كأنتم، فان رأوا نهزة اصابوها، وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به ان خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيدكم ثقة لكم على ان تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه. واقتنعت بنو قريظة بمشورة نعيم بن مسعود. ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من زعماء قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا، وانه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقا ان ابلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني فقالوا: نفعل، فقال: اعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم. ثم نكون معكم على من بقي منهم حتى تستأصلهم، فإن بعث إليكم اليهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم لا تدفعوا إليهم رجلاً

واحداً منكم، ثم خرج نعيم إلى غطفان فكرر لهم مقالته لقريش وحذرهم من غدر بني قريظة» - نقول: في البداية والنهاية والمصنف لابن أبي شيبة، رواية أخرى تخالف هذه الرواية وهي أولى بالأخذ لأن هذه الرواية تنسب إلى صحابي ما يحط من شأنه.

انسحاب الاحزاب: أدركت الاحزاب استحالة اقتحامهم الخندق ونفد طعامهم وكان الوقت شتاء شديد البرودة غزير الأمطار عاصف الريح، وقد اصبحت خيامهم لا تحميهم ولا تقيهم من البرد القارص ولا تستقر لهم قدور ولا أقواس، فشعر أبو سفيان زعيم قريش بالبؤس ولم يجد بدا من الرحيل عن المدينة الى مكة، فصاح في قومه: يا معشر قريش، انكم والله ما أصبحتم بدار مقام هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فاني راحل، فانسحب الاحزاب بعد ثلاثة أسابيع فذكر الله هذه الوقعة ﴿وَرَدَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال﴾ الاحزاب آية - ٢٥.

اسباب فشل الاحزاب

انسحاب الاحزاب المسلحة بدون تحقيق هدف ومنال خير أمر يثير العجب لكل باحث في التاريخ. يكتب الأستاذ مونتغمري وات: سبب فشل الأحزاب وانهزامها وعدم تحقيق الاهداف التي كانت تتوخاها هو حذق محمد في فنون الحرب ومحافظته على نظام التجسس الدقيق، وتنظيم المسلمين الرائع، فتدبير حفر الخندق وحده رد كيد أعداء المسلمين بدون اراقة دم، حينما كانت الاحزاب تثق بتفوقها العسكري وتتيقن هزيمة المسلمين لأن الاحزاب كانت تفوقهم في العدد والعتاد، فخابت أعمالهم ولم تتحقق أمانيهم وما افادتهم ستمائة فرس شيئا، ورغم ذلك اصيبوا بخسارة فادحة حيث ان الرسول عليه السلام حصد الزرع وترك لأفراس الاحزاب أرضا خالية من الأعشاب والأشجار والزرع، كما ان تضامن المسلمين المتماسك، وتسليط كتيبة على بني قريظة وتنظيم صفوف المسلمين أدت الى انتصار المسلمين الكامل.

محاصرة بني قريظة: في ٢٣ ذي القعدة من السنة الخامسة من الهجرة بعد انسحاب الاحزاب رجع النبي ﷺ الى المدينة وكان حيي بن أخطب مقيما في بني قريظة في حصنهم، فاضطر الرسول عليه السلام الى تأديب بني قريظة،

وتقدمت القوات الاسلامية وكان يحمل اللواء على بن أبي طالب رضي الله عنه، ويشرف على ادارة المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وحاصر الرسول ﷺ والمسلمون الحصن نحو ثلاثة أسابيع.

مصير بني قريظة

كان يود بني قريظة بعدما ضاقوا ذرعا ان يصالحوا الرسول عليه السلام بدون نزولهم من الحصن، ولكنه أصر على نزولهم وتفويض أنفسهم، ثم يحكم فيهم مايحكم، فما وسعهم الا أن ينزلوا على حكم الرسول ﷺ، ففوض عليه السلام أمرهم الى سعد بن معاذ وفقاً لرغبتهم، واتخذ الاقتراح بان يحكم سعد في ضوء التوراة تسلية لهم، واتماما للحجة عليهم، وكان سعد رئيس الأوس، والأوس كانوا حلفاء لبني قريظة فسروا واطمأنوا بهذا الاقتراح. فاصدر سعد حكمه ان تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء: فقال الرسول عليه السلام:لقد حكمت فيهم بحكم الله. لأنه عليه السلام كان قد جرب ما كان يواجهه المسلمون من الفتنة بعد اجلاء بني قينقاع وبني النضير بدون قتل.

ثم حفر في سوق المدينة عدة خنادق وضرب أعناق رجال بني قريظة فيها وكان فيهم حيي بن أخطب زعيم

بني النضير وكعب بن أسعد زعيم بني قريظة، فلما جيء بحيي في المقتل قال للرسول عليه الصلاة والسلام: أما والله ما لمت نفسي على عداوتك. ولكنه من يخذله الله يخذل. ثم توجه إلى الناس فقال: أيها الناس أنه لا بأس بأمر الله. كتاب وقدر وملحمة.

عدد قتلى بني قريظة بين الواقع والخيال

قضية قتلى بني قريظة لم تزل موضوعا حساسا ومحلا للبحث والنقاش ومثارا للظنون والأوهام عند الحاقدين على الاسلام من أهل الاستشراق وغيرهم، أما كم يبلغ عدد القتلى؟ فاختلفت الروايات وتضاربت الى حد لا يمكن القطع بعدد معين، نقل الحافظ ابن حجر رأي ابن اسحاق بأنهم كانوا ستمائة، وصحح أبو عمر هذه الرواية، ولكن ابن عائذ روى مرسلا عن قتادة بان عددهم يبلغ سبعمائة، وقال السهيلي: كان عددهم بين ثمانمائة وتسعمائة، وبالعكس روى الترمذي والنسائي وابن حبان عن جابر بسند صحيح ان عدد القتلى يبلغ اربعمائة مقاتل فقط».

ثم ذكر العلامة ابن حجر وجه التوفيق بين هذه الروايات المختلفة المتعارضة وقال: لعل المقاتلين أربعمائة والبقيةاتباعهم، ثم ذكر رواية عنابن اسحاق ان قوما قالوا:

عدد القتلى تسعمائـــة، ويماثله ما ذكر العلامة بدر الدين العيني في كتابه.

ونخلص من هذه الروايات ان عدد القتلى لا يقل عن اربعمائة ولا يزيد على تسعمائة غير أن أهمية القضية تحتم علينا ان نقف قليلا ونستعرضها في ضوء مناهج البحث العصرية ومصادر التاريخ الأصلية مراعين في ذلك أصول العقل والدراية الى جانب النقل والرواية فنقول:

ان الاختلاف الواقع في الروايات والتضارب في بيان العدد من أربعمائة الى تسعمائة لا يورث اليقين بأي عدد معين، ومن المعلوم ان السجلات المكتبية لم تكن معهودة في ذلك العصر لتسجيل اسماء القتلى والمجروحين فجميع ما نقل بُني على السماع واعتمد الرواة على ظن وتقدير، سواء كانوا قد حضروا موقع القتل أم لم يحضروه.

ومن المعروف ان الانسان يبالغ دائما في بيان مثل هذه الوقائع والأحداث، فان كتب التاريخ التي أُلفت بالعربية أو الفارسية حينما تتناول ذكر الحروب وبيان قتلى الاعداء فتذكر ألفا مكان مائة وألفين مكان مائتين، نعم تختلف صيغ المحدثين عن المؤرخين من هذا فهم لا يكتبون الا ما صح عندهم حسب شروطهم التي اتخذوها لقبول اي رواية.

وهذا هو السبب في سكوت أصحاب الصحاح عن تعيين عدد قتلى بني قريظة سوى الترمذي والنسائي.

والا فان حادث قتل أربعمائة ليس بأمر هين يذكره البعض ويسكت عنه آخرون. مع اننا نرى ان عائشة رضي الله عنها التي حضرت الموقع وشاهدت الحادث بأم عينها ما ذكرت شيئا.

وكذا علي رضي الله عنه والزبير رضي الله عنه ورغم كونهما على اطلاع على الحادث لم يصرحا بعددالقتلى، فان دل هذا الاهمال على شيء فانما يدل على ان عدد القتلى لم يبلغ اربعمائة فضلا عن أكثر.

والأمر الثاني الذي يسترعي الانتباه، هو الاضطراب الواقع في روايات هذا الباب فقد نقل ابن اسحاق نبذة عن سعد بن معاذ: أن تقتل الرجال وتسبى ذراريهم.

وتبعه عامة المؤرخين الذين جاءوا بعده، لكن رواية البخاري عن أبي سعيد الخدري تصرح بأن حكم سعد كان يبنى على لفظ مقاتلتهم دون رجالهم ولا ريب ان رواية البخاري اصح مما نقله ابن اسحاق لأنها وردت في الجامع الصحيح للبخاري عن الصحابي الجليل ابي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والى جانب ذلك فان الرسول ﷺ ما كان يقدم على قتل أحد الا بعد أن يضطر اليه بحيث لا مناص منه لأنه كان مفطورا على الرفق واللين والمودة والرحمة والشفقة على خلق الله ، فكان يتسامح عن المجرم مهما أمكن ويخلي سبيل من يستحق القتل بأدنى شبهة وهذا هو الأساس لما اتخذه الفقهاء من قانون: أن الحدود تندرأ بالشبهات فاطلق سراح كثير من بني قريظة بأسباب بسيطة كما ذكر في الدرر. ج ١ .

كما أعلن عفوه العام الشامل في موقعة فتح مكة حينما قال: يا معشر قريش ماترون اني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال في سماحة وكرم: اذهبوا فانتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم.

وفي غزوة بدر قال للمسلمين عن رجال من المشركين : لا تقتلوهم حيث ثقفتموهم ، لأنهم ما اتوا الا باكراه... وهكذا تزخر كتب الأحاديث بالواقعات التي قتل فيها المسلمون كافرا ، فأبدى الرسول عليه السلام الكره الشديد على القتل ودفع بنفسه ديته ، فنظرا الى هذه الواقعات التي تدل على رحمته الكاملة وشفقته البالغة كيف يتصور عنه أنه أصدر حكم القتل على جميع رجال بني قريظة من المقاتلين وغيرهم!

يدل على ذلك ما روي أن رجالا من بني قريظة آمنوا يوم قتل بني قريظة وصرح الحافظ ابن عبد البر بأنهم ماكانوا من بني قريظة أو من بني النضير وانما هم ينتسبون الى قبيلة «هدل» الذين أقاموا في حصن بني قريظة، وجدير بالذكر ان حيي بن أخطب كان رئيس بني النضير، والرئيس اذا خرج في مهمة رافقه مساعدوه فلا غرابة اذن في ان رجالا من بني النضير كانوا مع حيي بن أخطب وقتلوا كما قتل ولكن التاريخ لم يحفظ أسماءهم.

لا شك ان الرسول ﷺ كان قد عقد العزم على استئصال اليهود من المدينة نظرا الى مؤامراتهم المتواصلة وعدائهم المتزايد كل يوم، ومع هذا لا يبلغ عددهم، أي المقتولين، عندي أربعمائة أو أكثر لأمور تتلخص فيما يلي:-

(١) ذكر الدكتور حميد الله في كتابه «ميادين القتال - في عصر النبي ﷺ» عدد القتلى في جميع الغزوات والسرايا التي وقعت في عهد النبي عليه السلام نحو مائة وخمسين قتيلا ويكتب في كتابه الانكليزي «محمد رسول الله ﷺ»: هذا العدد أقل من ثلثمائة ولعل هذا التعارض في العدد يندفع بأن الدكتور ذكر مائة وخمسين سوى قتلى بني قريظة وبضمهم الى عدد المقتولين في المعارك الأخرى ذكر عدد المقتولين أقل من ثلثمائة لأن الدكتور لم يذكر عدد قتلى بني

قريظة في أي كتاب آخر حينما ذكرقصتهم، والا لا يعقل ان عدد قتلى جميع الغزوات التي استمرت عشر سنوات أقل من ثلثمائة ويبلغ عدد قتلى بني قريظة وحده أربعمائة؛ مع أن الرسول عليه السلام لم يحرض اصحابه على الهجوم والاغارة على بني قريظة.

(٢) لو قتل أربعمائة رجل لحدث الاضطراب والقلق وثارت الضجة والفتنة في المدينة وذاع الخبر وانتشر في سائر أنحائها ولم يبق أحد من اليهود في المدينة خوفا ودهشة، ولكنا نجد جو المدينة هادئا ساكنا تعيش فيه قبائل اليهود بالطمأنينة.

ومن هنا يستدل (منتوغمري وات) رغم الكتاب الغربيين الآخرين الذين وجهوا نقدا بان محمدا ﷺ أراد استئصال اليهود من المدينة منذ بداية اقامتهفيها، ويقول: ان اليهود كانوا يتجرون ويعيشون عيشة راضية في المدينة بعد موقعة بني قريظة.

(٣) قد جرت عادة أصحاب السير والمغازي بأنهم يذكرون عدد القتلى في كل غزوة فلما لم يذكروا عدد قتلى بني قريظة بصراحة فموقف كبار المحدثين والكتاب الذين سكتوا ولم يذكروا أي عدد هو الصحيح الاسلم لعدم ثبوت أي عدد بوجه التأكيد».

مصير بقايا بني قريظة

ان كتب التاريخ سكتت عن بقية بني قريظة الى اين ارتحلوا؟ فلا يمكن الحكم القطعي في شأنهم الا ان يقال اعتماداً على القياس مثل ما قال الاستاذ « جنى » اجلاهم الرسول ﷺ كما اجلى القبائل الأخرى.

نقلت في كتاب الاصل للامام محمد رواية غريبة ان بني قينقاع كانوا قدساعدوا الرسول عليه السلام ضد بني قريظة، فيقول الدكتور حميد الله عن هذه الرواية: كيف يمكن تعاون بني قينقاع مع النبي عليه السلام ضد بني قريظة وكان الرسول ﷺ اجلاهم بعد غزوة بدر. ولو افترضنا صحة هذه الرواية فلعلَّه أجلى بعض بني قينقاع دون بعض،وما قال الدكتور عن رواية كتاب الاصل تبرر لنا ان نقول عن بقية بني قريظة قياساً على قوله تفرق بقايا بني قريظة في البلاد وانتشروا في أنحاء الأرض المختلفة ومنهم من أقام في المدينة وانضم إلى القبائل الأخرى.

خلاصة البحث

كان في المدينة المنورة بعد ما استتب أمر الرسول ﷺ من قبائل اليهود: بنو قينقاع، بنو النضير، وبنو قريظة. وكانوا في حرية أن يختاروا أمرا من الأمور الثلاثة الآتية:

١ - أن يعتنقوا الاسلام
٢ - أن يعيشوا مع المسلمين كالشعب الوفي من غير أن يواجهوا أي صعوبة.
٣ - أو يغادروا المدينة الى أي بلد آخر، ويخرجوا منها حيث لا رجعة لهم كما تنص به القوانين الدولية ودساتير الأمم المختلفة.

لكن اليهود لم يرضوا العمل بأي مبدأ من هذه المبادىء الثلاثة الأساسية واختاروا طريق العداء وزادوا من نشاطهم في المدينة في اغراء الناس وتحريضهم ضد الاسلام والمسلمين، والرسول ﷺ رغم كل جهودهم المعادية كان يلاطفهم ويداريهم، ويغض الطرف عن مؤامرتهم المتواصلة.

فلما استفحل أمرهم، وازداد شرهم، وبلغ السيل الزبى اضطر الى أن يتخذ نحوهم موقفا حاسما وحازما، فشرد بني قينقاع، وبني النضير، ومصير هؤلاء لم يكن رادعا لبني قريظة عما كانوا يمارسون من نشاطات بل زادهم خبثا ومكيدة، فلم يدخروا وسعا في خيانة الرسول ﷺ، ونقضوا العهد، وانضموا الى الاحزاب التي أحاطت بالمدينة وأضافوا قوة الى قوتهم، فرأى النبي ﷺ ان اجلاء بني النضير وتشريد بني قينقاع قد تجسد في صورة الاحزاب، فانهم قاموا باشعال نار العداوة ضد المسلمين، وتحريض

المشركين على الاغارة الجماعية.

بعد هذه التجربة المريرة القاسية لم يكن من المعقول ان لا يُقتل عدد من زعماء بني قريظة وقادتهم مع اجلاء عامتهم ومقاتلتهم، معذلك لم يصدر الرسول ﷺ حكماً من عند نفسه، بل فوض أمرهم الى رجل اختاروه، فقضى وفق كتابهم «التوراة» وهم يدينون بها.

ولكل أحد أن يعرض محضر أعمال اليهود على الامم المتحدة ويتساءل: هل تستطيع أن تقدم نموذجا لمثل هذه المداراة والملاطفة والسماحة وحسن المعاملة مع الاعداء؟ وهل يوجد أي نظير في تاريخ العالم الطويل. لمعاملة النبي ﷺ مع اليهود في الرفق واللين رغم كل عدائهم ومؤامراتهم.

والحقيقة أن بعد نظر الرسول ﷺ في أمر اليهود واتخاذه موقفا حاسما نحوهم بعد التجارب القاسية المريرة يستحق كل ثناء وتقدير من أمم العالم، ويدل على عمق تفكيره وبصيرته النافذة فينبغي لجميع الناس أن يعترفوا بما أقام من نموذج، ويلهجوا باحسانه ويقدروا قيمة ما اتخذه من موقف جاد صحيح تبعته الامم والحكومات على مر العصور والاحقاب وفي كل عصر ومصر، بل كانت معاملة الآخرين

مع اليهود أشد قسوة وضراوة.

فأُخرج اليهود من البرتغال، واسبانيا، وشردوا من انجلترا عام ١٢١٩ م، واجلتهم فرنسا مرتين في عام ١٣٠٦، ١٣٩٤ م، وشردتهم بلجيكا عام ١٣٧٠ م، وفي عام ١٣٨٠ أخرجوا وطردوا من تشيكوسلوفاكيا، كما أخرجوا من هولندا عام ١٤٤٤ م، ومن ايطاليا عام ١٥٤٠ م، ومن المانيا عام ١٥٥١، وطهر الاتحاد السوفييتي أرضه من وجودهم في سنة ١٥١٠ م، ولم يزل اليهود عبر القرون يواجهون مثل هذه المواقف والاحداث في سائر أنحاء الأرض، ولم يستقر لهم قرار في أي مكان، فاخرجوا وقتلوا حيثما حلو وارتحلوا وباءوا بالذلة والمسكنة.

وقد بين القرآن الكريم الوجه الأساسي لهذه الذلة والمهانة والمسكنة التي ضربت عليهم في جميع انحاء العالم، ووصف طبعهم الفاسد الشرس واعمالهم القبيحة المستنكرة من كفران النعم التي أسبغها الله عليهم حينا بعد حين وقتل الأنبياء بغير حق وتحريف كتب الله والاستهزاء بما أنزله من امر ونهي.

رأى المستشرقين عن اليهود

والذي يبعث على العجب أن المستشرقين في هذا العصر

يوافقون تماما ما أشار اليه القرآن الكريم من أوصاف اليهود، فيبدون نحوهم نفس الرأي الذي انتهت اليه تعاليم الكتاب الذي نزل من عند الله سبحانه قبل أربعة عشر قرنا.

يقول الاستاذ (منتوغموري وات)

«لو اختار اليهود طريق الصلح مع محمد مكان العداء لكان خيرا لهم ومصعدا الى أوج التقدم والرقي، وأتاح لهم فرصة النهوض والحصول على الامتيازات والحقوق الخاصة بهم، فكان بامكانهم ان يتمتعوا بحرية دينية، ويكون لهم اسهام في الحكومة العربية التي أقامها المسلمون، ويكونوا أكثر ثراء بين الامم الاخرى ويكون طالعهم سعيدا رفع بهم الى المستوى العالي. غير أنهم حاربوا الرسول ﷺ منذ بداية العهد به في المدينة، ولو أنهم استخدموا العقل لوجدوا ان الاسلام لم يكن يسبب لهم أي صعوبة فلم يكن أي اكراه في أوامر الدين ونواهيه، ولا أي اجبار في ترك عقيدتهم اليهودية.

ولم يكن بالامكان أن يؤمنوا برسول الله ﷺ، لأن النبوة في رأيهم مختصة ببني اسرائيل، والرسول كان قد بعث في الحجاز، وموطن النبوة عندهم هو بلاد الشام، وهم وحدهم شعب الله المختار، ومن أبناء الله واحبائه.

وما قام به الرسول ﷺ من قتل وتشريد واجلاء قبائلهم من المدينة، فنظرا الى استمرارهم في غيهم وعدائهم المتواصل منذ فجر الاسلام وبداية عهده.

ولهذه الفكرة التي اتخذها اليهود عن النبوة ما قامت العلاقات الودية بينهم وبين أي أمة أخرى، وهذه هي الفكرة التي تجسدت في الصهيونية.

يقول الباحث السوفييتي «ميكسم رودنس»:

«يؤخذ عليّ كثيرا اني ما صرفت اي عناية الى حلم عودة اليهود الى أرض اسرائيل الذي يتوارثونه منذ ألفي عام، ولم أعر له وزنا وما استعرضته بدقة.

ويمكن ان يجاب عن هذا الاعتراض بأن الحركة الصهيونية انما تبتنى على أماني اليهود القديمة وتجسيدها في صورة العنصرية الجديدة بناء على ما تنبأ به موسى عليه الصلاة والسلام بأنه سيأتي زمان يبتدأ منه عهد اليهود المشرق في أرض فلسطين.

ودولة اسرائيل الحالية ثالث دولة في تاريخ اليهود الطويل، ويزعم اليهود انها انشئت تحقيقا لما أخبر به النبي موسى، وما بدأت الحركة الصهيونية الا لانشائها.

ونتساءل: هل تحققت اهداف الصهيونية التي تتبنى

انشاء دولة اسرائيل.

يقول الاستاذ ميكسم رودنس:

لم تبلغ الحركة الصهيونية غايتها، ولم يتحقق جميع ما تبنته، أنشأت دولة، غير ان انشاء دولة وحدها لم يكن امام قائد الحركة ومؤسسيها بل كانوا يهدفون من وراء جهودهم:

(١) نفخ روح البعث الجديد والنهضة الجديدة في يهود كافة اقطار الأرض.

(٢) استئصال شافة الأمم غير السامية.

أما انشاء دولة يهودية مستقلة، فليس الا شرطا اساسيا لتحقيق الاهداف الأخرى.

وينطق كتابهم التلمود تجاه الهدف الثاني:

ان أموال جميع الأمم غير اليهود مباح لهم، فاذا سيطروا عليهم يملكون أموالهم وتصير ملكا لهم.

(٢) اختار الله اليهود ليسيطروا على أموال غيرهم.

(٣) فضل اليهود على من سواهم من اهل الأرض كفضل الانسان على سائر البهائم.

والتاريخ زاخر بما قام به اليهود من ممارسات غير انسانية لتحقيق هذه الاهداف، ومؤامرات نسجوها، وخطط دقيقة اتخذوها لانجاز مهمتهم.

والعجب ان اليهود آمنوا بتنبؤ موسى عليه السلام المزعوم، وتوارثوه جيلا بعد جيل، وعانوا الشدائد ولم يلتفتوا الى ما بشرت به كتبهم من نبوة محمد ﷺ.

يقول القرآن الكريم:

﴿يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة﴾[1] ولم يوجد منهم تجاوب صحيح لما دعا اليه القرآن: ﴿تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾[2]. وكان يجب عليهم ان يؤمنوا أولا بنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، ثم بنبوة محمد ﷺ ولكنهم أبوا واستكبروا، فاكتسبوا العداوة من المسيحيين والمسلمين على حد سواء، فقوض كيانهم الروميون على ايدي المسيحيين، ثم اخرجوا من المدينة المنورة، فانتشروا كأسراب متفرقة لا عز لهم ولا وقار، ولم يقر لهم أي قرار - ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ان البحث في مقالتي «حول غزوة بني قريظة» يرتكز على امر واحد مهم جدا يجب ان ينظر فيه العلماء المبرزون بعين التدقيق والتحقيق لينكشف الحق ويندفع ظلام الارتياب والتشكك حوله، وهو (عدد الذين قتلوا من رجال بني قريظة بحكم النبي ﷺ) فالمؤرخون وأصحاب السيرة

---

(١) سورة الاعراف: ١٥٧.

(٢) سورة آل عمران: ٦٤.

كلهم متفقون على أن عدد القتلى ما كان أقل من أربعمائة كما أنه ما كان أكثر من تسعمائة نفس. أما أنا فأرى أن هذا البيان ليس بصحيح والاقرب الى الصواب ان العدد مع انه لا يمكن تحديده وتعيينه كان أقل جدا من أربعمائة، وها هي الدلائل التي بنيت عليها نظريتي، مختصرة وهي مذكورة في المقالة مبسوطة.

(١) نحن نجد في الرويات المتعلقة بواقعة قتل بني قريظة كلمات مختلف عين بها القتلى، ففي رواية ابن اسحق نحن نجد لهم كلمة «الرجال» حيث قال سعد بن معاذ للنبي ﷺ: ان تقتل الرجال وتسبى ذراريهم، وفي روايات أخرى هناك كلمة «كل من انبت» واما البخاري فهو قد ذكر كلمة «المقاتلة» في هذا الموضع، وشتان ما بين هذه الكلمات الثلاثة من الفرق والاختلاف، معنى ودلالة، وبينها نسبة عموم وخصوص مطلقا، لان كلمة الرجال وكل من انبت «عام وشامل لكل رجل بالغ مهما هو مقاتل أو غير مقاتل، شاب أو شيخ، صحيح أو مريض»، وبعكس هذا كلمة «المقاتلة» هي خاصة بالذين كانوا مقاتلين ومحاربين ضد النبي ﷺ والمسلمين وكانوا مباشرين بالحرب والقتال، فقد خرج من حيطة هذه الكلمة الذين كانوا معمرين، ضعفاء، أو مرضى لا يستطيعون تحمل عبء الحرب والضرب والذين

كانوا مسالمين لا يحبون الحرب مع النبي ﷺ وكانوا يرغبون في المصالحة والموادعة معه.

ويجب أن نلاحظ ها هنا أمرين:

الأول ان النبي ﷺ بصفة كونه رحيما، رؤوفا، وشفيقا للعباد كان يجتنب أشد اجتناب عن قتل الضعفاء والمرضى والشيوخ الذين يعجزون عن القيام بالحرب كما كان يمنع سفك دماء النساء،والذي أرى حتى انه قد منع المسلمين عن قتل بعض رجال قريش الذين اشتركوا في غزوة بدر كرها وبغير رغبة لهم في القتال مع النبي ﷺ، فانه ﷺ قد تفطن لهم وأشار اليهم في موقعة بدر، فنظراً الى هذه الصفة النبوية والى احكام الاسلام في القتال والجهاد كيف يجوز أن يأمر النبي ﷺ بقتل جميع الرجال أو من انبت من بني قريظة دون تفريق بين رجل ورجل؟! فاذاً الصحيح عندنا كلمة «المقاتلة» كما رواه البخاري عن ابي سعيد الخدري دون كلمة «الرجال» أو «من أنبت» على ما هو مذكور في كتب التاريخ والسيرة.

الثاني: المقاتلة «له معنيان في اللغة: الذين يلون القتال ويباشرون به، والذين يصلحون للقتال، ولا شك ان البحّاثة المحقق الدكتور حميد الله قد أراد المعنى الثاني اذ قال في

كتابه بالاردِية « ميادين الحرب في العهد النبوي»ان عدد مقاتلة بني قريظة كان ألفا وخمسمائة. أما ابن هشام والسهيلي صاحب « الروض الأنف » فإنهما قد أرادا المعنى الأول إذ ذكرا أن مقاتلة بني قريظة الذين سمياهما في كتابهما كانوا سبع عشرة عدداً. والظاهر أن النبي ﷺ ما أراد إلا المعنى الأول إذ أمر بقتل مقاتلة بني قريظة، فحينئذ لا يمكن أن يبلغ عددهم إلى أربعمائة ولو أنهم كانوا أزيد من سبع عشرة في الظن الغالب لنا، وينبغي أن لا ننسى ها هنا أن الحرب بين المسلمين وبني قريظة ما وقعت عيانا وجهارا في ميدان، فلا غَرْو في أن يكون عدد الذين كانوا يلون الحرب من بني قريظة ما بين مائة أو مائتين تخميناً.

(٢) المقتولون ما كانوا منحصرين في بني قريظة، لأن حُيَيّ بن اخطب الذي قتل في هذه الواقعة كان من رؤساء بني النضير وكان نزيلا في بني قريظة ليحرضهم على مصالحتهم مع قريش وغطفان وغيرهما في يوم الاحزاب، والأغلب أنه ما جاء منفردا لأن رؤساء القبائل وأمراؤهم لا يرحلون منفردين عادة خصوصا في مثل هذا الموضع كما هو جاء لغرض سياسي مهم جدا. فاذا يمكن أن عدة من رجال بني النضير ايضا كانوا قتلوا مع حيي بن أخطب في غزوة بني قريظة،

وعدد القتلى يومئذ لا يكون منحصرا في افراد بني قريظة فقط.

(٣) العدد المذكور في كتب التاريخ والسيرة والذي يرجع اسناده الى ابن اسحق ليس بمذكور في كتب الصحاح والأربعة، مع ان قتل أربعمائة رجل في يوم واحد كان مما يشهده الجم الغفير من أهل المدينة ويذكرونه فيما بينهم.

(٤) قال الله تعالى في سورة الاحزاب من القرآن الحكيم في غزوة الاحزاب اشارة الى ما وقع ببني قريظة: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا﴾[١] فهذه الآية تدل دلالة واضحة على أن رجال بني قريظة أو من انبت منهم ما قتلوا جميعا كما هو مفهوم من كتب التاريخ والسيرة بل بعضهم قتلوا وبعضهم أسروا.

(٥) الدكتور حميد الله قد جمع بدقة نظر وتحقيق بالغ اعداد من قتلوا من المشركين واليهود في جميع غزوات النبي ﷺ، فقال في كتابه «ميادين الحرب في العهد النبوي» ان عددهم نيف مائة وخمسين.. وقال في كتاب آخر له بالانكليزية «محمد رسول الله» ان العدد كان قد بلغ

---

(١) سورة الاحزاب: ٢٦.

الى ثلاثمائة، فنحن نظن أن الاختلاف بين العددين قد نشأ من أن الدكتور في كتابه الأول ما شمل القتلى من بني قريظة واكتفي بعدد من قتلوا دونهم في الغزوات، واما في كتابه الثاني فهو قد عد قتلى بني قريظة أيضا في عداد من قتلوا من اعداء الاسلام والمسلمين في الغزوات، فهكذا يمكن التوفيق والتطبيق في هذين القولين المختلفين، والاّ هلاّ يكون هو أمرا عجيبا ان المسلمين المجاهدين قتلوا ثلاثمائة رجلٍ في الغزوات كلها النبي ﷺ قد قتل أربعمائة رجلا من بني قريظة في وقعة واحدة ودفعة واحدة.

فأنا أعتقد في ضوء ما ذكرت من الدلائل سابقا:

(١) ان رجال بني قريظة ما قتلوا جميعا باسرهم.

(٢) ان عدد القتلى منهم لا يبلغ اربعمائة ألبتة.

سعيد أحمد أكبر أبادي
رئيس التحرير لمجلة برهان
ندوة المصنفين، ديلى

الاقتراح والتوصية

نحن نجد أن كتبنا التاريخية القديمة مشحونة بالروايات الضعيفة، بل الموضوعة والمجعولة التي اخترعها الرواة المتعصبون بفرقة دون فرقة من الشيعة والخوارج، بجنب الروايات الصحيحةوالسليمة، وهذه الروايات السخيفة هي التي تشوه كبار الصحابة الكرام وتدنس أعراضهم النقية المطهرة،وانهامآخذ للمستشرقين الذين كتبوا كثيرا عن تاريخ الاسلام والمسلمين، ففشت وانتشرت هذه الروايات في العالم كله حتى ان شبابنا قد تأثر تأثرا غير قليل.

فلذلك أقترح تأسيس ادارة عظيمة مشتملة على العلماء الباحثين والفضلاء المحققين لها لتنقيح مثل هذه الروايات وتحقيقها على أسس علمية فقط، لئلا يجترىء أحد بعد ذلك ان يستدل بتلك الروايات والحق يكون جليا وواضحا أمام الناس كلهم.

سعيد أحمد أكبر آبادي

مدير مجلة « برهان »
ندوة المصنفين، دلهى



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

المراجع

(١) الجامع الصحيح للإمام البخاري

(٢) سنن ابي داود.

(٣) سنن النسائي.

(٤) سنن البيهقي.

(٥) الموطأ للامام مالك.

(٦) المسند للامام احمد.

(٧) عمدة القاري.

(٨) الدرر لابن عبد البر.

(٩) فتح الباري.

(١٠) روح المعاني.

(١١) التفسير لابن الجوزي.

(١٢) تبويب القرآن لضبط مضامين الفرقان. لمولانا وحيد الزمان نواب وقارنواز جنك، «حيدر آباد».

(١٣) مقدمة، ترجمة القرآن لمولانا ندير احمد الدهلوي.

(١٤) ترجمان القرآن لمولانا أبي الكلام ازاد.

(١٥) الطبري.

(١٦) سيرة ابن هشام.

(١٧) المغازي للواقدي.

(١٨) تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي.
(١٩) كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف.
(٢٠) ميادين الحرب في عصر النبي عليه السلام للدكتور حميد الله.
(٢١) سيرة النبي لمولانا شبلي.
(٢٢) محمد في المدينة للاستاذ (وات منتغمري).
(٢٣) اسرائيل والعرب شبلي.

سياسة الرسول ﷺ

في غزواته مع اليهود

للدكتور إحسان ثريا صيرما

« تركيا »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ه

بسم الله الرحمن الرحيم

سياسة الرسول ﷺ في غزواته مع اليهود

★ غزوة بني قينقاع
★ غزوة بني النضير
★غزوة بني قريظة

كل من درس الكتب التاريخية الاسلامية وبخاصة كتب السيرة النبوية، وجد أن عداوة اليهود ضد محمد ﷺ قد بدأت من طفولته، ولا تزال تدوم ضد الاسلام والمسلمين الى يومنا هذا.

هم الذين أرادوا قتل محمد ﷺ وهو مع حليمة، أمه التي أرضعته ويقول ابن سعد: «ان أم النبي ﷺ لما دفعته

إلى حليمة السعدية التي أرضعته قالت: لها: احفظي ابني، وأخبرتها بما رأت من المعجزات. فمر بها اليهود، فقالت: ألا تحدثوني عن ابني هذا فإني حملته كذا ووضعته كذا كما وصفت أمه، فقال بعضهم لبعض: اقتلوه، فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت: لا، هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيماً لقتلناه»[١].

هكذا كانت اليهود تريد قتل الصبي خشية أن يكون نبيا وليس منهم. ونقرأ في المصادر أيضا، لما سافر محمد ﷺ مع عمه أبي طالب الى بصرى ولقي بحيرا، خاف عليه بحيرا ان يقتله اليهود وأوصى الى أبي طالب ان يرجع ويذهب بمحمد ﷺ الى بلده[٢].

النبي المنتظر:

كما نقرأ في الكتب التاريخية أن أحبار اليهود كانوا، قبيل مبعث محمد ﷺ ينتظرون نبيا ويصفونه، وفي المدينة

---

(١) ابن سعد، طبقات، بيروت، ١٣٨٨ - ١، ١١٣.

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، نشر الدكتور محمد حميد الله، الرباط ١٩٧٦، ص ٥٥، ابن هشام، السيرة، مصر ١٩٥٥، ١، ١٨٢، ابن سعد، طبقات ١، ٥٥، مسعودي، مروج الذهب، بيروت ١٩٧٣؛ ١، ٨٩، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢، ٣٧، ابن كثير، السيرة النبوية ١، ٢٤٥.
(احسان ثريا - سفر الرسول ﷺ الى بصرى والراهب بحيرا، بحث قدم في المؤتمر العالمي الثاني للسيرة النبوية في استانبول (تركيا) ١٠-١٧ حزيران ١٩٧٧ م.

يستنصرون على الأوس والخزرج بهذا النبي المنتظر[1] ويقولون: «انه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم»[2] وكان أول من عرف مولد محمد ﷺ في المدينة يهودي.

قال حسان بن ثابت: «والله اني لغلام يفعة، ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما سمعت، اذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود، حتى اذا اجتمعوا اليه، قالوا له: ويلك، مالك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به»[3].

فلما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ فقال لهم معاذ بن جبل: «يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته» قالوا: «ما جاءنا بشيء نعرفه،

---

(١) ابن هشام - السيرة - ١، ٢٠٤.
(٢) ابن هشام - السيرة - ١، ٢١١.
(٣) ابن هشام - السيرة - ١، ١٥٩.

وما هو بالذي كنا نذكره لكم »[١] هكذا كذبوه بغيا وحسدا وضغنا.

لم تكن اليهود تنكر نبوة محمد ﷺ فقط، بل كانوا يعارضون كل من أسلم منهم، ولو كان سيدهم أو حبرهم أو عالمهم كعبد الله بن سلام[٢] وكلما رأوا عداوة ضد الاسلام والمسلمين اشتركوا فيها، ولا سيما تعاونهم مع المنافقين في نفاقهم.

تأسيس الدولة الاسلامية:

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كان عدد اليهود فيها قريبا من نصف سكانها[٣] وكان عدد المسلمين قليلا جدا بالنسبة اليهم والى المشركين من العرب. فأهم شيء عند وصوله ﷺ الى المدينة كان اقامة الأمن للمسلمين. ولهذا جمع المسلمين واليهود ومن اجاب اليه من العرب في دار أنس رضي الله عنه فكتب لهم كتابا[٤]، وهذا الكتاب كان دستور الدولة التي أسسها، وهو أول دستور مكتوب في تاريخ البشر[٥] أيضا. وألحق رسول الله ﷺ كل جماعة

---

(١) ابن هشام، ٢، ٥٤٧.

(٢) ابن هشام، ٢، ٥١٦.

(٣) .Mohammad Hamidullah, le Prophéte de l'Islam, 4éd

(٤) ابن هشام، ٢، ٥٠١، الواقدي، مغازي، اكسفورد ١٩٦٦، ١، ١٧٦.

(٥) .Mlhammad Hamidullah, le Prophéte de l'Islam, I,185

بحلفائها وجعل بينه وبينهم أمانا[١] وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم. ولكن عندما نطالع نص هذا الدستور، نرى أن اسماء قبائل اليهود كبني قينقاع أو بني النضير أو بني قريظة ليست مكتوبة، بل هم حلفاء لقبائل العرب، ولا يذكر في الدستور الا تحت لفظ «يهود». وهكذا أوجد رسول الله ﷺ الأمن للمسلمين.

بعد هذه المسألة السياسية، حل رسول الله ﷺ المسألة الاقتصادية التي هي اعاشة واقامة المهاجرين الذين تركوا كل أموالهم في مكة وهاجروا في سبيل الله. وهي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ولا نرى مثل هذه المؤسسة البشرية الانسانية في تاريخ البشر الى يومنا هذا.

ولكن اليهود شعروا بقوة الاسلام وانتشاره فاشتدت عداوتهم له، وبدأ شعراؤهم الفاسدون يهجون ويمكرون ويسبون الرسول ﷺ ومنهم أبو عفك وكعب بن الأشرف وابن سنينة وغيرهم. وكان رسول الله ﷺ يصبر على عداوتهم حتى بالغوا في طغيانهم.

كان أبو عفك اليهودي يحرض على عداوة النبي ﷺ ويقول الشعر حتى قتله سالم بن عمير[٢]، وكان كعب بن

(١) المقريزي، امتاع الأسماع – القاهرة ١٩٤١، ١، ١٠٣-١٠٥.
(٢) امتاع الأسماع، ١، ١٠٣.

الأشرف عدوا لله ولرسوله يهجو النبي ﷺ واصحابه ويحرض عليهم كفار قريش في شعره،ثم خرج الى مكة بعد غزوة بدر فجعل يرثى قتلى بدر ويحرض قريشا[1]، ولما رجع الى المدينة قال رسول الله ﷺ: «من لي بابن الأشرف فقد آذاني» فقال محمد بن مسلمة: انا لك به يا رسول الله أنا اقتله، وقتله[2]،وكان ابن سنينة أيضا يهجو النبي ﷺ وأصحابه حتى قتل.

وأخاف الرسول ﷺ اليهود بقتل شعرائهم وحذرت يهود وخافت وذلت[3].

غزوة قينقاع:

كما قلنا آنفا، أخاف رسول الله ﷺ اليهود ونهاهم عن العداوة ضد المسلمين. ولكن بغت اليهود وقطعت ما كان بينها وبين الرسول ﷺ من العهد فجمعهم بسوق قينقاع وقال: «يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش، فوالله انكم لتعلمون اني رسول الله، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من لقيت، انك قهرت قوما أغمارا، وانا

---

(١) امتاع الأسماع، ١، ١٠٧-١٠٨.
(٢) ابن هشام، ٣، ٥١.
(٣) امتاع الأسماع، ١، ١١٠.

والله اصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا »[١].

فبينما هم على ما هم عليه من اظهار العداوة ونبذ العهد، جاءت امرأة رجل من الأنصار الى سوق بني قينقاع فجلست عند صائغ في حُليٍّ لها، فجاء أحد بني قينقاع فحل درعها من ورائها بشوكة ولا تشعر، فلما قامت بدت عورتها فضحكوا بها، فاتبعه رجل من المسلمين فقتله. فاجتمع عليه بنو قينقاع وقتلوه، ونبذوا العهد الى النبي ﷺ وحاربوا وتحصنوا في حصنهم. فأنزل الله تعالى: ﴿واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين﴾[٢]. فقال ﷺ: أنا أخاف بني قينقاع، فسار اليهم. وكان بنو قينقاع حلفاء لعبد الله بن أبي بن سلول المنافق عدو المسلمين. وكانوا أشجع اليهود، فكانوا أول من غدر من اليهود، فحاصرهم الرسول ﷺ خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه. فأمر بهم فربطوا، ثم خلى عنهم بشفاعة عبد الله بن أبيّ بن سلول، وأمرهم أن يجلوا من المدينة، فجاء ابن أبي بحلفائه معه، وقد أخذوا بالخروج، يريد أن يكلم رسول الله عليه وسلم ليقرهم في المدينة[٣] ولم يقبل منهم فأجلاهم محمد بن

---

(١) واقدي، مغازي، اكسفرد ١٩٦٦، ١، ١٧٦، امتاع الأسماع ١، ١٠٣، ابن هشام، ٣، ٤٧.

(٢) الأنفال - ٥٨.

(٣) واقدي، مغازي، ١، ١٧٨.

مسلمة الأنصاري وقبض أموالهم وسلاحهم، وخمس رسول الله ﷺ ما أصاب منهم وقسم ما بقي على أصحابه.

ونتيجة ذلك أن صبر رسول الله ﷺ على طغيان اليهود حتى بالغوا فيه وفكروا في قتل المسلمين ونبذوا العهد، حاصرهم وقاتلهم وأجلاهم عن المدينة.

غزوة بني النضير:

لما قتل عمرو بن أمية رجلين من بني عامر بعد وقعة بئر معونة، ولهما أمان وعهد من رسول الله ﷺ وهو لا يعلم به. أمر الرسول ﷺ أن يبعث بديتهما الى بني عامر. وخرج رسول الله ﷺ الى بني النضير يستعينهم في دية القتيلين لأنهم كانوا من تبعة الدولة الاسلامية وهم حلفاء لبني عامر، وقالت اليهود لرسول الله ﷺ: نفعل يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت، اجلس حتى نطعمك! ورسول الله ﷺ مستند الى بيت من بيوتهم ثم خلا بعضهم الى بعض. وأشار عليهم كبيرهم حيي بن أخطب وقال: «يا معشر اليهود قد جاءكم محمد في نفير من أصحابه لا يبلغون عشرة، فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت الذي هو تحته فاقتلوه، فلن تجدوه أخلى منه الساعة! فانه ان قتل تفرق أصحابه فلحق من كان معه من قريش بحرمهم، وبقي من ها هنا من الأوس

والخزرج حلفاؤكم»[1] فقام عمرو بن جحاش ليطرح عليه ﷺ صخرة - قال سلام بن مشكم: يا قوم، أطيعوني في هذه المرة وخالفوني الدهر! والله ان فعلتم ليخبرن بانا قد غدرنا به، وان هذا نقض العهد الذي بيننا وبينه فلا تفعلوا![2].(نريد أن نضع جوهر السياسة التي اتبعها النبي ﷺ في هذه الغزوة، تاركين التفاصيل الفرعية).

فلما هيأ الصخرة ليرسلها على رسول الله ﷺ جاء الوحي بما هموا به فنهض رسول الله ﷺ ورجع الى المدينة، وهم يظنون انه قام يقضي حاجة[3] وقال لهم كنانة ابن صويراء اليهودي: أن اسلموا وهو رسول الله وأنه لآخر الأنبياء[4] ولم يقبلوا ذلك منه.

فلما رجع رسول الله ﷺ الى المدينة بعث الى اليهود محمد بن مسلمة، وأمرهم بترك المدينة لأنهم نقضوا العهد، وارسل حيي بن أخطب خبرا الى النبي ﷺ وقال بأنهم لن يخرجوا من المدينة.

وسار رسول الله ﷺ الى بني النضير وحاصرهم ودام الحصار أياما. ثم أمر رسول الله ﷺ بالنخل فقطعت

---

(١) واقدي، مغازي، ١، ٣٦٤.

(٢) واقدي، مغازي، ١، ٣٦٥.

(٣) واقدي، مغازي، ١، ٣٦٥، ابن هشام ٣، ١٩٠، امتاع الأسماع ١، ١٨٠.

(٤) واقدي، مغازي، ١، ٣٦٥.

وحرقت، فشق على اليهود قطع النخل وبعث حيي بن أخطب الى النبي ﷺ بأنه يخرج ومن معه، ونرى سياسة الرسول في هذه الغزوة كانت اجلاءهم من المدينة. هم فكروا في قتله ﷺ - وهو اكتفى باجلائهم من المدينة لأنه كان رسول الله. ولو كان رجل غير رسول الله ﷺ لقتلهم جميعاً.

اذن لهم رسول الله ﷺ من أموالهم ما حملت الابل الا السلاح وقسم الغنيمة للمهاجرين. وكان المهاجرون يسكنون في دور الأنصار.

وهكذا حل الرسول ﷺ مشكلة المسكن للمهاجرين. فأنزل الله تعالى في بني النضير:﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾(١).

غزوة بني قريظة:

لما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير ساروا الى خيبر. فلما قدموا خيبر، خرج اليهودي حيي بن أخطب، في بضعة عشر رجلا الى مكة، يدعو قريشا واتباعها الى حرب محمد ﷺ - فقالوا لقريش: «نحن معكم حتى نستأصل محمدا، جئنا لنحالفكم على عداوته وقتاله فقال أبو سفيان: مرحبا

(١) الحشر: ٢.

وأهلا، احب الناس الينا من اعاننا على عداوة محمد. وإننا نرى هنا كيف كان اليهود يحرضون قريشاً على عداوة الإسلام والمسلمين.

وكان هؤلاء اليهود يفضلون وثنية قريش على الاسلام. وعندما سأل أبو سفيان وفد اليهود: «يا معشر اليهود أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، اخبرونا عما أصبحنا نحن فيه ومحمد، أديننا خير أم دين محمد؟» فقالت اليهود: «اللهم انتم أولى بالحق منه»[1] فانزل الله تعالى: ﴿الم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾[2].

واتفقوا على التعاون في ما بينهم ثم خرجت اليهود الى غطفان، وجعلت لهم ثمر خيبر سنة ان هم نصروهم[3]، ثم عاهد حيي بن أخطب ابا سفيان أن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ - وأتى حيي بن أخطب الى بني قريظة فكرهت قريظة دخول حيي بن أخطب الى دارهم ولكنه أقنعهم حتى قبلوا آراءه ونقضوا العهد وشقوا الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ بينه وبينهم[4] وتعاونوا مع

(١) واقدي، مغازي، ٢، ٤٤٢، امتاع الأسماع، ١، ٢١٧: ابن هشام، ٣، ٢١٤.
(٢) النساء: ٥١.
(٣) امتاع الأسماع، ١، ٢١٧.
(٤) امتاع الاسماع، ١، ٢٢٦.

المشركين في غزوة الخندق. ولما علم الرسول ﷺ خيانة بني قريظـة، اشتد عليه ذلك، وكانت غزوة الخندق تستمر مع كل شدتها والرسول ﷺ في الخندق مع أصحابه. وحينئذ همت بنو قريظة أن يغيروا على المدينة ليلا. فجاء خبر ذلك الى رسول الله ﷺ فعظم البلاء وبعث طائفة من المسلمين يحرسون المدينة ويظهرون التكبير فاذا أصبحوا امنوا، وكان الخوف على ذراري المدينة من بني قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان.

وبعد اختلاف الأحزاب في غزوة الخندق وانصراف قريش وغطفان اليائسون من المدينة كانت غزوة بني قريظة.

لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق دخل بيت عائشة رضي الله عنها وصلى الظهر فأتاه جبريل عليه السلام فنادى: عذيرك من محارب؟ فخرج رسول الله ﷺ فقال له جبريل: ألا اراك وضعت السلاح ولم تضعها الملائكة بعد؟ ان الله يأمرك ان تسير الى بني قريظة فاني عامد اليهم فمزلزل بهم حصونهم.

فدعا رسول الله ﷺ عليا رضي الله عنه فدفع اليه لؤاه. وبعث بلالا رضي الله عنه فاذن في الناس أن رسول الله ﷺ يأمركم الا تصلوا العصر الا في بني قريظة[1]، فسار

---

(1) امتاع الأسماع، ١، ٢٤١.

رسول الله ﷺ الى بـني قريظة مع أصحابه وأحاطوا بحصون اليهود ورموهم بالنبل والحجارة وهم يرمون من حصونهم. فنزل منهم شاس بن قيس وكلم رسول الله ﷺ: على أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير: له الأموال والسلاح ويحقن دماءهم، ويخرجون من المدينـة بالنساء والذراري، ولهم ما حملت الابل الا السلاح، فأبى رسول الله ﷺ الا أن ينزلوا على حكمه. وعاد شاس اليهم بذلك، فأشار عليهم سيدهم كعب بن أسد بأن يدخلوا في الاسلام وذكرهم بما عندهم من العلم بنبوته ﷺ فلم يقبلوا رأيه. فأشار عليهم أن يقتلوا ابناءهم ونساءهم ثم يخرجوا فيقاتلوا حتى يظفروا، فأبوا ذلك، فأشار عليهم أن يخرجوا ليلـة السبت والمسلمون آمنون فيبيتونهم فقالوا: لا نحل السبت، اختلفوا وندموا على ما صنعوا(١).

ثم نزلت اليهود على حكم رسول الله ﷺ فأمر بأسراهم فكتفوا رباطا.. وطلبت الأوس من رسول الله ﷺ أن يهب لهم بني قريظة فانهم حلفاؤهم كما وهب لابن أُبيٍّ بني قينقاع حلفاءه. فقال: أما ترضون أن يكون الحكم فيهم الى رجل منكم؟ قالوا: بلى! قال: فذلك الى سعد بن معاذ. فحمله الأوس الى رسول الله ﷺ - فقال سعد للأوس: اترضون

---

(١) امتاع الأسماع، ١، ٢٤٣.

بحكمي لبني قريظة؟ قالوا: نعم! فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه ان الحكم ما حكم ثم قال: فاني أحكم فيهم ان يقتل من جرت عليه المواسي وتسبى النساء والذرية، وتقسم الأموال. فقال رسول الله ﷺ لقد حكمت بحكم الله ونفذ الحكم(١).

ويقال إن سعد بن معاذ أخرج هذا الحكم من التوراة. واننا نجد في التوراة التي بين أيدينا اليوم السطور الآتية:

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح. فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها. واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك»(٢).

أما بعد - فاننا نرى أن كل هذه الغزوات مع اليهود جوابا لخيانتهم على المسلمين. وكما قلنا آنفا ان أول من نقض

---

(١) ابن هشام،٣، ٢٤٠.

(٢) الكتاب المقدس - تثنية - ٢١/,,١٠-١٥.

العهد من اليهود كان بنو قينقاع، وعفا عنهم رسول الله ﷺ وأجلاهم، ثانيا همت بنو النضير على قتل الرسول ﷺ وعفا عنهم وأجلاهم، ولكن اليهود لم يصلحوا ولم يتوبوا عما فعلوا وخانوا ونقضوا العهد حتى تعاونوا مع المشركين في غزوة الخندق. وقتلهم رسول الله ﷺ لأنهم لا يفهمون ولا يعقلون الا بالقتل. وهذا الحكم من بدء تاريخهم الى يومنا هذا، ولهذا نبهنا الرسول ﷺ على اليهود، وكان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ قال: «أخرجوا اليهود من الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب»[1].

وعلينا اليوم أن ننظف القدس المحتلة من هؤلاء اليهود الخائنين المجرمين الملعونين الذين لا تزال عداوتهم وجرائمهم دائمة ضد الإسلام والمسلمين.

---

(١) سنن الدرامي، كتاب السير، ٢، ٢٣٣.

سياسة الرسول ﷺ في غزواته مع اليهود

عندما نطالع الكتب التاريخية الاسلامية، نرى أن عداوة اليهود ضد الاسلام ورسول الله ﷺ قد بدأت منذ ظهور الاسلام ولم تنقطع حتى يومنا هذا. ونعرف أيضا أن اليهود كانوا قبيل مبعث محمد ﷺ ينتظرون نبيا ويصفونه ويستنصرون على الأوس والخزرج بهذا النبي المنتظر.

فلما خص الله سبحانه وتعالى به العرب من أخذه رسوله منهم، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون، وعندما قال لهم معاذ بن جبل: «يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته»، قالوا: «ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم». هكذا كذبوه بغيا وحسدا وضغنا.

لم تكن اليهود تنكر نبوة محمد ﷺ فقط، بل كانوا يعارضون كل من أسلم منهم، ولو كان سيدهم أو حبرهم أو عالمهم كعبد الله بن سلام، وكلما رأوا عداوة ضد الاسلام، اشتركوا فيها وقد تعاونوا مع المنافقين في نفاقهم.

وكان الرسول ﷺ يصبر على كل الأذى الذي يلقاه من اليهود. ولما رأوا الرسول ﷺ يتحمل أذاهم بالسب

والشتم والمكر ولا يحيد عن دعوته، بـدأوا بالمشاغبة الفعلية.

وكما أننا سنرى في بحثنا هذا، أن اليهود فكروا في قتل محمد ﷺ، بعد غزوة بدر، أظهروا البغي والحسد. وبالغوا في طغيانهم حتى هتكوا أعراض نساء المسلمين وخانوا في عهودهم ووعودهم فوقفوا بجانب أعداء المسلمين من المشركين.

كانت هذه الأمور كلها داعية لبدء غزوات الرسول ﷺ مع اليهود.

وفي بحثنا هذا.. رأينا كيف غزا رسول الله ﷺ اليهود وما كانت سياسته في هذه الغزوات وهي:

★ غزوة بني قينقاع

★ غزوة بني النضير

★ غزوة بني قريظة

الدكتور احسان ثريا صيرما
تركيا



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

دحض الشبهات الواردة

على

تعدّد الزّوجات في الإسلام

للشيخ عبد التوّاب هيكل

« قطر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله
والصلاة والسلام على محمد خاتم رسل الله
وعلى آله وصحبه ومن والاه
أما بعد..
فان شريعة الاسلام هي شريعة الله المحكمة المشتملة

على جماع الخير وأسباب العزة والمنعة ومقومات الحياة الكريمة الطيبة لمن عمل بها والتزم حدودها ولم يرض بها بديلا ، ولنعيم الآخرة بعد ذلك خير وأبقى ،ولا عجب فإن الذي أنزلها أحاط بكل شيء علما ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

فكل من حاول أن يجد فيها مطعناً ينفس به عن حقده وضغنه ارتد عليه سهمه وأصاب كيده نحره وكان:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وإذا كان الكون هو صنع الله المعجز دقة واحكاما فلا ترى فيه عيباً ولا خللا ولا فطورا ولا وهنا « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » فكذلك شريعة الاسلام أصلها ومحورها الأساسي هو كلام الله المعجز دقة وإحكاماً وتشريعاً حكيماً مستوعباً كل ميادين الحياة البشرية في جميع عصورها وكافة بقاعها « ما فرطنا في الكتاب من شيء ».

ففيه العقائد الفطرية الواضحة التي يقرها العقل،

وتسكن لها النفس ويطمئن إليها القلب وتسمو بالانسان عن الخضوع والعبودية لغير خالقه ورازقه، ومالك ضره ونفعه، وموته وحياته، فلا اله غيره، ولا رب سواه، وفيه جماع الأخلاق الفاضلة التي تهذب النفوس البشرية وتطهرها من كل دنس وقذر، وتكفل للفرد وللمجتمع الاستقرار والرخاء والحياة الآمنة المطمئنة، والعيشة الراضية الهنيئة.

وفيه أسس التشريع الحكيم العادل الشامل لكافة المجالات الحياتية، والذي يحقق للانسانية السعادة والخير في دنياهاوأخراها، ويقيم بين الناس المساواة والعدل ويحفظ لهم الحقوق، ويرفع عنهم الحرج «وما جعل عليكم في الدين من حرج» وهو بعد هذا كله معجزة الله الخالدة وحجته البالغة، ونوره المبين.

فماذا عساهم يفعلون أولئك الصعاليك المهازيل حين يتطاولون على الشمس في عليائها ويحاولون أن يطفئوا نورها الغامر وضوءها الفياض بنفخة لا تتجاوز أفواههم الضعيفة الميتة ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ وقد حاول كثير من ذوي القلوب المريضة، والضمائر المنحرفة من فجرة المستشرقين، وأذنابهم المستغربين أن ينالوا بأقلامهم المسمومة، وحملاتهم المسعورة من قداسة الاسلام في نفوس أهله، وتشكيكهم في صدق نبيه بما يكيلونه

من تهم ضد الاسلام ونبيه ليُلْبسوا الحق بالباطل ويكتموا الحق وهم يعلمون.

ومن بين ما تناولته أقلامهم بالطعن والتجريح اباحة تعدد الزوجات في الاسلام وتعدد زوجات الرسول ﷺ الى التسع بصفة خاصة.

وقد انبرى للدفاع عن الاسلام ودحض شبه المعتدين بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، التي ردت سهامهم الى نحورهم نخبة من أفاضل العلماء والكتاب أخص بالذكر منهم:

(١) الامام محمد رشيد رضا عند كلامه عن آية التعدد في أوائل سورة النساء بتفسيره المشهور (المنار).
(٢) الدكتور مصطفى السباعي في محاضرة له بكتابه (المرأة بين الفقه والقانون).
(٣) الشهيد سيد قطب عند كلامه عن آية التعدد بسورة النساء، وعند تلخيصه لقصة أزواج النبي ﷺ في سورة التحريم بتفسيره المشهور (في ظلال القرآن).
(٤) الأستاذ محمد قطب في كتابه (شبهات حول الاسلام).
(٥) فضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف في تفسيره الربع الأول من سورة النساء بكتابه (نور من القرآن).
(٦) الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه (الحجاب).

(٧) فضيلة الشيخ سيد سابق في كتابه (فقه السنة).

(٨) الدكتور عبد الناصر توفيق العطار في كتابه (تعدد الزوجات من النواحي الدينية والاجتماعية والقانونية).

(٩) فضيلة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود في رسالته (حكمة اباحة تعدد الزوجات).

(١٠) فضيلة الأستاذ عطية محمد سالم في محاضرة له في تعدد الزوجات من (سلسلة محاضرات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة).

(١١) آية التعدد بسورة النساء في كتاب (المنتخب في تفسير القرآن الكريم) للمجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بجمهورية مصر العربية.

(١٢) الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه (الدستور القرآني في شؤون الحياة).

(١٣) الأستاذ العقاد في كتابه (المرأة في القرآن).

ومن هذه الينابيع الثرة استنبطت هذا البحث المتواضع رداً على المستشرقين من أهل الغرب، وعلى المستغربين من أهل الشرق في هجومهم السافر على الاسلام ونبيه في قضية تعدد الزوجات وتعدد زوجات الرسول ﷺ الى التسع.

وها أنا ذا أتشرف بتقديم بحثي هذا لمؤتمر السيرة الموقر

بدولة قطر الحبيبة راجياً من الله عز وجل أن يتقبله مني خالصا لجلال وجهه سبحانه، وطالباً من أصحاب الفضيلة أساتذتي واخوتي أن يتجاوزوا عما يلاحظونه فيه من قصور وجهل.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه انبت،،،

عبد التواب هيكل
بمركز الدعوة والارشاد
الدوحة/ قطر

تعدد الزوجات في الاسلام، وتعدد زوجات الرسول (ﷺ الى التسع) يقتضينا البحث في هذا الموضوع أن نتناول البنود التالية:

(١) معنى الزوجية في الاسلام.
(٢) حكم تعدد الزوجات في الاسلام. وهل الأصل فيه الاباحة أم الحظر؟
(٣) وهل الاسلام هو أول شريعة سماوية أقرت التعدد؟ أم أنه قيد التعدد الذي أباحته الشرائع السابقة وهذبه؟
(٤) الدوافع التي جعلت الاسلام يقر مبدأ التعدد ولا يحرمه.
(٥) الشبهات التي يثيرها المستشرقون حول تعدد الزوجات في الاسلام وردها.
(٦) أي النظامين يستحق الطعن والتجريح. التعدد الاسلامي النظيف أم التعدد الغربي القذر؟
(٧) حكمة تعدد زوجات الرسول ﷺ الى التسع ورد شبهات المعتدين.
(٨) الهدف من وراء الحملات العدائية التي يشنها أعداء الاسلام ضد الاسلام ونبيه في قضية التعدد.
(٩) كلمة موجهة الى المستشرقين والمستغربين الذين يتطاولون على شريعة الله ونبيه.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

البحث الأول
الزوجية في الاسلام

إن الاسلام نظم الأسرة. فالأسرة فيه هي قاعدة الحياة البشرية، وهي الوحدة الأولى في بناء الجماعة، وهي أصل يتفرع عنه سائر فروع الحياة الانسانية. وقد شاءت حكمة الله سبحانه أن تبدأ أول نبتة بشرية في الأرض بأسرة واحدة من نفس واحدة خلق منهازوجها ،فتكونت أسرة من زوجين تفرعت منها سائر الأسر البشرية والوحدات الاجتماعية التي امتدت بها الحياة وعمرت الأرض وقام عليها نظام المجتمع الانساني إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فالناس جميعاً يرجعون عقيدياً إلى رب واحد. ونسبا الى نفس واحدة ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم

رقيبا﴾ (١) ومن هنا حظيت الأسرة في الاسلام بعناية ورعاية لم تلق مثلها في أي شريعة أخرى سماوية كانت أو أرضية.

عناية ورعاية تستهدفان اقامة هذه الوحدة الاجتماعية على أفضل الأسس وأقواها من حيث المودة والمحبة والتعاطف والبر والتسامح والتعاون ومكارم الأخلاق؛ على أن ترتكز هذه الأسس على دعامة الايمان وتقوى الله. وكان من عناية الاسلام بالأسرة انه لم يشأ أن يتركها عرضة للمشاكل التي قد تتعرض لها فتجتاحها أو تصدع بنيانها وتفسد حياتها، فوضع لها النظم الدقيقة العادلة والتشريعات الحكيمة التي لو طبقت بأمانة لاستأصلت أسباب الخلاف والنزاع وضمنت استمرار الحياة الآمنة المستقرة التي لا تسعد بها الأسرة وحدها بل يسعد من ورائها المجتمع كله.

---

(١) أول سورة النساء

مظاهر عناية الاسلام بالزوجية

وكان من عناية الاسلام بالزوجية ما يلي:

(١) أضفى على الحياة الزوجية معنى جميلا رائعاً فيه تكريم لها، وتنويه برفعة منزلتها وسمو مكانتها، واشارة إلى ما تهدف إليه من حياة السكون والاستقرار، وإلى ما يجب أن تقوم عليه من المودة والصفاء والرحمة، استمع الى قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ الروم (٢١).

ويرتفع هذا المعنى الجميل الى مستوى القمة في قوله تعالى: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ البقرة (١٨٧).

وأمام هذا التعبير القرآني المعجز في تصوير معنى الحياة الزوجية يسجد البيان وتركع الأقلام. هذا ولعل في اطلاق لفظ (زوج) على كل من الرجل والمرأة بعد ارتباطهما برباط الزوجية ما يوحي بشيء من معنى الآية ﴿هن لباس لكم

وأنتم لباس لهن﴾ وذلك أن الرجل والمرأة كان كل منهما قبل رباط الزوجية فرداً فصار بعدها زوجا وصار كلاهما زوجين، أي أن كل منهما اندمج بالزوجية في صاحبه اندماجاً جسدياً وروحياً فأصبح بها زوجاً. وأصبحت به زوجاً.

(٢) ويستهدف الاسلام من هذه الحياة الودود انشاء كيان عائلي موصول النسب محكم الوشائج مترابط الحلقات متعاطف اللبنات كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، يسوده الوفاق وروح التعاون، ويؤدي ما عليه من واجبات قبل أن يأخذ ما له من حقوق.

(٣) وقد ركز الاسلام (حماية للأسرة وللمجتمع) على هدفين خطيرين:

الهدف الأول:

الوقاية من الغواية. فندد بكل لقاء يتم بين رجل وامرأة عن غير طريق الزوجية المأمونة الطاهرة النظيفة التي شرعها الله تعالى وبين حدودها وأركانها كطريق المسافحة أو المخادنة أو اتخاذ الخليلات بدل الحليلات، قال الله تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ (النساء ٢٤) وقال سبحانه: ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾ (المائدة ٥).

الهدف الثاني:

تكوين محضن نظيف حصين تنشأ فيه الذرية على أفضل الأسس وأقومها، وينتظم به أمر المجتمع ويقوى نشاط أفراده بما يحملونه من مسؤوليات وما يضطلعون به من تبعات، ويكثر به نسل المسلمين والكتابيات، فمن لم يجد سبيلا الى الحرائر وخشي على نفسه العنت فبالاماء المؤمنات العفيفات. قال تعالى: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان، ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (المائدة (٥). وقال جل شأنه: ﴿ومن لم يستطع منكم طَوْلا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض، فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾ الى قوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾ (النساء ٢٥).

كما حث على تزويج الأيامى غير المتزوجين ممن يصلح للزواج. عبيداً وأحراراً. نساء ورجالا، دون خوف من الفقر،

منددأ بمنع الاماء من الزواج اذا بدت منهن رغبة فيه حتى لا يرتكسن في البغاء ويشعن الفحشاء في المجتمع، قال جل ذكره: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم، وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ (النور ٣٢-٣٣).

ومن الهدفين المذكورين آنفا يتأكد لنا أن الغاية الأساسية من الزواج في الاسلام ليست مجرد صلة جنسية بين ذكر وأنثى كما يحدث في عالم الأنعام والدواب الدنيا. وكما هو الشأن في المسافحة والمخادنة واتخاذ العشيقات أو الخليلات وإنما الغاية الأساسية من الزواج في الاسلام هي إنشاء وحدة اجتماعية على أسس من المودة والتعاطف والبر والتسامح والتعاون ومكارم الأخلاق، على أن ترتكز هذه الأسس على دعامة الايمان وتقوى الله لتكون خير محضن وأصلحه لتربية النشء تربية سليمة قويمة واعدادهم لقيادة البشرية قيادة حكيمة رشيدة الى عز الدنيا ونعيم الآخرة.

(٤) كذلك من عناية الاسلام بالزوجية أنه وضع لها من

التشريعات الحكيمة العادلة ما من شأنه أن يقتلع جذور النزاع من الحياة الزوجية ويضمن لها الاستقرار والاستمرار ويقيها شر التصدع والانهيار ،فحث على الصلح بين الزوجين اذا دب بينهما خلاف أو نزاع داعياً الزوج خاصة إلى التسامح وكظم الغيظ وعدم الاستجابة لعاطفة الكراهية ونزوات النفس فقد يكون الخير فيما يكرهه والشر فيما يحبه وهو لا يعلم،فاذا تعذرت المعاشرة بالمعروف ففراق باحسان لا ضرر فيه ولا عدوان ، قال تعالى: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهُن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيرا ، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها أن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيرا﴾ (النساء ٣٤ - ٣٥) وقال سبحانه: ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ،وإن أردتم استبدال زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتاناً واثماًمبينا ،وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا﴾ (النساء ١٩-٢٠-٢١)، وقال جل جلاله: ﴿ وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو اعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح

وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيما ، وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيما﴾ (النساء ١٢٨-١٢٩-١٣٠)، وقال جل ذكره: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فان فاءوا فان الله غفور رحيم. وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم﴾ (البقرة ٢٢٦-٢٢٧) وكما دعا الزوج الى التسامح وكظم الغيظ والاحسان دعا الزوجة كذلك الى الاخلاص والطاعة لزوجها في غير معصية وحفظه في نفسها وما له في غيبته وحضوره ، قال تعالى في وصف الزوجات الصالحات: ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ (النساء ٣٤)، وقال ﷺ : « خير النساء من اذا نظرت اليها سرتك ، واذا أمرتها أطاعتك ، واذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك » وبعد هذا كله حفظ للزوجين خط الرجعة اذا انقطع حبل الزوجية بينهما بالطلاق مرة أو مرتين.

واستئناف زوجية جديدة بينهما اذا انحلت عقدتها من الزوج الثاني وانتهت عدتها منه وأرادت الرجوع الى الزوج الأول وأراد هو ذلك ان ظنا أن يقيما حدود الله ويتعاشرا هذه المرة على بصيرة وهدى ومعروف واحسان ،قال تعالى:

﴿الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان﴾ الى قوله تعالى: ﴿فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره، فان طلقها فلا جناح عليها أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ (البقرة ٢٢٩-٢٣٠) وهذه التشريعات الحكيمة السديدة تؤكد حرص الاسلام على استمرار الحياة الزوجية ودوام استقرارها.

هذا وقد جعل الاسلام حق القوامة للرجل لأنه الأقدر بحكم الخلقة والفطرة على تحمل أعباء الأسرة وحمايتها والذود عن حياضها وقيادتها الى شاطىء السلامة والأمان، وهذه هي الدرجة التي جعلها الله للرجل على المرأة وفيما عداها يتساويان في الحقوق والواجبات، وفي مقابل هذه الدرجة كلف الاسلام الرجل وحده بتبعات الزواج وأعبائه من صداق ونفقة ونحوها، ولا تكلف الزوجة شيئاً من ذلك إلا ان أرادت أن تتطوع مهما كانت غنية ومهما كان زوجها فقيراً، قال تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾ (البقرة ٢٢٨) وقال جل جلاله: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ (النساء ٣٤).

أعود فأقول هذه التشريعات الحكيمة المتعلقة بتنظيم

الأسرة- وغيرها كثير لم أذكره خشية الاطالة- كلها تؤكد مدى قدسية الرابطة الزوجية وجلال بناء الأسرة في الاسلام، ومدى نفوره من فصم عراها وهدم صرحها حرصاً منه على سلامة اللبنة التي يتألف منها بناء المجتمع الانساني الكبير.

فما أحكم الاسلام في تشريعاته، وما أحرصه على مصلحة الأسرة والمجتمع ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وكثير منهم يعلمون ولكنهم يجادلون في الحق بعد ما تبين تعصباً لباطل اعتنقوه أو تقليداً لغرب عشقوه فأصمهم وأعمى أبصارهم.

المبحث الثاني
حكم تعدد الزوجات في الاسلام

قال تعالى: ﴿وان خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ان لا تعولوا﴾ (النساء ٣)، وقال في آية أخرى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، وان تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما﴾ (النساء ١٢٩)، وليس في القرآن الكريم نص تعرض لحكم تعدد الزوجات سوى هاتين الآيتين.

آراء مختلفة حول استنباط حكم تعدد الزوجات من الآيتين:

ولبعض الناس آراء مختلفة حول استنباط حكم تعدد الزوجات من الآيتين المذكورتين، وإليك هذه الآراء مجملة ثم مفصلة مع مناقشتها وتعيين الرأي الصحيح منها:

جدول بتوضيح الآراء

(أ) من حيث التحريم والاباحة

(ب) تحريم التعدد
من حيث الحرمة المطلقة
والحرمة المقيدة بعدم الحاجة

(ج) اباحة التعدد
من حيث الاباحة بدون حد
والاباحة المحصورة بعدد

(د) تحريم التعدد
تحريماً مطلقاً

(هـ) تحريم التعدد
ما لم تكن
ضرورة اليه

(و) اباحة التعدد
بدون حد

(ز) اباحة التعدد
محصورة
بعدد معين

(ح) الاباحة الى
ثماني عشرة
الى التسع
الى أربع

يتلخص لنا من هذا الجدول ستة آراء في حكم تعدد الزوجات استنباطاً من الآيتين السالفتي الذكر وهي:

الرأي الأول: تحريم تعدد الزوجات دون نظر الى ضرورة أو حاجة إليه.

الرأي الثاني: تحريم تعدد الزوجات ما لم تدع إليه ضرورة فيباح.

الرأي الثالث: اباحة تعدد الزوجات بدون حد.

الرأي الرابع: اباحة تعدد الزوجات الى ثماني عشرة.

الرأي الخامس: اباحة تعدد الزوجات الى تسع.

الرأي السادس: اباحة تعدد الزوجات الى أربع فقط.

الآراء الستة مفصلة مع مناقشتها ثم تعيين الرأي الصحيح منها

الرأي الأول

زعم فريق أن مجموع الآيتين يفيد تحريم تعدد الزوجات. لأن الآية الأولى ﴿فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ تشترط لاباحة تعدد الزوجات العدل بينهن، والآية الثانية ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو

حرصتم﴾ تفيد أن العدل بينهن غير مستطاع للرجل مهما حرص عليه، اذن فالتعدد بالصورة التي أباحتها الآية الأولى مستحيل الوقوع لأن العدل بينهن غير مستطاع بنص الآية الثانية ،فالنتيجة أن تعددالزوجات محرم بنص الآيتين عند أصحاب هذا الرأي.

مناقشة هذا الرأي

لا شك أن هذا الرأي واهٍ لا يستند إلى دليل منقول ولا منطق معقول ،ولولا خشية أن يفتن به من لا حظ له من العلم والفهم لأسقطناه من الاعتبار ،وذلك لأن القول بأن الآيتين في مجموعها تفيد ان تحريم تعدد الزوجات قول في القرآن بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

ولم يرد هذا القول على لسان أحد ممن يعتد بعلمه في الأولين ولا في الآخرين.

أدلة سقوط هذا الرأي

وإليك بعض أدلة هذا الرأي:أولاً أن العدل المشروط لاباحة تعدد الزوجات في الآية الأولى غير العدل الذي نفت الآية الثانية استطاعته، فالأول هو العدل المستطاع المقدور عليه وهو العدل المادي في مثل المسكن والنفقة

والمبيت ونحو ذلك،وهو الذي تقع فيه المسؤولية ويتعلق به التكليف.

أما الثاني الذي نفت الآية الثانية استطاعته فهو العدل المعنوي وهو يتعلق بالعاطفة القلبية وليس في مقدور البشر، لذلك تنتفي فيه المسؤولية، ولا يتعلق به التكليف لأن القلوب ليست ملكاً لأصحابها وإنما هي بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

ثانياً - ان الله تعالى قد عقب (في الآية الثانية) على قوله: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ بقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ وهذا التعقيب يفيد أن المقصود بالعدل الذي نفى استطاعته هو الحب القلبي، فإن نهيه عن كل الميل يفهم منه أن بعض الميل معفو عنه لعدم استطاعته.

والخلاصة: أنه سبحانه نهى بقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ نهى أن يميل ميزان العدل بإحدى الزوجتين أو الزوجات كل الميل فتكون الأخرى كالمعلقة لا هي ذات زوج ولا هي مطلقة. فلا لوم على الزوج أن يميل قلبه إلى إحدى زوجاته أكثر من غيرها ما دام يستهدف في معاملته لزوجاته جميعاً الاصلاح والتقوى، فلا يسيء عشرة التي ينفر منها قلبه،

ويعدل بينهن في المبيت والنفقة والسكنى ونحو ذلك،ومن هنا كان ختام الآية الثانية ﴿وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما﴾.

وها هو ذا رسول الله ﷺ وهو القدوة الحسنة للمؤمنين يعلنها صريحة فيقول وقد عدل بين زوجاته في كل شيء ما عدا عاطفته فإنها مالت إلى عائشة: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».[1]

ثالثاً - حاشا لله تعالى أن يبيح تعدد الزوجات بشرط العدل بينهن في آية، ثم يأتي في آية أخرى وردتْ في سياق آخر فينفي استطاعة العدل الذي اشترطه لاباحة التعدد في الآية الأولى، ومعنى هذا أنه سبحانه أباح التعدد وعلقه بشرط غير مستطاع فهل يستقيم هذا مع قوله في الآية الأولى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾؟ - وما فائدة قوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ ما دام التعدد بالصورة التي شرعها مستحيل الوقوع؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا.

رابعاً - لقد نص الله في كتابه الكريم على تحريم الجمع بين الأختين في سياق ذكر المحرمات من النساء، فقال جل

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي نقل الشهيد سيد قطب في تفسيره (الظلال).

ذكره: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ (النساء ٢٣) ونهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها « فما معنى نص القرآن والسنة على تحريم الجمع بين من ذكر اذا كان التعدد محرماً أصلاً؟ أليس ذلك دليلاً على إباحة التعدد في الاسلام؟ ».

خامساً - لقد أمر الاسلام بالعدل بين الأولاد أفيمكن أن نقول أيضاً بناء على هذا الرأي أن الاسلام يحرم التعدد في الأولاد ويفرض على الوالدين ألا ينجبا إلاّ ولداً واحداً؟ لأن العدل المطلق بين الأولاد غير مستطاع كذلك والشرع أمر بالعدل بينهم اذن فلا تعدد في الأولاد أيضاً!!

سادساً - وأخيراً - فإن النبي ﷺ وهو المبين للقرآن بفعله وقوله وهو المبلغ عن ربه ما حل وما حرم، قد عدد في الزوجات فما قول أصحاب هذا الرأي في ذلك؟ هل يقولون: أنه ﷺ خالف ما نصت عليه الآيتان من تحريم تعدد الزوجات، واستباح لنفسه ما حرم الله؟ أم أنه ﷺ لم يفهم من الآيتين ما فهمه أصحاب هذا الرأي؟ وإذا جادلوا وقالوا: هذه خصوصية له ﷺ مع أن الحق أن خصوصيته ﷺ هي في الزيادة عن الأربع لا في أصل التعدد فما قولهم وقد عدد أصحابه في عهده! وكان يأمر من تحته أكثر من أربع زوجات أن يختار أربعاً ويفارق الباقي؟ فلم يأمرهم أن

يقتصروا على واحدة بدل أربع؟ وكيف يقر أصحابه على التعدد ما دام محرماً مع أنه ﷺ لا يسكت على منكر ولا يقره فضلا عن أن يفعله!؟

ثم عدد من بعد الصحابة التابعون ومن بعدهم وجرى بذلك العرف،وانعقد عليه الاجماع الى يومنا هذا دون أن ينكر أحد على أحد، فكيف بعد هذا كله يتجرأ هؤلاء المخرصون على كتاب الله ويفسرونه على هواهم ويقولون فيه بما لا يقره عقل ولا يؤيده نقل؟ وخلاصة القول في الآيتين أنه لا تعلق بين العدلين فيهما إلا من حيث أنه عدل بين الزوجات،وأن العدل المشروط لإباحة التعدد في الآية الأولى هو العدل المادي في مثل النفقة والكسوة والسكن والمبيت وهو أمر مقدور عليه لذلك اشترطه الله تعالى على من يريد تعدد الزوجات.

أما الآية الثانية فهي تقرر حقيقة في السلوك الاجتماعي بين بني البشر وهي أن العاطفة القلبية من حب وكره وألفة ونفور لا يستطيع أحد أن يتحكم فيها ويوزعها بالعدل بين زوجاته، ولا بين أولاده ولا بين أصدقائه وأخلائه، وقد أعلن ذلك سيد البشر ﷺ في اعتذاره لربه عن حبه لعائشة بعد أن قسم بين زوجاته بالسوية فيما عدا الحب بقوله:

«اللهم هـذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[1].

الرأي الثاني

وزعم فريق ثان أن الأصل في تعدد الزوجات هو المنع ولا يباح إلاَّ لضرورة فردية كمرض الزوجة أو عقمها أو اصابتها بما يحد من استمتاع الزوج بها، أو لضرورة اجتماعية نحو كثرة اليتامى والأرامل من النساء نتيجة حرب أو وباء، ووجد الزوج في مثل هاتين الضرورتين أنه ليس من الوفاء أن يفارق زوجته الأولى ما دامت تفضل البقاء في عصمته لأن الضرورات تبيح المحظورات وأخف الضررين يرتكب لاتقاء أشدهما واستدلوا على رأيهم المذكور بما يلي:

١ -أن الله تعالى قد ربط إباحة تعدد الزوجات بالخوف من عدم الاقساط في اليتامى في قوله سبحانه:﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ فجعل من وجود الحرج في ولاية اليتامى مبرراً لإباحة التعدد وقاسوا على هذا المبرر كل مبرر آخر مشروع [2] من ضرورات فردية أو اجتماعية

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) المدني في (رأي جديد في تعدد الزوجات) وفي (المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء).

على نحو ماأسلفنا ،وقد بنوا استدلالهم المذكور على أن الآيـة الكريمـة تخاطـب الأوليـاء الأجانـب الـذين يتحرجون من القيام عن قرب بمصالح اليتيمات اللائي في ولايتهم ، فرفعت الآية عنهم الحرج بإباحة الزواج من نفس اليتيمات مثنى وثلاث ورباع.

٢ -وأن الزواج بواحدة هو الأصل في الاسلام والتعدد استثناء ، ولا يعمـل بالاستثنـاء إلا عنـد الضرورة والضرورة تظهر عند وجود مبرر التعدد[١].

٣ -وأن تعدد الزوجات لم يشرع توسعة على الذواقين والذواقات كما هو واضح من سياق الآية التي حرمت الظلم وحذرت منه عند ظن الوقوع فيه ،ومن هنا كان التعدد رخصة حيثما كان هناك مبرر[٢].

٤ -وأن اشتراط مبرر لتعدد الزوجات سيقضي على مشاكله أو يحدمنها ،كما أنه يحد من اندفاع الرجل عند التفكير في زواجه على امرأته[٣].

٤ • هذا مجمل ما استدلوا به على أن تعدد الزوجات لا

---

(١) نقل الدكتور العطار في المصدر السابق - ص ٣٠٤ (العطار المصدر السابق - ٣٠٥.

(٢) البهى الخولي في (مجلة منبر الاسلام) عدد ١١ سنة ١٩٢٢ نقل العطار بالمصدر السابق - ض ٣٠٦.

(٣) نفس المصدر ص ٣٠٨ ، ٣٠٩

يجوز دينياً ولا قضائياً ما لم تدع إليه ضرورة فردية أو اجتماعية.

الرد على أصحاب هذا الرأي اجمالاً

للرد عليهم اجمالاً نقول:

أولاً - أنهم جعلوا ذكر اليتامى في الآيات القرآنية تابعاً للحديث عن تعددالزوجات، مع أن الواضح من الآيات أن موضوع اليتامى هو الأصل ولم يكن ذكر التعدد إلا شطر آية فيها.

ثانيا - القول بأن الأصل في تعدد الزوجات للمسلم هو الحظر يحتاج إلى دليل شرعي لأنه حكم شرعي، والحكم الشرعي لا يثبت إلا بدليل شرعي والدليل الشرعي في آية التعدد ناطق بالإباحة لا بالحظر(١).

الرد عليهم تفصيلاً

للرد على استدلالهم رقم (١) نذكر ما قاله فضيلة الشيخ «خلاّف» في كتابه (نور من القرآن الكريم) ص ١٠٧ إلى ص ١١١ مبيناً وجه الارتباط بين قوله تعالى: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ وقوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ قال رحمه الله: ذكر المفسرون في

(١) الشيخ خلاف في (نور من القرآن) ص ١٢١ مع تصرف في العبارة.

ذلك عدة آراء أظهرها ثلاثة وهي:

الأول: قالوا كان الأولياء والأوصياء يتزوجون من في ولايتهم من يتامى النساء ويستغلون ولايتهم عليهن لظلمهن في تقدير مهورهن فيبخسون قدرها وفي منعه عنهن فلا يؤتوهن ما فرض لهن، فلما نهى الله سبحانه الأولياء والأوصياء عن أكل أموال اليتامى وبين أنه حوب كبير خاف الأولياء والأوصياء من تصرفهم في تزوج من في ولايتهم من يتامى النساء وعدم العدل فيهن، فقال لهم الله: وإن خفتم ألا تعدلوا في تزوجكم بيتامى النساء المشمولات بولايتكم؛ فتزوجوا غيرهن مما طاب لكم من النساء اثنتين إن شئتم أو ثلاثاً أو أربعاً؛ لأن العاقل يترك الزواج الذي يفضي به إلى الظلم إلى الزواج الذي لا ظلم فيه.

وهذا التفسير مروي عن عائشة ووجه الارتباط عليه واضح.

وخلاصة المعنى على هذا التفسير: وإن خفتم ألا تعدلوا في تزوج اليتيمات المشمولات بولايتكم فتزوجوا غيرهن مما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع.

الثاني: قالوا كان الأولياء والأوصياء يأكلون أموال اليتامى المشمولين بولايتهم لحاجتهم إليها في تزوج النساء

اللاتي ما كان لعددهن حد. وما كانت أموال الأولياء وحدها تكفيهن - فقال الله لهم: وإن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى فسدوا الباب الذي يدخلكم إلى أكل أموالهم وهو الإكثار من الزوجات واقتصروا مما طاب لكم من النساء على اثنتين أو ثلاث أو أربع، فإن خفتم ألا تعدلوا بين الأكثر من واحدة فاقتصروا على واحدة. وهذا التفسير مروي عن ابن عباس.

الثالث: قالوا: لما نهى الله عن أكل أموال اليتامى وعده - على أي وصف حوبا كبيراً- تحرج الأولياء والأوصياء وخافوا من الولاية والوصاية حذراً من أن يظلموا اليتامى المشمولين بولايتهم ووصايتهم، فقال الله لهم: وإن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى المشمولين بولايتكم ووصايتكم فخافوا أيضاً ألا تعدلوا في النساء اللاتي تتزوجون منهن بغير حد ولا قيد، فتزوجوا مما طاب لكم منهن اثنتين أو ثلاثاً أو أربعا، وإن خفتم ألا تعدلوا بين الأكثر من واحدة فتزوجوا واحدة لأن من تحرج من عمل يفضي إلى الظلم يجب عليه أن يتحرج من كل ما يفضي إلى ظلم.

وهذا التفسير مروي عن سعيد بن جبير، والسدي، وقتادة.

وقال شيخ المفسرين ابن جرير. إنه أولى الأقوال بالقبول.

وأنا أختار هذا لأن الربع الأول من سورة النساء في العدل بين الضعفاء الثلاثة (اليتامى والنساء والسفهاء)، فلما أمر الله بالعدل في اليتامى - وعد الاعتداء على حقهم حوباً كبيراً. ووجد من نفوس المخاطبين تحرجاً من هذا الظلم- اتخذ تحرجهم هذا وسيلة للفتهم إلى أن يتحرجوا من ظلم آخرهم وهم منغمسون فيه وهو ظلم الزوجات، وكان الرجل منهم يتزوج أي عدد من النساء شاء ولا يقيد نفسه بعدد ولا بعدل. فقال لهم الله: وإن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى فكذلك خافوا ألا تعدلوا في النساء اللاتي تتزوجون بهن فتزوجوا منهن ما لا تخافون فيه الظلم. اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، فإن خفتم ألا تعدلوا بين الأكثر من واحدة فتزوجوا واحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أقرب النظم إلى ألا يكون منكم ظلم. وأما تحرجكم من ظلم اليتامى وعدم تحرجكم من ظلم الزوجات فهذا ليس في الحقيقة تحرجاً من الظلم.

وعلى هذا الذي اخترناه فالمراد من اليتامى في قوله: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ ما يشمل الذكور والإناث مثل اليتامى في قوله: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ لا خصوص يتامى النساء.

والمراد ﴿بما طاب لكم من النساء﴾ ما طاب من أي النساء لا مما سوى اليتيمات وتكون الآية ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ في العدل في اليتامى، والآية ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ في العدل في الزوجات.

فكل آية قررت النظام العادل في فريق ممن يستضعفون من الضعفاء الثلاثة انتهى، وعلى هذه التفاسير الثلاثة يسقط الاستدلال رقم (١) السالف الذكر.

فعلى التفسير الأول تبيح الآية ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا... إلخ﴾ للأولياء الزواج من غير اليتيمات المشمولات بولايتهم مثنى وثلاث ورباع لا من نفس اليتيمات كما ورد في استدلالهم المشار إليه.

وعلى التفسير الثاني: تأمر الآية بالانتهاء في تعدد الزوجات إلى أربع فقط حتى لا يقعوا في ظلم، فإن خافوا ظلماً يقع منهم لو تزوجوا بأكثر من واحدة فليقتصروا على واحدة سواء من اليتيمات المشمولات بولايتهم أم من غيرهن، فليس اذن عدم الاقساط في اليتامى مبرراً لاباحة التعدد كما يقولون بل على العكس من ذلك.

وكذلك على التفسير الثالث تحذرهم الآية من سلوك الطريق المفضية بهم إلى ظلم لا يقل شناعة عن ظلم اليتامى

الذي يخافونه ويتحرجون منه ألا وهو مجاوزة الأربع في تعدد الزوجات سواء من اليتيمات المشمولات بولايتهم أم من غيرهن.

هذا ولو سلمنا جدلا بأن عدم الإقساط في اليتامى يعتبر مبرراً لإباحة تعدد الزوجات على زعمهم فإنه لا يلزم منه أن اباحة التعدد مشروطة بوجود مبرر لها.

وكذلك لو اعتبرنا عدم الاقساط في اليتامى مبرراً لاباحة التعدد وقلنا قياساً عليه: لا يباح التعدد إلا بمبرر مشروع ؛فما الحكم لو وجد المبرر المبيح للتعدد في رأيكم سواء كان ضرورة فردية أم اجتماعية ولكن مع وجود المبرر خاف الرجل عدم العدل بينهن؟ فهل تقولون في هذه الحالة أيضاً: إن خوف الظلم بينهن مبرر لتحريم التعدد قضائياً.

كما أن عدم الاقساط في اليتامى مبرر لاباحته لأن الله جعله شرطاً كذلك في تحريم التعدد في قوله تعالى: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾؟

والحق الذي لا مرية فيه أن تعدد الزوجات جائز قضائياً حتى مع خوف الظلم بينهن ،فإذا وقع من الرجل ظلم فعلاأثم ،أما إذا لم يقع منه ظلم أو وقع ثم بات فأصلح وعدل فلا إثم عليه ،وإن اشتراط المبرر لاباحة التعدد لا أصل له.

وللرد على استدلالهم رقم (٢) وهو زعمهم أن الزواج بواحدة هو الأصل في الاسلام والتعدد استثناء ولا يعمل بالاستثناء إلا عند الضرورة والضرورة تظهر عند وجود مبرر لها نقول: هذه دعوى لا دليل عليها، والآية الكريمة ليس فيها أي دليل على أن الزواج بواحدة أو بأكثر من واحدة هو الأصل، وإنما هي تدل على اباحة التعدد مثنى وثلاث ورباع فإذا خيف الظلم فواحدة، ويؤكد هذا نصب لفظ (واحدة) في القراءة المشهورة وحتى على قراءة الرفع يمكن أن يكون التقدير فواحدة كافية[1].

والخلاصة: أنه لا دليل في الآية على أن الزواج بواحدة هو الأصل والتعدد استثناء. وللرد على استدلالهم رقم (٣) وهو قولهم. أن التعدد لم يشرع توسعة على الذواقين والذواقات.. الخ، نقول وهل ذلك يعني تحريم التعدد على من يقع في حب امرأة فيريد زواجها اعفافاً له ولها عن الوقوع في الفحشاء وأي الحلول أفضل؟ أن يكون زوجاً ملتزماً حقوقها معترفاً بأبنائه أم عشيقاً يقضي منها وطراً ويحمل وزراً ولا يتحمل أثراً؟ أم يطلق زوجته الأولى وهي راغبة في البقاء معه على ضر؟ نعم إن اباحة التعدد في مثل هذه الحالة لا تخلو من ضرر غالباً، ولكن أليس في تحريمه ضرر

(١) (تعدد الزوجات) ص ٣٠٦ للدكتور عبد الناصر العطار مع بعض التصرف.

أشد وبالا وأسرع فتكاً بالفرد والمجتمع؟ إن الاسلام دين واقعي يحل المشاكل حلا واقعياً ،ومن القواعد المسلمة أن الضرر الأشد يدفع بالضررالأخف ، هذا ولو كان اشتراط المبرر لاباحة تعدد الزوجات أمراً ذا أهمية عند الشارع لنص عليه صراحة ولم يغفله ﴿وما كان ربك نسيا﴾.

وهذا رسول الله ﷺ عقب نزول آية التعدد يأمر كل من كان تحته أكثر من أربع زوجات أن يسرح ما زاد عن الأربع دون أن يبين - والمقام مقام بيان وتشريع - أن بقاء الأربع بأي مبرر من عقم أو مرض أو كثرة أرامل أو أيتام أو نحو ذلك.

أما استدلالهم رقم (٤) وهو زعمهم أن اشتراط المبرر سيقضي على مشاكل التعدد أو يحد منها فهو مردود بأن وجود المبرر أو عدم وجوده لن يقضي على ما قد ينشأ بين الضرات من نفور أو بين الأولاد من نزاع. وكذلك قولهم: إن اشتراط المبرر يحد من اندفاع الرجل عند التفكير في زواجه على امرأته ،نقول رداً عليه: أو ليس في اشتراط المبرر ما يدفع الرجل الى ارتكاب ما لا يليق أو الوقوع في الفحشاء خصوصاً عند عجزه عن اثبات المبرر. أو حيائه من ابدائه؟

واذا قلتم باشتراط المبرر لإباحة التعدد فلماذا لا تقولون به لاباحة الزواج الأول أيضاً؟ مع أن ظروف الزواج الأول وما ينجم عنها من مشاكل قد تكون هي الدافع إلى الزواج الثاني فكان الزواج الأول هو الأولى باشتراط المبرر وليس الثاني الذي غالباً ما يتم بعد تجربة وخطأ[1]. فبأي حق هذا التضييق والتعقيد على عباد الله في أمر قد وسعه الله عليهم دون استناد إلى نص شرعي. أو قياس صحيح. أو اجماع يعتد به من سلف الأمة أو خلفها؟

اليس كل من الرجل والمرأة أدرى بمصلحته وظروفه؟

أليست رقابة الأقارب والأصدقاء وأهل الزوجة الأولى وأهل الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة أشد وأوثق وأجدى من رقابة القانون والقضاء؟

وهذا وان اشتراط المبرر يؤدي إلى شرور لا حصر لها، وإن ضرره أكثر من نفعه؛ فهو يدفع إما إلى كثرة الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله، وإما إلى الزواج العرفي وما قد ينجم عنه من ضياع حقوق الزوجة والأولاد وربما ضياع الأنساب، وإما إلى فتح أبواب التحايل وافتعال المبررات، وإشاعة الفوضى الخلقية والاجتماعية وفضح الأعراض

---

(١) المصدر السابق - ص ٣٠٩ - بتصرف

وكشف السوءات وانتهاك الحرمات. وتعريض المرأة للمهانة والابتذال، وناهيك بما يترتب على ذلك وأمثاله من أضرار ومفاسد تعود بالوبال على الأفراد والجماعات مما لا يساوي ضرر تعدد الزوجات بالنسبة لها شيئاً مذكوراً.

النتيجة

نخلص من هذا كله بأن الرأي الثاني القائل بأن الأصل في تعدد الزوجات هو المنع ولا يباح إلا لضرورة فردية أو اجتماعية رأي باطل ولا خير فيه للفرد والمجتمع.

الرأي الثالث

وزعم فريق ثالث أن الآية ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ تبيح تعدد الزوجات بغير حصر مستدلين على زعمهم هذا بما يلي:

(١) أن صيغة ﴿ما طاب لكم من النساء﴾ تفيد العموم وأن ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ كلمات معدول بها عن أعداد مكررة إلى غير نهاية ذكرت بعد صيغة العموم السالفة الذكر على سبيل البيان بالمثال لا على سبيل التحديد، وأن مجيئها على الوجه المذكور يفيد رفع الحرج عن المسلم في تزوج من شاء من الزوجات الى غير حد أي أن معنى قوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم... الخ﴾

فتزوجوا ما طاب لكم من النساء أي عدد شئتم مثنى وثلاث ورباع كما لو قلت لشخص: اشرب الكأس مثنى وثلاث ورباع، أو خذ من مكتبي ما طاب لك من الكتب اثنين أو ثلاثة أو أربعة فأنت لا تقصد بذكر العدد في هذين المثالين التحديد وإنما تقصد تأكيد التعميم: أي اشرب من الكأس ما شئت من المرات، وخذ من الكتب ما شئت من العدد، وشبهوا التعمَيم الوارد في الآية المذكورة بالتعميم الوارد في قوله تعالى في أول سورة فاطر: ﴿جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾.

(٢) وإن الزواج كملك اليمين كلاهما غير مقيد بعدد، قال تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾.

(٣) وأن الأخبار الواردة عن النبي ﷺ في تقييد تعدد الزوجات بأربع إنما هي أخبار آحاد، وخبر الآحاد لا ينسخ به القرآن الذي فهموا منه أنه يبيح التعدد إلى غير حد. أو أنها تحتمل معنى آخر غير تقييد التعدد، فمن الجائز أن يكون بين الذين أمرهم النبي ﷺ بمفارقة ما زاد عن الأربع من الزوجات وبين الزائدات

عن الأربع سبب محرم، كحرمة نسب أو حرمة رضاع وإذا تطرق الاحتمال إلى هذه الأخبار لا يعتبر، الاستدلال بها ناسخاً لما فهموه هم من الآية على النحو الذي أسلفناه.

الرد على الاستدلال رقم (١)

يمكننا أن نرد هذا الاستدلال بما يلي:

أولا أنه استدلال باطل من أساسه، وذلك لأن اباحة تعدد الزوجات بغير حد أمر كان معلوماً قبل نزول الآية ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء... الخ﴾ وأقرته الشرائع السماوية السابقة، وجرى عليه عرف الناس إلى وقت نزول الآية السالفة الذكر، وكان يكفي لاقرار اباحته للمسلمين أن يجري عليه عرفهم دون أن تنزل آية قرآنية تقره وتؤكده، ولكن الآية الكريمة نزلت لتضع عليه القيود لا لتقره فقيدته كمّا (مثنى وثلاث ورباع)، وقيدته كيفا ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾.

ويؤكد هذا الاتجاه أن الآية الكريمة بعد أن ذكرت الزواج مقيداً بمثنى وثلاث ورباع أعقبته بذكر ملك اليمين مطلقاً من التقييد بأي عدد ﴿فانكحوا ما

طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾ وهذا الاطلاق في ملك اليمين بعد التقييد بأربع في الزواج يدل دلالة واضحة على اتجاه الآية الكريمة الى تقييد عدد الزوجات بأربع لا إلى اباحته بغير حد على نحو ما كان عليه قبل نزولها.

ثانياً: أن العموم المستفاد من صيغة﴿ما طاب لكم من النساء﴾ مخصص بأمرين: أمر معنوي، وأمر لفظي، فأما المخصص المعنوي فهو أن المخاطب بقوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم... الخ﴾ هم المسلمون، والشأن في المسلم أنه لا يستطيب إلا من تحل له ولا يحل له ما زاد عن الأربع، وقد ورد في أكثر كتب التفسير أن معنى ﴿ما طاب لكم من النساء﴾ ما حل لكم منهن، انظر على سبيل المثال التفاسير التالية:

(١) زاد المسير لابن الجوزي ج٢ - ص ٧ ط المكتب الاسلامي - بيروت

(٢) الدر المنثور للسيوطي ج٢ - ص ١١٩ - وبهامشه تنوير المقياس لابن عباس - ج٢ - ص ٢٣٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٣١٢.

(٤) فتح البيان - ج ٢ - ص ١٦٧.

(٥) فتح القدير للشوكاني - ج ١ - ص ٤٢٠ ط - دار الفكر.

(٦) التسهيل لابن جزي الكلبي - ج ١ - ص ١٢٨ ط - دار الكتاب العربي - بيروت.

وأما المخصص اللفظي فهو وصف ﴿ما طاب لكم من النساء﴾ بالأعداد (مثنى وثلاث ورباع) وهي ألفاظ مفردة معدول بها عن أعداد مكررة.

فالمعنى: فتزوجوا من حل لكم من النساء اثنتين اثنتين وثلاثاً وثلاثاً وأربعاً وأربعا لا تزيدون على هذا.

ثالثاً: لو أننا سلمنا لهم بأن الآية ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء... الخ﴾ تدل على التعميم بل تحتمل أيضاً الدلالة على التحديد بما لا يزيد على أربع ،قال العلامة الزمخشري في (الكشاف): اذا قلت لجماعة: اقتسموا هذا المال بينكم درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، فهموا من هذا القول لغة أن لهم أن يقتسموه على أي هذه الأنواع، وليس لهم أن يقتسموه خمسة خمسة أو ما زاد، فالآية دلت على اباحة التزوج بما طاب من النساء لمن أراد التزوج إن شاؤوا مختلفين في تلك الأعداد وإن شاؤوا متفقين فيها محظوراً عليهم

ما وراء ذلك[1].

أقول: فاذا كانت الآية وحدها تحتمل تعميم ما يباح من عدد الزوجات وتحتمل تحديد أقصاه بأربع؛ فلنرجع إلى من أنزل عليه الكتاب، وأعطى حق بيان المراد من آياته، بقوله عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم﴾ ليبين لنا المعنى المقصود من المعنيين المحتملين: التعميم أو التحديد بأربع، فإنه ﷺ حين يبين فإنما عن الله يبين، وكما أنه ليس لمسلم أن يخرج عن الكتاب فليس له أن يخرج عن بيانه الذي بينه من أنزل عليه، فإن النص وبيانه من الله كما قال الشافعي رضي الله عنه، وإليك القول الفصل من بيانه ﷺ.

(أ) روى مالك في (موطئه)، وأحمد في (مسنده)، وابن ماجه والترمذي في سننهما، والشافعي في (الأم) (أن غيلان الثقفي أسلم وفي عصمته عشر نسوة، فذكر ذلك الرسول ﷺ فقال له: اختر منهن أربعاً).

(ب) وروى ابن ماجه وأبو داود في سننهما (أن قيس بن الحارث أسلم وعنده ثماني نسوة، فذكر ذلك للرسول ﷺ فقال له: (اختر منهن أربعاً).

(١) نقلا عن كتاب (نور من القرآن الكريم) للشيخ خلاف ص (١١٢)

(ج) وقد روت كتب السنة الصحيحة غير هذين الحديثين، فقد روي أن نوفل بن معاوية الديلي قال: (أسلمت وتحتي خمس نسوة، فقال لي النبي ﷺ: فارق واحدة منهن، قال فعمدت إلى عجوز عاقر معي منذ ستين سنة فطلقتها).

فهذه الأخبار كلها كما ترى متفقة على أن الرسول ﷺ أمر من أسلم وفي عصمته أكثر من أربع زوجات أن يتخير منهن أربعاً ويفارق سائرهن، وقد توافرت لهذه الروايات عدة مؤيدات:

أولها: أنها روايات خبر تشريعي تلقاه الأئمة المجتهدون بالقبول، ورووه وعملوا به، واتفاق الثقات من رجال الفقه على العمل بخبر تشريعي يقوي صحته لأن الأحاديث التشريعية موضع التحري والتدقيق.

وثانيها: أن غيلان الثقفي هذا لم يمت إلا في آخر خلافة عمر، وكانت له واقعة فصل فيها عمر ولو كان في حديثه مطعن لظهرت حقيقة الأمر في عهد عمر لما عرف عنه رضي الله عنه من شدة التحري في الرواية حتى قال معاوية: عليكم من الحديث بما روى في عهد عمر فإنه أهاب الناس.

وثالثها: أن الأمة من عهد الرسول ﷺ إلى يومنا هذا مجمعة

على قصر عدد الزوجات على أربع وتحريم مازاد ،ولو كان التعميم في عدد ما يباح من الزوجات مقصوداً من الآية الكريمة في أي مذهب من مذاهب أهل السنة والجماعة لوقعت ولو حادثة واحدة جمع فيها مسلم في عصمته أكثر من أربع ، من هذا يتبين أن السنة واتفاق الأمة بينا أن قوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ للتحديد بأربع ،وليس للتعميم كما يزعم أصحاب هذا الرأي، ولهذا قال الشافعي في (الأم) بعد روايته حديث غيلان من طريقين: فدلت سنة رسول الله ﷺ على أن انهاء الله عز وجل في العدد بالنكاح الى أربع تحريم أن يجمع رجل بنكاح بين أكثر من أربع ، ودلت سنة الرسول ﷺ على أن الخيار فيما زاد على أربع إلى الزوج.

وقال الامام السندي في حاشيته على ابن ماجه تعليقاً على حديثي غيلان وقيس: قوله ﷺ: ﴿اختر منهن أربعاً﴾ يدل على أن قوله تعالى: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ في قوله سبحانه: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ للتقييد لا للتعميم كما في قوله تعالى: ﴿جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾ والتكرار بالنظر الى آحاد

الرجال لا بالنظر الى واحد والواو بمعنى (أو) لافادة حل هذه الأعداد كلها لواحد[1].

والخلاصة: أن استدلالهم بأن العموم المفهوم من صيغة ﴿ما طاب لكم من النساء﴾ هو المقصود، وأن ذكر الأعداد ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ بعد الصيغة المذكورة إنما هو على سبيل البيان بالمثال لا على سبيل التحديد، وأن الغرض من مجيء الآية على هذا السياق هو رفع الحرج عن المسلم في تزوج ما شاء من النساء إلى غير حد. أقول: إن هذا الاستدلال غير سديد يأباه النص وترده السنة واجماع الأمة.

الرد على استدلالهم رقم (٢)

وأما قياسهم الزواج على ملك اليمين في عدم التقييد بعدد معين فهو قياس باطل لا يعتد به لأنه لا قياس مع وجود النص. والنص في الآية صريح في تقييد الزواج بأربع ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ وفي اطلاق ملك اليمين من القيد بأي عدد ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾، وهذا الاطلاق في ملك اليمين بعد ذكر الزواج مقيداً بأربع مما يؤكد اتجاه الآية إلى تقييد عدد الزوجات بأربع لا إلى اباحته إلى غير حد، ثم

---

(١) (نور من القرآن الكريم) للشيخ خلاف ص ١١٦ - وص ١١٧ مع بعض التصرف.

جاءت السنة واجماع الأمة بتأكيد هذا الاتجاه.

الرد على استدلالهم رقم (٣)

أما قولهم أن الأخبار الواردة عن النبي ﷺ في تقييد تعدد الزوجات بأربع مردودة بأحد أمرين:

الأمر الأول: أنها أخبار آحاد وخبر الآحاد لا ينسخ به القرآن.

والأمر الثاني: أنها تحتمل معنى آخر غير تقييد التعدد كوجود حرمة نسب أو حرمة رضاع مثلا بين الذين أمرهم النبي ﷺ بمفارقة ما زاد عن الأربع من الزوجات وبين هؤلاء الزائدات عن الأربع.

فالجواب عن الأمر الأول أن هذه الأخبار ليست ناسخة للآية الكريمة وإنما هي ناسخة لفهمهم السقيم من الآية، لأن غاية ما يقال لو أردنا التساهل معهم أن الآية مجملة وليست قطعية الدلالة على أحد المعنيين المحتملين (التعميم والتحديد) وبيان المجمل بخبر الواحد جائز، وليس في هذا نسخ بل فيه زيادة بيان للمعنى المقصود من الآية.

والجواب عن الأمر الثاني: أن قول النبي ﷺ في بعض الروايات﴿اختر منهن أربعاً﴾وفي بعضها (أمسك عليك أربعاً) وفي بعضها (فارق واحدة) قد ورد على سبيل الاطلاق دون

تحديد سبب لذلك غير الزيادة عن الأربع، فدل ذلك بداهة على أن المانع هو الزيادة على أربع دون أي احتمال آخر.

وبعد:

فبهذه الأجوبة السديدة على تلك الاستدلالات الواهية ينهار الرأي الثالث الذي يدعي أن الآية ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ تفيد اباحة تعدد الزوجات اباحة غير محصورة بعدد.

الرأي الرابع

وزعم فريق رابع أن الآية ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ تفيد اباحة الجمع الى ثماني عشرة زوجة في عصمة رجل واحد، مستدلين على زعمهم هذا بأن الكلمات ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ ألفاظ مفردة معدول بها عن أعداد مكررة، وأن الواو التي بين هذه الكلمات للجمع، ومعنى الآية على تفسيرهم هذا: فتزوجوا ما طاب لكم من النساء، اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، فيكون المجموع حسب فهمهم - ثماني عشرة زوجة.

الرد على أصحاب هذا الرأي

لا ريب في شذوذ هذا الرأي ومجافاته للغة العربية، فإن المخاطب بالآية ﴿فانكحوا ما طاب لكم... الخ﴾ ليس فرداً

واحداً ، وإنما هو مجموع الناس ، بدليل أن الخطاب في سابق هذه الآية ولا حقها من الآيات موجه لجميع الناس ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ،وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ، وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا وآتو النساء صدقاتهن نحلة... الخ﴾.

والواو التي بين (مثنى وثلاث ورباع) ليست للجمع كما يزعمون ولا لعطف العدد وإنما هي لعطف الفعل ، والمعنى الصحيح للآية هو: أيها الناس لكم الخيار في شأن الزواج في حدود ما أحل الله لكم من الزوجات ، فمن شاء منكم تزوج اثنتين ، ومن شاء تزوج أربعاً ،فيكون تعدد الزوجات عند احصاء المعددين (مثنى وثلاث ورباع) وهذا الأسلوب مألوف للعرب فلو قيل: حضر أعضاء المؤتمر مثنى وثلاث ورباع. فهم العربي من هذا التعبير أن بعض أعضاء المؤتمر حضروا اثنين اثنين ، وبعضهم حضروا ثلاثة ثلاثة ، وبعضهم حضروا أربعة أربعة ، ولا يمكن أن يفهم منه أن جملة من

حضر ثمانية عشر، ولا أن المقصود بهذه العبارة هو حصر الحضور بالعدد المذكور.

وكيف يتصور أن تعبر آية قرآنية من كتاب الله عن العدد (١٨) بتعبير يضم أعداداً ثلاثة (مثنى وثلاث ورباع)؟ لا شك أن الأسلوب العربي العادي يأبى هذا فكيف بأبلغ الكلام وأحسن الحديث (كلام رب العالمين)؟ ومما يؤكد براءة القرآن من مثل هذا التعبير الجافي لبلاغته أنه تضمن تعابير صريحة عن أعداد أكبر وأخرى أصغر من العدد (١٨) لم يسلك في واحد منها هذا الاسلوب الركيك الذي يحاولون أن يصموه به، وإليك على سبيل المثال: ﴿أحد عشر كوكباً﴾ يوسف (٤) ﴿اثنا عشر شهراً﴾ التوبة (٣٦) ﴿ثلاثين ليلة - أربعين ليلة﴾ الأعراف (١٤٢) ﴿سبعون ذراعاً﴾ الحاقة (٣٢) ﴿سبع ليال وثمانية أيام﴾ الحاقة (٧) فلو كان تعدد الزوجات يباح الى ثماني عشرة كما يزعمون لصرح القرآن بهذا العدد على نحو ما صرح به في الأمثلة السالفةالذكر، ولكن الآية ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ اقتصرت على أربع دونزيادة، والأخبار الصحيحة المروية عن رسول الله ﷺ أكدت هذا كما أكده عمل الصحابة واجماع الأمة وخلفها الى يومنا هذا فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

الرأي الخامس

وزعم فريق خامس أن الآية ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ تفيد اباحة الجمع الى تسع زوجات في عصمة رجل واحد، مستدلين على زعمهم هذا بالكتاب والسنة على حسب فهمهم منها على النحو التالي،
أما الكتاب: فقد زعموا أن الكلمات﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ في الآية الكريمة ألفاظ مفردة معدول بها عن أعداد مفردة وأن الواو التي بين هذه الكلمات للجمع فيكون معنى (مثنى وثلاث ورباع) على فهمهم هذا (اثنتين وثلاثاً وأربعاً) ومجموعها (تسع).

وأما السنة فقد ادعوا أن جمع النبي ﷺ بين تسع زوجات إنما هو للتأسي والتشريع، فيباح لمن شاء من أمته اقتداء به ﷺ - أن يجمع بين تسع زوجات.

الرد على استدلالهم بالآية

إن فهمهم للآية الكريمة ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾فهم خاطىء بني على أساس خاطىء، فزعمهم أن (مثنى وثلاث ورباع) معدول بها عن أعداد مفردة لا تقره اللغة، والصحيح أنها معدول بها عن أعداد مركبة كما أسلفنا، وزعمهم أن الواو التي بين هذه

الكلمات للجمع سبق أن أجبنا عليه عند مناقشة الرأي الرابع بما خلاصته أن هذه الواو لعطف الفعل لا لعطف العدد،وإنَّ بلاغة القرآن لتسمو عن أن تعبر عن العدد (٩) بالأعداد (٢و ٣ و٤)،ولو كان تعدد الزوجات يباح في الاسلام إلى تسع كما يزعمون لصرح القرآن بهذا العدد كما صرح بغيره من الأعداد التي ورد ذكرها في الآيات التي استشهدنا بها للرد على الرأي الرابع.

الرد على استدلالهم بفعل الرسول ﷺ

وأما ادعاؤهم أن جمع النبي ﷺ بين أزواج تسع إنما هو للتأسي والتشريع ،فالجواب عليه: حقاً ان الاقتداء بفعل رسول الله ﷺ في المباحات مشروع ولكن في غير ما اختصه الله به من دون المؤمنين. ألا ترى أنه لا يجوز لمسلم أن يقتدي به ﷺ في الوصال في الصيام؟ لأنه نهى عن فعله. فإذا كان لا يجوز الاقتداء به فيما نهى عنه من الطاعات والعبادات فمن باب أولى لا يقتدي به في المباحات التي نهى الله ورسوله عنها كالجمع بين تسع أزواج فإنه ﷺ لم يقر أحداً من أصحابه على الجمع بين أكثر من أربع أزواج تنفيذاً لأمر الله تعالى ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ والخلاصة أن كل شيء فعله ﷺ ونهى

عن فعله سواء ورد في القرآن نهي عنه أم لم يرد - فهو خصوصية من خصوصياته لا يجوز الاقتداء به فيها، وكذلك الشأن في كل ما ورد في القرآن خاصاً به ﷺ، ألم تر أن الله تعالى خاطب الناس بقوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ مبيناً لهم أن إباحة التعدد تنتهي إلى أربع فقط، بينما خاطب نبيه قبل نزول هذه الآية بأحكام أخرى اختصه بها من دون المؤمنين؟

ومن هذه الأحكام ما يلي:

١ -أحل له أي امرأة مؤمنة وهبت نفسها له بلا مهر ولا ولي إن أراد هو نكاحها ولم يحل ذلك للمؤمنين ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين﴾[1]، وإن كان لم يصح عنه أنه استعمل هذا الحق، بل كان يزوج من تهب نفسها له لمن يرغب فيها من أصحابه باعتباره ولياً لكل مؤمن ومؤمنة.

٢ أحل له أن يؤوي من يشاء من أزواجه ويرجىء منهن من يشاء ولم يحل ذلك للمؤمنين ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾[2]، وأيضاً هذا الحق لم يستعمله بل سوَّى

---

(١)، (٢) الأحزاب: ٥٠ - ٥٣.

بينهن حتى وهو في مرض الموت يحمل من حجرة إلى حجرة، فلما رأى أزواجه ما يعانيه من آلام ومشقة أذن له راضيات أن يستقر في حجرة عائشة.

٣- حرم عليه من عدا أزواجه اللواتي في عصمته فعلا. لا من ناحية العدد ولكن هن بذواتهن لا يستبدل بهن غيرهن[١] ولم ينزل مثل هذا التحريم للمؤمنين ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾[٢]

٤- جعل أزواجه أمهات للمؤمنين فلو طلق احداهن أو مات عنها فلا تحل لأحد من بعده ولم يصدر مثل هذا الحكم لغيره من المؤمنين ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾[٣] فإذا كان الله قد حرم على المؤمنين الزواج بأكثر من أربع لحكمة بالغة وأحل لنبيه الزيادة على أربع خصوصية له لحكم بالغة سنذكر شيئاً منها إن شاء الله عند الحديث عن حكمة تعدد زوجات الرسول ﷺ؛ فإنه سبحانه هو مصدر التشريع وهو الذي يبين الحلال والحرام ولا معقب لحكمه، وقد بين ﷺ لأمته ما نزل

(١)،(٢)،(٣)، الأحزاب: ٥٠ - ٥٣.

إليه من هذه الخصوصيات وغيرها من أحكام التشريع، فلا يحل لأحد أن يقتدي به ﷺ في خصوصية من خصوصياته محاولا «أن يحل للناس ما حرم عليهم من تعدد الزوجات إلى أكثر من أربع» هذا وقد رأى بعض العلماء [1] أن زواج النبي ﷺ المتعدد تم قبل نزول آية التقييد بأربع، وقد حرم الله على المؤمنين أن يتزوجوا بزوجاته ﷺ إن طلقهن أو مات عنهن لذلك أحل له أزواجه وإن زادوا عن الأربع لأنه لو طلق ما زاد عن الأربع فلن يتزوجن مدى الحياة، فكان من الرحمة بأمهات المؤمنين أن يبقين في عصمته ﷺ مدى حياته ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾[2] ومما يرجح صحة هذا الرأي أن سورة الأحزاب التي أحلت للنبي ﷺ أزواجه دون قيد بعدد نزلت قبل سورة النساء التي ورد بها آية التقييد بأربع زوجات بالنسبة لغير النبي ﷺ من المؤمنين لأن الأولى نزلت قبل سورة الممتحنة والثانية نزلت بعدها [3].

---

(١) (محمد) سلام مذكور في كتابه (أحكام الأسرة في الاسلام) ط - ١٩٦٧م (جـ١ هامش ١٦٣ - ١٦٤ . نقل محمد العطار (في تعدد الزوجات)

(٢) الأحزاب (٥٠)

(٣) العطار المصدر السابق بتصرف

وبهذه الأدلة الناصعة والحجج القاطعة ينهار الرأي الخامس كما انهارت الآراء الأربعة من قبله، وبعد: فقد آن لنا أن نقرر الرأي الحق في حكم تعدد الزوجات في الاسلام فنقول وبالله التوفيق:

(الرأي السادس وهو الصحيح)

الرأي الحق في حكم تعدد الزوجات في الاسلام أنه مباح إلى أربع اباحة لا حظر فيها بالكتاب والسنة والاجماع، فأما الكتاب: فقد هذب التعدد الذي كان شائعاً بين الناس بدون حد فقيده بقيدين.

القيد الأول في الكم:

وهو ألا يزيد عن أربع، وهذا القيد شرط في صحة العقد فمن تزوج خامسة فما فوق فزواجه هذا غير صحيح ويجب فسخه.

القيد الثاني في الكيف:

وهو عدم خوف الظلم، وهذا القيد شرط لإباحة التعدد وليس شرطاً في صحته، فمن تزوج ثانية أو ثالثة أو رابعة وهو يخاف ظلماً فإن زواجه صحيح ولكن عليه اثم ان ظلم فعلاً، فإن خاف الظلم ولم يظلم أو ظلم ثم تاب فعدل عفا الله عنه وعاش عيشة حلالاً قال تعالى: ﴿وإن خفتم ألا

تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدوا فواحدة﴾. والمعنى المختار للآية: وإن تحرجتم من ولاية اليتامى خوفاً من ظلمهم في أموالهم فأولى بكم أن تتحرجوا وتخافوا من ظلم آخر شنيع يضطركم إليه الاكثار من الزوجات بدون حد، فلا يطيب ولا يحل لكم أن تجمعوا بين أكثر من أربع، ولكم الخيار فيما دون ذلك، فمن شاء منكم تزوج اثنتين، ومن شاء تزوج ثلاثاً، ومن شاء تزوج أربعاً على أن تعدلوا بينهن، فمن خاف ظلماً بزواج الأربع فليقتصر على اثنتين ومن خاف ظلماً بزواج الاثنتين فليقتصر على واحدة، بيد أن قيد الخوف من الظلم هو كما أسلفنا قيد ديني لا قضائي فلا تأثير له على صحة الزواج بأكثر من واحدة إلى الأربع أصلاً لأن خوف الظلم أمر عارض لا تتعلق به أحكام ثابتة فقد يخاف الظلم قبل الزواج ولكنه لا يظلم فعلاً وقد يظلم ثم يتوب فيعدل فيعيش عيشة حلالاً.

وأما السنة: فقد صحت الأخبار عن النبي ﷺ بأنه بعد أن نزلت آية تقييد تعدد الزوجات بأربع أمر أصحابه من أسلم منهم وكان تحته أكثر من أربع زوجات أن يختار منهن أربعاً ويفارق سائرهن دون أن يعلق أمره هذا بأي سبب سوى الزيادة عن أربع، وقد ذكرنا بعض هذه الأخبار

ومصادرها خلال مناقشة الآراء السابقة.

وأما الاجماع: فقد أجمعت الأمة سلفاً وخلفاً على هذا الحكم لم يشذ منهم أحد إلى أن ابتليت في عصرنا هذا بناس تجرءوا على القول في دين الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير،ففاجأونا بآراء ما أنزل الله بها من سلطان، منهم من أفرط فقال بالتعدد بدون حد أو إلى ثماني عشرة أوإلى تسع، ومنهم من فرَّط فقال بتحريم التعدد مطلقاً أو في غير ضرورة سواء عن سوء نية أو عن حسن نية،والحق دائماً هو الوسط بين طرفي الافراط والتفريط، فبرز حكم الاسلام من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين لا افراط ولا تفريط، ولكن تعدد مباح إلى أربع مع مراعاة العدل والاصلاح في حدود الطاقة البشرية لا فيما يملكه الله ولا يملكه البشر من حب قلبي وميل نفسي فلسنا به مكلفين ولا عنه مسؤولين، ذلك هو حكم الله ورسوله وقد تلقته الأمة بالاذعان والقبول ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾.

(حكمة تحديد الحد الأقصى في الجمع بين الزوجات بأربع)

قد يستهدف هذا التحديد أن حق الزوجة على بعلها أن يبيت معها في كل أربع ليال ليلة على الأقل، وقد يكون مقصوداً به ألا تكون هناك عزوبة عند النساء ولا عند الرجال فلو كان التعدد محدداً بأقل من أربع لظل عدد من النساء في المجتمع بغير أزواج.

وكذلك لو كان محدداً بأكثر من أربع لظل عدد من الرجال في المجتمع بغير زوجات وفي ذلك من المفاسد والأضرار ما لا يخفى. هذا وما من شيء حدد بعدد معين إلا وقام السؤال: لم لا يكون أقل من ذلك أو أكثر؟ فحسبنا أن نقول: اقتضت حكمة الله أن يكون الحد الأقصى لتعدد الزوجات أربعاً وهو الحكيم الخبير.


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

المبحث الثالث هل الاسلام هو أول شريعة سماوية أقرت نظام تعدد الزوجات؟
أم أنه كان مباحاً بلا حد ولا شرط فقيده الاسلام وهذبه؟

هناك حقائق خمس تاريخية تتضمن الجواب على هذا السؤال نبادر بتقريرها ثم ندلل على كل منها بما يؤكدها:

الحقيقة الأولى: أن الاسلام لم ينشىء نظام تعدد الزوجات.

الحقيقة الثانية: أن هذا النظام ليس مقصوراً على الأمم التي تدين بالاسلام.

الحقيقة الثالثة: أنه لا علاقة البتة للدين المسيحي في أصله بتحريم نظام تعدد الزوجات.

الحقيقة الرابعة: أنه لا ارتباط بين نظام التعدد والتأخر الحضاري.

الحقيقة الخامسة: أن الاسلام وجد تعدد الزوجات مطلقاً من كل قيد وشرط فهذبه وقيده كما وكيفا.

(الأدلة التاريخية على اثبات الحقائق الخمس المذكورة)

١ فأما الحقيقة الأولى وهي أن الاسلام لم ينشىء نظام تعدد الزوجات. فإن التاريخ يثبت أن نظام التعدد كان سائداً قبل ظهور الاسلام في شعوب كثيرة منها: (العبريون) و(العرب) في الجاهلية و(شعوب الصقالبة - أو السلافيون) وهي التي ينتمي إليها معظم أهل البلاد التي نسميها الآن (روسيا وليتوانيا وليثونيا، واستونيا، وبولونيا، وتشيكوسلوفاكيا، ويوغوسلافيا) وعند بعض الشعوب الجرمانية، والسكسونية التي ينتمي إليها معظم أهل البلاد التي نسميها (ألمانيا والنمسا وسويسرا وبلجيكا وهولندا والدانمارك والسويد والنرويج وانجلترا)[١].

٢ وأما الحقيقة الثانية: وهي أن نظام تعدد الزوجات ليس مقصوراً على الأمم التي تدين بالاسلام فأكبر برهان عليها أن نظام التعدد لا يزال الى يومنا هذا منتشراً في عدة شعوب لا تمت الى الاسلام بصلة كشعوب أفريقيا والهند - والصين - واليابان.[٢]

---

(١) (حقوق الانسان) للدكتور علي عبد الواحد وافي. نقل الشيخ سيد سابق في (فقه السنة) المجلد الثاني ص ١٢٢ ط ١٣٩٧ دار الكتاب العربي بيروت

(٢) نفس المصدر ص - ١٢٣

٣ وأما الحقيقة الثالثة: وهي أنه لا علاقة مطلقاً للدين المسيحي بتحريم تعدد الزوجات فإنه لم يرد في الانجيل ولا في رسائل الرسل - وهي كتب العهد الجديد عند النصارى - لم يرد فيها نص صريح يدل على تحريم تعدد الزوجات - بل ورد في بعض رسائل (بولس) رسول المسيحية الكبير ما يفيد أن تعدد الزوجات جائز حيث قال في رسالته الأولى الى (تيموثاوس) يلزم أن يكون الأسقف زوجاً لزوجة واحدة. وفي هذا القول دليل واضح على جواز تعدد الزوجات لغير الأسقف. والتوراة (كتاب العهد القديم) التي هي أصل للدين المسيحي عند النصارى تبيح تعدد الزوجات بدون حد ومن غير شرط. يقول الدكتور الحوفي فيما نقله عنه كتاب (تعدد الزوجات ص ٨٤ من سلسلة محاضرات الجامعة الاسلامية بالمدينة) يقول: إن نظام تعدد الزوجات كان في بني اسرائيل قبل أن يأتيهم نبي الله موسى فأقره بل أوجب على الأخ إذا مات أخوه عن زوجة وليس له ولد أن يتزوجها ويضمها إليه وإن كان متزوجاً، وما اباحته التوراة فهو مباح في المسيحية ما لم يرد في الانجيل نص يخالفه، ولم يرد في الانجيل كما أسلفنا - نص بتحريم التعدد، وقد ثبت تاريخياً أن بعض الأقدمين من

المسيحيين ومن آباء الكنيسة كان لهم كثير من الزوجات وهذا «وستر مارك» العالم الثقة في تاريخ الزواج يقول: إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي الى القرن السابع عشر، وكان يتكرر كثيراً في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة[1]، بل الأكثر من هذا أن بعض الطوائف المسيحية ذهبت إلى ايجاب تعدد الزوجات ففي سنة ١٥٣١م نادى اللامعمدانيون في (مونستر) صراحة بأن المسيحي - حق المسيحي - ينبغي أن تكون له عدة زوجات.

ويعتبر (المورمون) أن تعدد الزوجات نظام الهي مقدس [2] ويقول جرجي زيدان: ليس في النصرانية نص صريح يمنع أتباعها من التزوج بامرأتين فأكثر، ولو شاءوا لكان تعدد الزوجات جائزاً عندهم ولكن رؤساءها القدماء وجدوا الاكتفاء بزوجة واحدة أقرب لحفظ نظام العائلة واتحادها وكان ذلك شائعاً في الدولة الرومانية، فلم يعجزهم تأويل آيات الزواج حتى صار التزوج بأكثر من امرأة حراماً كما هو مشهور.[3]

---

(١) العقاد في (حقائق الاسلام ص ٧٧) نقل الدكتور السباعي في المرأة بين الفقه والقانون ص ٧٢.
(٢) العقاد في (المرأة في القرآن) ص ١١٦ - ط ١٩٦٩م
(٣) نقل الدكتور السباعي بالمصدر السابق ص ٧٤.

ويقول وستر مارك: إنه إذا أخذنا في الاعتبار أن الزواج بواحدة كان النظام القانوني الوحيد الذي كان سائداً في أثينا وروما فلا يمكن أن يقال: إن المسيحية قد أدخلت إلى العالم الغربي نظام الزوجة الواحدة إجباراً، وبالرغم من أن الانجيل قد اعتبر الزواج بواحدة هو الزواج المثالي إلا أنه لم يحرم صراحة التعدد إلا في حالة القس أو الأسقف. ولقد قيل: إنه لم يكن ضرورياً لرواد المعلمين للمسيحية أن يعلنوا تعدد الزوجات لأن نظام الزوجة الواحدة كان نظاماً عاماً للشعوب التي نشروا بينها تعاليمهم[1].

ومَا ذكر يتضح أن الأقدمين من مسيحي أوروبا إنما ساروا على نظام الزوجة الواحدة لأن معظم الأمم الأوروبية الوثنية التي انتشرت فيها المسيحية آنذاك - وهي شعوب اليونان والرومان - كانت تقاليدها تحرم تعدد الزوجات المعقود عليهن، فلما اعتنقوا المسيحية لم يغيروا تقاليدهم الزوجية، بل استمروا على ما وجدوا عليه آباءهم الأولين من نظام الوحدة الزوجية.

اذن لم يكن نظام وحدة الزوجة لديهم نظاماً طارئاً

---

(١) الدكتور العطار في تعدد الزوجات ص ١١٤.

جاءتهم به المسيحية التي اعتنقوها وإنما كان نظاماً قديماً جرى عليه العمل في وثنيتهم الأولى. وكل ما في الأمر أن النظم الكنسية المستحدثة بعد ذلك ألفت نظام وحدة الزوجة واستقر رأيها على تحريم تعدد الزوجات، ثم ألصقت هذا التحريم - زوراً وبهتاناً - بالمسيحية.

ويقول الدكتور السباعي في المصدر السابق ص ٢٧٤: ونرى المسيحية المعاصرة تعترف بتعدد الزوجات في أفريقيا السوداء، فقد وجدت الارساليات التبشيرية نفسها أمام واقع اجتماعي وهو تعدد الزوجات لدى الأفريقيين الوثنيين، ورأوا أن الاصرار على منع التعدد يحول بينهم وبين الدخول في النصرانية، فنادوا بوجوب السماح للأفريقيين المسيحيين بالتعدد إلى غير حد محدود. وقد ذكر السيد نورجيه مؤلف كتاب (الاسلام والنصرانية في أواسط أفريقية ص ٩٢ - ٩٨) هذه الحقيقة ثم قال: فقد كان هؤلاء المرسلون يقولون إنه ليس من السياسة أن نتدخل في شؤون الوثنيين الاجتماعية التي وجدناهم عليها، وليس من الكياسة أن نحرم عليهم التمتع بأزواجهم ما داموا نصارى يدينون بدين المسيح، بل لا ضرر من ذلك ما دامت التوراة

وهي الكتاب الذي يجب على المسيحيين أن يجعلوه أساس دينهم - تبيح تعدد الزوجات فضلاً عن أن المسيح قد أقر ذلك في قوله: لا تظنوا أني جئت لأهدم بل لأتمم. أ. هـ وفعلاً أعلنت الكنيسة رسمياً للأفريقيين النصارى السماح بتعدد الزوجات الى غير حد.

وهكذا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً تبعاً لتقاليد الشعوب التي ينشرون فيها دينهم، ففي الوثنية الأوروبية القديمة وجدوا شعوبها يحرمون تعدد الزوجات فحرموه، وفي الوثنية الأفريقية المعاصرة وجدوا أهلها على نظام التعدد فأباحوه، وسيظلون هكذا ما بين تحريم وإباحة يحلون لمن يشاءون ويحرمون على من يشاءون ولن يجد الباطل مستقراً، وبهذا يتأكد لكل ذي عقل أنه لا علاقة اطلاقاً للدين المسيحي بتحريم تعدد الزوجات بل انه يبيحه تبعاً لأصله وهو التوراة.

٤ - وأما الحقيقة الرابعة وهي أنه لا ارتباط أصلاً بين نظام تعدد الزوجات وبين التأخر الحضاري فإن الواقع التاريخي يشهد بأن نظام التعدد لم يبد بصورة واضحة إلا في الشعوب المتقدمة حضارياً، على حين أنه قليل الانتشار أو منعدم في الشعوب البدائية المتأخرة، وقد أجمع على ذلك علماء الاجتماع ومؤرخو الحضارات وعلى

رأسهم (وستر مارك، وهوبهوس، وهيلير، وجنربرج) حيث قد لاحظوا أن نظام وحدة الزوجة كان سائداً في أكثر الشعوب تأخراً وبدائية، وهي الشعوب التي تعيش على الصيد أو جمع الثمار التي تجود بها الطبيعة عفواً، وفي الشعوب التي تتزحزح تزحزحاً كبيراً عن بدائيتها وهي الشعوب الحديثة العهد بالزراعة. على حين أن نظام تعدد الزوجات لم يظهر بوضوح إلا في الشعوب التي قطعت مرحلة كبيرة في الحضارة وهي الشعوب التي تجاوزت مرحلة الصيد البدائي إلى مرحلة استئناس الانعام وتربيتها ورعيهاواستغلالها، والشعوب التي تجاوزت جمع الثمار والزراعة البدائية الى مرحلة الزراعة[1]. ويقول الأستاذ أبو زهرة: لم تعرف أمة من الأمم القديمة ذوات الحضارة منعت تعدد الزوجات إلا المصريين وعنهم أخذ الرومان، ثم انتقل إلى أوربا بعد ذلك[2].

وبناء على هذا يرى كثير من علماء الاجتماع ومؤرخو الحضارة أن نظام تعدد الزوجات سيتسع نطاقه حتماً ويكثر عدد الشعوب الآخذة به كلما تقدمت

---

(١) الدكتور/ علي عبد الواحد المصدر السابق ص ١٢٣

(٢) من كتاب (تعدد الزوجات ص ٨٤ من سلسلة محاضرات الجامعة الاسلامية.

المدنيّة واتسع نطاق الحضارة؛وسواء صحت هذه النبوءة أم لم تصح فإن الذي يهمنا أن نقرره هو أن الواقع التاريخي يؤكد كما ذكرنا أن أكثر الشعوب حضارة وأرقاها مدنيّةً هم الذين انتشر فيهم نظام تعدد الزوجات ،وأن الشعوب البدائية هي التي كانت تسير على نظام الوحدة الزوجية. فانظر كيف ربطوا تعدد الزوجات بالمجتمع البدائي واعتبروا تعدد الخليلات من مظاهر الحضارة؟

اذن فليس ثمة أي ارتباط بين نظام تعدد الزوجات وبين التأخر الحضاري.

٥ وأما الحقيقة الخامسة: وهي أن الاسلام وجد نظام تعدد الزوجات مطلقاً من كل قيد وشرط فهذبه وقيده كماً وكيفاً- فهذه أيضاً حقيقة لا ريب فيها ،فقد جاء الاسلام ونظام التعدد شائع في كل شرائع العالم وشعوبه تقريباً دينيها ووثنيها كماأسلفنا ،ولكنه لم يكن له حد ولانظام، وكان العرب في الجاهلية كذلك يمارسونه على اطلاقه حتى إن بعضهم كان يسلم وتحته نحو عشر زوجات.

فما كان للاسلام وهو الشريعة الالهية الحكيمة التي تقدر مصالح العباد في حياتهم الدنيا وترشدهم إلى طريق السعادة في الآخرة أن يدع نظام تعدد الزوجات هكذا

فوضى بدون اصلاح وتهذيب. بل أحاطه بقيود وشروط تجعل نفعه أقرب من ضره وخيره أكثر من شره، وسلك به طريقاً وسطاً كشأنه في جميع تعاليمه وأحكامه، فانظر ماذا أحدث به من اصلاح وتنظيم؟

أولا: قيده كمّاً، فجعل أقصاه أربع زوجات لا يجوز ولا يصح تجاوزهن، فأعظم به من قيد هدى إلى الطريق السوي في الزواج فلا افراط ولا تفريط وسد في وجوه الشرور والفتن كل باب.

قال تعالى: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾.

ثانياً: قيده كيفا، فشدد فيه على العدل بين الزوجات عدلاً مادياً إلى أقصى حدود المستطاع. وقد بنى فقهاء المسلمين على هذا القيد أحكاماً في قمة السمو الأخلاقي الذي لا مثيل له حتى في أخيلة الفلاسفة والحكماء. قال تعالى: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾.

ثالثاً: ربى ضمير الزوج المسلم على خوف الله ومراقبته ورغبته في ثوابه بامتثال أمره، وخشيته من عذابه باجتناب نهيه. وبذلك يكون المسلم الحق مع

زوجاته ليناً متواضعاً لا مستعلياً مستبداً ومؤمناً حاكماً على ضميره مراقباً بنفسه لنفسه محاسباً لها على ما قد يحدث منه من تقصير نحو احدى زوجاته أو اساءة في معاملتها، مسارعاً إلى إصلاح ما أفسده ووصل ما قطعه ورتق ما فتقه.

ومثل هذه التربية تجعل تعدد الزوجات حين تقتضيه ظروف الانسان الشخصية أو ظروف المجتمع العامة قليل الأضرار قليل المساوىء، فلا بيت تنهكه العداوات، ولا أولاد تفرق بينهم الخصومات، وكل ما في الأمر غيرة فطرية لا بد منها تكبح الزوجة المسلمة جماحها بأدب الاسلام، وتعفي آثارها بفضل ايمانها بربها وحسن طاعتها لزوجها.

وبفضل هذه التربية الاسلامية الحكيمة نشأ البيت الاسلامي في العصور المشرقة بنور الاسلام تغمره السكينة وتملؤه المحبة، ويشيع في جنباته الود والاخلاص والوفاء، لا فرق في ذلك بين البيت ذي الزوجة الواحدة أو البيت ذي الزوجتين أو البيت ذي الثلاث أو الأربع، فجنوا من تعدد الزوجات بفضل الاسلام - خيره ونفعه ونجوا من شره وضره فهل من مدّكر؟

وبعد، فإن هذه الحقائق التاريخية الخمس تضع الأمور في نصابها بالنسبة لمسيرة نظام التعدد في دنيا الناس منذ الأجيال الغابرة إلى يومنا هذا، موضحة مدى علاقة هذا النظام بتقدم الحضارة أو تأخرها وموقف الأديان السماوية الثلاثة منه.

وبهذا تسقط الحملة المزيفة الآثمة التي يشنها المستشرقون وأعداء الاسلام ضد الاسلام لأنه الاسلام في قضية التعدد، زاعمين - كذباً وبهتاناً - أن الاسلام هو الذي أتى به وأنه مقصور على الأمم التي تدين بالاسلام، وأن الدين المسيحي يحرمه وله الفضل في نشر نظام الوحدة الزوجية في الشعوب المسيحية، وأن نظام التعدد مرتبط بالتأخر الحضاري إلى آخر هذه المفتريات المكشوفة المفضوحة؛ ألا لعنة الله على كل مفتر كذاب.

المبحث الرابع

الدوافع التي جعلت الاسلام يكتفي بتقييد التعدد دون تحريمه

عرفنا فيما سبق أن الاسلام لم ينشىء نظام تعدد الزوجات وإنما جاء فوجده شائعاً في العالمين مطلقاً من كل قيد أو شرط ،فوقف منه موقفاً حكيماً وسلك فيه طريقاً وسطاً لا افراط ولا تفريط ،فلم يتركه فوضى على اطلاقه ،ولم يلغه كلية بل قيده كماً وكيفاً حتى يكون رحمة للعباد وحماية للأسرة وللمجتمع،والسؤال الذي يجول في الخاطر هو: لماذا لم يحرم الاسلام التعدد ويفرض على الناس الاكتفاء بالزوجة الواحدة؟ أو بعبارة أخرى ما هي الدوافع التي جعلت الاسلام يكتفي بتقييد التعدد دون تحريمه؟

والجواب على هذا السؤال: أن في تحـــريم تعدد الزوجات أضراراً بالغة لا علاج لهاتتعرض لها المرأة والأسرة والمجتمع؛ في حين أنه من الممكن تفادي الأضرار الناجمة عن تعدد

الزوجات لو نفذت الشروط والتعاليم الاسلامية الواردة بصدده.

وحاشا لدين يقول كتابه: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ أن يحرم أمراً قد تلجىء إليه الضرورة أو تدعو إليه المصلحة العامة أو الخاصة أو توجبه الانسانية ومكارم الأخلاق، وما كان له وهو الدين الحكيم المنزل من عند الله العليم الخبير أن يفعل ذلك فيوقع المرأة والأسرة والمجتمع في شر لا يوصف وبلاء ماله من دافع. فسدّاً لابواب الشر وحماية للأسرة وللمرأة وللمجتمع من الضياع والفساد لم يحرم التعدد، وإنما ضيق بابه بالقيود السالفة الذكر مراعاة للاحتمالات التي تلجيء اليه والضرورات التي تحتمه سواء كانت ضرورات شخصية أو ضرورات اجتماعية أو نحوهما.

(الأسباب الملجئة إلى التعدد)

ويمكننا حصر هذه الأسباب في سبعة أمور على النحو التالي:

الأمر الأول: أسباب تعود إلى الزوجة نفسها، كمرض عضال أقعدها عن واجبات الزوج أو عاهة مستديمة أصابتها فشوهت منظرها أو عقم أفقدها وظيفة الأمومة أو مرض

معد أو منفر أو ضعف في رغبتها الجنسية أو طول في فترات حيضها وحملها ونفاسها أو نشوز وتمرد منها على زوجها ،أو نحو ذلك مما يقلل استمتاع الرجل بها أو يسبب له العقم أو المشقة أو يعكر عليه صفو الحياة الزوجية، وكان الرجل لها مخلصاً ولعشرتها وفياً فكره أن يطلقها صوناً لها من المهانة والابتذال وحماية لها من الضياع، فهل إذا تزوج عليها امرأة أخرى يكون قد جاء شيئاً إمرا؟ اللهم لا.

الأمر الثاني: أسباب تعود الى الرجل نفسه كقوة عارمة ونهم في غريزته الجنسية فلا تكفيه زوجة أو زوجتان، أو رغبة ملحة في كثرة النسل وهو مليء قادر على تلبية حاجاتهم وإحسان تربيتهم ،أو نفور شديد من زوجته أو عاطفة قوية لا يملك دفعها تشده إلى امرأة أخرى (والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء)؛ فهل إذا أرضى غريزته النهمة بطريق حلال ليكفَّها عن مستنقع الرذيلة ويصون نفسه ومجتمعه وذريته من شرورها وآثامها، أو لبى رغبته الملحة في طلب النسل بالزواج الثاني أو الثالث أو الرابع، أو تزوج من وقع في حبها حتى لا يقع في الجريمة معها ووجدت زوجته الأولى أنه من الخير لها أن تبقى في عصمته حفاظاً على كرامتها وإبقاء على عشها ،هل من الحكمة في هذه الحالة أن يسد في وجهه الطريق ليسلك الطريق المحفوفة بالمخاطر والمهالك؟ نعم في

هذه الصورة ضرر واقع على الزوجة الأولى ولكن لا جدال أن هذا خير لها من تشريدها وهدم عشها وخير له من التردي في هاوية الفحشاء وما يجره هذا التردي على نفسه وأسرته ومجتمعه من بلاء كبيـر وشر مستطير، أو أرحم له من معاناة المشقة والحرمان من تلبية رغبته في كثرة النسل. ومن القواعد الأصولية المقررة أن الضرر الأخف يدفع الأشد.

الأمر الثالث: أسباب خلقية اجتماعية، كأزمات تمر بالأمة فتجتاح رجالها وتسبب زيادة في عدد النساء عن الرجـال زيـادة يختل بها التوازن العددي بين الجنسين، كحروب مدمرة، أو ثورات مهلكة، أو أوبئة فتاكة تنتقل عدواها في المجامع العامة التي يكثر فيها الرجال ويقل النساء فلا تتعرض المرأة لها بمثل ما يتعرض الرجل أو أن تكون زيادة النساء عن الرجال حالة طبيعية كما هو الشأن في كثير من البلدان كشمال أوربا مثلا التي يزيد نساؤها في الحالات العادية عن رجالها.

وقد ثبت أن زيادة عدد الاناث ظاهرة مضطردة في كثير من الكائنات الحية كما يقول بعض المشتغلين بعلم الأحياء[١]. فإذا حدث هذا الاختلال في نسبة التساوي بين الجنسين

(١) الأستاذ العقاد (المرأة في القرآن ص ١٠٩)

لسبب من الأسباب السالفة الذكر فليس أمامنا في هذه الحالة إلا أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن نسد باب التعدد في وجه العباد فنعرض المرأة للتسكع في الطرقات وللغواية والفساد، ونحرمها من وظيفة الأمومة التي هي من أخص خصائصها، ونعرض المجتمع للتحلل والهلاك والدمار وساء ذلك سبيلاً، وإما أن نحكم شريعة الاسلام الحكيمة في حل هذه المشكلة فنحفظ للمرأة كرامتها وأمومتها وللأسرة حرمتها وقوتها واستقرارها وللذرية نسبها وحقوقها وللمجتمع سلامته وتماسكه وحسن ذلك سبيلا.

وقد تنبه بعض مفكري الغرب نفسه الى ما أدى إليه تحريم التعدد في بلادهم من أخطار جسيمة يقشعر البدن من هولها فأخذ ينادي في مجتمعه المتهاوي بإباحة التعدد محاولا انقاذه من الهاوية التي يتردى فيها. يقول الدكتور عبد الناصر العطار في كتابه (تعدد الزوجات ص ١١٥ - ١١٦): هناك من المفكرين في أوربا من دعا إلى اباحة التعدد (كجوستاف لوبون وتومس) وفي رأيهما أن إباحة التعدد تجعل كل امرأة ربَّة بيت، وأماً لأولاد شرعيين. وذلك مما يقضي على كثير من الانحرافات في المجتمع الأوروبي. كذلك نجد أن بعض الفرق المسيحية ناضلت بشدة من أجل تقرير تعدد الزوجات ومارسته فعلاً. ومن هذه الفرق (الأنابتست) في

ألمانيا في منتصف القرن السادس عشر. ومنها (المورون) في الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل القرن التاسع عشر الذين كانوا يمارسون التعدد، وينظرون إليه باعتباره نظاماً الهياً، بل إن معارضة الكنائس الأوروبية تعدد الزوجات كانت من بين الأسباب التي دفعت الأفريقيين في جهات متفرقة من القارة إلى الانفصال عن الكنائس الأوربية وتكوين كنائس مستقلة تسمح تعاليمها بممارسة التعدد.

كذلك ينبغي ألا ننسى أن شعباً من الشعوب الأفريقية التي اعتنقت المسيحية منذ قديم الزمن لا زال رغم اعتناقه المسيحية يمارس التعدد وأعني بهذا الشعب (الأحباش) أهـ. وأخيراً صدرت الفتوى الرسمية من الكنيسة بإباحة التعدد بدون حد للشعوب الافريقية النصرانية. ومن الأسباب الاجتماعية الملجئة إلى التعدد أيضاً حاجة المجتمع إلى كثرة الأيدي العاملة ليواجه مطالب الحياة المتعددة أو حاجته إلى كثرة العدد في أيام الحروب ليسد نقص الرجال في ميادين الجهاد ويغذيها بالعديد من المقاتلين والمجاهدين.

يقول الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (المرأة بين الفقه والقانون ص ١٠٣): وكان للتعدد أثره في حروب الفتح، فمن المعلوم أن المعارك الاسلامية مع أعداء الاسلام استمرت منذ هجرة النبي ﷺ فدولة الخلفاء الراشدين

فالأمويين فعهد غير قصير من أيام العباسيين. مرحلة امتدت أكثر من مائتي سنة تتلاحق فيها المعارك في الشرق والغرب والشمال والجنوب وفي المعارك ضحايا من شهداء ومشوهين وأسرى ومفقودين، ومع ذلك لم يشك الجيش الاسلامي يوماً من تناقص المحاربين؛ بينما أوربا خاضت معركتين خلال ربع قرن ففني من رجالها عشرات الملايين وأصبحت لها مشكلتها الاجتماعية الكبرى: نقصان الرجال وكثرة النساء. فكيف استطاع المسلمون أن يواصلوا الحروب أكثر من مائتي سنة ثم واصلوا الحروب بعد ذلك في غزوات التتار والصليبيين، وفيما بعد ذلك دون أن يشكوا نقصاً في الرجال وكثرة في النساء؟ في اعتقادي أن لنظام تعدد الزوجات والتسري أثراً كبيراً في هذه النتيجة ولمن شاء من الباحثين أن يدلنا على سبب غير هذين. أ هـ

ويقول أيضاً في المصدر نفسه ص ٧٦ ما نصه: ونشرت الصحف في العام الماضي (١٩٦١ م) أن الحكومة الألمانية أرسلت إلى مشيخة الأزهر تطلب منها نظام تعدد الزوجات في الاسلام لأنها تفكر في الاستفادة منه كحل لمشكلة زيادة النساء، ثم أتبع ذلك وصول وفد من علماء الألمان اتصلوا بشيخ الأزهر لهذه الغاية، كما التحقت بعض الألمانيات المسلمات بالأزهر ليطلعن بأنفسهن على أحكام الاسلام في

موضوع المرأة بعامة وتعدد الزوجات بخاصة.

وقد حدثت محاولة قبل هذه المحاولات في ألمانيا أيام الحكم النازي لتشريع تعدد الزوجات. فقد حدثنا زعيم عربي اسلامي كبير أن هتلر حدثه برغبته في وضع قانون يبيح تعدد الزوجات وطلب إليه أن يضع له في ذلك نظاماً مستمداً من الاسلام، ولكن قيام الحرب العالمية الثانية حالت بين هتلر وبين تنفيذ هذا الأمر. وقد سبق أن حاول (إدوارد) السابع مثل هذه المحاولة فأعد مرسوماً يبيح التعدد ولكن مقاومة رجال الدين قضت عليه. اهـ.

ثم ان المفكرين الغربيين الأحرار أثنوا على تعدد الزوجات وبخاصة عند المسلمين فقد عرض - (جروتيوس) العالم القانوني لموضوع التعدد فاستصوب شريعة الآباء العبرانيين والأنبياء في العهد القديم(١). وقال الفيلسوف الالماني الشهير (شوبنهور) في رسالته (كلمة عن النساء):

إن قوانين الزواج في أوربا فاسدة المبنى بمساواتها المرأة بالرجل، فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا وضاعت علينا واجباتنا، على أنها ما دامت أباحت للمرأة حقوقاً مثل الرجل كان من اللازم أن تمنحها

---

(١) العقاد في (حقائق الاسلام وأباطيل خصومه) نقل الدكتور السباعي في المصدر السابق ص ٧٦

أيضاً عقلاً كعقله[1]. أما الاسلام فقد قال كلمته في التعدد منذ أربعة عشر قرناً وثبت عليها، وتلك وأيم الحق معجزة أخرى تضم الى معجزات الاسلام التي لا تحصى أن يجادله خصومه في أحكامه وبعد أن يجنوا ثمار تجاربهم الفاشلة ويصلوا ويلاتها يعودوا الى حكم الاسلام بعد معاندته مكرهين ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[2].

الأمر الرابع: أسباب خلقية خاصة تتعلق بقوم الرجل وعشيرته، فقد تكون له قريبة تأيمت ولها أطفال صغار فلو وجدت أجنبياً يؤويها فلن يقبل في الغالب أن يضم أطفالها معها اليه، أفليس من المروءة في هذه الحالة أن يأخذ الرجل بيد قريبته ويضم أولادها اليه ليكونوا جميعاً تحت رعايته مع زوجته الأولى؟

مثل هذه الحالة لو مات أخ له عن زوجة وأولاد صغار أيضاً أفيترك أولاد أخيه يتعرضون لليتم من أمهم بزواجها من أجنبي بعد تيتمهم من أبيهم الذي مات أم يضمهم مع أمهم إليه ويحل محل أخيه أباً رحيماً لهم؟ وأين تضرر زوجته الأولى بايواء هؤلاء من الأضرار التي كانت ستحل بهم لو لم

---

(١) السباعي المصدر السابق ص ٧٦، ٧٧.

(٢) فصلت (٥٣).

يضمهم إليه؟. وكذلك لو أن هذا الرجل المتزوج له قريبة غير مرغوب فيها ولم يتقدم لطلبها أحد فهل يلام لو ضم قريبته الى عصمته مع زوجته الأولى ليصونها من التبذل والمهانة ويحفظ عليها أنوثتها وعفتها؟

الأمر الخامس: أسباب خلقية عامة تتعلق بصلة الأخوة الاسلامية العامة، كامرأة لا قرابة بينه وبينها إلا قرابة الدين وأواصر العقيدة فجعت بموت عائلها تاركاً لها ذرية ضعافاً إن ضمتهم إليها جاعوا وإن تزوجت رجلا آخر تشردوا وضاعوا ولم تتقدم لها يد عطف ورحمة، فهل يلام رجل متزوج أثار هذا المنظر المؤثر كوامن رحمته فتحرك قلبه حناناً وعطفاً عليها وعلى فراخها فأخذ بيدهم وآواهم ليكونوا في كنفه وتحت رعايته؟ وهل لأجل سعادة زوجته الأولى نغلق باب الرحمة في وجوه هذه الأسرة المنكوبة المهددة بالتشرد والضياع؟ فلتتنازل الزوجة الأولى عن شيء من سعادتها في سبيل إنقاذ أسرة من شقاء محقق.

الأمر السادس: أسباب اقتصادية فقد يحتاج الرجل إلى كثرة الأزواج والأبناء لمعاونته على عمله كما هو مشاهد في بعض البيئات الزراعية فماذا لو جمع أحدهم بين زوجتين أو ثلاث أو أربع ليتعاون الجميع في بناء مملكتهم الصغيرة؟

الأمر السابع: أسباب عارضة، كرجل اقتضت طبيعة أعماله كثرة الأسفار، وقد تستغرق اقامته في غير بلدته - أحياناً - بضعة أشهر وهو لا يستطيع أن يصطحب زوجته وأولاده معه كلما سافر، ولا يستطيع أن يعيش في غربته وحيداً أو لا يستطيع أن يصبر على الفتنة. فماذا عليه لو تزوج بامرأة زواجاً شرعياً يكفل لها ولأولادها منه حقوقهم المشروعة ويعف نفسه بهذا الزواج عن طريق الغواية والفساد؟

إن حياة رجل واحد مع عدد من النساء ظاهرة اجتماعية موجودة على امتداد الزمان والمكان، أما باسم (تعدد الحليلات) وهو أكرم وأسلم للمرأة وللأسرة وللمجتمع. وأما باسم (تعدد الخليلات) وهو ضياع للمرأة ونكال على الأسرة ووبال على المجتمع. وثمة حقيقة يجب أن توضع في الاعتبار وهي، أنه لا يمكن أن تقبل امرأة الزواج من رجل متزوج إلا إذا كانت مضطرة إلى ذلك اضطراراً، فإذا كانت الزوجة الأولى ينالها ضرر بالزواج بالثانية، فإن الثانية ينالها ضرر أشد بالحرمان من الزواج إذ تكون معرضة لاحدى ثلاث: إما أن تموت أنوثتها، وإما أن تضيع بين أحضان الرجال، وإما أن تتسكع في الطرقات وعلى أبواب المساجد تسأل الناس أو تتعرض لذل الخدمة في

البيوت وهيهات أن تجد انساناً يرحمها أو يقول لها قولاً معروفا.

هذا وفي تعدد الزوجات الذي يستغله أعداء الاسلام للدعاية ضد الاسلام بأنه اهانة للمرأة واعتداء على كرامتها وانتقاص من مكانتها لصالح الرجل واهدار لآدميتها والأمر - كما اتضح - على نقيض مايدعون ،أقول:في إباحة التعدد على طريقة الاسلام فضلاً عما فيه من تيسير ورحمة بالعباد وحل للمشكلات وصيانة للأسرة وسلامة للمجتمع ، فإن فيه أيضاً حفظاً لحرية المرأة التي يتشدق بها أعداء الاسلام الذين يتظاهرون بأنهم أنصارها وما هم في الواقع حين ينادون بتحريم التعدد - إلا أعداؤها الألداء يريدون أن يسلبوها أغلى ما تعتز به من عفاف وحياء وحرية وكرامة.

إن إباحة التعدد لا يحرم المرأة حريتها ولا يكرهها على قبول من لا ترتضيه زوجاً لها ،وإنما هو نافذة تهرب منها من حياة الكآبة والابتذال الى حياة زوجية كريمة وأمومة فاضلة تحس تحت ظلالها بالعزة والطهارة والشرف، بينما تحريم التعدد يكرهها على حالة واحدة لا تملك غيرها حين تلجئها الضرورة الى الاختيار بين الزواج بصاحب زوجة وعزوبة لا يعولها أحد وقد يعجزها أن تعول نفسها فيكرهها تحريم التعدد على حياة العزوبة والابتذال والمهانة والكآبة.

يقول الأستاذ العقاد في كتابه (المرأة في القرآن) ص ١١٠، ١١١: ولكن كرامة المرأة في الحق وفي الواقع لا تساوي شيئاً عند من يرتضي لها العقم والابتذال والاغضاء عن خلائل الزوج وسراريه ولا يأذن لها أن تؤثر الرضى بتعدد الزوجات على الرضى بكل هذه المساوىء والمحظورات، وهي صاحبة الحق في الاختيار بين الأمرين، فإنها لا تساق كرهاً إلى الزواج إذا سمح الشارع بتعدد الزوجات، ولكنها تساق كرهاً الى العقم والغواية اذا حرمه عليها الشارع ولم يغلق دونها طريق الإسفاف والابتذال.

فمن تعلل بحق المرأة فليترك لها على الأقل أن تكون هي صاحبة الاختيار بين العلاقة المشروعة على علاتها، وبين العلاقة التي تحرم عليها في كل شريعة وكل دين، والواقع أن التشريع الذي يحرم تعدد الزوجات لا يحد من حرية المرأة لأن الرجل لا يعدد زوجاته بغير مشيئة المرأة، فهذه المشيئة هي التي يقع عليها الحجر ويفرض عليها القصور أو تضرب عليها الوصايا من قبل الشارع فلا ترجع إليها الحرية فيما ترتضيه.. اهـ.

هذا والتعدد وإن كان سيفرض على الزوجة الأولى زوجة أخرى تشاركها في رجلها إلا أنه لا يحرم السابقة واللاحقة حقها في أن تكون سيدة دارها وربة بيتها المتصرفة

في شؤونه في حدود ما شرع الله ورسوله، فليس لاحدى الزوجتين على الأخرى فضل ولا سلطان فكل منهما سيدة في دائرتها تحت اشراف زوجها ورقابته.

وخلاصة القول أن لنظام التعدد على طريقة الاسلام مزايا نجملها فيما يلي:

١ - أنه رحمة للعباد ونعمة فيه تحل المشكلات، وهو الطريق السليم لاشباع الرغبات دون التردي في مهاوي الشهوات.

٢ - أنه يحفظ للبيت المسلم أمنه واستقراره وتماسك لبناته، فهو يحد من الطلاق لأن الرجل اذا رغب في زوجة ثانية احتفظ بزوجته الأولى - على رضى منها - وبأولاده تحت اشرافه ورعايته وبذلك يحفظون من التشرد والضياع.

٣ - أنه يصون المرأة حيث يبدلها بالزانيات اللائي يشاركنها في زوجها سراً أو جهراً زوجة أخرى أو زوجتين أو ثلاثاً من ذوات الدين والخلق يعشن معها عيشة الطهر والعفاف وينجبن ذرية طيبة تكون لأولادها عضداً وظهيراً، وتكون هي لهم أماً كأمهم.

٤ - أنه يحفظ للمرأة صحتها، ألا ترى أن أمراض الزنى - وما أخبثها، تنتقل من الرجل الزاني الى زوجته فأنعم به

من وسيلة تصون الزوج والزوجة والأسرة والمجتمع على حد سواء.

وأخيراً فحسبنا منه أنه تشريع من لدن حكيم خبير يعلم سرائر النفوس وأغوارها وما يصلحها ويقيم أمرها ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

وبهذا أيها القارىء الكريم تتضح لك الدوافع التي جعلت الاسلام الحكيم لا يحرم التعدد وإنما يكتفي بتقييده وتهذيبه على النحو الذي أسلفنا بيانه.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

المبحث الخامس

الشبهات التي يثيرها المستشرقون وأذنابهم حول تعدد الزوجات في الاسلام وردها

وان تعجب فعجب لهؤلاء المستشرقين الذين تكتظ بلادهم باللقطاء والمشردين وتئن أسرهم من التفكك والانحلال، وتمزق أعراض نسائهم سراً وجهاراً، وتوضع كرامتهن التي يتشدقون بها في أوحال الرذيلة، ثم يرمين في الشوارع والطرق يجنين ثمار الذل والهوان والعار والحرمان.

وبعد كل هذا يتبجحون في غير حياء ولا خجل بشن حملاتهم الدنيئة ضد الاسلام ونبيه وقرآنه والمسلمين بشأن إباحة تعددالزوجات، متهمين الاسلام بأنه بإباحة التعدد قد اضطهد المرأة وجعلها متعة في يد الرجال يستغلونها في ارضاء شهواتهم ونزواتهم.

ونستطيع أن نحصر الشبهات التي أثاروها ضد الاسلام

والمسلمين حول هذا الموضوع في أمور ستة وهي:

١ -أن في إباحة الاسلام تعدد الزوجات مسايرة للرجال في شهواتهم الجنسية.
٢ -وفي التعدد اهدار لكرامة المرأة واحجاف بحقوقها حيث يشاركها غيرها في زوجها وينازعها سلطة بيتها.
٣ -وفيه اعتداء على مبدأ المساواة بين الجنسين باعطاء الرجل التعدد ومنع المرأة هذا الحق.
٤ -وفيه مجال للنزاع الدائم بين أفراد الأسرة مما ينشأ عنه الاضطراب والتشرد.
٥ -وانه كذلك مجال لكثرة النسل وهو مظنة العيلة والفاقة.
٦ -وإنه نظام لا يتناسب مع عصر نالت فيه المرأة حقوقها كاملة لأنه نظام بدائي لا يسود إلا في المجتمعات البدائية المتأخرة.

هذا هو مجمل المآخذ أو الشبهات التي أثارها المستشرقون ضد الاسلام والمسلمين فتلقاها عنهم المستغربون بألسنتهم دون أن يمروها على آذانهم فضلاً عن عقولهم.

ويمكننا أن نجيب على ذلك أولاً اجمالاً فنقول:

إن الاسلام لم ينشىء نظام التعدد، ولم يوجبه، ولم

يرغب فيه. وإنما وجده مباحاً مطلقاً من كل قيد وشرط فقيده وهذبه وأحاطه بما يجعله رحمة وخيراً للعباد إن نفذوا تعاليم الاسلام فيه.

فإذا وجد في المسلمين - وبخاصة في عصرنا هذا الذي جهلوا فيه أحكام دينهم وابتعدوا عن تعاليمه - من اتخذ تعدد الزوجات ملهاة واستهتاراً بحقوق المرأة وحرمة الأسرة، ضارباً بأحكام دينه وتعاليمه عرض الحائط، فإن الاسلام لا يتحمل وزرهم والمسلمون منهم براء.

ولقد مرت على المسلمين عصور أشرق فيها نور الاسلام والتزموا فيها بآدابه وأحكامه، فكانت الأسرة المسلمة آنذاك قوية البناء، محكمة اللبنات، تغمرها السكينة، وتملؤها المحبة ويشيع في جنباتها الود والاخلاص والوفاء. لا فرق في ذلك بين الأسرة الموحدة الزوجة والأسرة المتعددة الزوجات، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فأعطوا بذلك أعداء الاسلام فرصة للتهجم عليه، واتهامه بما ليس فيه، باسم الدفاع عن كرامة المرأة وهم الذين مرغوا كرامة المرأة في الوحل فكانوا كما قال القائل: (رمتني بدائها وانسلت) والآن نشرع - بعون الله - في الاجابة تفصيلاً عن كل شبهة من الشبهات الست المزعومة فنقول:

(الرد على الشبهة الأولى)

أما ادعاؤهم أن تعدد الزوجات في الاسلام مسايرة للرجال في شهواتهم الجنسية. فما أبعده عن الصواب. وذلك لأن نظام التعدد الاسلامي أخلاقي انساني قبل أن يكون اشباعاً لرغبة جنسية.

وقد أسلفنا القول مفصلا عن هذه الحقيقة عند حديثنا عن الدوافع التي أدت إلى اباحة التعدد دون حظره في الشريعة الاسلامية: هذا وقد شهد شاهد منهم بما يؤيد كلامنا ويدحض فريتهم.

فهذا (جوستاف لوبون) يقول: إن نظام تعدد الزوجات نظام حسن يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تمارسه، ويزيد الاسر ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تجدها في أوربا[١].

وهذا المستر (لوي) يقول في (تحليل العوامل النفسية لتعدد الزوجات): (وليس الدافع اليه هو الانغماس في الشهوات والتهالك عليها. اذ قد يحدث أن تدفع المرأة زوجها الى الاقتران بأخرى)[٢].

---

(١) نقل الأستاذ عطية محمد سالم في المصدر السابق (١٢٠).

(٢) نفس المصدر ص ٩٤.

أقول: ولو كان الاسلام أباح التعدد مسايرة للرجال في شهواتهم الجنسية كما يزعمون؛ فلماذا اذن التعدد في المسلمين وهو مشروع عندهم أقل منه في المسيحيين وهو محرم لديهم؟

يقول الدكـتور مصطفى السباعي في كتابه (المرأة بين الفقه والقانون ص ٢٢٣) ما نصه: وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين ونخص بالذكر منهم (جيرال دي نيرفال) (والليدي مورجان) أن تعدد الزوجات عند المسلمين وهم يعترفون بهذا المبدأ. أقل انتشاراً منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة. اهـ.

وعلى فرض أن تعدد الزوجات في نظام الاسلام مسايرة للرجال في شهواتهم الجنسية كما يدعون فأي مانع من ذلك مادام بطريق مهذب مشروع، يلتزم فيه الرجل بحقوق زوجاته، ويعترف بنسب أولاده، وتكون فيه الزوجات ربات بيوت وأمهات أولاد، معززات مكرمات في حياة آمنة مستقرة؟

أذلك خير له ولها ولأسرته وللمجتمع أم أن يسلك بشهوته طريقاً أخرى فتضيع المرأة والولد وتحطم الأسرة ويهلك المجتمع.؟

تقول (اني بيزانت) زعيمة التيوصوفية العالمية في كتابها (الأديان المنتشرة في الهند) ما نصه:

(ومتى وزنا الأمور بقسطاس العدل المستقيم ظهر لنا أن تعدد الزوجات الاسلامي الذي يحفظ ويحمي ويغذي ويكسو النساء أرجح وزناً من البغاء الغربي الذي يسمح بأن يتخذ الرجل امرأة لمحض اشباع شهواته، ثم يقذف بها إلى الشارع متى قضى منها أوطاره)[١]

قلت: اعترفت بالحق في غفلة من تعصبها ضد الاسلام ثم تنبهت نزعتها العدائية للاسلام فغمزت غمزتها بقولها عقب ذلك: (صرحوا بأن الأمرين قبيحان). فانظر كيف اعترفت بشرف التعدد الاسلامي وخسة التعدد الغربي وهي صادقة، ثم نكصت على عقبيها فسوت بين الأمرين في القبح، فجعلت التعدد الاسلامي قبيحاً - وهي كاذبة- ألا قبح الله التعصب لا يدع صاحبه يبصر الحق حتى يعميه عنه.

ويقول (جوستاف لوبون): لست أرى سبباً للحكم بأن تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من تعدد الزوجات السري عند الأوروبيين[٢]

قلت: لو أنصف الكاتب لقال: إن تعدد الزوجات في الاسلام هو المرتبة العليا وعند الأوروبيين هو المرتبة بعد السفلى.

---

(١) الدكتور السباعي المصدر السابق ص ٢٢٩.

(٢) الأستاذ عطية سالم (المصدر السابق ص ٩٤).

فهذه هي أقوال كتابهم ومفكريهم سقناها أبلغ رد عليهم في افترائهم المفضوح على الاسلام بأنه أباح التعدد مسايرة للرجال في شهواتهم الجنسية.

(الرد على الشبهة الثانية)

وأما زعمهم أن في تعدد الزوجات في الاسلام اهداراً لكرامة المرأة وإجحافاً بحقوقها لأن غيرها يشاركها في زوجها وينازعها سلطة بيتها.

فنقول رداً عليه أن هذا منطق معكوس أليست الزوجة الثانية امرأة هي الأخرى؟ فأي الحالين حينئذ تهدر فيها كرامة احداهما؟

أن تكون أيماً لا زوج لها مشردة لا مأوى لها، أم أن تكون كلتاهما شريكتين في حياة زوجية نظيفة كل منهما ربة بيت وأم أولاد لها ما للزوجة من حقوق وعليها ما عليها من واجبات؟

وهذا (لوي) يقول: ليس نظام التعدد دليلا على انحطاط المرأة أو على شعور الرجل بضعفها ومهانتها. ومن ناحية أخرى لأن تشاركها زوجة أو ثلاث فقط أهون عليها من أن يشاركها بائعات الهوى كلهن فيه [1].

---

(١) نفس المصدر ص ٩٤.

فليس اذن في إباحة تعدد الزوجات في الاسلام أي امتهان للمرأة أو اهدارلكرامتها ،بل هو صيانة لها بجعلها زوجة فاضلة بدلا من أن تكون خليلة خائنة وبالتزام الرجل بحقوقها بدلاً من أن تكون ضائعة مشردة.

(الرد على الشبهة الثالثة)

وأما قولهم أن إباحة الاسلام تعدد الزوجات اعتداء على مبدأ المساواة بين الجنسين اذ أعطى الرجل هذا الحق وحرمه المرأة ،فما أسخف هذا القول وما أدله على جهل قائله بطبيعة كل من الرجل والمرأة.

يقول الدكتور السباعي في المصدر السابق ص ٨٩ ، ٩٠ تحت عنوان (سؤال غريب) ما نصه: فإني أحب أن أتعرض لسؤال غريب سألتني إياه طالبة في الجامعة حين كنت أتحدث إلى طلابي عن موضوع (تعدد الزوجات). قالت: اذا كانت المبررات التي ذكرتموها تبيح تعددالزوجات؛ فلماذا لا يباح تعدد الأزواج عند وجود المبررات نفسها بالنسبة إلى المرأة؟

وكان جوابي فيه شيء من التلميح فهمته تلك الفتاة وتفهمه أمثالها من النساء،وهو أن المساواة بين الرجل والمرأة في أمر التعدد مستحيلة طبيعةً وخلقة ذلك لأن المرأة في

طبيعتها لا تحمل إلا في وقت واحد في السنة كلها أما الرجل فغير ذلك. فمن الممكن أن يكون له أولاد متعددون من نساء متعددات، ولكن المرأة لا يمكن إلا أن يكون لها مولود واحد من رجل واحد في عام واحد[١].

فتعدد الأزواج بالنسبة إلى المرأة يضيع نسبة ولدها إلى شخص معين وليس الأمر كذلك بالنسبة الى الرجل في تعدد زوجاته.

وشيء آخر: وهو أن للرجل رئاسة الأسرة في جميع شرائع العالم. فإذا أبحنا للزوجة تعدد الأزواج فلمن تكون رئاسة الأسرة؟ أتكون بالتناوب؟ أم للأكبر سناً؟ ثم إن الزوجة لمن تخضع؟ أتخضع لهم جميعاً؟ وهذا غير ممكن لتفاوت رغباتهم أم تخص واحداً دون الآخرين؟ وهذا ما يسخطهم جميعاً أ. هـ .

هذا وإن أوربا نفسها تعيب ذلك رسمياً على بعض القبائل في هضبة (التبت) وقد أرادت بريطانيا أثناء الاحتلال أن تبطل تلك العادة فلم تنجح[٢].

---

(١) أقول: ولا محل للاعتراض.

(٢) الأستاذ عطية سالم (المصدر السابق ص٩٦).

(الرد على الشبهة الرابعة)

وأما قولهم: إن التعدد مجال للنزاع الدائم، وسبب لاضطراب البيت وتشريد الأولاد، فالجواب عليه أن النزاع أمر طبيعي في بني آدم وبنات حواء، ما من مجتمع صغيراً كان أو كبيراً إلا وهو عرضة للنزاع. وما من أسرة تجمع أفراداً إلا ويدب فيها الخلاف بين حين وآخر - إلا من رحم ربي - إن لم يكن بين الأخوة والأخوات فبين الزوج وزوجته، أو بين الزوجة وأحمائها، أو بين الزوج وأحمائه. فالنزاع متوقع سواء توحدت الزوجة أم تعددت.

بل قد تعيش الضرتان أو الضرائر تحت سقف واحد في مودة وانسجام، ولا تكاد تفرق بين الشقيق من أولادهن وغير الشقيق؛ لما ترى من مظاهر الحب التي تبدو بينهم جميعاً في درجة سواء، بل لا يخطر ببال أحدهم أو احداهن أن له أو لها أخاً شقيقاً وآخر لأب، بينما بجوارهم في نفس الدار شقيقتان في شجار دائم، أو بنت في خلاف مع أمها بين حين وآخر.

وهذا الذي ذكرته ليس خيالا وإنما هو الواقع الذي أعيشه أنا شخصياً، وقد يكون بعض الزملاء على علم بهذا الواقع أو بعضه والفضل لله أولا وآخراً والحمد لله رب

العالمين، وما ذكرت ذلك إلا لأرد هذه الشبهة، ولأضيف دليلا من واقعي على أن التربية الاسلامية كفيلة بأن تجعل حياة الأسرة ذات الزوجتين أو الثلاث أو الأربع حياة أمن واستقرار تظلها السكينة وتغمرها السعادة. وأن التربية المجافية للدين كفيلة بأن تجعل حياة الأسرة ذات الزوجة الواحدة حياة قلق واضطراب لا تذوق فيها للسعادة طعماً ولا تعرف لها معنى. وقد أسلفنا القول بأنه قد مرت على العالم الاسلامي عصور أشرق فيها نور الاسلام والتزم المسلمون فيها بآداب دينهم وأحكامه، فجنوا ثمار ذلك أسرة مسلمة قوية البناء محكمة اللبنات تغمرها السكينة وتملؤها المحبة ويشيع في جنباتها الود والاخلاص والوفاء، لا فرق في ذلك بين الأسرة الموحدة الزوجة والأسرة المتعددة الزوجات.

هذا ولو سلمنا أن في بعض حالات تعدد الزوجات بين المسلمين يقع نزاع أو اضطراب ينتج عنه تشريد الأولاد؛ فإن الواقع يشهد بأن المشردين في الشرق أقل من اللقطاء في الغرب. ومع هذا فليس كل مشردي الشرق بسبب تعدد الزوجات بينما كل لقطاء الغرب بسبب تعدد الخليلات.

(الرد على الشبهة الخامسة)

وأما قولهم إن التعدد مدعاة لكثرة النسل وهو مظنة

العيلة والفاقة. فنقول لهم: مرحباً بكثرة النسل لكل أمة تنفض غبار الكسل عن كاهلها وتضرب في مناكب الأرض وتأكل من رزق الله.

مرحباً بكثرة النسل لكل أمة ناهضة تسع مصانعها المتعددة وميادين أعمالها المختلفة جميع الأيدي العاملة من أبنائها ثم تقول هل من مزيد؟

مرحباً بكثرة النسل للأمة الاسلامية يوم تنفض عن نفسها غبار الذل والعار، وترفع راية الجهاد وتتسابق إلى ميدان العزة والشرف لتعيد سيرة أمجادها وتاريخ أبطالها الأولين، وتسترد عزتها المفقودة، وكرامتها المسلوبة، ولن تخاف يومئذ عيلة ولا فاقة، فإن مواردنا الطبيعية تكفي أضعاف أضعافنا. ولأننا سنستخلص أرزاقنا من أيدي مغتصبيها الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

ثم أليست هذه أوربا لم تتقدم صناعياً إلا بفضل كثرة عددها؟

وهذه الصين اليوم ألم يرهبها العالم كله لكثرة عددها؟

وهل تأخرت بعض البلاد الا لقلة عدد سكانها؟

وهذه فرنسا ألم تعان الويلات بسبب قلة عددها الناتج عن تفشي الزنى فيها؟

ثم أيها أولى؟ كثرة النسل مع الصيانة في البيت والرعاية في الأسرة.

أم كثرة اللقطاء من الشوارع وايداعهم دور الحضانة والملاجىء؟[1]

(الرد على الشبهة السادسة)

وأما زعمهم أن نظام التعدد لا يتناسب مع عصر نالت فيه المرأة حقوقها كاملة لأنه نظام بدائي لا يسود إلا في الشعوب البدائية المتأخرة فزعم كاذب، يشهد الواقع التاريخي بعكسه؛ حيث أجمع علماء الاجتماع ومؤرخو الحضارات وعلى رأسهم (وستر مارك وهوبهوس وهيلير، وجنربرج) على أن نظام تعدد الزوجات لم يبد بصورة واضحة إلا في الشعوب المتقدمة حضارياً، وأنه قليل الانتشار أو منعدم في الشعوب البدائية المتأخرة.

وقد وفينا هذا المقام حقه في المبحث الثالث عندما سقنا الأدلة على تقرير هذه الحقيقة وهي أنه لا ارتباط أصلاً بين نظام تعدد الزوجات والتأخر الحضاري. وبعد: فلعل هذه الشبهات الست قد تبخرت بأشعة شمس الحقائق الناصعة التي سردناها في هذا المبحث وبالله التوفيق.

---

(١) الاستاذ عطية سالم (المصدر السابق ص ٩٧ بتصرف.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

المبحث السادس

(أي النظامين أحق بالطعن والتجريح؟ التعدد الاسلامي النظيف أم التعدد الغربي القذر)

لكي نزيد الخصم اقناعاً بالجواب الصحيح عن هذا السؤال، أو لكي نلقمه الحجر ينبغي أن نضيف إلى ما سبق ذكره أمثلة أخرى على ما آل إليه مجتمعه الغربي بسبب نظام الزوجة الواحدة – من تدن وتسفل، وانحطاط خلقي مدمر واباحية مسفة مخزية، شملت جميع طبقاته فدمرته جسدياً وخلقياً وشردت الألوف من نسائه، فعجت بالبغايا والمتسكعين شوارعه، وغصت باللقطاء والمشردين ملاجئه، واستبد بهم سعار الشهوة الجامحة حتى أصبح الأب يسافح ابنته، والأخ يزاني أخته، فتقطعت لذلك أرحامهم، وتمزقت أوصالهم، واختل نظام بيوتهم، وانفرط عقدها، فتعالت صيحات الانذار تنذر بشر أوشك أن يزداد ضغطه فينفجر فيجعلهم حينئذ كهشيم المحتظر، فالى القارىء الكريم

مزيداً من الأمثلة التي سطرتها أقلام كتابهم ومفكريهم (وصاحب الدار أدرى بالذي فيها).

١ - في انجلترا

(البوليس يعلن عجزه عن مكافحة البغاء)

قال الدكتور السباعي في كتابه (المرأة بين الفقه والقانون ص ٢٤٢ ما نصه: يحاول البوليس الانجليزي الآن القضاء على ١٠٠٫٠٠٠ امرأة تعمل في البغاء بعد أن صدر قانون بالغائه، وقد أعلن البوليس أخيراً أنه عجز عن القيام بهذه المهمة وحده، وطلب من كل سيدة أن تتولى الابلاغ عن كل فتاة من بنات الليل تجدها تتسكع في الطرقات للقبض عليها في الحال.

(العاهرات غير المحترفات)

وبصفحة ١١٤، ١١٥ من (الحجاب) يذكر الاستاذ المودودي مقتبسات من كتاب (تاريخ الفحشاء) للكاتب (جورج رائيلي اسكات) هذا الانجليزي الذي يكتب - مشيراً إلى حالة بلاده - فيقول:

عدا النساء اللاتي لا يملكن من وسائل الكسب غير أن يبعن أجسامهن يوجد هناك كثرة لا تزال تزداد من النساء اللائي يملكن وسائل أخرى لاكتساب حاجتهن؛ ومع ذلك

يتعاطين البغاء حرصاً على زيادة الايراد، وهؤلاء لا يختلفن عن عامة البغايا في شيء ولكن لا يطلق عليهن هذا الاسم، بل لنا أن ندعوهن: (العاهرات غير المحترفات).

وقد بلغ هؤلاء العاهرات غير المحترفات في هذه الأيام مبلغاً لم يعهد قط من قبل، فهؤلاء يوجدون في كل طبقة من طبقات المجتمع من الدنيا الى العليا.

(ندرة البكارة)

ويقول الاستاذ السباعي بالمصدر السابق ص ٢٠٣ ما نصه:

نشرت مجلة حضارة الاسلام في المجلد الثاني ص ٤٨٨ ما يلي:

أصدرت الجمعية البريطانية أوامرها بسحب كتاب (يتزوجون) من السوق، وهو الكتاب الذي جاء فيه أن البكارة بين الفتيات الانجليزيات أصبحت (مودة) قديمة. وقد أعلن مؤلفا الكتاب استقالتها من الجمعية احتجاجاً على مصادرته.

(أكثر قراء الكتب الغرامية الماجنة نساء حرمن من الزواج)

وفي نفس المصدر والصفحة تقول المجلة المذكورة: دلت الاحصائيات على أن أكثر مستعيري الكتب الغرامية

الماجنة من دور الكتب العامة نساء من أواسط العمر حرمن الزواج وفتية وفتيات في سن المراهقة.

(ينفطر قلبها حزناً على بنات جنسها وتتمنى اباحة التعدد حلاً للمشكلة)

وفي تفسير المنار في أوائل سورة النساء نقلاً عن جريدة (لندن ثروت) في عام ١٩٠١ م تقول كاتبة انجليزية. (لقد كثرت الشاردات من بناتنا، وعم البلاء، وقل الباحثون عن أسباب ذلك... إلى أن تقول: واذ كنت امرأة تراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزناً، وماذا عسى يفيدهن بثي وحزني وتوجعي وإن شاركني فيه الناس جميعاً. لا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة ثم قالت:

(وقد أدرك العالم (تومس) الداء ووصف الدواء الشافي: وهو أن يباح للرجل التزوج بأكثر من واحدة وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة، وتصبح بناتنا ربات بيوت. فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة. فهذا التحديد هو الذي جعل بناتنا شوارد، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال، ولا بد من تفاقم الشر اذا لم يبح للرجل المتزوج بأكثر من واحدة. أي ظن

وخرص يحيط بعدد الرجال المتزوجين الذين لهم أولاد غير شرعيين أصبحوا كَلاًّ وعالة وعاراً على المجتمع.

فلو كان تعدد الزوجات مباحاً لما حاق بأولئك الأولاد وبأمهاتهم ما هم فيه من الذل والهوان، فإن مزاحمة المرأة للرجل ستحل بنا الدمار، وبإباحة تعدد الزوجات تصبح كل امرأة ربة بيت وأم أولاد شرعيين.اهـ.

(تتمنى أن تكون بلادها كبلاد المسلمين في عفتها وطهارتها)

وفي نفس المصدر نقلاً عن جريدة (الاسترن ميل) في عدد ١٠/ ٥/ ١٩٠١م تقول (مس آني رود) ما لخصه:

ليت بناتنا خادمات في البيوت ولا يزاحمن الرجال في المعامل.

ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها العفة والطهارة.

وكتبت الكاتبة الشهيرة (اللادي كوك) بجريدة (ألايكو) مؤيدة ما تقدم. إلى أن قالت: وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنى، وهنا البلاء العظيم على المرأة فالرجل الذي علقت منه يتركها وشأنها تتقلب على مضجع الفاقة والعناء، وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد بل والموت أيضاً.. إلى أن قالت: أما آن لنا أن نبحث عما

يخفض - إذا لم نقل -: عما يزيل هذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية؟

أما آن لنا أن نتخذ طرقاً تمنع قتل الألوف من الأطفال الذين لا ذنب لهم، إلى أن قالت: ولولا الأطباء الذين يعطون الأدوية للاسقاط لرأينا أضعاف ما نرى الآن. ولقد أدت بنا الحال إلى حد من الدناءة لم يكن تصورها في الامكان حتى أصبح رجال مقاطعات من بلادنا لا يقبلون البنت زوجة ما لم تكن مجربة... فكم قاست هذه المرأة من مرارة هذه الحياة والذي علقت منه لا ينظر إلى أولئك الأطفال ولا يتعهدهم بشيء... ويلاه من هذه الحالة التعيسة.

(السرقة والبغاء، في بنات حواء)

وينقل الدكتور السباعي في المصدر السابق ص ٢٧٠ عن مجلة حضارة الاسلام ص ٦١٩ من المجلد الثاني قولها: جاء في التقرير السنوي لوزارة الداخلية البريطانية أن عصابات النساء والمراهقات زادت زيادة خطيرة مما يهدد الأمن العام. فقد ألقي القبض على ٧٤٢٫٠٠٠ فتاة وسيدة في خلال العام الماضي بتهمة السطو والسرقة، و١٠٫٠٠٠ فتاة تحت سن العشرين بتهمة الدعارة والتسكع والتحريض على الفسق، و٢٫٦٨٠ فتاة تحت سن العشرين بتهمة الدعارة والتسكع،

و٦٨٠ر٢ فتاة تحت سن الثامنة عشرة دخلن السجن بتهمة السرقة بالاكراه.

وقد صرح مدير (سكوتلانديارد) بأن عصابات المراهقات والنساء تهدد أمن (لندن) وأن نسبة الجرائم التي يرتكبها الفتيات أكثر مما يرتكبه الفتيان.

(لماذا اذن يشنعون على الاسلام)

وينقل الدكتور السباعي أيضاً في ص ٣٢٦ بنفس المصدر عن المجلة المذكورة في عددها الرابع من المجلد الثالث قولها: في بعض الحفلات الخيرية في بلاد الغرب تنظم مزايدات على تقبيل الكواكب المعروفات.

وقد دفع أحد الأثرياء في انجلترا خلال الحرب العالمية الأولى في حفل خيري ٠٠٠ر١٢ جنيه مقابل تقبيل احدى الممثلات المعروفات حينذاك. ودفع آخر منذ بضعة أشهر ١٥٠٠ جنيه في مناسبة مشابهة، وقدأوصى ثري في (مانشستر) بـ ٠٠٠ر٢٥ جنيه لفتاة تقديراً لقبلة منحته اياها أثناء احدى حفلات عيد الميلاد (أي ميلاد السيد المسيح نبي الطهر والعفة والحياء).

(الشذوذ الجنسي عمل مشروع يباركه رجال الكنيسة)

ينقل الأستاذ عطية سالم في محاضرته (تعدد الزوجات)

ص ٩١ من (سلسلة محاضرات الجامعة الاسلامية بالمدينة) ينقل عن كتاب (حياة المجتمعات) النص التالي:

نشرت جريدة الجمهورية القاهرية الصادرة في ١٦/١١/١٩٥٧ تحت عنوان (الشذوذ الجنسي عمل مشروع يوافق عليه مجلس الكنائس الانجليزي) ما يلي: وافق مجلس الكنائس الانجليزية على التوصية التي كانت تقدمت بها احدى اللجان الحكومية باعتبار الشذوذ الجنسي الذي يحدث بين البالغين وبرضاهم عملا مشروعاً لا يعاقب عليه القانون. وكانت هذه الموافقة بأغلبية ١٥٥ ضد ١٣٨ صوتاً. اهـ. أقول وقد تم فعلاً عقود قران بين ذكرين على يد رجال الكنيسة. ونترك هذا الأمر بدون تعليق.

٢ - في فرنسا

وأما الحال في فرنسا فهو أدهى وأمر، واليك ما يلي:

(فوضى الجنس عند الغربيين)

يقول الأستاذ عطية بنفس المصدر ص ٩١ ما نصه:

ينص القانون الفرنسي وما انبنى عليه على أن الاتصال الجنسي حق لكل فرد ما دام بالتراضي إلا من لم يبلغ سن الرضاء والا المتزوج على فراش الزوجية. أي يباح لكل من الزوجين أن يتصل جنسياً بمن شاء بشرط ألا يتصل الزوج

بامرأة أجنبية على فراش زوجته، وألا تتصل الزوجة برجل أجنبي على فراش زوجها.

هكذا يستغل البغاء عند الغربيين)

ينقل الدكتور السباعي بالمصدر السابق ص ٢٧٠ عن مجلة حضارة الاسلام ص ٨١٩ بالمجلد الثاني قولها:

صرح (بيدو) أحد وزراء خارجية فرنسا السابقين حين قاوم الحركة التي تنادي بالغاء البغاء الرسمي في فرنسا معلناً في خطاب رسمي أن لبغايا (باريس) فضلاً على فرنسا لأنهن يجلبن لها ملايين الدولارات الأمريكية كل عام.

(انحطاط خلقي إلى حد تترفع عنه البهائم)

ونقل الأستاذ المودودي بكتابه الحجاب (ص ٨٠) مقتطفات عن كتاب العالم الاجتماعي الفرنسي الشهير (بوب بيرو) الذي نشر في لندن سنة ١٩٢٥م من هذه المقتطفات قوله:

وقد بلغ الانحطاط الخلقي إلى الدرك الأسفل اذ لم يعد الآن من الغريب الشاذ وجود العلاقات الجنسية بين الأقارب في النسب كالأب مع البنت، والأخ مع الأخت في بعض الأقاليم الفرنسية، وفي النواحي المزدحمة في المدن.

(أين كرامة المرأة التي يتشدقون بها؟)

وفي ص ٨١، ٨٢ بنفس المصدر يقول الأستاذ المودودي:

صرح مسيو (فردينان دريفوس) أحد أعضاء المجلس الفرنسي منذ بضع سنوات أن حرفة البغاء لم تعد الآن عملاً شخصياً، بل لقد أصبحت تجارة برأسها وحرفة منظمة بفضل ما تجلب وكالاتها من الأرباح الغزيرة، لها في هذه الأيام وكلاء يهيئون (المواد الخام)، وآخرون يتجولون في البلاد، ولها الآن أسواق منظمة تستورد فيها وتصدر الفتيات والصبايا كالأموال التجارية، وأكثر ما يطلب في هذه الأسواق من الأموال هو بنات دون العاشرة.

ويقول (بول بيورو) إن احتراف البغاء قد أصبح في زماننا نظاماً محكم التركيب يجري بما شئت من التنظيم على أيدي الموظفين والعاملين المأجورين، ويعمل فيه أرباب القلم وناشرو الكتب والخطباء والأدباء والقابلات والسياح التجاريون، ويستعمل له كل جديد من فنون النشر والعرض والاعلان.

ولم يقف أمر هذه الفاحشة على دور البغاء، بل جاوزها الى الفنادق والمقاهي والمراقص، فيجري فيها البغاء علناً وعلى مشهد من العالم. أقول: ألا يستحي المستشرقون وهذا

حالهم أن يتبجحوا بكرامة المرأة وينتقدوا الاسلام على نظام تعدد الزوجات؟

(وحشية وقسوة لا نظير لها في تاريخ البشرية)

ويواصل (بول بيورو) حديثه إلى أن يقول:

وربما تبلغ البهيمية في القائمين بها أقصى حدود الظلم والقساوة - فيقال: أن محافظ بلدية في شرقي فرنسا اضطر إلى التدخل في الأمر سنة ١٩١٢ لانجاء فتاة كانت قد فرغت من ٤٧ وارداً، ولا يزال عدد بالباب ينتظرون دورهم.

(الهياج الشهواني حطمهم جسدياً وأخلاقياً)

يقول الشهيد سيد قطب في تفسيره (الظلال) في أوائل سورة النساء ص ٣٢٦، ٣٢٧ ج٢ ط سنة ١٣٩١ دار احياء التراث العربي/ بيروت ما نصه:

والنظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي تحررت من قيود الدين والأخلاق والحياء في هذه العلاقة يكفي لالقاء الرعب في القلوب لو كانت هناك قلوب.

لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المعول الأول الذي حطم الحضارات القديمة. حطم الحضارة الاغريقية، وحطم الحضارة الرومانية، وحطم الحضارة الفارسية.

وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة، وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة في انهيارات في فرنسا التي سبقت في هذهالفوضى،وبدأت هذه الآثار تظهر في أمريكا والسويد وانجلترا وغيرها من دول الحضارة الحديثة.

وقد ظهرت آثار هذه الفوضى في فرنسا مبكرة مما جعلها تركع على أقدامها في كل حرب خاضتها منذ سنة ١٨٧٠ إلى اليوم،وهي في طريقها إلى الانهيار التام كما تدل جميع الشواهد.

وهذه بعض الامارات التي أخذت تبدو واضحة من بعد الحرب العالمية الأولى:

إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم اضمحلال قواهم الجسدية وتدرجها الى الضعف يوماً فيوماً، فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم، وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم؛ مما أدى إلى انخفاض نسبة الصالحين للجندية إلى درجة مفزعة، ومثل ذلك يقع في أمريكا حيث لا يصلح للجندية ٦ من ٧ ممن هم في سن التجنيد وسنة الله لا تتخلف.

★ ومن أهم عوامل هذا الاضمحلال الأمراض السرية الفتاكة:

يدل على ذلك ان عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى اعفائهم من العمل وارسالهم إلى المستشفيات في السنتين الأوليتين من الحرب العالمية الأولى لكونهم مصابين بمرض الزهري ٧٥،٠٠٠، وابتلى بهذا المرض وحده ٢٤٢ جندياً في آن واحد في ثكنة متوسطة. اهـ.

(ضحايا الزهري في العالم الغربي)

نقل الأستاذ أبو الأعلى في كتابه (الحجاب) ص ٩٢ عن طبيب فرنسي يدعى الدكتور (ليريد) قوله: أنه يموت في فرنسا ٣٠،٠٠٠ نسمة سنوياً بمرض الزهري، وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية التي منها عدا هذا أمراض كثيرة أخرى.

(طغيان الشهوة الجنسية وفساد النظام العائلي)

ويقول الأستاذ المودودي في نفس المصدر ص ٩٢ - ٩٥ ما نصه:

والنكبة الثانية العظيمة التي قد جرها على التمدن الفرنسي طغيان الشهوات المطلقة ورواج الاباحة بينهم هي: خراب النظام العائلي وتقوض بنيانه... إلى أن يقول: ولكن

مجتمعاً كان الرجال والنساء فيه فارغي الأذهان من تصور النكاح ومقاصده، ولم يكن للعلاقة الجنسية بين الصنفين عندهم من غاية سوى قضاء الشهوات الحيوانية، ثم كان في ذلك المجتمع ارسال من الذواقين والذواقات يهيمون كالفراش بكل زهرة من أزهار الروض يمتصون رحيقها، فلا يمكن أن يقوم فيه النظام العائلي - المترابط المتماسك - وإن قام فلا يمكن أن يستقر ذلك لأن رجاله ونساءه لا يعودون يصلحون للاضطلاع بأعباء الزواج وتبعاته.. إلى أن يقول ٧أو ٨ في الألف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم.

ولك أن تقدر من هذا المعدل كثرة النفوس التي لا تتزوج من أهاليها، إلى أن يقول: قال عميد كلية شهيرة في باريس (بول بيورو): إن زنى المحصنات والمحصنين لا يعد من العيب في فرنسا ،فإذا كان أحد المحصنين متخذاً خليلة دون زوجته فلا يرى لاخفاء الأمر من لزوم ويعد المجتمع فعله ذلك شيئاً عادياً وطبيعياً في الرجال. ولهذا كله ضعفت رابطة النكاح وبلغت من الوهن أن يقطع حبلها لأدنى مناسبة، وربما لم تزد مدة هذه الرابطة على أكثر من ساعات معدودة، فيقال عن رجل فاضل من الفرنسيين كان قد تولى الوزارة بضع مرات أنه طلقته زوجته بعد خمس ساعات من

انعقاد الزواج بينهما. اهـ.

وهكذا تدهورت فرنسا واضمحلت وهزمت في كل حرب خاضتها. وهكذا تتوارى عن مسرح الحضارة، ثم عن مسرح الوجود يوماً بعد يوم حتى تتحقق فيهم سنة الله التي لا تتخلف؛ وإن بدت بطيئة الدوران في بعض الأحيان بالقياس الى تعجل الانسان فإن الله لا يعجل لعجلة أحد.

﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾.

٣ - في أمريكا

وكذلك الشأن في أمريكا فساد تقشعر لهوله الأبدان وإليك ما يلي:

(أطفال يمارسون العملية الجنسية)

يقول صاحب (الحجاب) في ص ١٠١ ما نصه:

يذكر الدكتور (اديث هوكر) في كتابه (القوانين الجنسية): أنه ليس من الغريب الشاذ حتى في الطبقات المثقفة أن بنات ٧أو ٨ سنين منهن يخادن لداتهن من الصبية وربما تلوثن معهم بالفاحشة، فيقول: بنت في السابعة من عمرها من بيت عريق في الشرف والمجد ارتكبت الفحشاء مع أخيها، وعدد من

أصدقائه ونفر آخر من خمسة أولاد يشتمل على صبيتين وثلاثة صبية متجاورين متقاربي البيوت وجدوا متعلقين ببعض العلاقات الجنسية وكان أكبرهم سناً ابن عشر سنين. وقد جاء تقرير طبيب مدينة (بالتي مورو) أنه قد رفع إلى الحاكم في تلك المدينة أكثر من ألف مرافعة في مدة سنة واحدة كلها في ارتكاب الفاحشة مع صبايا دون الثانيةعشرة من العمر اهـ.

(الشذوذ الجنسي في أمريكا)

يقول صاحب (الحجاب) ص ١٠٣ ما نصه:

يكتب الدكتور (هوكر) قائلاً: أنه لا تزال تحدث في المدارس والكليات ودور التربية للمرضات - والمدارس الدينية حوادث من تسافح الجنس الواحد من كل من الذكور والإناث. وقد تلاشى أو كاد ميلهم الطبيعي الى الجنس المخالف.

ويسرد في هـذا الصدد حوادث متعددة من تلوث الصبية مع الصبية والصبايا مع الصبايا بالفحشاء إلى أن يقول الأستاذ المودودي في ص ١٠٤: ومما يخمنه القاضي (لندسي) الأمريكي أن ٤٥٪ من فتيات المدارس يدنسن أعراضهن قبل خروجهن منها. وترتفع هذه النسبة أكثر في مراحل التعليم التالية.

(الأمراض السرية تفتك بشعب أمريكا)

وكان من نتائج السعار الجنسي الذي انتاب المجتمع الأمريكي أن اجتاحتهم الأمراض السرية حيث جلبت لهم الفواحش كثرة الأمراض الخبيثة الفتاكة.

يقول صاحب (الحجاب) في ص ١٠٨، ١٠٩ ما نصه:

لقد قدروا أن ٩٠٪ من أهالي القطر الأمريكي مبتلون بهذه الأمراض. ويعلم من (دائرة المعارف البريطانية) أنه يعالج في المستشفيات الرسمية هناك ٢٠٠,٠٠٠ مريض بالزهري و١٦٠,٠٠٠ مصاب بالسيلان البني كل سنة بالمعدل.

وقد اختص بهذه الأمراض الجنسية وحدها ٦٥٠ مستشفى، على أنه يفوق هذه المستشفيات الرسمية نتائج الأطباء غير الرسميين الذين راجعهم ٦١٪ من مرض الزهري، و٨٩٪ من مرض السيلان. هذا ويموت في أمريكا ما بين ثلاثين وأربعين ألف طفل بمرض الزهري الموروث وحده في كل سنة. وإن الوفيات التي تقع بسبب جميع الأمراض - عدا السل - يربو عليها جملة عدد الوفيات الواقعة من مرض الزهري وحده. وأقل ما يقدر المسؤولون في مرض السيلان أنه قد أصيب به ٦٠٪ في سن الشباب

فيهم العزب والمتزوجون، وقد أجمع الماهرون في أمراض النساء على أن ٧٥٪ من اللاتي تجري العملية الجراحية على أعضائهن الجنسية يوجدن متأثرات بمرض السيلان (ص ٣٠٤ من كتاب القوانين الجنسية).

(أدنأ استغلال للمرأة في تاريخ البشر)

ينقل الدكتور السباعي في ص (٣٠١، ٣٠٢) بالمصدر السابق عن مجلة حضارة الاسلام ص ١٠٩ من العدد الأول للمجلد الثالث.

قولها: تقوم لجنة تحقيق تابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي بسماع شهادات حول استخدام فتيات الريف الساذجات في النوادي الليلية وارغامهن على تعاطي الدعارة.

وتحقق تلك اللجنة التي يرأسها (السناتور جون ماكلين) في عمليات احدى النقابات التي تدعي بأنها تضم في عضويتها عدداً كبيراً من راقصات التعري.

واستمعت اللجنة في الأسبوع المنصرم الى شهود ذكروا أن عقود العمل التي تبرمها النقابة وهي الجمعية الأمريكية للفنانين - تتضمن نصوصاً لحماية أعضائها من الاستغلال.

وقال المستر (وليام سكوت) المساعد الخاص للنائب العام في (ايلينوس): أن بعض النوادي الليلية في (شيكاغو)

يديرها أشقياء من رجال العصابات، وأن العاملات فيها يرغمن على الاشتراك في نشاط غير مشروع كالدعارة والنشل.

وقال: إن بعض الفتيات اللائي يعملن في الأندية الليلية يتعرضن إلى ضرب مستخدمي هذه الأندية، ويخضعن إلى حالة من الرعب لدرجة أنهن لا يجرؤن على الشهادة في المحكمة.

وقد أعلنت احدى الراقصات وهي المس. (كورين ستاين) أمام اللجنة أنه في أحد نوادي ميامي في (فلورندا)، كان يتوجب على الفتيات أن يبعن أنفسهم ثم يعدن بما حصلن عليه من نقود إلى رب العمل.

(اضطراب الحياة الزوجية وفشلها)

يقول صاحب (الحجاب) ص ١٠٩، ١١٠ ما نصه:

ومن البديهي أنه لا يمكن في مثل هذه الحال أن يسلم النظام العائلي، والرابطة الزوجية من الفوضى والاضطراب، ذلك بأن النساء اللائي يكسبن قوتهن بأيديهن ولا يحتجن الى الرجال في أي شأن عدا قضاء الشهوة، ويجدن الرجال لهذا الغرض قريباً منهن بدون أن يتقيدن بالزواج لا جرم أن يعددن الزواج شيئاً فضولياً لا حاجة

إليه ولا طائل تحته.

زد على ذلك أن الفلسفة الجديدة والأفكار المادية قد نفت من ضمائرهن الشعور بأن مخادنة الرجال بدون الزواج عار أو إثم. وأن البيئة الفاسدة قد جعلت المجتمع أيضاً بليد الحس، فاقد الشعور حتى لم يعد ينظر إلى أمثال أولئك الفاجرات بعين المقت أو الملام.

إلى أن يقول في ص ١١٤: يقول القاضي (لندسي): أنه يسقط في أمريكا مليون حمل على أقل تقدير في كل سنة، ويقتل آلاف من الأطفال فور ولادتهم. اهـ.

٤ - السويد
(فوضى العلاقات الجنسية)

ينقل صاحب (الظلال) عند تفسيره لآية تعدد الزوجات بأوائل سورة النساء ينقل عن صحفي زار السويد حديثاً، فمما نقله عنه قوله:

حرية الحب في السويد: ٧٪ من هذه العلاقات الجنسية مع خطيبات، ٣٥٪ منها مع حبيبات. ٨٥٪ منها مع صديقات عابرات.

وإذا سجلنا النسب عن علاقة المرأة الجنسية بالرجل قبل سن العشرين وجدنا أن ٣٪ من هذه العلاقات مع

أزواج. و٢٧٪ منها مع خطيب. و٦٤٪ منها مع صديق عابر. اهـ.

ويقول صاحب (الظلال): تثبت الأبحاث العلمية أن ٨٠٪ من نساء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج، و٢٠٪ بقين بلا زواج. والنتيجة الطبيعية بعد ذلك تفكك الأسرة.

نسبة الطلاق في السويد أكبر نسبة في العالم - إن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ٦ أو ٧ زيجات طبقاً للاحصاءات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد. والنسبة مستمرة في الزيادة.

(عود الى أمريكا)

(البحث عن الزوجات الهاربات والأزواج الهاربين)

يقول صاحب الظلال: من المعروف أن هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات وعن الأزواج الهاربين، وذلك في مجتمع لا يدري فيه الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته في الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق، ولا تدري الزوجة إن كان زوجها الذي خرج في الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها وأشد جاذبية.

مجتمع تعيش البيوت فيه في مثل هذا القلق الذي لا

يدع عصباً يستريح. وأخيراً يعلن رئيس الولايات المتحدة أن ٦ من كل ٧ من شباب أمريكا لم يعودوا يصلحون للجندية بسبب الانحلال الخلقي الذي يعيشون فيه. أ.هـ .

(سبب هذه المفاسد التي لا تحصى)

لا ريب ولا جدال أن هذه المفاسد وغيرها كانت النتيجة الطبيعية لمخالفة الفطرة والانحراف عن تعاليم الله. وإنها لأبلغ برهان وأقوى دليل على أن وجهة الاسلام هي خير وجهة للناس، وأن طريقه أسلم طريق للبشر، وأن تشريعه هو أحكم تشريع لانسان يعيش على الأرض، وليس للملائكة يعيشون في السماء، وقد تنبه إلى ذلك بعض مفكري الغرب وكتابهم وأخذوا يصيحون في قومهم أن يسلكوا مسلك المسلمين في الزواج فإنه لا علاج لمشاكلهم التي يئنون منها إلا هذا.

وبعد هذا العرض السريع لما آل إليه حال بعض بلاد الغرب من فساد وتشريد للنساء والأولاد وهتك للأعراض وكوارث خلقية واجتماعية لا تحصى بسبب نظام الزوجة الواحدة، مع كثرة النساء اللائي حيل بينهن وبين الحياة الزوجية الشريفة، فطلبن ما حرمنه من مطالب الحياة وحاجة الجنس عن طريق الدعارة والفسق واتخاذ الاخدان،

فكان ما كان مما ذكرنا طرفاً منه وأعرضنا عن الكثير خشية تجاوز الحد المقرر لهذا البحث.

أقول: بعد هذا العرض نذكر مقارنة موجزة بين النظامين على ضوء ما ذكرناه يتبين بها بصورة أتم أيها أحق بالطعن والتجريح التعدد الاسلامي النظيف أم التعدد الغربي القذر؟

(المقارنة الاولى من الناحية الأخلاقية)

النظام الاسلامي يتفق مع قوانين الأخلاق.

لأنه يحرم على الرجل أن يتصل بأي امرأة شاء، وفي أي وقت شاء، وأن يجمع من الزوجات أي عدد شاء، فلا يحل له أن يتصل جنسياً بالمرأة إلا بعد العقد عليها عقداً شرعياً وأن تكون ممن يحل له التزوج بها وألا يجمع بين أختين. ولا بين بنت وأمها أو عمتها أو خالتها ولا بين كل امرأتين لو قدرت أحداهما ذكرا لا يحل للأخرى، ولا أن يجمع بين أكثر من أربع زوجات. بينما النظام الغربي يتنافى مع أبسط قواعد الأخلاق.

لأنه نظام قائم على السفاح لا يتقيد بدين ولا خلق، فيتصل الرجل في ظله بأي امرأة شاء وفي أي وقت شاء، ويجمع من العاهرات والبغايا في ليلة واحدة أي عدد شاء،

وقد يجمع بين البنت وأمها أو بين البنت وأختها أو عمتها أو خالتها، بل قد يزاني أمه أو بنته أو أخته - وقد شهد بهذا واقعهم - فهو يندفع وراء شهواته بغير قيد ولا حد، متدنياً فيها الى درجة من الاسفاف تترفع عنها البهيمة العجماء.

المقارنة الثانية من الناحية الانسانية

النظام الاسلامي نظام انساني نبيل ،أما النظام الغربي فهو نظام ضد الانسانية وعدو المرأة والمجتمع وذلك:

١- لأن النظام الاسلامي في تعدد الزوجات يساهم في تخفيف الأعباء عن المجتمع حيث يؤوي الرجل الذي يستطيع الانفاق والعدل إلى عصمته عدداً لا يتجاوز الأربع من النساء اللاتي لا بعولة لهن، فيحمل بذلك عن المجتمع عبئهن. ويكفيه مؤنتهن، ويخفف الحمل عن كاهل أمته كي تنهض بتبعاتها وتمضي قدماً في طريق التقدم والبناء والاصلاح غير مثقلة بما يبطئها عن الوصول إلى هدفها المنشود.

بينما النظام الغربي - نظام التعدد في السفاح - تتحكم فيه الأنانية الفردية ويترتب عليه من المفاسد والشرور ما ينوء المجتمع بحمله، ويئن من ضغطه وثقله

ويستنفد من جهد المجتمع وطاقاته ما يعرقل سيره نحو التقدم، ولا يزال ينخر في عظامه حتى يقضي عليه قضاء تاماً.

٢- ولأن النظام الاسلامي - في تعدد الزوجات - يحافظ على كرامة المرأة وحريتها حيث لا يتم زواجها إلا باختيارها فيمد لها الرجل يده لينقذها من حياة التشرد والضياع والمهانة والابتذال ويدخلها في حياة الصون والرعاية الزوجية الطاهرة العفيفة، ربة بيت فاضلة، وأم أولاد معززة مكرمة، بينما نظام الغربيين في اتخاذ الخلائل بدل الحلائل يهدر كرامة المرأة ويسلبها حريتها حيث يغلق في وجهها باب الحياة النظيفة التي تجد فيها الصون والرعاية والأمن والاستقرار والاعزاز والتكريم، ويجبرها على حياة التشرد والتسكع والذلة والمهانة فلا أمومة ولا كرامة، ولا أمن ولا استقرار، ولا عطف ولا رحمة.

٣- ولأن النظام الاسلامي يلزم الرجل بأن يؤدي لزوجاته قبل أن يستحل فروجهن بكلمة الله صدقاتهن نحلة وعطية مؤكدة مهما بلغ قدرها، فلا يحل له أن يأخذ منهن شيئاً ما لم يطبن به نفسا.

قال تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة، فان طبن لكم

عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئا﴾[1] وقال: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً؛ أتأخذونه بهتاناً واثماً مبينا! وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا﴾.[2]

كما يلزم بكسوتهن واسكانهن والانفاق عليهن، ومعاشرتهن بالمعروف، وبالاحسان اليهن فلا يتخلى عن احداهن اذا هي حملت منه، ولا يتركها وحدها لمتاعب حملها وآلامه وأعبائه بل يتحمل معها قسطاً كبيراً بما يبذله من عناية واهتمام بها ويحملها الى أن تضع حملها في النور، فتتلقى الأسرة كلها المولود الجديد بفرحة تغمر البيت كله وتملأ نفس الأم الوالدة بالغبطة والسرور وتتحول الأسرة كلها بما فيها رب الأسرة الى خدم مخلصين للوالدة والمولود.

قال تعالى: ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن، وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن، وائتمروا بينكم بمعروف وان تعاسرتم فسترضع له أخرى. لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه

---

(١) النساء (٤).

(٢) النساء (٢٠، ٢١)

الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾(١)

وقال تعالى:﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشةمبينة ،وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا﴾(٢) والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في الحث على اكرام الزوجات والاحسان اليهن كثيرة موفورة. منها قوله ﷺ: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) وفي الصحيح (أن آخر ما أوصى به ﷺ ثلاث كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه وخفي كلامه: الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم، لا تكلفوهم ما لا يطيقون. الله الله في النساء، فانهن عوان في أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله.)

وقال ﷺ:(من كان له امرأتان فمال الى احداهما دون الأخرى،وفي رواية (ولم يعدل بينهما - جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل).

بينما في نظام الغربيين لا يتحمل الرجل أية مسؤولية للمرأة التي يزانيها لا مادية ولا أدبية، وربما خدع المرأة

---

(١) الطلاق (٦، ٧)

(٢) النساء (١٩)

ومناها بالأماني الكاذبة حتى إذا قضى منها وطراً تنكر لها وأعرض عنها ليبحث عن غيرها فلا نفقة ولا سكنى ولا مودة ولا رحمة، بل يتركها تجني ثمار الجريمة وويلاتها وحدها حتى تضع حملها في الظلام، فلا يجد المسكين حين يولد يداً حانية تتلقاه، ولا أسرة رحيمة تتعهده وتتبناه، ولا عيناً ترنو اليه، ولا قلباً يعطف عليه.

٤- ولأن النظام الاسلامي - في تعدد الزوجات - يجني الرجل فيه ثمرات اتصاله الجنسي بزوجاته فيتلقاها سعيداً بها - ذرية موصولة النسب، مكفولة الحقوق، فروعاً لأصول سابقة، ثم أصولا لفروع لاحقة، يتعهدهم بالتربية والعناية الفائقة، حتى يقدم للمجتمع هذه الثمار الطيبة التي جناها من غرس طيب ومنبت طاهر نظيف، فيكونوا لأمتهم دروعاً واقية، ودعائم قوية، وأدوات بناء وتعمير تعتز بهم الأمة وتفخر، وتستعين بهم في بناء نهضتها ورفعة شأنها.

بينما نظام الغربيين - في توحيد وتعدد الزواني - يبذر الرجل بذرته الخبيثة في منبت قذر دون أن يفكر - حين يبذرها - فيما يترتب عليها من شرور ومفاسد لا تحصى، فلا هم له الا قضاء شهوته، وليكن بعد ذلك ما يكون، ثم يتبرأ من غرسه ويولي عنه مدبراً فتولد هذه

الثمرات في جنح الظلام وفي جو مكتئب حزين، فإما أن تمسك على هون، وإما أن تدس في التراب. فان هي أمسكت على هون عاشت مبتورة النسب، فروعاً، لا أصل لها، مضيعة الحقوق، محرومة من حنان الامومة، وشفقة الأبوة ومن كل العواطف الانسانية النبيلة، فلا رحم تصلهم، ولا مودة تربطهم، لا يدرون من أين جاءوا؟ ولماذا جاءوا؟ والى أين مصيرهم؟ فيشبون وتشب في نفوسهم عوامل الحقد والضغن على الانسانية والمجتمع كله، ويتحولون الى معاول هدم وتخريب وافساد، ويكونون في جبين الأمة سبة وعاراً تضيق بهم الأمة ذرعاً، ولا يزالون جراثيم تفتك بمجتمعهم الى أن يقوضوا بنيانه ويجعلوا عاليه سافله.

٥- النظام الاسلامي - في أسوأ أحوال تطبيقه - لا تعد مفاسده وشروره شيئاً مذكوراً بالنسبة الى ما نجم عن نظام الغربيين من تلك الشرور والمفاسد التي أتينا على طرف من أمثلتها.

وبالجملة فان الرجل في النظام الاسلامي يعدد شهواته الى قدر محدود لا يتعداه، ولكنه في مقابل ذلك يتحمل أعباء مضاعفة وتبعات ومسؤوليات الى قدر غير محدود.

وعلى النقيض من ذلك في نظام توحيد الزوجة مع تعدد الخلائل يعدد الرجل شهواته الى غير حد، ولا يتحمل في المقابل شيئاً، فهو يقضي وطراً، ويحمل وزراً، ولكنه لا يتحمل أثرا، فلا التزام لزوجة، ولا اعتراف بولد. ثم تكون نتيجة شهواته وبالا على المرأة وعلى الولد وعلى المجتمع. فلا جَرَم أن كان نظام تعدد الزوجات في الاسلام نظاماً أخلاقياً يحفظ الأخلاق ويصونها، انسانياً يشرف الانسان ويحترم انسانيته ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[1]

---

(١) الاسراء (٧٠)

البحث السابع

حكمة تعدد زوجات الرسول ﷺ فوق الأربع ورد شبهات المعتدين

طعن بعض أعداء الاسلام من المستشرقين والرهبان المبشرين، طعنوا رسول الله ﷺ في أخلاقه، زاعمين أنه كان رجلاً شهوانياً غارقاً في لذات الجسد.

وإنه افتراء على الرسول ﷺ الذي شهد له رب السماوات والأرض في كتابه الخالد بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. وإن الواقع التاريخي من حياة هذا النبي ليشهد بكذب هذا الافتراء وبطلانه سواء حياته قبل النبوة أم بعدها، فتعالوا بنا نبحث في حياة محمد منذ أن كان صبياً حدثاً إلى أن توفاه الله، وننظر هل نجد لهذا الاتهام من أثر؟ وسنقسم حياته الشريفة الى فترتين: فترة ما قبل الهجرة، وفترة ما بعد الهجرة.

١ - فترة ما قبل الهجرة.

وتشمل هذه الفترة حياته ﷺ بمكة منذ نشأته إلى أن بلغ الثالثة والخمسين من عمره، أي تتضمن حياته قبل النبوة، والأعوام الثلاثة عشر الأولى من النبوة. وإني أستخلص من هذه الفترة خمسة أدلة من واقع حياة النبي فيها تنطبق ببطلان هذه التهمة المكشوفة المفضوحة وها هي الأدلة:

١ - نشأ ﷺ منذ طفولته على العفة والطهر، والأمانة والصدق، لم يدنس عرضه ولم تخدش أمانته، ولم يجرب عليه كذب، واشتهر في قومه بذلك حتى لقبوه بالصادق الأمين فهل مثل هذا يكون رجلاً شهوانياً غارقاً في لذات الجسد؟

٢ - لم يهم ﷺ بشيء مما يهم به الشباب - وهو في أخطر مرحلة يمر بها الشباب - إلا مرتين والله يحول بينه وبين ما هم به - فلم يهم بعدهما بشيء من ذلك أبدا.

قال ﷺ ليلة لأحد فتيان مكة وهما يرعيان أغنامهما: (لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان؟ فقال له صاحبه: بلى، قال ﷺ: فدخلت

حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير، فقلت ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان وفلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت.

ثم قلت ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة - ففعل، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت فقيل: فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء ثم أخبرته الخبر. فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته.

حتى مجرد (كشف السوْأة) عصمه الله منه في أيام صباه رغم أن تقاليد قومه كانت تسمح بذلك في بعض المواطن ما دام بعيداً عن أعين الناس.

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل ازارك على عاتقك من الحجارة، ففعل فخر إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى

السماء، ثم قام فقال: ازاري فشد عليه ازاره.)

فهل مثل هذا يكون رجلاً شهوانياً غارقاً في لذات الجسد؟

٣- ظل على هذه الصفات الحميدة من الطهر والعفة ومكارم الأخلاق طول حياته ومكث إلى الخامسة والعشرين من عمره لم يندفع وراء شهوة الشباب العارمة حتى لطلب الزواج المشروع - ولا تقل: لأنه كان يومئذ فقيراً - فإن من كان في منزلة (محمد) من السلطة في العشيرة والمكان في النسب لا يرد لفقره في مجتمع لا يبالي بالغنى بقدر ما يبالي بشرف النسب.

ولو شاء محمد لجمع من عذارى مكة وحسناواتها من شاء من الزوجات. فكل شريف في قريش يتمنى أن يكون له صهراً. أليس هو الصادق الأمين؟ أليس هو ابن عبد المطلب سيد قريش؟ لكنه لم يفعل، وظل صامتاً لا يذكر اسم الزواج على لسانه حتى فاجأته خديجة بخطبته لنفسها لما رأته فيه من جماع الخير ومكارم الأخلاق التي لم تجتمع في أحد قبله ولا بعده.

وقد عبرت هي عن مشاعرها نحو شخصية محمد الفذة العجيبة بقولها له حين عاد اليها - يوم نبىء - من غار

حراء ترجف بوادره مما رأى وسمع: (كلا، لا يخزيك الله أبداً، إنك لتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق). تزوج بها وعمره خمس وعشرون وهي في سن الأربعين وكانت قد تزوجت قبله برجلين. وأنجب منها كل أولاده ما عدا ابراهيم فمن مارية القبطية. وظل معها أكرم بعل لأكرم زوج خمساً وعشرين سنة (ربع قرن) لم يتزوج عليها رغم تجاوزها سن اليأس ولو شاء لفعل، فقد كان تعدد الزوجات مباحاً وشائعاً مألوفاً بين العرب إلى غير حد، ولكنه لم يفعل إلى أن ماتت خديجة وهي فوق الخامسة والستين من عمرها بعد أن جاوز هو الخمسين من عمره وولى عهد الشباب الذي هو مظنة الشهوة - وكان الله قد بعثه نبياً قبل موت خديجة بعشر سنين، فكانت أول من سارع الى تصديقه والايمان به وأخلصت لله ولرسوله. ومواقفها في خدمة الدعوة ونصرة دين الله ونبيه معروفة مشهورة. ماتت خديجة وتركت لمحمد ﷺ أربع بنات، وظل وحيداً مع أولاده فترة بعد خديجة لم يفاتح أحداً في أمر الزواج حتى فاتحته في ذلك امرأة مسلمة، وخطبت له بإذنه (سودة بنت زمعة) فكانت أول امرأة تزوجها بعد خديجة، ولم تكن ذات جمال ولا شباب ولا

مال، فقد تأيمت في سن يقارب ستاً وستين من عمرها فتزوجها ﷺ خوفاً عليها من أذى المشركين من قومها وفتنتهم كما سنبين فيما بعد إن شاء الله، فانظر كيف آثر الزواج بهـذه العجوز وأمامـه الشابات والأبكار الجميلات؟

★ فهل مثل هذا يكون رجلاً شهوانياً غارقاً في لذات الجسد؟

٤- لقد أحب خديجة وأحبته وعاشا كأسعد زوجين في دنيا الناس. فلماذا اذن كان يهجر فراش زوجته الحبيبة ويأوى إلى غار حراء في أعلى الجبل ليقضي فيه الليالي ذوات العدد، يناجي به (في قلب الغار وفي جنح الظلام) ويسبح بروحه في ملكوت السماء والناس نيام؟ فهل مثل هذا يكون رجلاً شهوانياً غارقاً في لذات الجسد.؟

٥- لقد أوفد إليه سادة مكة وأشراف قريش - بعد أن فشلت أساليب تهديدهم ووعيدهم. وبعد أن أعلنها في وجوههم صريحة مدوية: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما فعلت - أوفدوا إليه زعيماً منهم هو (عتبة بن ربيعة) يعرض عليه باسمهم الملك والمال

والجاه على أن يدعهم ودينهم ويدعوه ودينه.

ولو أنه قبل لكان ملكاً متوجاً يسبح في بحار الشهوات، ويغرق في طوفان اللذات، وتمتليء قصوره بالعشرات والمئات من الزوجات والجواري الحسان، ولفرحت يومئذ قريش بهذا أشد الفرح وفدته بمهجها وأرواحها ودعت آلهتها أن تباركه.

فانظر كيف آثر حياة الفقر والحرمان والاضطهاد وتعذيب المستضعفين وقتل الأبرياء من أصحابه على حياة الشهوات والبذخ والترف في أبهة الملك وعظمة السلطان؟

ها هي ذي الشهوات تلح عليه وتراوده عن نفسها وتقول له: هيت لك. فينظر إليها نظرة احتقار وازدراء، ويقول لها: إليك عني فلا حاجة لي بك. فان الفقر والبؤس، والتنكيل والتعذيب والقتل، في سبيل ربي ونصرة دينه أحب الي منك.

★ فهل مثل هذا يكون رجلاً شهوانياً غارقاً في لذات الجسد؟

كلا لم نجد في هذه الفترة (ما قبل الهجرة) للشهوة ظلا ولا أثراً. فلنبحث عنها في الفترة الثانية.

٢ - فترة ما بعد الهجرة

وتشمل هذه الفترة حياته ﷺ بالمدينة منذ هجرته إليها في الثالثة والخمسين من عمره إلى أن توفاه الله في الثالثة والستين من عمره. أي السنوات العشر الأواخر من حياته ﷺ، وهي الفترة التي تحول فيها جهاد المسلمين من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، فكانت الغزوات والمواقع الحربية التي نتج عنها كثرة الأرامل وكثرة الأيتام، ومن هنا كان تعدد زوجات الرسول ﷺ، وأني أستخلص من هذه الفترة (فترة ما بعد الهجرة) ثلاثة أدلة من واقع حياة النبي فيها تنطق ببطلان اتهامه ﷺ بأنه كان رجلاً شهوان غارقاً في لذات حسه.

١ - هاجر ﷺ وأصحابه إلى المدينة وكتب عليهم القتال لأنهم ظلموا ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير.﴾[١] فقاتلوا وأتم الله لنبيه النصر على عدوه وأنجز له ما وعد، وفتح له الفتوح وأحل له الفيء والغنائم، ودانت له الجزيرة العربية وأسلمت إليه قيادها ومفاتيح أمرها. وهاهوذا محمد قد بسط الله له السلطان على الجزيرة العربية كلها، وأغدقت عليه

---

(١) الحج (٣٩)

الأموال (فيئاً وغنائم من المشركين وزكاة وصدقات من المسلمين) وها هي ذي الشهوات تعود إليه مرة أخرى - وفي يده المال والسلطان - لتراوده عن نفسها فيدحرها كما دحرها أول مرة، ويزداد لها احتقاراً وزهدا، ويوصد الأبواب في وجهها فلا تجد إلى نفسه مدخلاً ولا إلى قلبه سبيلا.

فيوزع ما ملكت يداه من الأموال على المساكين والأرامل والأيتام، ولا يبقي لنفسه ولا لأهله وولده شيئاً، ثم يعود إلى بيته لينام على حصير من ليف قد أثر في جنبه - بأبي هو وأمي - ويعيش هو وزوجاته وأولاده وخدمه بعد الهجرة - حيث لا مال ولا سلطان تقشفاً وزهداً وعيشة كفاف، يخصف نعله بيده، ويظل حياته لا يشبع من خبز الشعير ثلاثة أيام متوالية، ويمضي الشهر والشهران ولا يوقد في أبياته نار. ولا طعام له ولأهله وولده الا الأسودان: التمر والماء، فما أعظم هذه النفس الأبية وما أزهدها في زينة الدنيا وشهواتها.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (دخلت على رسول الله ﷺ وهو على سرير مرمول بالشريط وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، ودخل عليه عمر

وناس من أصحابه، فانحرف النبي ﷺ انحرافة فرأى عمر أثر الشريط في جنبه فبكى، فقال له: ما يبكيك يا عمر؟ فقال عمر رضي الله عنه: ومالي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا، وأنت على الحال الذي أرى.. فقال له النبي ﷺ: يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ قال: بلى، قال: هو كذلك). ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (اضطجع النبي ﷺ على حصير فأثر الحصير بجلده، فجعلت أمسحه عنه وأقول: بأبي وأمي يا رسول الله ألا آذنتنا فنبسط لك شيئاً يقيك منه تنام عليه؟ فقال: مالي وللدنيا: ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) ويقول أبو هريرة رضي الله عنه: (قال رسول الله ﷺ: لو أن لي مثل أحد ذهبا ما سرني أن يأتي علي ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيئاً أرصده لديني).

وتقول عائشة رضي الله عنها: (ما شبع آل محمد منذ قدموا المدينة ثلاث ليال تباعاً من خبز بر حتى توفي.) وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: (والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ

نار. قلت يا خالة: فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء...) متفق عليه.

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: (قال رسول الله ﷺ: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً) وروى عن أنس قال: (كان النبي ﷺ لا يدخر شيئاً لغد).

هكذا عاش محمد بعد الهجرة والسلطان في يمينه والمال في شماله وليس في قلبه شيء إلا حب الله ودينه، حتى إن نساءه لم يطقن على هذه الحياة الخشنة صبراً، فطالبنه بالتوسعة عليهن في النفقة والزينة أسوة بغيرهن من النساء المسلمات منهن وغير المسلمات، فكان ما هو معروف مشهور من هجره ﷺ لهن شهراً كاملاً بسبب هذا الطلب، وبعد انقضاء الشهر خيرهن بين أمرين: إما أن يطلقهن ويعطيهن من متاع الدنيا وزينتها، وإما أن يخترن الله ورسوله والدار الآخرة فيعشن معه على ما ألفن من حياة التقشف والزهد والكفاف، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ورضين بأن يبقين معه على حياة الكفاف والتقشف. ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا. وإن كنتن تردن الله ورسوله

والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما.﴾(1)

فهل مثل هذا يكون رجلاً شهوانياً غارقاً في لذات الجسد؟

٢ - المعروف عن الرجل الشهواني الغارق في لذات جسده أنه يطلب العذارى الحسان وذوات المال والشباب والجمال؛ليشبع شهوته الحسية من جمالهن، ويروي لذته الجسدية بافتضاض أبكارهن. وما كان محمد - وقد أصبح في يده السلطان والمال - ليعجزه أن يكون له ما يشاء من الأبكار والجواري الحسان من نساء مكة ومن نساء الروم والشام على تخوم الجزيرة العربية.

ولكنه لم يتزوج في حياته كلها بكراً إلا عائشة التي تزوجها في سن لا تشتهى فيه. وكل أزواجه ما عداها ثيبات، ومع بعضهن أيتام، ولم تعرف احداهن بجمال ولا مال ولا شباب ولا جاذبية إلا زينب في وضاءتها، وجويرية في جاذبيتها، وخديجة في جاهها ومالها، وقد سبق أن عرفنا أنه عاش مع خديجة حتى ماتت متجاوزة سن اليأس وولى شبابه معها دون أن يتزوج عليها. وقد

---

(١) الأحزاب (٢٨، ٢٩)

كان لزواجهن جميعاً دوافع انسانية وأخلاقية ودينية بما فيهن زينب وجويرية وسنذكر هذه الدوافع في موضعها إن شاء الله.

ثم هاهوذايهجر زوجاته التسع وفيهن عائشة أحبهن إليه - شهراً كاملاً بسبب ما طالبنه به من التوسعة في النفقة، وبعد الهجر الطويل يخيرهن بين البقاء معه على حياة التقشف والكفاف وبين الطلاق واعطائهن من متاع الدنياوزينتها ،فيخترن الله ورسوله والدار الآخرة وقد كان يمكن أن يخترن غير ذلك.

★ فهل يفعل هذا رجل شهوانيٌّ غارق في لذات الجسد؟

وقد كان ﷺ معروفاً بحيائه المفرط حتى من مجرد الكلمة الفاحشة فكانت لا تجري على لسانه، ولا تطيق أذنه سماعها، بل كان يستعمل التلميح بالتكنية عن المعاني التي يستقبح التصريح بأسمائها، حتى وصفه أصحابه بأنه (كان أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان اذا كره شيئاً عرفوه في وجهه) فهل مثل هذا يكون رجلا شهوانياً غارقاً في لذات جسده؟

٣- من المعروف كذلك أن محمداً كان له خصوم وأعداء

بالمدينة وما حولها من المنافقين واليهود والنصارى، وكان لكثير منهم مجالس سرية يتناجون فيها بالاثم والعدوان ومعصية الرسول، ويجتهدون في البحث عن أي ثغرة يطعنون منها هذا النبي الكريم. لينفض عنه أصحابه من حوله ويعودوا إلى الكفر بعد الايمان، وما حديث الافك والهدف من افترائه بخاف على أحد. ولو أنهم وجدوا سبيلا إلى اتهام محمد بأنه حلس شهوات ما تورعوا عن طعنه بذلك وهم أحرص الناس على اتهامه بالباطل، فكيف لو وجدوا فيه مطعناً حقيقياً؟ لم يتهموه بهذا الاتهام - ولو بالباطل - لأن زهد محمد، وتقشف محمد وبعد محمد عن الشهوات والشبهات، ووضوح محمد في حياته الداخلية والخارجية كان أعلى وأرفع من أن تصل إليه سهام الاتهام فضلاً عن أن تصيبه، وقد كان ﷺ يخبر عن الله عز وجل أنه (يلعن الذواقين من الرجال والذواقات من النساء) أفيأتي خصوم محمد وأعداؤه في عصرنا هذا فيتهمونه بما لم يتهمه به اخوانهم في عصر محمد نفسه؟

(فبهت الذي كفر)

يقول الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (المرأة بين الفقه والقانون ص ٩٦) ما نصه: حين كنت في دبلن

(ارلندا) سنة ١٩٥٦ زرت مؤسسة الآباء اليسوعيين فيها وجرى حديث طويل بيني وبين الأب المدير لها وكان مما قلته: لماذا تحملون على الاسلام ونبيه في كتبكم المدرسية بما لا يصح أن يقال في مثل هذا العصر الذي تعارفت فيه الشعوب والتقت الثقافات؟

فأجابني: نحن الغربيين لا نستطيع أن نحترم رجلاً تزوج تسع نساء (يقصد رسول الله ﷺ) قلت له: هل تحترمون نبي الله داود ونبيه سليمان قال: بلى، وهما عندنا من أنبياء التوراة. قلت: إن نبي الله داود كان له تسع وتسعون زوجة أكملهن مائة بالزواج من زوجة قائده (أوربا) كما هو معلوم. ونبي الله سليمان كان له - كما جاء في التوراة - سبعمائة وثلاثمائة من الجواري، وكن أجمل أهل زمانهن.

★ فلم يستحق احترامكم من يتزوج ألف امرأة ولا يستحقه من يتزوج تسعا؟

★ لماذا لا يستحق احترامكم من تزوج تسعا، ثمانية منهن ثيّبات وأمهات وبعضهن عجائز، والتاسعة هي الفتاة البكر الوحيدة التي تزوجها طيلة عمره؟

فسكت قليلاً، وقال: لقد أخطأت التعبير، أنا أقصد أننا نحن الغربيين لا نستطيع الزواج بأكثر من امرأة

واحدة، ويبدو لنا أن من يعدد الزوجات غريب الأطوار أو عارم الشهوة. قلت: فما تقولون في داود وسليمان وبقية أنبياء بني اسرائيل الذين كانوا جميعاً معددين للزوجات بدءاً من ابراهيم عليه السلام؟ فسكت ولم يحر جوابا. اهـ .

والآن وقد تعرى هذا الاتهام الباطل وانكشفت سوأته بمجرد أن سلطت عليه نواصع الحجج وأضواء الحق وبراهين النطق، ووضح أن زواج محمد لم يكن بدافع الشهوة الجنسية، ولا لترف الحياة ولذاتها بقي أن نعرف الحكمة التي تكمن وراء تعدد زوجات الرسول ﷺ الى التسع، فنقول وبالله التوفيق:

أ) لماذا تجاوز الرسول ﷺ الأربع وهو الحد الأقصى لتعدد الزوجات؟

يقول الأستاذ العقاد في كتابه (المرأة في القرآن ص ١٢٥) ما نصه: كان للنبي صلوات الله عليه خصوصية في أمر تعدد الزوجات جازت له قبل سريان حكم التقييد بعدد لا يزيد على أربع لسائر المسلمين. وأمثال هذه الخصوصية ليست بالشيء النادر عند تأسيس النظم الاجتماعية قبل تمام الانتقال من نظام لأنها استثناء توجبه مصلحة النظام الجديد، ولا يتأتى شموله بالتعميم في جميع الأحكام. إلى أن يقول: وقد كانت خصوصية

النبي عليه السلام مفردة مقصورة عليه غير قابلة للتكرار لأنها ارتبطت بمصلحة الدعوة في إبانها، ولم يكن للدعوة رسول سواه، ولم يكن له غنى عن تلك الخصوصية في البلاد التي تأسست فيها الدعوة الأولى، وهي بلاد الأنساب وروابط المصاهرة والولاء بين الأسر والبيوت.

والحقيقة الواضحة هي نزاهة تلك الخصوصية وخلوصها من شوائب الهوى النفسي، ولو كان من السائغ المباح لم تكن تلك الخصوصية لتمكين صاحبها من المتعة والاستغراق في مناعم الحياة الجنسية، فإن البيت الذي يشكو نساؤه قلة المؤنة والزينة لا يقال عنه: أنه بيت رجل تملكه أهواء نفسه وتغلبه على رشده.

ب) حكمة تعدد زوجات الرسول ﷺ:

يتضح للباحث المنصف بعد أن يستعرض كل زواج تزوجه الرسول محمد ﷺ أن الدافع الأصلي وراءه هو خدمة الدعوة التي سيطرت على قلب محمد وعقله، وظهرت آثارها في جميع أحواله وأفعاله وأقواله، فقد عاش لها وبها منذ بعثه الله إلى أن نقله إلى جواره.

ويستتبع هذا الهدف الأساسي - وهو خدمة الدعوة - دوافع أخرى سياسية، واجتماعية، وانسانية -

وأخلاقية، ولكنها في النهاية ترجع إلى الأساس الأول وهو خدمة الدعوة وفي سبيلها.

وكلها في مجموعها تؤكد عظمة هذا النبي الكريم الجامع لكل صفات الخير والكمال الانساني، وترسم للبشرية المنهج المثالي لتعدد الزوجات الذي تشرف به الانسانية وترقى به الحياة وتتم به مكارم الأخلاق.

ونستطيع أن نحصر الدوافع - المختلفة الصور المتحدة الأصل - التي دفعت النبي ﷺ إلى تعدد زوجاته في ثمانية:

١ - نصرة الاسلام:

وذلك بزواجه ﷺ بخديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) تزوجها وهو في الخامسة والعشرين وهي في سن الأربعين،وقد اختارته زوجاً لها لأنه الصادق الأمين وظل وفياً لها في حياتها وبعد موتها فلم يتزوج عليها رغم تجاوزها الخامسة والستين حين وفاتها.

تزوج بها قبل أن ينبأ بخمس عشرة سنة، فلما نبيء كانت أول من أسلم وكانت له نعم النصير ونعم المعين على أداء رسالة ربه بمالها ونفسها وجاهها إلى أن توفاها الله بعد عشر سنين من عمر النبوة،فتكون مدة بقائها

معه خمساً وعشرين سنة.

ولم يستطع مشركو مكة أن يبلغوا من ايذاء النبي ما بلغوه إلا بعد موت خديجة وأبي طالب. وقد سمى الرسول ﷺ العام الذي ماتا فيه (عام المصائب) لكثرة ما نزل به - بأيدي المشركين من مصائب وأذى.

٢ - الخوف على المرأة المؤمنة أن يفتنها أهلها المشركون اذا اضطرت إلى العودة إليهم بعد تأيمها:

ويتجلى هذا في زواجه ﷺ بسودة بنت زمعة، فقد مكث ﷺ بعد موت خديجة فترة لم يذكر الزواج على لسانه حتى فاتحته فيه امرأة مسلمة رقّت له في عزلته مع بناته، فخطبت له سودة بنت زمعة فكانت أول امرأة تزوج بها بعد موت خديجة. وكانت تقارب ستاً وستين من العمر، ولم تكن ذات جمال ولا مال ولا جاذبية. وإنما هي امرأة مؤمنة من المؤمنات اللاتي هاجرن مع أزواجهن إلى الحبشة خوف الفتنة وقد توفى عنها زوجها وابن عمها (السكران بن عمرو بن عبد شمس) بعد الرجوع من هجرة الحبشة، ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أبيها وأهلها المشركين فيفتنوها عن دينها، ويكرهوها على الكفر بعد الإيمان، ويزوجوها من مشرك مثلهم، فأنقذها رسول الله ﷺ بزواجه بها ليحفظ

عليها دينها وايمانها ويصد عنها أذى قومها. وكان زواجه بها قبل هجرته إلى المدينة.

٣- نشر تعاليم الاسلام وأحكام الدين مع رفع منزلة الرجل الأول من أصحابه:

ويتجلى هذا بصورة أتم في زواجه ﷺ بعائشة - وإن كان هذا الدافع عاملاً مشتركاً في جميع زوجات الرسول اللاتي أمرهن الله تعالى أن ينشرن تعاليم الاسلام وأحكامه على الأمة الاسلامية وخصوصاً ما يتعلق منها بالجانب الأسرى، فقال تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾[1] أقول: وإن كان كذلك إلا أن عائشة لها في هذا الميدان النصيب الأكبر والحظ الأوفر، فقد كانت أكثر أزواج النبي رواية عنه واخباراً عما يجري في داخل بيوت النبي، ولذلك اختارها الله له صغيرة حيث عقد عليها في سن لا تشتهى فيه وهو السادسة إلى جانب ما امتازت به من ذكاء وعبقرية.

عقد عليها ﷺ قبل الهجرة، ثم بنى بها بعد الهجرة وهي البكر الوحيدة التي تزوجها ﷺ في حياته، وكانت

---

(١) الأحزاب (٣٤)

أحب نسائه إليه ولكنه سوى بينها وبين صواحبها فيما عدا الحب القلبي.

حفظت وروت عن النبي ﷺ الكثير من الأحاديث والسنن التقريرية والعملية التي اهتدى بها المسلمون في جوانب كثيرة من حياتهم ولا سيما الجانب الأسري. فكان زواجها أهم وسائل نشر التعاليم الدينية في الأمة، وإلى جانب هذا فقد شرف أبو بكر بهذه المصاهرة وارتفع قدره، وكان ذلك من النبي ﷺ مكافأة لأبي بكر على سوابق فضله ومؤازرته لرسول الله ﷺ ووقوفه بجواره عند الشدائد.

٤- اعلاء شأن المرأة مع رفع منزلة الرجل الثاني من أصحابه:

ويتجلى هذا في زواجه ﷺ بحفصة بنت عمر بن الخطاب ولم تكن ذات جمال ولا جاذبية ولا شباب، تأيمت بموت زوجها (خنيس بن حذافة) ببدر، فعرضها أبوها عمر على كل من أبي بكر وعثمان فلم يجيباه، فوجد عليهما في نفسه وأخبر رسول الله ﷺ بذلك فطيب رسول الله خاطره - وقال له: (سيتزوجها من هو خير من أبي بكر وعثمان) - فتزوجها ﷺ بعد الهجرة

بسنتين وأشهر اعزازاً لشأن المرأة، وتطييباً لخاطر عمر واقراراً لعينه ورفعاً لمنزلته بهذه المصاهرة،كما رفع من قبل منزلة أبي بكر بزواج عائشة وكما رفع منزلة عثمان بتزويجه ابنتيه (رقية وأم كلثوم) ومنزلة علي بتزويجه فاطمة رضي الله عنها .وهؤلاء هم أعظم أصحابه وأحبهم إليه وأخلصهم قلباً لدين الله ونبيه.

٥ - اعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الاسلامي:

ويتجلى هذا في ابطال نظام التبني في الاسلام بزواجه ﷺ بابنة عمته (زينب بنت جحش) بعد أن طلقها زوجها زيد بن حارثة. يقول صاحب الظلال عند تفسيره الآيتين (٣٦، ٣٧) من سورة الأحزاب:

« وقد شاء الله أن ينتدب لابطال تقليد نظام التبني من الناحية العملية رسوله ﷺ، وقد كانت العرب تحرم مطلقة الابن بالتبني حرمة مطلّقة الابن من النسب. وما كانت تطيق أن تحل مطلقة الأدعياء عملاً إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة، فانتدب الله رسوله ﷺ ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة.

وما كان أحد غير رسول الله ﷺ يقدر على أن يطبق هذا الحكم عملياً. ولو لم يفعل الرسول ذلك

لتوارث الناس هذا التقليد الجاهلي إلى يومنا هذا ، ولا يعجزهم تأويل النصوص الواردة في القرآن بابطال التبني ، وكنا نرى من يحرم زوجة المتبنى كحرمة زوجة الابن النسبي .

ومن هنا يتبين أن الحكمة من زواج الرسول ﷺ بزينب تعلو كل حكمة وهي ابطال تلك البدع الجاهلية التي كانت لاحقة بنظام التبني في الجاهلية. هذا وقد زعم أعداء الاسلام ونبيه من المستشرقين والمبشرين المحترفين أنه ﷺ أحب زينب بعد زواجها من زيد وأخذها منه.

وإنه لكذب لا يقره عقل ولا نقل: فزينب ليست غريبة عن النبي ولا مجهولة له. انها بنت عاتكة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ ،فزينب ابنة عمة النبي كان يراها منذ طفولتها ولم يخف عليه جمالها من قبل زواجها بزيد ولا من بعد ، ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها .

فلماذا لم يتزوجها من أول الأمر ويريح نفسه مما أصابه من حرج وضيق بسبب هذا الأمر؟

هل يقبل العقل أن يرفضها بكراً ويتزوجها ثيبا: وهو يعرفها منذ طفولتها؟ وهل تظن أن زيدا الذي

عاش ومات على حب محمد كان سيغفر لمحمد سطوته على زوجته وانتزاعها منه؟ وهل هكذا كان محمد يعامل أصحابه وهو أوفى انسان عرفه التاريخ - لأصحابه وأبره بهم؟

والحقيقة أن زواج زيد بزينب بأمر من الله ورسوله لحكمة عالية هي تحطيم الفوارق الطبقية الموروثة في الجماعة المسلمة من رواسب الجاهلية الأولى ورد الناس سواسية كأسنان المشط لافضل لاحد على آخر إلا بالتقوى.

وزيد كان مولى والموالي في نظام الجاهلية طبقة دنيا. فلا يمكن أن يتزوج زيد المولى امرأة كزينب القرشية الهاشمية ذات الشرف والسيادة. فأراد الله ورسوله تحقيق المساواة الكاملة بتزويج زيد مولى محمد من شريفة هاشمية هي زينب ابنة عمة محمد نفسه وبذلك تسقط تلك الفوارق عملياً.

وكانت هذه الفوارق من العنف والعمق بحيث لا يقوى على تحطيمها إلا فعل واقعي من رسول الله ﷺ تتخذ منه الجماعة المسلمة اسوة وتسير البشرية كلها على هداه في هذا الطريق(١).

---

(١) صاحب الظلال في قصة زواج زينب بسورة الأحزاب بتصرف.

وبعد أن تم زواج زيد بزينب وتحققت به الغاية المقصودة منه لم يشأ الله تعالى أن يتم الوفاق بينهما لحكمة أخرى أرادها وهي أن يتزوج محمد ﷺ بزينب بعد طلاقها من زيد لهدم نظام التبني الموروث من الجاهلية وما كان ذلك ليتحقق في تاريخ البشر لولا أن طبقه النبي ﷺ على نفسه هو عملياً. وأما عتاب الله لنبيه بقوله: ﴿وتخفي بنفسك ما الله مبديه﴾ فالذي أبداه الله بعد أن أخفاه النبي في نفسه هو زواجه ﷺ بزينب وكان ﷺ يحس بثقل التبعة فيما ألهمه من الله أمر زينب.

وقد صرح القرآن الكريم بالحكمة من هذا الزواج في قوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا﴾[١].

ولذلك كانت زينب - كما روى البخاري - تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: (زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات).

وقد تلقى المسلمون عن نبيهم من هذا الزواج حكماً

(١) الأحزاب (٣٧)

اسلامياً أجمعت عليه الأمة بأسرها بسبب هذا التطبيق النبوي وهو أن التبـــني مرفوض في الاسلام، وأن محمداً ﷺ ليس أباً لزيد ولا أحد من الناس ولكن رسول الله وخاتم النبيين. وهذا الحكم مخالف للمعمول به عند المنتسبين للأديان السماوية الأخرى.

فلا عجب أن يشتد حنقهم وغيظهم على هذا الدين ونبيه فليلفقوا الأساطير والأكاذيب حول قصة زواج زينب تشويهاً لسيرة الرسول وطعناً في خلقه ولكن هيهات فما لهم الى ذلك من سبيل.

٦- تحرير الرقاب من رق الدنيا وعذاب الآخرة:

ويتجلى هذا في زواجه ﷺ بجويرية، واسمها (برة) بنت الحارث سيد بني المصطلق وأسروا منهم مائتي بيت من النساء والذراري، وكان من بين السبي جويرية المذكورة فأعتقها النبي ﷺ وتزوج بها في أواسط السنة السادسة من الهجرة اكراماً لها أن تذل ذل السبايا. فقال الصحابة: أصهار رسول الله ﷺ لا ينبغي أسرهم وأعتقوهم فأسلموا جميعاً وحسن اسلامهم وصاروا عوناً للاسلام والمسلمين بعد أن كانوا حرباً عليهم، وكان لذلك أحسن الأثر في سائر العرب. ثم خيرها أبوها بين

العودة إليه والبقاء عند رسول الله فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة. وهنا قد تجلت الحكمة العالية من هذا الزواج المبارك الذي اعتق به مائتا بيت من ذل العبودية في الدنيا ومن عذاب النار في الآخرة. وقد شهدت عائشة وهي ضرة جويرية بهذه الحقيقة، فقالت ما معناه: (ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرية بنت الحارث لقد عتق بها مائتا بيت من بيوت العرب).

والفضل في عتق بني المصطلق وجويرية من ذل الدنيا وعذاب الآخرة هو بعد الله لرسوله محمد ﷺ اذ لولا زواجه بجويرية لما كان ذلك.

٧ -ايواء اليتامى مع أمهم صوناً لهم من الذلة والمهانة:

ويتجلى هذا في زواجه ﷺ بأم سلمة (هند بنت أبي أمية) ولم تكن ذات جمال ولا شباب ولا مال، مات زوجها وابن عمها أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة النبي (برة بنت عبد المطلب) وأخوه من الرضاع هو وأم سلمة من السابقين في الاسلام ومن أول من هاجر الى الحبشة وكانت أم سلمة تحب زوجها وتجله. طعن أبو سلمة في غزوة أحد ثم مات بسبب هذا تاركاً وراءه أولاداً صغاراً وذرية ضعافاً فتزوج بها ﷺ

جبراً لخاطرها وحماية لها ولأولادها من المهانة، وبراً بأصحابه ورجال دعوته الذين يقدمون أرواحهم فداء لله ورسوله ،فكان هذا من النبي ﷺ آية على كمال خلقه وعظيم رحمته بأمته.

٨ -تشجيع المرأة على خلق كريم اتصفت به ومكافأتها عليه.

ويتجلى هذا في زواجه ﷺ بزينب بنت خزيمة بعد قتل زوجها عبد الله بن جحش في أحد، ولم تكن حين تزوج بها ذات جمال ولا شباب ولا مال وإنما كانت من فضليات النساء في الجاهلية عطوفة على المساكين والأيتام حتى لقبوها بأم المساكين. فكافأها ﷺ على فضائلها بعد مصابها في زوجها بالزواج بها ولم يدعها أرملة تقاسي الذل حيث لا كفيل لها من قومها، وهي التي كانت تجير المساكين والأيتام من المهانة والذل. ولكنها لم تلبث أن توفيت رضي الله عنها قبل زواج النبي ﷺ بصفية بنت حيي.

٩ -تأليف قلوب بعض زعماء المشركين بمصاهرتهم مع اكرام المرأة وحمايتها من الفتنة:

ويتجلى هذا في زواجه ﷺ بأم حبيبة (رملة بنت

أبي سفيان بن حرب) زعيم قريش والعدو اللدود للنبي والمسلمين.

هذه المرأة المؤمنة التي عادت قومها في الجاهلية والاسلام وكانت عند عبيد الله بن جحش فأسلما وهاجرا الى الحبشة الهجرة الثانية وهناك تنصر زوجها وثبتت هي على الاسلام.

فهل تترك امرأة مؤمنة تضيع بين أبيها الذي يعادي النبي والمسلمين وبين زوجها الذي ارتد عن الاسلام؟ لذلك ضمها ﷺ إلى كفالته بالزواج ،فرفع قدرها وعزز مكانتها ووكل نجاشي الحبشة في تزويجها منه ،وقد كان لهذا الزواج أثره البالغ في تقليب قلب أبي سفيان حيث رأى ابنته يؤويها رسول الله نفسه ويحميها من الذل والمهانة فقال: (نعم الفحل محمد) ،ثم تحولت عداوته للاسلام ونبيه فيما بعد إلى مودة ودخل هو وقومه في دين الله أفواجاً. ولم تكن أم حبيبة ذات شباب ولا جمال ولا مال.

كذلك يتجلى هذا المعنى نفسه في زواجه ﷺ بميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية وكان اسمها (برة) فسماها ﷺ (ميمونة)، والذي عرضها عليه هو عمه العباس بن عبد المطلب الذي كان متزوجاً بأختها.

وكانت قد جعلت أمرها إليه بعد وفاة زوجها (أبي رهم ابن عبد العزي) وهي خالة عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد ؛فقرابتها في بني هاشم وبني مخزوم متشعبة. وهي آخر من تزوج ﷺ. فتزوجها ﷺ تأليفاً لقومها وانقاذاً لها من الذل والمهانة حيث لم تكن ذات جمال ولا شباب ولا مال.

١٠- أسباب سياسية مع جبر خاطر المرأة ورفع قدرها عن مذلة السبي:

ويتجلى هذا في زواجه ﷺ من أم المؤمنين (صفية الاسرائيلية بنت حيي بن أخطب) سيد بني قريظة والنضير، فأبوها حيي سيد بني النضير وقتل مع بني قريظة في غزوة بني قريظة. وزوجها كنانة بن أبي الحقيق من زعماء اليهود، وقد قتل في غزو خيبر. ولم تكن صفية جميلة وكانت قصيرة، فاصطفاها النبي وأعتقها وتزوج بها ،فوصل سببه ببني اسرائيل، وأعتقها من ذل السبي اكراماً لمنزلتها وهو الذي كان ينزل الناس منازلهم ويأمر بذلك.

وقد خيرها رسول الله ﷺ بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة إلى ذويها بعد أن رأت بنفسها دلائل النبوة وأخلاقها في

محمد ﷺ ،ولا يخفى ما في هذا الزواج من آثار في نفوس أعدائـه فيخفف من حدة غضبهم وربما يؤدي إلى اسلامهم.

روى الترمذي أن صفية بلغها أن عائشة وحفصة قالتا فيها: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، فذكرت صفية ذلك للنبي ﷺ فقال: ألا قلت: وكيف تكونان خيراً مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى؟.

وهكذا كان ﷺ في كل زواج تزوجه لم يكن الدافع له شهوانياً ولا دنيوياً وإنما كان الهدف الأصلي خدمة الدعوة وجذب القلوب إليها وحماية المرأة المؤمنة من فتنة قومها المشركين وايذائهم اياها ،وحماية الأيتام من الضياع وحمل أعباء أصحابه الذين يقتلون في سبيل الله وحماية العقيدة.

وكذلك من حكم تعدد زوجاته ﷺ أنه علم أتباعه احترام المرأة وايواء الأيتام ورسم لهم الطريق المثالي في تعدد الزوجات حتى لا يكون مجرد الشهوة البهيمية هو الدافع إليه، ولذلك كان يخبر بأن الله تعالى (لعن الذواقين من الرجال والذواقات من النساء) . ومن الحكم الجليلة في تعدد زوجاته أن ترك بعده تسع أمهات للمؤمنـين يعلمن المسلمات من الأحكـام والتعالـيم

الاسلامية ما يليق بهن مما ينبغي أن يتعلمنه من النساء دون الرجال، ولو ترك واحدة ما كانت تغني في الأمة غناء التسع.

ولو كان ﷺ يريد بزواجه ما يتهمه به أعداؤه المبشرون والمستشرقون لاختار الأبكار الحسان على أولئك الثيبات المكتهلات ذوات العيال.

يقول العقاد في المصدر السابق:

(إن المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسألة زواج النبي في السيرة النبوية مقتلاً يصيب محمداً أو يصيب دعوته من ورائه، ولكنهم قد كشفوا منها حجة لا حجة مثلها في الدلالة على صدق دعوته وايمانه برسالته واخلاصه لها في سره كاخلاصه لها في علانيته.

ولولا أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لاجتهدوا في السكوت عن مسألة الزواج خاصة أشد من اجتهادهم في التشهير بها واللغو فيها.

وقصارى القول في الخصوصية النبوية أنها لم تكن امتيازاً من امتياز القوة المسيطرة لتسخير المرأة في مرضاة خيلاء الرجل وحبه للمتعة الجسدية؛ ولكنها كانت آية أخرى من معدن الأحكام القرآنية فيما تسفر

عنه من عطف على المرأة وحياطة لها من مواقع الجور والاذلال. أهـ.)

ثم انظر كيف وسع عدله ﷺ أزواجه التسع فلم يميز احداهن بشيء سوى العاطفة القلبية التي مال بها إلى عائشة واعتذر إلى ربه عن ذلك بقوله:(اللهم هذا قسمي فيما أملك فاغفر لي ما تملك ولا أملك).

فقد بلغ من عدله بينهن أن كان يقرع بينهن إذا أراد سفراً. حتى في مرض موته كان يحمل ويطاف به على بيوت زوجاته حفظاً للعدل بينهن، ولم يقم عند عائشة إلا بإذن منهن جميعاً وبرضاهن.

فأي تعبير عن انسانية الاسلام وأخلاق نبي الاسلام ومثاليتها في تعدد الزوجات أبلغ من هذا؟. ومع كل هذا فأي عظمة تلك التي كان ﷺ عليها؟. يربي أمة لم تشهد الدنيا لها من قبل مثيلاً، ويحارب أعداء يخوض ضدهم عديداً من المعارك ،ويتهجد نافلة من الليل عابداً ربه خاشعاً أمام جلال عظمته، ويحفظ قرآناً يعلمه الناس.

ثم يقوم بعد هذا كله بواجبه نحو زوجاته خير قيام رغم أنه كان عند بداية التعدد قد جاوز الخمسين من

العمر ونحن اليوم نقرأ ما في التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجداني ولا الجمود العاطفي. آمنت به زوجاته رسولا، وأعجبن به بطلا، وعاشرنه زوجاً، وشاركن في حياته قائداً وزعيماً.[1]

(١) بنت الشاطىء في (نساء النبي ص ١٩، ٢٥ نقل الدكتور العطار المصدر السابق ص ١٥٧، ١٥٨.

المبحث الثاني

الهدف من وراء الحملات العدائية ضد الاسلام في قضية التعدد

لا شك في أن لهذه الحملات العدائية التي يشنها أعداء الاسلام من المستشرقين والمبشرين المحترفين ضد الاسلام ونبيه في قضية تعدد الزوجات - كشأن أي قضية يهاجمون فيها الاسلام - أهدافاً مرسومة طبقاً لمخطط معد اعداداً دقيقاً، تعاون على اعداده أخصائيون في الكيد والمكر من الصليبيين والصهاينة الحاقدين على الاسلام وبني الاسلام.

★ ونستطيع أن نجمل هذه الأهداف في خمسة أمور على النحو التالي:

١ - اعلان الحرب النفسية والاجتماعية على البلاد الاسلامية:

إن أكثر الذين يهاجمون الاسلام ونبيه في قضية تعدد الزوجات يرمون إلى محاربة البلاد الاسلامية حرباً نفسية

وثقافية واجتماعية ضمن المخطط الموضوع لحرب المسلمين بشتى الوسائل: نفسياً وثقافياً واقتصادياً وعسكرياً، ليقضوا عليهم قضاء نهائياً، تنفيساً عما يتأجج في صدورهم من نيران الحقد الدفين والعداوة الموروثة للاسلام ونبيه.

يقول الدكتور العطار في (تعدد الزوجات ص ٢٠١، ٢٠٢) ما نصه: إن الحرب في العالم الاسلامي دائمة تدور رحاها كل يوم بين الحق والباطل، ولم تصبح الحرب الآن، معركة عسكرية فحسب. بل يشن الأعداء على العالم الاسلامي يوميا حرباً نفسية وثقافية واقتصادية بل وعسكرية في بعض الظروف، يختارون مكانها وزمانها في أحد أجزاء العالم الاسلامي. ولا تكاد دولة اسلامية تفيق لنفسها، وتعوض ما فقدته من رجالها وأبطالها حتى يبدأوا جولة أخرى عليها.

وما الهجوم على نظام تعدد الزوجات إلا معركة من المعارك النفسية والثقافية والاجتماعية بين الاسلام، وأعدائه.

يريدون أن يشككوا المسلمين في دينهم ونبيهم ليردوهم عن دينهم إن استطاعوا بما يحدثونه باتهاماتهم للاسلام ونبيه من بلبلة وتشويش في نفوس الجهلاء وضعفاء الايمان من المفتونين بالغرب وحضارته. إنهم درسوا حياة صاحب

الرسالة الاسلامية دراسة عميقة فبهرهم ما فيها من دلائل النبوة وبراهين الحق ،فأخذوا يتلمسون أي فجوة يدسون فيها سمومهم ويوجهون منها سهامهم إلى الاسلام مباشرة أو إليه في شخص نبيه لزعزعة ايمان المسلمين بصدق نبيهم.

وتوهموا أن قضية تعدد الزوجات في الاسلام بوجه عام وتعدد زوجات الرسول بوجه خاص منفذ لهم إلى نفوس المسلمين ليثيروا فيها على الأقل الشك في نبيهم وما جاء به عن رب العالمين إذا لم يستطيعوا أن ينصِّروهم.

٢ - القضاء على عناصر القوة لدى المسلمين:

وكثير منهم يستهدفون من وراء حملاتهم ضد الاسلام ونبيه في قضية التعدد القضاء على عناصر القوة لدى المسلمين.

فحين يهاجمون نظام تعدد الزوجات في الاسلام يعلمون تمام العلم أن نجاة البلاد الاسلامية من الكوارث التي حلت ببلادهم إنما هو بسبب نظام الاسلام الحكيم في تعدد الزوجات ،حيث تحتضن الحياة الزوجية في بلاد المسلمين نساءهم فلا لقطاء ولا عوانس، ولا تشريد ولا اذلال، ولا تفكك ولا انحلال، وإنما مجتمع قوي اللبنات وثيق العرى، محكم البناء متين الأخلاق.

وهذه كلها عناصر قوة يرجع الفضل فيها إلى نظام الاسلام في تعدد الزوجات وعلى العكس من ذلك يرون بلادهم قد ذهبت ضحية نظام الزوجة الواحدة حيث تحول مجتمعهم بسبب هذا النظام الفاشل إلى مجتمع تعددت فيه الخليلات والعشيقات ضرورة كثرة عدد النساء اللائي لا بعولة لهن. فما دام تعدد الحليلات محظوراً، فليحل محله تعدد الخليلات، وليكن بعد ذلك ما يكون من أضرار خلقية واجتماعية وصحية واقتصادية وعسكرية فتكت بهم فتكاً ذريعاً وما زالت تفت في عضدهم وتنخر في عظامهم حتى يسقطوا سقطة لا قومة بعدها. وقد رأوا فرنسا وكيف ركعت على الأقدام في الحروب الأخيرة التي خاضتها، فلما رأوا عناصر القوة في بلاد المسلمين بفضل تعدد الزوجات على طريقة الاسلام وعوامل الهلاك والدمار في بلادهم بسبب نظام الزوجة الواحدة الذي أدى إلى تعدد العاهرات والبغايا، ورأوا أن الداء قد استشرى ولا أمل في علاجه وأصبحوا يتوقعون ما لا يحبون، وهو أن تدول دولتهم ويعود الحق إلى نصابه، وتعطى القوس باريها، أخذوا يضربون ضرباتهم المحمومة ويوجهون حملاتهم المسعورة ضد نظام التعدد في الاسلام؛ لنقع فيما وقعوا فيه، وليصيبنا مثل الذي ، وليتحكم فينا الداء الذي تحكم فيهم -ونكون كلنا في الهم

سواء مع بقاء تفوقهم علينا مادياً، فتبقى لهم السيادة علينا ونظل لهم عملاء وعبيداً إلى الأبد، وهم كذلك حين يوجهون طعناتهم إلى أخلاق النبي باتهامه أنه رجل شهواني غارق في لذات جسده - مع أن أكثر زوجاته التسع عجائز وأمهات أيتام ولم يشتهرن بجمال، وهناك في أنبياء اسرائيل من جمع المئات من الزوجات الأبكار والجواري الحسان ولم يهاجموا واحداً منهم.

أقول: إنهم حين يطعنون النبي في أخلاقه فإنما يطعنون الاسلام في شخصه لأنهم إن شككوا المسلمين في صدق نبيهم تم لهم ما أرادوا من القضاء على الاسلام وعلى القرآن الذي يمد أتباعه بجذوة متقدة من الحماس المتدفق للجهاد في سبيل الله، وتقويض عروش الظلم والفساد والاستبداد، ونقل الناس من جور الأديان إلى عدل الاسلام، ومن ظلمات الالحاد إلى نور اليقين والايمان ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

وهذا الذي يخشونه ومن أجله قاموا بحملاتهم ضد الاسلام ونبيه فإن لم يستطيعوا تنصير المسلمين فعلى الأقل يشككونهم في دينهم وحسبهم ذلك للقضاء على الجبهة الاسلامية التي تزعجهم وتقض مضاجعهم.

إنهم يخافون أن ينتفض العملاق الاسلامي من جديد ما دامت عناصر القوة تجري في دمه وفي عروقه فيزلزل بنيانهم،

ويدك حصونهم، ويحطم عروشهم ويقضي على باطلهم بحقه، وعلى ظلمهم بعدله، وعلى رجسهم بطهره وعفته، وعلى ظلماتهم بنوره وضيائه.

إنهم في الوقت الذي يهاجموننا فيه ليحملونا على نظام الزوجة الواحدة لاضعافنا وتحطيمنا مادياً ومعنوياً تحشر الصهاينة في الأرض المحتلة من فلسطين عشرات الألوف من يهود العالم لأغراض سياسية عدوانية لا تخفى على أغبى الأغبياء فضلاً عن عاقل رشيد. أليس كذلك؟

ألا ليت قومي يعلمون بما يكيد لهم أعداؤهم سراً وعلانية، وما يخططونه لهم من تدمير واهلاك وقضاء على ما بقي فيهم من عناصر القوة بإشاعة الفساد والفوضى الجنسية في بلادهم.

وكم يحز في النفس أن نرى الفحشاء تطل بوجهها القبيح، والحياء يتقلص تدريجياً من أرضه في بلاد اسلامية تأثرت إلى حد ما بتلك الصيحات المشؤومة، الداعية إلى تحريم تعدد الزوجات أو تقييده على لسان ببغاوات بشرية محسوبة على الاسلام والمسلمين تردد ما يقوله العدو وتنفذ مخططه الشيطاني، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي عدوهم عن حسن نية أو سوء نية، فتأثر كثير من رجال المسلمين بهذه الدعايات الهادفة وأحجموا عن التعدد وهم قادرون عليه

فكانت النتيجة الحتمية كثرة عدد النساء اللائي لابعولة لهن، وبالتالي أطلت الفحشاء بوجهها القذر ورائحتها النتنة تفوح رويداً رويداً في الوقت الذي ينادي فيه مفكرو الغرب وعقلاؤهم بلادهم بأن يقلدوا المسلمين في نظام تعدد الزوجات حيث لا حل لمشكلاتهم إلا بتعددالزوجات، ولكن ما زال والحمد لله - في البلاد الاسلامية بقية من الحياء والدين والخلق ولم تصل إلى الدرك الذي وصلت إليه البلاد الغربية لأنهم لم ينجحوا كل النجاح في تنفيذ مخططهم، ولكنهم ما زالوا يحاولون لتحقيق هدفهم كاملاً ما دامت عناصر القوة متوفرة في بلاد الاسلام بفضل تعدد الزوجات حيث تنمو وتترعرع في رحابه الطهور قوى البناء والتعمير، بينما تنمو وتنتفج قوى التخريب والتدمير في بؤر الفساد ومستنقعات البغاء والفسق.

فالأمل بعد لم يزل قوياً في أن تسترد البلاد الاسلامية مجدها المفقود وعزتها المسلوبة بفضل استمساكها بدينها وايمانها بربها ونبيها.

هذا وقد يربط قصار النظر المفتونون بالغرب بين قوته المادية وتفوقه الحضاري وانغماسهم في وحل الرذائل والفوضى الجنسية ويعزون ذلك إلى تحطيم الأغلال والقيود الدينية التي كانت مضروبة على المرأة والرجل سواء، وإن

الفساد الذي غرق فيه الغرب إلى أذقانه ما هو إلا مظهر من مظاهر التقدمية والحضارة الغربية وما هو في الحقيقة والواقع إلا معول هدم وأداة تخريب يشهد به واقعهم ويؤيده عقلاؤهم وكتابهم بالاجماع، ولا بد أن تتحقق سنة الله ولو بعد حين، ما لم تتدارك أمرها وتجتث جذور الفساد من أرضها بإباحة الحليلات وتحريم الخليلات.

ويقول صاحب الحجاب ص ٨٩، ٩٠ مشيراً إلى هذه الحقيقة في واقع العالم الغربي الذي يبدو في ظاهره قوياً متقدماً ولكنه في الواقع يهوي إلى الهلاك والدمار والخراب بسبب ما تفشى بينهم من أسبابه ودواعيه فيقول ما نصه:

وهذه الأمم المتدرجة الى الزوال القائمة على شفا حفرة من النار اذا شاهدها الناس في ظاهر السلطة والشوكة فيستنتجون أن انهاكها في الملاهي واللذات ليس بمانعها من الرقي بل هو عون لها عليه، وأن الأمم تكون في أعلى مجدها وأزهى رقيها أمعن ما تكون في الأهواء والشهوات. ولكنهم ساء ما يحكمون وما يستنتجون، اذ أن قوى التعمير وقوى التخريب اذا كانت في أمة في الوقت الواحد وكان جانب التعمير هو الغالب في أعمالها ونشاطها فمن السخف والحماقة أن تعد قوى التخريب أيضاً من أسباب تعميرها.

فمثل هذه الأمة كمثل تاجر بارع في مهنته، يكتسب ملايـين بفضل ذكائه واجتهاده وتجربته، وهو مع ذلك يسترسل في شرب الخمر والمقامرة والقصف.

فمن أكبر الخطأ أن نعد كلا هذين الوجهين المتعارضين في حياته من أسباب رفاهته ورقيه. والحق أن الجملة الأولى من صفاته هي السبب في تعمير كيانه والجملة الأخرى من صفاته هي عاملة على تخريبه، فاذا كان كيانه ثابتاً بفضل قوة الصفات الأولى فليس معناه أن الصفات الأخرى ليست بفاعلة فعلها التخريبي في الكيان.

بل اذا دققت النظر وسبرت غور الأمر بدا لك أن تلك القوى المدمرة المخربة لا تزال تنتقص مما أودعه من قوى العقل والجسد. وتأكل من ثروته التي قد اكتسبها بكد يمينه، وتستدرجه إلى البوار وتتحين في الوقت نفسه فرصة الايقاع به دفعة واحدة.

فشيطان المقامرة الغالب عليه قد يفني ثروته المدخرة في ساعة واحدة من أشأم ساعات حياته وهو يتربص به الدائرة في كل حين.

وشيطان الخمر المتمكن منه قد يركب به زللا في حالة نشوة فيتركه صفر اليدين وهو أيضاً له بالمرصاد، وكذلك

شيطان الدعارة والفجور لا يزال ينتظر الفرصة ليدفعه إلى القتل أو مهلكة أخرى تفجوءه، وأنت لا تستطيع أن تقدر ماذا كان مبلغ رقي هذا التاجر وتحسن حاله لو لم يكن واقعاً في براثن تلك الشياطين، قس على هذا كله حال أمة من الأمم، فانها في بادىء أمرها تصعد في مدارج الرقي بفضل ما فيها من قوى التعمير والانشاء.. إلى أن يقول: صحيح أنها لا تزال إلى مدة من الزمان تمضي قدماً بدافع ما تملكه من قوى التعمير والانشاء؛ ولكن عوامل الفساد والتخريب لا تنفك في الوقت نفسه تأكل من قوة حياتها من الداخل حتى تجوف بنيانها وتضعف كيانها إلى حد أن تهدمه صدمة من صدمات الدهر. اهـ.

وقد ذكرنا في الفصول السابقة أمثلة من واقع حياة البلاد الغربية تؤيد هذا وتؤكده وكيف آل أمر فرنسا إلى أن تركع على الأقدام في الحروب الأخيرة التي خاضتها.

٣ - حرمان المرأة من فرص الحياة الزوجية النظيفة وتسخيرها لشهواتهم البهيمية:

ومنهم من يهدف من وراء حملاته ضد الاسلام في قضية تعدد الزوجات إلى حرمان المرأة من فرص الحياة الزوجية النظيفة وتسخيرها لشهواتهم الدنيئة، ولكي تظل كلأ مباحاً

للفساق والفجرة فلا زوج يغار عليها ويحميها ولا مأوى يعصمها من مخالبهم، ويتهيأ المناخ الملائم لانتشار الفواحش وانطلاق الغرائز الجنسية من عقالها والعمل على توفير الحوافز إلى فوضى العلاقات الجنسية، فيرتعون فيها رتع البهائم، ويلغون في دماء الأعراض ولوغ الكلاب وينغمسون في اللذات الحسية والمتع الجسدية إلى أذقانهم، ويسلمون قيادهم لشهوات النفس العارمة في ظل تعدد الخليلات حيث لا تجد ذكور البهائم البشرية اناثاً من جنسها في ظل تعدد الحليلات على نظام الاسلام الطاهر النظيف تقضي منها وطرها الدنيء الخسيس، ولكيلا يكونوا موضعاً للنقد والتقريع، فانهم يوارون هذه المخازي الخلقية وراء أقنعة مزيفة ويلبسونها قوالب خادعة، وينحتون لها أسماء مغرية كالفن، والحضارة، والتقدمية بينما يسمون العفة والحشمة والوقار يسمونها الرجعية.

ثم يتفننون في اثارة الغرائز الدنيا بكل ما يملكون من وسائل اعلامية وغير اعلامية حتى يختلط الحابل بالنابل، ويتمزق ثوب العفة والحياء على الملأ، ويصبح الاتصال بين الجنسين على طريقة الحمر والكلاب، وهذا هو واقع الغرب اليوم حتى وثب الأب على ابنته والأخ على أخته دون حياء أو خجل، وهذا هو الذي يريدونه لبلاد الاسلام في حملاتهم العدوانية

لأنهم لا يطيقون حياة الطهارة والعفة. انهم يختنقون في الأجواء النقية النظيفة ولا يستطيعون أن يعيشوا إلا في المستنقعات الموبوءة كالحشرات والجراثيم الوبائية.

لذلك تراهم يجتهدون في تحويل المجتمع النسائي كله إلى مومسات عاهرات، وهكذا شأن المفسدين في الأرض ودعاة الاباحية والانطلاق الجنسي الحيواني في كل عصر وفي كل بلد.

يستمرئون حياة القذارة والفساد ويضيقون ذرعاً بحياة الطهارة والعفاف. ألا ترى قوم لوط كيف قال بعضهم لبعض: ﴿أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾؟!

انهم لم يطيقوا رؤية المتطهرين المتعففين فتنادوا بطردهم ونفيهم حتى لا يسمعوا صوتاً ينتقدهم أو يعترض عليهم.

فما أشبه هؤلاء بأولئك!! انهم يريدونها حياة بهيمية رجسة لا حياة انسانية كريمة. يريدون حياة التهتك والتخنث واراقة دماء الأعراض في مسارح الرقص والغناء ومجالس السكر والعربدة، ويضحكون على المرأة بايهامها بأنهم أنصارها وطلاب حريتها وانقاذها من ظلم الاسلام وهم الذين داسوا على كرامتها بأقدامهم النجسة.

٤ - التعصب لدينهم والاغترار بما لديهم:

ومنهم المتعصبون الذين أعماهم تعصبهم عن رؤية الحق، وأصمهم عن سماع صوته، وأخرسهم عن النطق به، وملأهم غروراً بما لديهم من زيف وباطل افتراه آباؤهم ثم قالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا، فظن هؤلاء أنه الحق وما عداه باطل فأخذوا يهرفون بما لا يعرفون، يسمون الحق باطلا والباطل حقاً، يمدحون السفاح ويذمون النكاح، يقرون الخلائل وينكرون الحلائل. يتهمون نبي الطهر والعفة والحياء والخلق العظيم يتهمونه بما يستحق عليه المدح والثناء فيقولون عنه: إنه رجل شهواني غارق في لذات جسده. لماذ؟ لأنه تزوج تسع زوجات ليس فيهن بكر إلا واحدة والباقيات أكثرهن عجائز وأمهات أيتام ولم يعرفن بجاذبية ولا جمال، ولا يتهمون أنبياء بني اسرائيل بمثل ما اتهموا به محمداً مع أن بعضهم جمع المئات من الأبكار والجواري الحسان كما هو وارد في كتبهم؛ فأي تعصب أشد من هذا؟ إنهم حين يطعنون محمداً في أخلاقه فإن الواقع يكذبهم والحق يبصق في وجوههم وأسنة الاتهام التي يصوبونها إلى محمد ترتد في نحورهم وتصيب مقاتلهم.

٥ - استغلال المرأة واتخاذها سلعة للتجارة.

ومنهم من يهدف من وراء حملاته العدائية ضد الاسلام

ونبيه في قضية تعدد الزوجات إلى رواج البغاء - وانتشار الفسق والدعارة في البلاد ليستغل المرأة ويتخذها سلعة للتجارة وجلب الأرزاق، مهدراً كرامتها غير مبال بما يلحقها من ذلة ومهانة، وقد أسلفنا القول في هذا مؤيداً بأقوال كتابهم ومفكريهم. فهم يتخذون اسم تحرير المرأة وتخليصها من ظلم الاسلام وتحطيم الأغلال والقيود المكبلة بها شعاراً مزيفاً لاستغلالها كما تستغل سلع التجارة من خراف ودواب، بل أسوأ من ذلك وأخس، وطبيعي أنهم ليس لهم على المرأة من سلطان إذا كانت تعيش في كنف زوج مسلم غيور يحميها من الذئاب العادية، ويحافظ على كرامتها أن تمس، وعلى حيائها أن يرمى في الشوارع أو يقذف أو يدس في التراب أو يمسك على هون، مختصراً ذليلا وشراً وبيلا وعبئاً على المجتمع ثقيلاً.

★ كيف ننتصر على هؤلاء الأعداء؟

هؤلاء حقاً هم أعداء الله ورسوله ودينه بل وأعداء المرأة التي يتبجحون بأنهم أنصارها والمدافعون عن حريتها وكرامتها، بل هم أعداء الانسانية كلها وأعداء أنفسهم لأنهم يوردونها موارد الهلكة والخسران، وطريق الخلاص منهم والانتصار عليهم هو الايمان بالله حق الايمان ومواجهة الرأي

العام بالأبحاث العلمية المستمدة من حقائق الاسلام ومصادره الوثيقة.

وبذلك يستطيع العالم الاسلامي أن يمسك بزمام المبادرة بل ويستطيع أن يؤدي رسالته المنوطة بعنق كل مسلم مخلص لدينه وربه، وهي محاربة الفساد والنظم المنحرفة في كل أنحاء العالم، وتطهير البلاد من وباء الدعارة وجرائم البغاء والفسق، ولاسيما في هذا العصر الذي تنبه فيه عقلاء الغرب ومفكروه إلى الخطر الداهم الذي حاق ببلادهم وإلى مدى الهوة السحيقة التي يوشكون أن يسقطوا فيها ويسدل عليهم ستار النسيان إلى الأبد.

فإن العالم اليوم على استعداد أن يستمع ويستجيب إلى صيحة الاسلام اذا انطلقت بها حناجر مؤمنة وألسنة مخلصة بأسلوب علمي مدروس، وتخطيط منظم على نسق الأسلوب الذي يستخدمه أعداء الاسلام ضد الاسلام إلا أن أعداء الاسلام يدعون إلى باطل ليقيموه على انقاض الحق، والاسلام يدعو إلى حق ليقيمه على انقاض الباطل.

فشتان بين الفريقين! فيا ليت المسلمين يعملون ليعلم الناس أنهم حينما كانوا يحاربون الاسلام فإنما كانوا على أنفسهم ومجتمعهم يجنون، وللمرأة ظالمين. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل....


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

البحث التاسع

كلمة موجهة إلى المستشرقين والمستغربين الذين يتطاولون على شريعة الله ونبيه وبعد: فالى المستشرقين والمستغربين المحترفين.

اني لا أقول لكم: اتقوا الله فإنكم لا تعرفون الله، ولا أقول لكم: ألا تستحون؟

لأن من كانت بلاده كبلادكم تعج بالفساد ويجتاحها طوفان الدعارة والفسق، وتداس فيها كرامة المرأة، ثم هو بعد ذلك يتبجح في دين الله وأخلاق نبيه باسم تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها وكرامتها. لا يمكن أن يعرف للحياء معنى أو يتذوق له طعماً.

ولكني أقول لكم: على رسلكم لقد أعماكم التعصب البغيض فأنتم لا تبصرون، وأصمكم فأنتم لا تسمعون، وجعل في قلوبكم أكنة فأنتم لا تفقهون.

على رسلكم يا هؤلاء أين تذهبون؟

هذه هي حياة محمد، فأروني نبياً كمحمد في قوة زهده، وشدة ورعه، ومدى استعلائه على شهوات الدنيا وزينتها إن كنتم صادقين.

أنقمتم عليه أن آوى في كنفه تسع زوجات لم يجمع بينهن إلا وهو في سن الشيخوخة وليس فيهن بكر إلا واحدة تزوجها صغيرة لا تشتهى وجلهن مكتهلات عائلات ثيبات وأمهات أيتام؟

أنقمتم عليه أن آواهن مع أولادهن إلى كنفه ليكون للأيتام أباً بدل أبيهم الذي فقدوه، وللمرأة بعلا بدل بعلها الذي فجعت فيه حفاظاً على كرامتها أن تهان وعلى دينها أن تفتن فيه؟ إن كنتم نقمتم على محمد أن جمع تسع عجائز في شيخوخته فهل نقمتم أيضاً على نبي الله داود أن جمع في عصمته مائة زوجة؟

وهل نقمتم أيضاً على نبي الله سليمان أن جمع سبعمائة زوجة من الحرائر وثلاثمائة من الجواري وكن أجمل أهل زمانهن كما جاء في كتبكم.؟

كنا نظن أن توجهوا نقدكم وطعنكم إلى نظام بلادكم وتدعوها للأخذ بنظام الاسلام كما فعل العقلاء من كتابكم ومفكريكم؟

لا أقول لكم: اتقوا الله فانكم لا تعرفون الله.

ولا أقول لكم: استحوا فانكم أيضاً لا تعرفون الحياء.

ولكن أقول لكم: على رسلكم. أين تذهبون؟

هذه كنائسكم تحل لكم ما تشاء وتحرم ما تشاء، وقد اتخذتموها أربابا من دون الله. ها هي ذي تحل لكم عمل قوم لوط وتبرم عقود زواج بين الذكران من العالمين باسم الدين.

وجهوا طعناتكم حيث تصيب مقتلا.

لا أقول لكم: اتقوا الله فانكم لا تعرفون الله.

ولا أقول لكم: استحوا فانكم لا تعرفون الحياء.

ولكن أقول: على رسلكم يا هؤلاء أين تذهبون.

أربعوا على أنفسكم فان أي سهم تصوبونه الى الاسلام ونبيه مردود إلى نحوركم. أرأيتم لو أن انساناً تجلله القاذورات من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وقد مشى في الطريق يتقاطر الوسخ والقذر من فمه وعينيه وجميع أجزاء جسمه ومع هذا يقول لكل نظيف طاهر رآه: أنت وسخ وقذر.

فماذا يفهم الناس من قوله وحاله كما ذكرنا؟ أحد أمرين: إما أن يقولوا: اعذروه لأن كلمة (وسخ) في قاموس بلاده معناها (نظيف) وكلمة (نظيف) معناها (وسخ).

ولا بأس بهذا فإن العبرة بالمسميات لا بالاسماء . وما دام قاموس بلادهم يلبس الحق ثوب الباطل ويلبس الباطل ثوب الحق، فقد فهم اذن المراد من قولهم في محمد: انه رجل شهواني غارق في لذات جسده . فالمعنى على هذا أن محمداً نبي عفيف طاهر غارق في لذات روحه المتصلة دائماً بالحقيقة الأزلية العليا، وهذا هو الحق .

ولذلك أقول لكم: أعيدوا النظر في قاموسكم وألبسوا كل معنى فيه ثوبه الخاص به تستقم ألسنتكم وأقلامكم ويثق الناس بما تقولون وما تكتبون .

وأما أنتم أيها المستغربون من أبناء الشرق المحسوبون على الاسلام والمسلمين فلا أدري كيف رضيتم لأنفسكم ما لا يرضاه عاقل لنفسه؟ وأبيتم إلا أن تكونوا ببغاوات تردد ما لا تفقه وتهرف بما لا تعرف؟

لا أدري كيف فتنتم بالغرب حتى ربطتم بين حضارته وسفاحه ونزواته .؟ واذا كان عقلاء الغرب أنفسهم يدعون بلادهم إلى الأخذ بنظام الاسلام في تعدد الزوجات ليتداركوها بالانقاذ قبل أن تصبح أثراً بعد عين .

فلا أدري لماذا تبغون ببلادكم شراً يتمنى الغرب الخلاص منه فلا يستطيع؟

لا أدري كيف رضيتم أن تكونوا معاول في أيدي عدوكم يهدم بكم بنيانكم ويقضي على تراثكم بأيديكم لتبقى لهم السيادة علينا إلى الأبد؟

نسأل الله أن يهديكم للذي هو خير أو أن يقي الاسلام والمسلمين شركم.

والسلام على من اتبع الهدى. ...

عبد التواب هيكل



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

ملخص البحث

الموضوع

تعـدد الزوجـات في الاسلام وتعـدد زوجـات الرسولﷺ الى التسع

بعد المقدمة تناول البحث سبعة بنود هي:

أ - الزوجية في الاسلام:

الاسلام نظام أسرة فالناس جميعاً يرجعون عقيدياً إلى رب واحد ونسبا إلى نفس واحدة وكان من مظاهر عنايته بها.

أن أضفى عليها معنى جميلابقوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ وبقوله: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾... مستهدفاً انشاء كيان عائلي موصول النسب محكم الوشائج.

٢) ولأجل حمايتها ركز على هدفين: الوقاية من الغواية، وتكوين محضن صالح تربى فيه الفراخ على أفضل الأسس وأقومها.
٣) كما وضع لها من التشريعات الحكيمة ما يقضي على جذور الخلاف ويضمن لها الاستقرار والاستمرار.

ب ـ حكم تعدد الزوجات في الاسلام:

فيه ستة آراء مستنبطة من الآيتين ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ وهذه الآراء الستة هي:

١) تحريم التعدد تحريماً مطلقاً
٢) تحريمه ما لم تدع إليه ضرورة
٣) اباحته بدون حد
٤) اباحته إلى ثماني عشرة
٥) اباحته إلى تسع.

وهذه الآراء الخمسة كلها باطلة والرأي الذي صرحت به الآية الأولى وأيدته السنة وأجمعت عليه الأمة هو:

٦) اباحة التعدد إلى أربع فقط.

والمعنى المختار للآية الأولى وإن تحرجتم من ولاية اليتامى خوفاً من ظلمهم في أموالهم فأولى بكم أن تتحرجوا من ظلم آخر شنيع يضطركم إليه الاكثار من الزوجات بدون حد،فلا يحل لكم أن تجمعوا بين أكثر من أربع ،ولكم الخيار فيما دون ذلك فمن شاء تزوج اثنتين ومن شاء أربعاً على أن تعدلوا،فمن خاف ظلماً بزواج اثنتين فليقتصر على واحدة وقيد الخوف من الظلم قيد ديني لا قضائي.

وأما الآية الثانية ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم الخ...﴾ فهي لبيان استحالة العدل في الحب. وهذا العدل رفع عنه القلم،وقد اعتذر النبي عن ميله إلى عائشة فقال بعد أن عدل بين زوجاته فيما عدا العاطفة:(اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك.)

ج - هل الاسلام هو أول شريعة أقرت نظام تعدد الزوجات؟

لم ينشيء الاسلام التعدد لأنه كان مباحاً وشائعاً في العالمين، ولا علاقة البتة للدين المسيحي في أصوله بتحريم التعدد، ولا يزال التعدد شائعاً في بلاد غير اسلامية،وليس ثمةارتباط بين التعدد والتأخر الحضاري

بشهادة الواقع التاريخي.

وكل الذي أحدثه الاسلام في التعدد أنه قيده كما (بأربع) وكيفا (بالعدل) وبهذا تسقط الحملة التي يشنها أعداء الاسلام ضده بأنه هو الذي جاء بنظام التعدد، وأنه مقصور على البلاد الاسلامية، وأن الدين المسيحي يحرمه، وأنه مرتبط بالتأخر الحضاري وجوداً أو عدما.

د - الدوافع التي جعلت الاسلام يكتفي بتقييد التعدد دون تحريمه:

لا شك أن في تحريم التعدد أضرار بالغة لا علاج لها تتعرض لها المرأة والأسرة والمجتمع؛ في حين أنه يمكن تفادي أضرار التعدد بتطبيق تعاليم الاسلام وشروطه. لذلك اكتفى الاسلام بتقييد التعدد ولم يحرمه.

والأسباب الملجئة إلى التعدد كثيرة.

بعضها راجع الى الزوجة كمرض أو عاهة. وبعضها راجع إلى الرجل كقوة عارمة في غريزته الجنسية، أو رغبة في كثرة النسل، أو نفور شديد من زوجته، أو عاطفة تشده نحو امرأة أخرى لا يملك دفعها إلا بأحد أمرين: السفاح: أو النكاح. وبعضها أسباب خلقية كأزمات تجتاح الرجال فتختل نسبة التوازن بين الجنسين،

أو امرأة تأيمت عن أطفال صغار ولا كفيل لهم، أو زوجـة أخ له مات وترك أيتاماً ضعافاً. وبعضها أسباب اقتصادية كما يحدث في البيئات الزراعية من قيام الزوجات والأولاد بمعونة رب العائلة في أعماله، وبعضها أسباب عارضة كرجل اقتضت أعماله كثرة الأسفار مع تعذر مرافقة أهله وقد خشي على نفسه الفتنة. والخلاصة أن تعدد الزوجات على طريقة الاسلام رحمة للعباد ونعمة لأنه يحفظ للبيت أمنه وتماسكه واستقراره. ويصون المرأة والأولاد والمجتمع من أضرار ماحقة، كما يحفظ المرأة من أمراض الزنى التي تنتقل إليها من زوجها الذي سد في وجهه طريق الزواج فسلك طريق الزنى.

هـ - الشبهات التي يثيرها المستشرقون وأذنابهم حول اباحة الاسلام تعدد الزوجات وردها:

١) أن في اباحة التعدد مسايرة للرجال في شهواتهم الجنسية. وهذا ليس بصحيح لأن نظام الاسلام في التعدد نظام أخلاقي انساني قبل أن يكون اشباعاً لرغبة جنسية وشهد بذلك شاهد منهم.

٢) وأن فيه اهداراً لكرامة المرأة واجحافاً بحقوقها. وهذا

منطق معكوس لأن الزوجة الثانية امرأة يجب المحافظة على كرامتها هي الأخرى، ولن يضير الأولى أن تكون مع الثانية كل منهما ربة بيت مستقلة في ظل حياة زوجية مشتركة.

٣) وأن فيه اعتداء على مبدأ المساواة بين الجنسين. وما أسخف هذا القول وما أجهل قائله بطبيعة كل من الرجل والمرأة!!

فتعدد الأزواج للمرأة يترتب عليه ضياع نسبة الولد وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الرجل الذي يعدد زوجاته. هذا ومن المقرر في جميع شرائع العالم أن الرجل رئيس الأسرة فلمن تكون رئاسة الأسرة لو عددت المرأة أزواجها؟

٤) وأن التعدد مجال للنزاع الدائم وسبب لتشريد الأولاد.

والجواب عليه: كم من ضرائر يعشن في مودة واستقرار وبجوارهن أخوات أو نساء مع أحمائهن أو رجال أحمائهم يعيشون في نزاع وشقاق فالعبرة بالتربية الدينية والأخلاقية.

٥) وأن تعدد الزوجات مدعاة لكثرة النسل.

وجوابنا عليه الترحيب بكثرة النسل لكل أمة

مسلمة تنفض عن نفسها غبار الذل وتستعد ليوم الخلاص أو تنهض نهضةً تفوق عدد العاملين فيها.

٦) وأنه نظام لا يتناسب مع عصر نالت فيه المرأة حقوقها لأنه نظام بدائي وقد أثبت الواقع التاريخي عكس هذا.

و - أي النظامين أحق بالطعن: التعدد الاسلامي النظيف أم التعدد الغربي القذر؟

والجواب على هذا هو ما أجمع عليه مفكروهم وكتابهم من ضرورة الأخذ بنظام التعدد حلاً للمشكلات والأخطار التي تنذر بالقضاء على بلادهم.

ز - حكمة تعدد زوجات الرسول ﷺ فوق الأربع ورد شبهات المعتدين

طعن بعض المستشرقين والمبشرين نبي الله محمداً ﷺ في أخلاقه بأنه رجل شهواني وهو الذي شهد له ربه بأنه على خلق عظيم، والواقع التاريخي من حياته ﷺ يكذب هذا سواء حياته قبل الهجرة أم بعدها.

١) فأما حياته قبل الهجرة (وتشمل ما قبل النبوة والأعوام الثلاثة عشر الأولى منها).

١ - فقد نشأ ﷺ طاهراً صادقاً أميناً حتى لقب بالصادق الأمين.

٢ -لم يهم بشيء في حياته مما يهم به الشباب من السمر وسماع الغناء إلا مرتين والله يحول بينه وبين ما يريد.

٣) ظل إلى الخامسة والعشرين من عمره (وهي أخطر مرحلة يمر بها الشباب) لم يذكر اسم الزواج على لسانه حتى فاجأته خديجة الثيب البالغة من العمر أربعين سنة بخطبته لنفسها لأنه الصادق الأمين،ولم يتزوج عليها حتى توفيت في الخامسة والستين من عمرها وقد جاوز هو الخمسين، ولو شاء - وهو الهاشمي القرشي - لتزوج ما أحب من أبكار الجزيرة العربية وحسناواتها.

وبعد موت خديجة ظل فترة لم يفاتح فيها أحداً بالزواج إلى أن فاتحته في ذلك امرأة مسلمة وخطبت له (سودة بنت زمعة) باذنه بعد أن تأيمت بموت زوجها وهي في سن يقارب الستين، فتزوجها خوفاً عليها من أذى قومها المشركين وفتنتهم اياها.

٤ -كان يهجر فراش خديجة - زوجته الحبيبة - ويأوي إلى غار حراء الليالي ذوات العدد يناجي ربه ويسبح بروحه في الملكوت الأعلى حتى أكرمه الله بالنبوة.

٥ -عرض عليه سادة مكة الملك والمال والجاه على أن يدعهم ودينهم فأبى،ولو شاء لكان ملكاً متوجاً تمتلىء

قصوره بالأبكار والجواري الحسان، ولكنه آثر حياة الفقر وتعذيب المستضعفين من أصحابه وقتلهم على حياة الملك والشهوات.

ب- وأما حياته بعد الهجرة (وهي السنوات العشر الأخيرة من عمره) التي عدد فيها زوجاته وهي الفترة التي تحول فيها جهاد المسلمين من الدفاع الى الهجوم، فكانت مشحونة بالحروب والغزوات فكثرت الأرامل والأيتام ومن هنا كان تعدد زوجاته ﷺ.

- ولو شاء ﷺ في هذه الفترة التي أتم الله له فيها النصر وبسط له السلطان على الجزيرة العربية وأغدقت عليه الأموال (فيئا من المشركين وزكاة وصدقة من المسلمين) أن يتخذ القصور وأن يحيا حياة الترف وأن يجمع ما شاء من الجواري والأبكار لفعل، ولكنه انتصر على الشهوات هذه الفترة انتصاره عليها في الفترة الأولى، فكان يوزع كل ما ملكت يداه على المحتاجين ثم ينام على حصير من ليف قد أثر في جنبه، ويعيش هو وزوجاته وأهله على نحو ما كان يعيش قبل أن يكون في يده مال ولا سلطان، حتى ضاقت أزواجه بهذه الحياة ذرعاً وطلبن منه زيادة النفقة وزينة الحياة الدنيا، فهجرهن شهراً ثم خيرهن بين الطلاق ويعطيهن ما طلبن

وأن يبقين معه على حياة الكفاف والتقشف، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ولم يتزوج بكراً إلا واحدة وأكثر زوجاته مكتهلات وأمهات أيتام ولم يعرفن بجمال.

هذا ولم يتهم محمداً أعداؤه المعاصرون له مع شدة حرصهم على طعنه وتجريحه بمثل هذه التهمة ولو بالباطل لأن حياته كانت أرفع من أن تصل إليها سهام الاتهام بالشهوات.

فكيف يتهمه اخوانهم بعد أربعة عشر قرناً بما لم يستطيعوه وهم معاصرون له؛ وقد كان ﷺ يخبر عن الله أنه لعن الذواقين من الرجال والذواقات من النساء؟

فما الحكمة اذن من تعدد زوجاته ﷺ؟

أولا: فيمايتعلق بتجاوزه الحد الأقصى لتعدد الزوجات (وهو الأربع) فهذه خصوصية له ﷺ قبل سريان حكم التقييد بما لا يزيد على أربع لسائر المسلمين وذلك لارتباطها بمصلحة الدعوة في ابانها.

والحقيقة الواضحة هي نزاهة تلك الخصوصية وخلوصها من شوائب الهوى النفسي لأن البيت الذي يشكو نساؤه قلة المؤنة لا يقال عنه أنه بيت رجل تملكه أهواء نفسه وتغلبه على رشده.

ثانياً: فيمايتعلق بالحكمة من زواجه ﷺ فان وراء كل زواج

تزوجـه دوافع انسانية أو أخلاقية أو سياسية أو اجتماعية ،وكلها ترجع إلى دافع واحد أساسي هو خدمة الدعوة التي عاش لها وبها منذ بعثته حتى توفاه الله. وإلى جانب هذا كان في كل زواج يرسم لأمته الطريق الأمثل لتعدد الزوجات.

هذا وقد ترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين ينشرن تعاليـم الاسلام وأحكامـه وخاصة ما يتعلق بالجانب الأسرى مما تستحي المرأة أن تسأل عنه الرجل تنفيذاً لأمر الله تعالى في قوله:﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ ولو أنه ترك زوجة واحدة ما أغنت في الأمة غناء التسع.

وقـد ضرب ﷺ أروع الأمثلة في العدل بين زوجاته حتى وهو في مرض موته اذ كان يحمل ويطاف به على بيوت زوجاته إلى أن أجمعن على الاذن له بالبقاء في بيت عائشة اشفاقاً عليه. وقد آمن به زوجاته رسولا. وأعجبن به بطلا ، وعاشرنه زوجاً ، وشاركن في حياته قائداً وزعيماً.

ج- الأهداف من هذه الحملات العدائية ضد الاسلام ونبيه في قضية تعدد الزوجات يمكن اجمالها في خمسة هي:

١) اعلان الحرب النفسية والاجتماعية والثقافية على البلاد الاسلامية ضمن المخطط المرسوم للقضاء عليها.

٢) القضاء على عناصر القوة لدى المسلمين لأنهم يعلمون أن الفضل في نجاة بلاد المسلمين من الكوارث التي حلت ببلادهم يرجع لحكمة نظام الاسلام في تعدد الزوجات.

٣) حرمان المرأة من فرص الحياة الزوجية لتسخيرها لشهواتهم الجنسية.

٤) التعصب لدينهم والاغترار بما عندهم من زيف وباطل افتراه آباؤهم ثم قالوا هذا من عند الله فظنوا أنه الحق.

٥) استغلال المرأة للتجارة بعرضهاوكرامتها ،ولا سبيل لهم إلى ذلك ما دامت المرأة تعيش في كنف زوج يغار عليها ويحميها من الذئاب العادية، ويحافظ على كرامتها أن تمس وعلى حيائها أن يخدش وعلى عرضها أن يراق في أسواق الدعارةوالبغاء ،وعلى حملها أن يدس في التراب أو يمسك على هون أو يرمى في الشوارع أو يقذف في

الملاجـىء ودور الأيتـام محتقراً ذليـلا وشرا عـلى الانسانية وبيلا وعبئاً على المجتمع ثقيلا .

ط- كلمةموجهة إلى المستشرقين والمستغربين:

أما كلمتي للمستشرقين فهي : إن كنتم نقمتم على محمـد ﷺ أن تزوج تسعاً ليس فيهن بكراً إلا واحدة تزوج بها صغيرة لا تشتهى وأكثرهن مكتهلات ثيبات وأمهات أيتام ولم يعرفن بجمال ولا مال ؛ فهل نقمتم كذلك على نبي الله داود أن جمع بين مائة زوجة.

أو على نبي الله سليمان أن جمع بين سبعمائة زوجة وثلاثماية جارية من أجمل أهل زمانهن؟ أليس من الأولى بكم أن توجهوا نقدكم إلى كنائسكم التي تبيح عمل قوم لوط وتباركـه وتعقـد عقود زواج باسم الدين بين الذكران من العالمين؟

وأما كلمتي للمستغربين فهي: كيف رضيتم لأنفسكم أن تكونوا ببغاوات تردد ما لا تفقه وتهرف بما لا تعرف؟

وأن تكونوا معاول هدم في أيدي عدوكم يهدم بكم بنيانكم ويقضي بأيديكم على دينكم وتراثكم؟

هداكم الله أو وقى المسلمين شركم...،

عبد التواب هيكل

بمركز الدعوة والارشاد بقطر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقترحات والتوصيات

الباحث: الشيخ عبد التواب هيكل.

البحث: ★ تعدد الزوجات في الاسلام.

★ وتعدد أزواج النبي ﷺ.

★ دراسة ودفع شبهات.

المقترحات والتوصيات:

١ - ابراز الجانب التشريعي الاسلامي للأسرة بالدراسة المقارنة مع رد الشبهات وتكون الدراسة في: الجانب التعليمي، وفي جانب تثقيف عامة الناس.

٢ - ابراز جانب زواج الرسول ﷺ وحكمة زواجه بكل واحدة من أمهات المؤمنين بدراسة مفصلة ومستقلة مع رد الشبهات.

٣ - متابعة ما يصدر من قوانين بشأن تنظيم الأسرة ودراسة مدى ملاءمتها لمنهج الكتاب والسنة.

مُشْكِل الحَديث
في
ضوء أصول التحديث
رِوَايةً ودِرَايةً

للدكتور سعد محمد محمد الشيخ المرصفي
« مصر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ». الاحزاب/٣٦

عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: « كل أمتي يدخلون الجنة الا من أبى » قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى » قال: « من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى ». رواه البخاري، فتح الباري ١٧ / ١١-١٢ قال سفيان الثوري:

سماع الحديث عز لمن اراد به الدنيا، ورشاد لمن أراد به الآخرة.

شرف أصحاب الحديث/ ٦٢



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

مقدمة:

« إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيآت أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون﴾. ﴿يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، ان الله كان عليكم رقيبا﴾. ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم اعمالكم ويغفرلكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[1].

أما بعد:

فقد بعث الله رسوله قائما بحقه، وأمينا على وحيه، وخاتما

---

(١) تشرع هذه الخطبة بين يدي كل حديث، اتباعا لسنة الرسول ﷺ، وهي تسمى « خطبة الحاجة ».

لأنبيائه ورسله، ورحمة للعالمين، وحجة على الخلق اجمعين، على حين فترة من الرسل، فهدى الى أوضح السبل، وافترض طاعته، وأوجب محبته، ورفع ذكره، وجعل الذل والصغار على من خالف أمره.

يروي ابن جرير بسنده الى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما انه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله اقسم بحياة غيره، قال الله تعالى: ﴿لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون﴾[1].

يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إنّهم لفي سكرتهم يعمهون﴾[2] أي في غفلتهم يترددون ويتحيرون. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله، وأصحابه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ومن دعا بدعوته، وتمسك بسننه الى يوم الدين.

- منزلة السنة من الكتاب:

والكتاب والسنة صنوان أو توأمان، عليهما تتوقف حقيقة الايمان، ومنهما تستمد احكام جميع الافعال التي يباشرها الانسان، ومنزلة السنة من القرآن منزلة البيان من

---

(١) الحجر / ٧٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٥٥٥

المبين قال تعالى: ﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون﴾[1].

هذا الى ما تضيفه السنة الى القرآن من شؤون الدين واحكامه، مصداقا لقول الحق جل شأنه: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب»[2].

فانها تفيد بما تقتضيه «ما» من معنى العموم أن كل ما يقدمه النبي ﷺ الى الأمة من امور دينها فانها مكلفة باعتباره، والسير على سننه، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[3].

يا له تنويها عظيما، وتقديرا كريما، ينبه القلوب الغافلة، ويرهب النفوس الجامحة.

---

(١) النحل/ ٤٤
(٢) الحشر/ ٧
(٣) النساء/ ٦٤-٦٥

- حفظ السنة:

ولمكانة السنة من الكتاب العزيز، والدين الاسلامي، تكفل الله عز وجل بحفظها، كما تكفل بحفظ القرآن الكريم وضمن بقاءها كما ضمن بقاءه، ومن الأدلة على حفظ السنة قول الله تعالى: ﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1].

ففي هذه الآية وعد قاطع من الحق تبارك وتعالى بحفظ الذكر وهو القرآن وقد اخبر الحق تبارك وتعالى بأن السنة مبينة للقرآن كما عرفنا، وحفظ المبين يستلزم حفظ البيان، إذ لا معنى للمبين بدون بيان، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[2]، ومنة البيان من أجل المنن التي امتن الله عز وجل بها على رسوله ﷺ، وإنه لنبأ عظيم؛ يشهد بأن أهل الكتاب قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي، منذ أمد بعيد، يبين مكانة الرسول ﷺ في بيان احكام الشريعة من التحليل والتحريم: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل

---

(١) الحجر/ ٩

(٢) النحل / ٦٤

يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾[١]

ونقل ابن عبد البر عن الأوزاعي عن حسان بن عطية أنه قال: «كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك»[٢].

وقد ذهب الى ان السنة من الذكر الذي تكفل الله بحفظه عدد من العلماء، منهم: «ابن حزم» حيث عقد فصلا في «الأحكام» ساق فيه ادلة كثيرة نذكر منها قوله:[٣] قال علي: لما بينا أن القرآن هو الأصل المرجوع اليه في الشرائع نظرنا فيه فوجدنا فيه ايجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله ﷺ، ووجدناه عز وجل يقول فيه واصفا لرسوله ﷺ: ﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى﴾[٤]. فصح لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله عز وجل الى رسوله ﷺ على قسمين:

---

(١) الأعراف/١٥٧

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/١٩١

(٣) الاحكام ١/٩٦ وما بعدها بتصرف

(٤) النجم/٣-٤

أحدهما: وحي متلو مؤلف تأليفا معجز النظام وهو القرآن.

الثاني: وحي مروي منقول غير مؤلف، ولا معجز النظام، ولا متلو. لكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ. وهو المبين عن الله عز وجل مراده منا. قال الله تعالى: «لتبين للناس ما نزل اليهم»[1] ووجدناه تعالى قد أوجب طاعة هذا القسم الثاني، كما أوجب طاعة القسم الأول الذي هو القرآن، ولا فرق، فقال تعالى: «قل أطيعوا الله والرسول»[2] فكانت الأخبار التي ذكرنا احد الأصول الثلاثة التي ألزمنا طاعتها في الآية الجامعة لجميع الشرائع أولها عن آخرها، وهي قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله» فهذا أصل، وهو القرآن، ثم قال تعالى: «وأطيعوا الرسول» فهذا ثان، وهو الخبر عن رسول الله ﷺ، ثم قال تعالى: «وأولي الأمر منكم» فهذا ثالث... وصح لنا بنص القرآن أن الأخبار هي أحد الأصلين المرجوع اليهما عند التنازع، قال تعالى: «فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر».[3].

---

(١) النحل/ ٤٤

(٢) آل عمران/ ٣٢

(٣) النساء/ ٥٩

قال علي: والبرهان على أن المراد بهذا الرد انما هو الى القرآن، والخبر عن رسوله الله ﷺ، لأن الأمة مجمعة على أن الخطاب متوجه الينا، والى كل من يخلق ويركب روحه في جسده الى يوم القيامة من الجنة والناس كتوجهه الى من كان على عهد رسول الله ﷺ، وكل من أتى بعده عليه السلام وقبلنا ولا فرق...

وحتى لو شغب مشغب بأن هذا الخطاب انما هو متوجه الى من يمكنه لقاء رسوله الله ﷺ، لما أمكنه هذا الشغب في الله عز وجل، اذ لا سبيل لأحد الى مكالمته تعالى، فبطل هذا الظن، وصح ان المراد بالرد المذكور في الآية التي نصصنا انما هو الى كلام الله تعالى وهو القرآن، والى كلام نبيه ﷺ المنقول على مرور الدهر الينا جيلا بعد جيل.

قال علي: وأيضا فليس في الآية المذكورة ذكر للقاء ولا مشافهة أصلا، ولا دليل عليه، وانما فيه الأمر بالرد فقط، ومعلوم بالضرورة ان هذا الرد انما هو تحكيم، وأوامر الله تعالى، وأوامر رسول الله ﷺ موجودة عندنا. منقول كل ذلك الينا، فهي التي جاء نص الآية بالرد اليها دون تكلف تأويل، ولا مخالفة ظاهر.

قال علي: والقرآن والخبر الصحيح بعضها مضاف الى بعض،

وهو شيء واحد في أنها من عند الله تعالى، وحكمها حكم واحد في باب وجوب الطاعة لها، لما قدمناه آنفا.. قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون»[١]. فبين تعالى بهذه الآية أنه لم يرد منا الاقرار بالطاعة لرسوله ﷺ بلا عمل بأوامره واجتناب نواهيه.. وقال تعالى: «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»[٢]، فأخبر تعالى كما قدمنا أن كلام نبيه ﷺ كله وحي، والوحي بلا خلاف ذكر[٣] والذكر محفوظ بنص القرآن، فصح بذلك أن كلامه ﷺ كله محفوظ بحفظ الله عز وجل، مضمون لنا انه لا يضيع منه شيء، اذ ما حفظ الله تعالى فهو باليقين لا سبيل الى ان يضيع منه شيء، فهو منقول الينا كله، فلله الحجة علينا أبدا... ثم بين أن الذي أتانا به محمد ﷺ محفوظ يتولى الله تعالى بحفظه، مبلغ كما هو الى كل من طلبه ولمن يأتي الى انقضاء الدنيا. قال تعالى: «لأنذركم به ومن بلغ»[٤].

---

(١) الانفال/ ٢٠-٢١

(٢) الحجر/ ٩

(٣) لا نسلم له هذا القول، لأن السنة من الوحي، والذكر أخص من الوحي، وما كان من الأعم لا يلزم كونه من الأخص.

(٤) الانعام/ ١٩

فاذا كان ذلك كذلك، فبالضرورة ندري انه لا سبيل البتة الى ضياع شيء قال رسول الله ﷺ في الدين، ولا سبيل الى ان يختلط به باطل موضوع اختلاطا لا يتميز عن احد من الناس بيقين، اذ لو جاز ذلك لكان الذكر غير محفوظ، ولكان قول الله: «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»[1] كذبا ووعدا مخلفا، وهذا لا يقوله مسلم.

فان قال قائل: انما عنى تعالى بذلك القرآن وحده، فهو الذي ضمن تعالى حفظه، لا سائر الوحي الذي ليس قرآنا. قلنا له: وبالله تعالى التوفيق: هذه دعوى كاذبة مجردة عن البرهان، وتخصيص للذكر بلا دليل، وما كان هكذا فهو باطل، لقوله تعالى: «قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين»[2]، فصح أن من لا برهان له على دعواه فليس بصادق فيها، والذكر اسم واقع على كل ما أنزل الله على نبيه ﷺ من قرآن او سنة يبين بها القرآن.[3]

وأيضا فان الله تعالى يقول: «وأنزلنا اليك الذكر لتبين

---

(١) الحجر/ ٩

(٢) البقرة/ ١١١

(٣) سبق ان بينا ان هذا القول غير مسلم به، ونزيد عليه بأن الواقع يعارض ما ذهب اليه، وأقوال جمهور العلماء كذلك، ونعجب من قوله: هذه دعوى كاذبة مجردة عن البرهان.. ثم ماذا يقول في قوله تعالى: «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم» النحل/ ٤٤ وقوله: «ص والقرآن ذي الذكر» ص/ ١

للناس ما نزل اليهم »[١]

فصح انه عليه السلام مأمور ببيان القرآن للناس.

وفي القرآن مجمل كثير كالصلاة والزكاة والحج، وغير ذلك.. ما ألزمنا الله تعالى فيه بلفظه. لكن ببيان رسوله الله ﷺ، فاذا كان بيانه عليه السلام لذلك المجمل غير محفوظ، ولا مضمون سلامته مما ليس منه، فقد بطل الانتفاع بنص القرآن، فبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه، فاذن لم ندر صحيح مراد الله تعالى منها مما أخطأ فيه المخطىء، أو تعمد فيه الكذب الكاذب، ومعاذ الله من هذا.

ونقل ابن قيم الجوزية كلام ابن حزم وأقره واستحسنه، وعلق عليه في كتابه « مختصر الصواعق المرسلة »[٢] بقوله: « وهذا الذي قاله ابو محمد حق في الخبر الذي تلقته الأمة بالقبول عملا واعتقادا ».

وممن ذهب الى هذا القول من العلماء: عبد الله بن المبارك، وقد سئل عن الأحاديث الموضوعة فقال: « تعيش لها الجهابذة: « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »[٣]

---

(١) النحل/٤٤

(٢) مختصر الصواعق المرسلة/٤٨٧-٤٩٣

(٣) الباعث الحثيث/٩٥ وتدريب الراوي/١٠٢.

ونقل عن عبد الرحمن بن مهدي.

ولم يقف الامر عند حد هؤلاء العلماء، فقد قال بقولهم كثير من العلماء قديما وحديثا ممن يطول الحديث بذكر اقوالهم.. وهو من قبيل اختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات. وحسبنا ان نذكر قول محمد بن ابراهيم الوزير في كتابه: «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم» بعد ما ذكر الآية السابقة:

«وهذا يقتضي أن شريعة رسول الله ﷺ لا تزال محفوظة وسنته لا تبرح محروسة».[1]

ومما تقتضيه اقامة حجة الله تعالى على العالمين الذي ارسل اليهم الرسول الى دعوتهم ان يحفظ دينه، ويحفظ رسالته، لأن محمدا خاتم النبيين، ورسالته هي الخاتمة لكل الرسالات الى يوم القيامة، وقد حفظ الله سنة نبيه، وتكفل عز وجل بحفظها تبعا لتكلفه سبحانه بحفظ كتابه، ومن هنا كانت الحوافز التي هيأها الله على حفظ السنة، والحواجز لحمايتها، والدفاع عنها، والحديث عن الحوافز حديث عن الأسباب التي هيأها الله لحفظ السنة، يتمثل ذلك في بيان فرض طاعة الرسول ﷺ، ووجوب العمل بسنته، وحبه،

---

(١) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم/٣٣

كما يتمثل في منهجه القويم في الدعوة، ووجوب التبليغ، ودعاء النبي لمن يبلّغ عنه، وشرف أصحاب الحديث، والخوف من الوعيد الشديد لمن يكتم العلم، أما الحديث عن الحواجز فانه يتمثل في تغليظ الكذب على الرسول، ورد رواية الفاسق، واشتراط العدالة في الرواية، والتحذير من قبول رواية الكذابين وأهل الأهواء، وضرورة التحاكم الى الكتاب والسنة، الى غير ذلك مما يضيق المقام عن ذكره.

- اتصال السند من خصائص هذه الأمة:

ولسنا نعرف على مدى التاريخ البشري كله أمة من أمم الرسل، عليهم صلوات الله وتسليماته، قد سعدت بمثل هذه المجموعة الناطقة، وبمثل هذا السجل الخالد، بل على العكس من ذلك، نرى الأمم كلها فقيرة، لا تملك مصدرا من مصادر البحث عن الأنبياء، ونراها قد انقطع ما بينها وبين أنبيائها، وفقدت الصلة التي تصلها بعصر هؤلاء الرسل وتوقفها على شؤون حياتهم، وما يكتنفها من ظروف وملابسات، حتى صار كثير منهم يتساءلون ويشكون في نبوة أنبيائهم. ونحن مع معارضتنا لهذا التطرف نؤمن بأن هناك حلقات مفقودة، لا يمكن البحث عنها، والاهتداء اليها.

أما خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه فهو الرسول

الذي نعرف عنه كل دقيق وجليل، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق والعادات، والميول والرغبات، والقول والعمل، ما لا نعرفه عن غيره.

بل ان ما عرفناه عن الأنبياء جاء من طريق الوحي الذي أنزله الله عليه، وبيانه لنا وحديثه، فالحديث بهذه الصورة هو السجل الخالد الذي حفظ لنا هذه الحياة المباركة، وهو من خصائص هذه الأمة، وهو الذي يعرف المسلم بنبيه وحبيبه، ويسعده بصحبته، وكأنه حضر مجلسه، واستمع لحديثه، وقضى معه مدة من الزمان، ليسمع كلامه، ويشاهد فعله، ويدرس سيرته.

ثم انه ميزان عادل لحركة هذه الأمة، زاخر بالحياة النابضة، والقوة المؤثرة التي تبعث على الخير والفلاح، والرشد والصلاح.

ومن رحمة الله عز وجل أن كانت هذه الأمة تملك قوة الذاكرة، وعظمة الصدق، وتحمل الرواية، وفقه الدراية، وقد فاقت في ذلك كل الأمم.

وقد وعى الصحابة الكرام رضي الله عنهم ما سمعوا، وما شاهدوا، وحرصوا اشد الحرص وابلغه على حفظه ونشره، حرصا لم يعرف عن أمة نبي من الأنبياء.

وجاء التابعون وتابعوهم فحملوا الأمانة، وبلغوا حديث الرسول ﷺ، وتتابع المسلمون جيلا بعد جيل يحفظون ويبلغون.

وقد عقد ابن حزم في الفِصَل في الملل والنحل فصلا جيدا في وجوه النقل عند المسلمين، فذكر المتواتر، وما علم من الدين بالضرورة، والمشهور، وغير ذلك مما يعرفه اهل العلم، ثم قال[1]:

وليس عند اليهود والنصارى من هذا النقل شيء أصلا، لأنه يقطع بهم دونه ما قطع بهم دون النقل الذي ذكرنا من قبل، من اطباقهم على الكفر الدهور الطوال، وعدم ايصال الكافة الى عيسى عليه السلام..

والثالث: ما نقله الثقة عن الثقة كذلك، حتى يبلغ الى النبي ﷺ، يخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره ونسبه، وكلهم معروف الحال والعين، والعدالة والزمان والمكان، على ان اكثر ما جاء هذا المجيء فانه منقول نقل الكواف، اما الى رسول الله ﷺ من طريق جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، واما الى الصاحب، واما الى التابع، واما الى إمام أخذ عن تابع، يعرف ذلك من كان من اهل المعرفة

---

(١) الملل والنحل/٢/٨١-٨٤ بتصرف.

بهذا الشأن، والحمد لله رب العالمين، وهذا نقل خص الله تعالى به المسلمين دون سائر اهل الملل كلها، وابقاه عندهم غضا جديدا على قديم الدهور، في المشرق والمغرب، والجنوب والشمال، يرحل في طلبه من لا يحصي عددهم الا خالقهم، الى الآفاق البعيدة، ويواظب على تقييده من كان الناقد قريبا منه، قد تولى الله تعالى حفظه عليهم، والحمد لله رب العالمين، فلا تفوتهم زلة في كلمة فما فوقها في شيء من النقل ان وقعت لأحدهم.. ولله تعالى الحمد.

وهذه الأقسام الثلاثة التي نأخذ ديننا منها ولا نتعداها، والحمد لله رب العالمين، وذكر المرسل والمعضل والمنقطع.. ثم قال:

ومن هذا النوع كثير من نقل اليهود، بل هو اعلى ما عندهم، الا أنهم لا يقربون فيه من موسى كقربنا من محمد ﷺ، بل يقفون ولا بد، حيث بينهم وبين موسى عليه السلام أزيد من ثلاثين عصرا، في أزيد من الف وخمسمائة عام..

وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل الا تحريم الطلاق وحده فقط. على أن مخرجه من كذاب قد ثبت كذبه.

أما هذه الأمة فان من خصائصها دون سواها: الاسناد، كما عرفنا، وممن قال بذلك: أبو علي الجبائي[1] وأبو بكر محمد ابن احمد[2].

وقال محمد بن حاتم بن المظفر: ان الله اكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالاسناد، وليس لأحد من الأمم كلها، قديمهم وحديثهم اسناد، وإنما هي صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتابهم اخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والانجيل مما جاءهم به أنبياؤهم، وتمييز ما ألحقوه من الأخبار التي اخذوا عن غير الثقات.

وهذه الأمة انما تنص الحديث من الثقة المعروف في زمانه، المشهور بالصدق والأمانة عن مثله، حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبوا الحديث من عشرين وجها وأكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه ويعدوه عدا، فهذا من أعظم نعم الله تعالى على هذه الأمة..[3]

---

(١) مقدمة ابن الصلاح/٢١٥،،.

(٢) شرف اصحاب الحديث/٤٠.

(٣) المرجع السابق بتصرف.

وذكر صاحب المنار أن احد فلاسفة الهنود درس تاريخ الأديان كلها وبحث فيها بحث مستقل منصف، وأطال البحث في النصرانية لما للدولة المنسوبة اليها من الملك، وسعة السلطان، والتبريز في الفنون والصناعات، ثم نظر في الاسلام فعرف أنه الدين الحق، فأسلم وألف كتابا باللغة الانكليزية سماه: «لماذا أسلمت»، بين فيه ما ظهر له من مزايا الاسلام على جميع الأديان.. وكان اهمها عنده:

إن الاسلام هو الدين الوحيد الذي له تاريخ صحيح محفوظ. فالآخذ به يعلم أنه هو الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله النبي الأمي المدفون في المدينة المنورة من بلاد العرب.[1]

- التزام الأسناد:

ووقف الصحابة والتابعون موقفا عظيما التزموا فيه الإسناد بعد ان وقعت الفتنة المعروفة، وتكونت الفرق، ووجد أهل الأهواء.

يقول ابن سيرين: «لم يكونوا يسألون عن الاسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سَمُّـوا لنا رجالكم، فينظر أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم

---

(١) تفسير المنار ٦/٣٠٢

«رواه مسلم[1] والدارمي[2] والرامهرمزي بنحوه[3].

وفي رواية لمسلم عن مجاهد قال: «جاء بشير العدوي الى ابن عباس، فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله ﷺ، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه، ولا ينظر اليه، فقال: يا ابن عباس، ما لي لا اراك تسمع لحديثي، احدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: انا كنا مرة اذا سمعنا رجلا يقول: قال رسول الله ﷺ. ابتدرته أبصارنا، وأصغينا اليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس الا ما نعرف[4].

وفي رواية له عن طاووس قال: «جاء هذا الى ابن عباس.-يعني بشير بن كعب- فجعل يحدثه، فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا وكذا، فعاد له، ثم حدثه، فقال له: عد لحديث كذا وكذا، فعاد له، فقال: ما أدري. أعرفت حديثي كله وأنكرت هذا أم أنكرت حديثي كله، وعرفت هذا؟ فقال له ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن يكذب عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٨٤

(٢) سنن الدارمي ١/١١٢

(٣) المحدث الفاصل/,,٢٠٨-٢٠٩ رقم/٩٥

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٨١

تركنا الحديث عنه[١].

ويروي مسلم بسنده عن عبد الله بن المبارك قال: «الاسناد من الدين، ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء»[٢].

وفي رواية أخرى لمسلم بسنده: «بيننا وبين القوم القوائم» يعني الاسناد[٣].

وبهذا أتقن التابعون الاسناد وبرزوا فيه، يقول ابو داود الطيالسي: «وجدنا الحديث عند اربعة: الزهري، وقتادة، وابي اسحاق، والأعمش. فكان قتادة أعلمهم بالاختلاف، والزهري أعلمهم بالاسناد، وابو اسحاق أعلمهم بحديث علي وابن مسعود، وكان عند الأعمش من كل هذا..»[٤]

وقد أفاض الرامهرمزي في ذكر الآثار الدالة على مدى تمسكهم بالسند[٥] وأفاض أيضا فيمن يستحق الأخذ عنه.[٦]

---

(١) المرجع السابق/٨٠، وانظر: التمهيد/١٤ ب والمحدث الفاضل/٢٠٨ رقم/٩٣
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١/٨٧
(٣) المحدث الفاضل/٢٠٩ رقم / ٩٦
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١/٨٨
(٥) تذكرة الحفاظ ١/١٠٨
(٦) المحدث الفاضل/٤٠٤-٤١٦ رقم ٤٣٧-٤٤٥
(٧) المحدث الفاضل/٤٠٣-٤١٠ رقم ٤١٨-٤٣٣

- الصحيح لا يعرف برواية الثقات فقط:

ذكر السمعاني في القواطع أن الصحيح لا يعرف برواية الثقات فقط، وإنما يعرف بالفهم والمعرفة وكثرة السماع والمذاكرة، قال بعضهم: ان هذا داخل في اشتراط كونه غير معلول، لأن الاطلاع على ذلك انما يحصل بما ذكر من الفهم والمعرفة وغيرها. وفي هذا يقول صاحب توجيه النظر[1]: اعلم ان هذه المسألة من أهم مسائل هذا الفن الجليل الشأن، والناظرون في هذا الموضع قد انقسموا الى ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: فرقة جعلت جل همها النظر في الاسناد، فاذا وجدته متصلا ليس في اتصاله شبهة، ووجدت رجاله ممن يوثق بهم، حكمت بصحة الحديث قبل إمعان النظر فيه، حتى إن بعضهم يحكم بصحته ولو خالف حديثا آخر رواته أصح، ويقول: كل ذلك صحيح، وربما قال: هذا صحيح وهذا أصح، وكثيرا ما يكون الجمع بينهما غير ممكن، واذا توقف متوقف في ذلك نسبه الى مخالفة السنن، وربما سعى في ايقاعه في محنة من المحن، مع ان جهابذة هذا الفن قد حكموا بأن صحة الاسناد لا تقتضي صحة المتن، ولذلك قالوا: لا يسوغ لمن رأى حديثا له اسناد صحيح ان يحكم

---

(١) توجيه النظر الى اصول الأثر/ ٧٤ وما بعدها بتصرف.

بصحته الا ان يكون من أهل هذا الشأن، لاحتمال ان تكون له علة قادحة قد خفيت عليه، وقد وصل الغلو بفريق منهم الى ان الزموا الناس بالأخذ بالأحاديث الضعيفة الواهية، فأوقعوا الناس في داهية، وما ادراك ما هيه؟ وهذه الفرقة هم الغلاة في الاثبات، وأكثرهم من أهل الأثر الذين ليس لهم فيه فضلا عن غيره دقة نظر، وقد أشار مسلم الى ناس منهم يعتدون برواية الأحاديث الضعاف، مع معرفتهم بحالها، ووصفهم بما هم جديرون به، قال في مقدمة كتابه المشهور[1]: واشباه ما ذكرنا من كلام أهل العلم في متهمي رواة الحديث وأخبارهم عن معايبهم كثير يطول الكتاب بذكره على استقصائه، وفيما ذكرنا كفاية لمن تفهم وعقل مذهب القوم فيما قالوا من ذلك وبينوا، وانما ألزموا أنفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلي الأخبار، وأفتوا بذلك حين سئلوا، لما فيه من عظيم الخطر، اذ الأخبار في أمر الدين انما تأتي بتحليل أو تحريم، أو أمر أو نهي، أو ترغيب أو ترهيب، فاذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والأمانة، ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه، ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته، كان آثما بفعله ذلك، غاشا لعوام المسلمين، اذ لا يؤمن على من سمع بعض تلك الأخبار ان

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١/١٢٣ بتصرف.

يستعملها، او يستعمل بعضها، ولعلها أو اكثرها أكاذيب، لا أصل لها، مع ان الأخبار الصحاح من رواة الثقات وأهل القناعة أكثر من ان يضطر الى نقل من ليس بثقة ولا مقنع، ولا أحسب كثيرا ممن يعرج من الناس على ما وصفنا من هذه الأحاديث الضعاف، والأسانيد المجهولة، ويعتد بروايتها بعد معرفته بما فيها من التوهن والضعف، الا ان الذي يحمله على روايتها والاعتداد بها ارادة التكثر بذلك عند العوام، ولأن يقال: ما أكثر ما جمع فلان من الحديث، وألف من العدد، ومن ذهب في العلم هذا المذهب، وسلك هذا الطريق، لا نصيب له فيه، وكان بأن يسمى جاهلا أولى من أن ينسب الى علم.

الفرقة الثانية: فرقة جعلت جل همها النظر في نفس الحديث، فان راقها امره حكمت بصحته وأسندته الى النبي ﷺ، وان كان في اسناده مقال، مع ان في كثير من الأحاديث الضعيفة، بل الموضوعة، ما هو صحيح المعنى، فصيح المبنى، غير انه لم تصح نسبته الى النبي ﷺ، وذكر مسلم في مقدمة كتابه: أن أبا جعفر الهاشمي المديني كان يضع احاديث كلام[1] حق، وليست من احاديث النبي ﷺ،

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١/١٠٧-١٠٨ وتوجيه النظر/٧٥

وكان يرويها عن النبي ﷺ يريد به كلاما صحيح المعنى، وهو حكمة من الحكم، وقد كذب فيه لنسبته الى النبي عليه الصلاة والسلام، وهو ليس من كلامه.

وقال بعض الوضاعين: لا بأس اذا كان الكلام حسنا ان تضع له اسنادا، وحكى القرطبي عن بعض أهل الرأي انه قال: ما وافق القياس الجلي يجوز ان يعزى الى النبي ﷺ، وان راعهم أمره لمخالفته لشيء مما يقولون به، وان كان مبنيا على مجرد الظن بادروا لرد الحديث، والحكم بوضعه، وعدم صحة رفعه، وان كان اسناده خاليا عن كل علة، وان ساعدهم الحال على تأويله على وجه لا يخالف أهواءهم بادروا الى ذلك، وهذه الفرقة هي المعتزلة، والمتكلمون الذين حذوا حذوهم وقد نحا اناس من غيرهم نحوهم، وقد طعنت الفرقة الأولى في هذه الفرقة طعنا شديدا، وقابلتهم هذه الفرقة بمثل ذلك أو اشد، ونسبوا رواة ما أنكروه من الأحاديث الى الاختلاف والوضع مع الجهل بمقاصد الشرع.

وقد ذكر ابن قتيبة شيئاً من ذلك في مقدمة كتابه الذي وضعه في تأويل مختلف الحديث، والمجاملون منهم اكتفوا بأن نسبوا إلى الرواة الوهم والغلط والنسيان، وهو مما لا يخلو عنه انسان، وقالوا: إن المحدثين انفسهم قد ردوا كثيراً من احاديث الثقات، بناء على ذلك، قال الترمذي: قد تكلم

بعض اهل الحديث في قوم من أجلة العلم، وضعفوهم من قبل حفظهم، ووثقهم آخرون من الأئمة، لجلالتهم وصدقهم، وان كانوا قد وهموا في بعض ما رووا.

وقد تكلم يحيى بن سعيد القطان في محمد بن عمرو، ثم روى عنه، وكان ابن أبي ليلى يروي الشيء مرة هكذا، ومرة هكذا، بغير الاسناد، وانما جاء هذا من قبل حفظه، لأن اكثر من مضى من اهل العلم كانوا لا يكتبون، ومن كتب منهم انما كان يكتب لهم بعد السماع، وكان كثير من الرواة يروي بالمعنى، فكثيرا ما يعبر عنه بلفظ من عنده فيأتي قاصرا عن اداء المعنى بتمامه، وكثيرا ما يكون ادنى تغيير محيلا له، وموجبا لوقوع الإشكال فيه، وقد اجاز الجمهور الرواية بالمعنى، قال وكيع: ان لم يكن المعنى واسعا فقد هلك الناس، وانما تفاضل اهل العلم بالحفظ والاتقان والتثبيت عند السماع. ولا يدخل في هذه الفرقة اناس ردوا بعض الأحاديث الصحيحة الاسناد لشبهة قوية عرضت لهم اوجبت شكهم في صحتها ان كانت مما لا يدخل فيه النسخ، او في بقاء حكمها ان كانت مما يدخل فيه، فقد وقع التوقف في الأخذ بأحاديث صحيحة الاسناد لأناس من العلماء الاعلام...

الفرقة الثالثة: فرقة جعلت همها البحث عما صح من

الحديث لتأخذ به، فأعطت المسألة حقها من النظر، فبحثت في الإسناد والمتن معاً بحث مؤثر للحق، فلم تنسب إلى الرواة الوهم والخطأ ونحو ذلك، لمجرد كون المتن يدل على خلاف رأي لها مبني على مجرد الظن، ولم تعتقد فيهم أنهم معصومون عن الخطأ والنسيان، وهذه الفرقة قد ثبت عندها صحة كثير من الأحاديث التي ردتها الفرقة الثانية، وهي المفرطة في أمر الحديث، كما ثبت عندها عدم صحة كثير من الأحاديث التي قبلتها الفرقة الأولى وهي المفرطة فيه.

وهذه الفرقة هي أوسط الفرق وأمثلها وأقربها للامتثال، وهي أقل الفرق عددا ومقتفي أثرها من أريد به رشد.

- نقد الرواة:

وكان من عناية الله بسنة نبيه أن مدّ في أعمار عدد من أقطاب الصحابة ليكونوا مرجعا يهتدي الناس بهديهم، فلما وقع الكذب لجأ الناس اليهم يسألونهم ما عندهم ويستفتونهم فيما يسمعونه من أحاديث وآثار، وكثرت الرحلات من مصر الى مصر لسماع الأحاديث من الرواة الثقات، ونشأ نقد الرواة، وهذا باب عظيم نتج عنه منهج عظيم في النقد، وقد وضعوا لذلك قواعد ساروا عليها فيمن يؤخذ عنه ومن لا يؤخذ، ومن يكتب حديثه ومن لا يكتب.

- مناهج المحدثين في النقد:

والمحدثون الذين تكلموا في الجرح والتعديل، ونقد الرجال، لم يكونوا في درجة واحدة، فقد انقسموا الى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المتشددون الذين قال بعضهم: لا حجة الا فيما رواه الراوي من حفظه وتذكره. فأفرطوا وبالغوا.. قال السيوطي: وهذا مذهب شديد وقد استقر العمل على خلافه.. ومنهم من جوزها من كتابه الا اذا خرج من يده بالاعارة أو بغير ذلك.. فلا يجوز الرواية منه لجواز تغييره، قال السيوطي: وهذا أيضا تشديد.

القسم الثاني: المتساهلون الذين روى بعضهم من نسخ غير مقابلة بأصول، فجعلهم الحاكم مجروحين بذلك. قال النووي: وهذا كثير تعاطاه قوم من أكابر العلماء والصلحاء.. والنسخة التي لم تقابل تجوز الرواية منها بشروط فهل أراد الحاكم مخالفة ذلك. أو أراد اذا لم توجد الشروط المذكورة؟ قال النووي: يحتمل هذا وذاك.

القسم الثالث: المتوسطون وهم الجمهور الذين لم يفرطوا ولم

يخرجوا عن حد الاعتدال والذين التزموا مناهج التحديث وقواعده من غير افراط ولا تفريط، فاذا قام الراوي في التحمل والمقابلة لكتابه، والتزم شروط ذلك جازت الرواية من الكتاب اذا كان الغالب على الظن من أمره سلامته من التغيير والتبديل، لا سيما اذا كان ممن لا يخفي عليه التغيير غالبا.

وهذا باعتبار العرب المتقدم، فأما في العصور المتأخرة فقد قال ابن الصلاح: قد فقدت شروط الأهلية في غالب اهل زماننا، ولم يبق الا مراعاة اتصال السلسلة في الاسناد، فينبغي ألا يكون مشهورا بفسق ونحوه، وأن يكون ذلك مأخوذا عن ضبط سماعه من مشايخه من أهل الخبرة بهذا الشأن..

وقال البيهقي: توسع من توسع في السماع من بعض محدثي زماننا الذين لا يحفظون حديثهم.. ولا يحسنون قراءته من كتبهم، ولا يعرفون ما يقرأ عليهم بعد ان تكون القراءة عليهم من اصل سماعهم، وذلك لتدوين الأحاديث في الجوامع التي جمعها أئمة الحديث.

فمن جاء اليوم بحديث لا يوجد عند جميعهم لا يقبل

منه، ومن جاء بحديث معروف عندهم فالذي يروي لا ينفرد بروايته، والحجة قائمة بحديثه برواية غيره، والقصد من روايتـه والسماع منـه أن يصير الحديث مسلسلا بحدثنا وأخبرنا، وتبقى هذه الكرامة التي خص الله بها هذه الأمة شرفا لنبينا ﷺ.

أما في عصرنا نحن فقد انحطت رواية الحديث الى أدنى صورها، فيكفي ان يكون اماما في مسجد، أو واعظا في قرية، أو مدرسا، أو مثقفا يمسك بكتاب حديث أيا كان، فيقرأ او يفسر اعتمادا على الشروح المختلفة للحديث، وكلهم معتمدون على الوجادة التي هي آخر انواع التحمل، وقلما نجد من يعنى بأن يكون له اسناد بالاجازة متصل بأصحاب الكتب المدونة في متون الحديث مثل البخاري ومسلم والسنن الأربعة ونحوها، فالذي ينبغي الآن ممن يصح له ان يتكلم في الحديث عن رسول الله ﷺ ان يكون قد درس جملة كثيرة صالحة لأن تثقفه في فهم الحديث حتى يدرك معناه الصحيح، وان يكون عالما بمصطلح الحديث وتاريخه، وان يميز بين صحيحه وحسنه، وضعيفه، وموضوعه، ولا يقرأ الا من الكتب المشهورة المتواترة المعروفة عن مؤلفيها الموثوق بهم، وان يكون له اطلاع يخول له معرفة ما هو من احكام الاسلام الصحيحة وما هو مزيف في اقوال المختلفين الشاذة

المنكرة، وان يهتدي في كلامه في الحديث الخاص بما ثبت عن الأئمة الموثوق في اجتهادهم وفتواهم.. ولا يغتر بقول القائلين بأن الحجة في حديث رسول الله ﷺ، فالحجة في الحديث تكون بعد أن يثبت انه صالح للحجية، وادراك هذا الثبوت يفتقر الى مجتهد مميز بين ما هو صالح وما هو ليس بصالح، وأين هم المجتهدون؟

نعم اذا كان ممن لهم العناية بالحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه.. ومعرفة مرتبته في الصحة، ومعرفة وجوه الترجيح، ومعرفة مذاهب العلماء، ووجهة نظرهم في القضية المختلف فيها، ووجهة نظر كل من المختلفين فيه، وكان ممن لهم ورع وتقوى كان له الاجتهاد في الترجيح.[1]

- نقد المتن:

ولم يقف الامر عند حد نقد الرواة وبيان حالهم من صدق وكذب، ومن تقبل روايته ومن لا تقبل، وما الى ذلك من القواعد التي يضيق المقام عن ذكرها، فقد نقدوا المتن أيضا، كما عرفنا في حديثنا عن الصحيح، وانه لا يعرف برواية الثقات فقط، ومن هنا ذكروا من علامات الوضع في المتن: ركاكة اللفظ، وفساد المعنى، والمخالفة لصريح القرآن،

---

(١) المنهج الحديث في علوم الحديث: قسم الرواية/ ٢٨٥-٢٨٨ بتصرف

والموافقة لمذهب المبتدع، وما الى ذلك من القواعد التي يضيق المقام عن ذكرها أيضا، ونتج عن تعويل المحدثين بعد اثبات السند على ان يكون متن الحديث سالما من الركاكة اللفظية والمعنوية، والمعارضات المساوية أو الراجحة او القاطعة، بحيث لو قام الدليل على انه ليس من كلام الرسول ﷺ فان ذلك يطعن في الحديث ويرده، نتج عن ذلك انواع. منها: المختلف، والمتروك، والمضطرب، والمقلوب، والمدرج، والمصحَّف، والمحرف، والمعل، والشاذ، وغير ذلك مما لا سبيل الى حصره هنا، وكل ذلك يحتاج الى نفاذ بصيرة، وقوة مران، وكثرة اطلاع، وممارسة طويلة.

وأما مشكل الحديث فقد ذكره ابن خلكان، والخطيب، والسمعاني، وابن كثير، وابن الأنباري، وابن العماد الحنبلي، وقد ذكر ابن النديم من مؤلفاته كتاب «المشكل» بهذا اللفظ ولعله مشكل القرآن، او مشكل الحديث..[١] وذكره غيرهم.

وأما غريب الحديث فقد ذكر ابن النديم، وابن خلكان، والخطيب، والداودي، والسيوطي، وابن كثير، وابن الأنباري، وغيرهم[٢].

---

(١) مقدمة عيون الأخبار ٤/٢٢-٢٤ بتصرف.

(٢) انظر كشف الظنون ١/١٥٥ بتصرف.

وأما تأويل مختلف الحديث فقد ذكر ابن النديم في مؤلفات ابن قتيبة كتابين: احدهما باسم «مختلف الحديث» وثانيها باسم «اختلاف تأويل الحديث» ولعل هذه التسمية لكتاب واحد، ذكره الداودي باسم «مختلف الحديث» وكذا السيوطي.

وأورده صاحب كشف الظنون باسم «اختلاف الحديث» و«كتاب المناقضة» و«الرد على من قال بتناقض الحديث» و«كتاب المتشابه من الحديث والقرآن وذكر الأحاديث التي قيل بتناقضها».. والحقيقة «تأويل مختلف الحديث»[1].

- مختلف الحديث ومشكله:

قال السخاوي: هو من اهم الأنواع، مضطر اليه جميع الطوائف من العلماء، وانما يكمل للقيام به من كان اماما جامعا لصناعتي الحديث والفقه، غائصا على المعاني الدقيقة[2]، وقد اهتم علماء الأمة بمختلف الحديث ومشكله منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم، فاجتهدوا وجمعوا بين كثير من الأحاديث التي ظاهرها التعارض، وأزالوا الشبه

---

(١) تأويل مختلف الحديث /٢٣-٢٤ بتصرف.

(٢) فتح المغيث /٣٦٢-٣٦٣

التي أثارها بعض الفرق واهل الأهواء حول بعض الأحاديث، ومن اقدم التصانيف في هذا: (اختلاف الحديث) للشافعي، حيث جمع بعض الأحاديث، وبين طريق جمعها، والتوفيق بينها، وهو مطبوع على هامش الجزء السابع من كتاب الأم، ثم جاء كتاب «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة، الذي كتب في الرد على اعداء الحديث، الذين اتهموا المحدثين بحمل الأخبار المتناقضة، ورواية الأحاديث المشكلة، ثم جاء كتاب «مشكل الآثار» للطحاوي، وكتاب «مشكل الحديث وبيانه» لابن فورك، الذي صنفه في بيان الأحاديث التي يوهم ظاهرها التشبيه والتجسيم والتعارض، مما يتذرع به الملحدون للطعن في هذا الدين.

- الجمع والنقد سارا معا جنبا الى جنب:

ونشأ عن نقد السند والمتن تدوين القواعد التي وضعها العلماء اثناء حركتهم لمقاومة الوضع، وسار التدوين والنقد معا جنبا الى جنب، واذا كانت حركة التدوين قد عملت على حماية السنة من جهة النقص والتفريط، فان حركة النقد قد عملت على حمايتها من جهة الدرس والتزييف، والوضع والتحريف حيث إن[1] أئمة الحديث لما شرعوا في

---

(١) توجيه النظر ١٩/-٢٠ بتصرف.

تدوينه دونوه على الهيئة التي وصل بها اليهم، ولم يسقطوا مما وصل اليهم الا ما يعلم أنه موضوع مختلف فجمعوا ما رووا منه بالأسانيد التي رووه بها، ثم بحثوا عن احوال الرواة بحثا شديدا حتى عرفوا من تقبل روايته ومن ترد، ومن يتوقف في قبول روايته، واتبعوا ذلك بالبحث عن المروي وحال الرواية، اذ ليس كل ما يرويه من كان موسوما بالعدالة والضبط يؤخذ به، لما انه قد يعرض له السهو او النسيان او الوهم، ولهم في معرفة ذلك طرق مذكورة في كتبهم وكتب علماء الأصول، وقد تم لهم بذلك ما ارادوا من معرفة درجة كل حديث وصل اليهم على قدر الوسع والامكان، فصار لهم من الأجر الجزيل، والذكر الجميل، ما هو كفاء لما لقوه في ذلك من فرط العناء، وقد دعاهم النظر في احوال الرواة والمروي والرواية الى ان يصطلحوا على اسماء يتداولونها بينهم، تسهيلا للبحث، كما فعل غيرهم من ارباب الفنون، وقد جعل من بعدهم مما اصطلحوا عليه فنا مستقلا سموه بمصطلح أهل الأثر، وقد اعتنى العلماء الأعلام به، وألفوا فيه مؤلفات كثيرة، وهو فن لا يسع طالب علم الأثر الجهل به.

- التعارض والترجيح:

التعارض كما قال الشاطبي اما ان يعتبر من جهة ما في

نفس الأمر، واما من جهة نظر المجتهد، أما من جهة ما في نفس الأمر فغير ممكن باطلاق... وأما من جهة نظر المجتهد فممكن بلا خلاف، إلا أنهم إنما نظروا فيه بالنسبة الى كل موضع لا يمكن فيه الجمع بين الدليلين وهو صواب، فإنه ان أمكن الجمع فلا تعارض، كالعام مع الخاص، والمطلق مع المقيد وأشباه ذلك، وقال: الشريعة كلها ترجع الى قول واحد في فروعها وان كثر الخلاف، كما أنها في اصولها كذلك، والدليل عليه أمور:

أحدها: أدلة القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» فنفى ان يقع فيه الخلاف البتة، ولو كان فيه ما يقتضي قولين مختلفين لم يصدق عليه هذا الكلام على حال، والآيات في ذم الاختلاف والأمر بالرجوع الى الشريعة كثيرة، كلها قاطع في انها لا اختلاف فيها.

الثاني: ان عامة أهل الشريعة أثبتوا في القرآن والسنة الناسخ والمنسوخ على الجملة، وحذروا من الجهل به، والخطأ فيه، ومعلوم ان الناسخ والمنسوخ انما هو فيما بين دليلين يتعارضان بحيث لا يصح اجتماعهما بحال، والا لما كان أحدهما ناسخا والآخر منسوخا، والغرض خلافه، فلو كان

الاختلاف من الدين لما كان لاثبات الناسخ والمنسوخ من غير نص قاطع فيه فائدة، وكان الكلام في ذلك كلاما فيما لا يجنى ثمره، اذ كان لا يصح العمل بكل واحد منهما ابتداء ودواما، استنادا الى ان الاختلاف أصل من أصول الدين، لكن هذا باطل باجماع، فدل على ان الاختلاف لا أصل له في الشريعة، وهكذا القول في كل دليل مع معارضه، كالعموم والخصوص، والاطلاق والتقييد، وما أشبه ذلك.

الثالث: أنه لو كان في الشريعة مساغ للخلاف لأدى الى تكليف ما لا يطاق، لأن الدليلين اذا فرضنا تعارضهما وفرضناهما مقصودين معا للشارع، فاما ان يقال: ان المكلف مطلوب بمقتضاهما أولا، أو مطلوب باحدهما دون الآخر، والجمع غير صحيح.

فالأول يقتضي: افعل لا تفعل، لمكلف واحد من وجه واحد، وهو عين التكليف بما لا يطاق.

والثاني: باطل، لأنه خلاف الغرض، اذ الغرض توجه الطلب بهما، فلم يبق الا الأول فيلزم منه ما تقدم، لا يقال: ان الدليلين بحسب شخصين أو حالين، لأنه خلاف الغرض وهو أيضا قول واحد لا قولان، لأنه اذا انصرف كل دليل الى جهة لم يكن ثم اختلاف وهو المطلوب.

الرابع: ان الأصوليين اتفقوا على اثبات الترجيح بين الأدلة المتعارضة إذا لم يمكن الجمع، وانه لا يصح اعمال احد دليلين متعارضين جزافا من غير نظر في ترجيحه على الآخر، والقول بثبوت الخلاف في الشريعة يرفع باب الترجيح جملة، اذ لا فائدة فيه، ولا حاجة اليه على ثبوت الخلاف أصلا شرعيا لصحة وقوع التعارض في الشريعة، لكن ذلك فاسد، فما أدى اليه مثله.

الخامس: انه شيء لا يتصور، لأن الدليلين المتعارضين اذا قصدهما الشارع مثلا لم يحصل مقصوده، لأنه اذا قال في الشيء الواحد: افعل ولا تفعل، فلا يمكن ان يكون المفهوم منه طلب الفعل لقوله لا تفعل، ولا طلب تركه لقوله افعل، فلا يحصل للمكلف فهم التكليف، فلا يتصور توجهه على حال، والأدلة على ذلك كثيرة، لا يحتاج فيها الى التطويل..[١] واذا لاح بين حديثين تعارض يقدم الجمع بينهما، فان لم يمكن ذلك ننظر، هل هما مما يمكن وقوع النسخ فيه ام لا؟ فان كانا مما يمكن وقوع النسخ فيه نبحث عن المتأخر منهما ليكون ناسخاً، وإن كان مما لا يمكن وقوع النسخ فيه، أو كانا مما يمكن، لكن لم نقف على المتأخر منهما

---

(١) توجيه النظر / ٢٢٨

نبحث عن الراجح منها، فإن عرفناه أخذنا به، وإن لم نعرفه توقفنا، وجملته كما قال الشيرازي: إذا تعارض خبران وأمكن الجمع بينهما وترتيب أحدهما على الآخر في الاستعمال فعل، وإن لم يمكن وامكن نسخ أحدهما بالآخر فعل.. فإن لم يمكن ذلك رجح أحدهما على الآخر بوجه من وجوه الترجيح، وقد أورد بعض العلماء هنا إشكالاً، وهو أن البحث هنا إنما هو في تعارض الحديثين المقبولين، لأن الحديث المقبول إذا عارضه حديث غير مقبول أخذ بالمقبول وترك الآخر، إذ لا حكم للضعيف مع القوي، وما ذكر في هذا الموضع يدل على أن الخبرين المقبولين قد يكون أحدهما راجحاً والآخر مرجوحاً، وقد لا يظهر وجه الترجيح فيتوقف فيهما، وقد تقرر أن الثقة إذا خالفه من هو أرجح منه سمي حديثه شاذاً، والشاذ من المردود، وإن الحديث إذا وقع الخلاف فيه بالإبدال في متنه أو سنده، ولا مرجح سمي حديثه مضطرباً، والمضطرب من المردود، فالقول المذكور وهو تقديم الجمع، ثم النسخ ثم الترجيح، هو المشهور في فصل التعارض.

وذهب بعض العلماء الى تقديم الترجيح، ثم
الجمع، ثم النسخ،
وذهب آخرون الى تقديم الترجيح، ثم النسخ، ثم الجمع

وقد ذكر بعض من ذهب الى تقديم الترجيح على ما سواه أن العقول مطبقة على تقديم الراجح على غيره، فتقديم غيره عليه هدم لقواعد الاصول، واما هذه الأصول فهي من تصرفات العقود، فكل من ابدى فيها وجها معقولا قبل منه وان خالف المشهور الذي عليه الجمهور.

نعم يسوغ تأويل المرجوح بعد تقديم الراجح عليه بحمله على الراجح عليه، من غير أن ينقص شيئا من معناه، وليس هذا من قبيل الجمع، فان الجمع هو أن يحمل كل منهما على بعض معناه.

واما قول من قال: الإعمال أولى من الإهمال، فان اراد الإعمال ولو مع رجحان غيره عليه فممنوع، وان اراد الإعمال مع تساوي الحديثين فمسلم.

وقال بعض المرجحين لهذا القول المخلص من التعارض من وجهين:

احدهما: ما يرجع الى الركن، بأن لم يكن بين الدليلين مماثلة، كنص الكتاب والخبر المتواتر مع خبر الواحد والقياس، أو خبر الواحد مع القياس، لأن شرط قبول خبر الواحد والقياس أن لا يكون ثمة نص من الكتاب والسنة المتواترة والاجماع بخلافه، وكذا اذا كان لأحد الخبرين من

الآحاد، أو لأحد القياسين رجحان على الآخر بوجه من وجوه الترجيح، لأن العمل بالراجح واجب عند عدم التيقن بخلافه، ولا عبرة للمرجوح بمقابلة الراجح، ولكن هذا انما يستقيم بين خبري الواحد وبين القياسين.. وهذا يحتمل التزايد من حيث القوة بوجوه الترجيح، فأما بين النصين كتابا وسنة متواترة في حق الثبوت فلا يتصور الترجيح، لأن العلم بثبوتها قطعي، والعلم القطعي لا يحتمل التزايد في نفسه من حيث الثبوت، وان كان يحتمله من حيث الجلاء والظهور، اذا وقع التعارض في موجبهما، بأن كان أحدهما محكما والآخر فيه احتمال، فالمحكم اولى.

وثانيهما: ما يرجع الى الشرط، بأن لا يثبت التنافي بين الحكمين، ويتصور الجمع بينهما، لاختلاف المحل والحال، والقيد والاطلاق، والحقيقة والمجاز، واختلاف الزمان حقيقة أو دلالة.

وبيانه ان النصين اذا تعارضا، ولم يكن أحدهما خاصا والآخر عاما، فإما ان لا يكون بينهما زمان يصلح للنسخ، ففي الخاصين يحمل أحدهما على قيد أو حال أو مجاز ما أمكن، وفي العامين من وجه يحمل على وجه يتحقق الجمع بينهما في العامين لفظاً يحمل أحدهما على بعض، والآخر على

بعض آخر، او على القيد والاطلاق، واما أن يكون بينهما زمان يصلح للنسخ، بأن كان المكلف يتمكن من الفعل والاعتقاد، أو من الاعتقاد لا غير، على الاختلاف فيه، فيمكن العمل بالطريقين: بالتناسخ والتخصيص، والتقييد والحمل، على المجاز في العامين والخاصين، فأصحاب الحديث يرون العمل بطريق التخصيص والبيان أولى.[1]

- وجوه الترجيح بين الأخبار:

أما وجوه الترجيح بين الأخبار فقد سرد منها الحازمي في كتابه (الناسخ والمنسوخ) خمسين وجها مع اشارته الى زيادتها على ذلك، وهو كذلك، وقد أوصلها السيوطي في التدريب الى مائة، ثم قال: وثمة مرجحات أُخر لا تنحصر، ومثارها غلبة الظن، ومنها: كثرة الرواة، وقلة الوسائط، وفقه الراوي، وحفظه، وزيادة ضبطه، وأن يتفق على عدالته، أو يكثر مزكوه، الى غير ذلك من الأمور.[2]

- شبهات:

وقد شغلني من أمر السنة منذ عقلت ما تنطوي عليه من حقائق ومعارف، ونفائس وجواهر، ثم ما حاوله المفسدون

---

(١) توجيه النظر/٢٣٦

(٢) مقدمة فتح الملهم/١٢٥ بتصرف، والاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار/٦-١٥

والمضللون من التوهين بشأنها، وصرف المسلمين من الرجوع اليها، بتلك الغيوم المتكاثفة التي أثاروها حولها حتى أصبحت المشكلات جاثمة على العقول والقلوب، وظل ذلك عدة قرون تتابعت وتلاحقت، أضف الى ذلك: ما قام به المنافقون الذين كانوا أضر على الدين من عتاة الملحدين، وقد تكاثر هؤلاء على مر الأجيال، واختلاف الأحوال.

ثم تفاعلت تلك العناصر وتداخلت، حتى كان لها أسوأ الآثار من الانصراف عن الكتاب والاعراض عن السنة.

• هذا وغيره قد ألقى ظلالا متراكمة، كلها دخن، وأضاف أمواجا من الكذب والتشكيك والتضليل والتلفيق، سترت جواهر الحقيقة، بل أخفته بطعون المستشرقين وتلاميذهم التي سموها باسم العلم والدين، وقد برىء منها كل من العلم والدين.

ولكنه وإلى الله المشتكى قد أخفي علينا معالم ديننا، ومتوارث تراثنا، حتى لم يعد لنا منه الا ما تتعاطاه الأقلام، وتحبره المطابع، دون عقيدة صالحة، ودون فكرة خالصة.

ذلكم هو شأن موضوعنا، فالبحوث الجوهرية قد عافتها محاولات الباحثين لصعوبتها تارة، ولغلبة منطق النعامة تارة أخرى، حتى شاع بين الباحثين التوجس من البحث الجاد مخالفة التعب والدأب.

- تحكيم العقل في النقل:

ومن أهم مظاهر الانحراف، تحكيم العقل في النقل، ورد بعض الأحاديث الصحيحة دون ما تمييز بين ما يستطيع العقل أن يدركه وما لا يستطيع، وبين ما يدركه وما يرفضه. ويحسن أن نذكر طرفا من أقوال الذين ذهبوا الى تقديم العقل على النقل وفق ما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية:[١]

اذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية، أو السمع والعقل، أو النقل والعقل، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية، أو نحو ذلك من العبارات، فاما أن يجمع بينهما وهو محال لأنه جمع بين النقيضين، واما ان يردا جميعا، واما ان يقدم السمع، وهو محال، لأن العقل أصل النقل فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحا في العقل الذي هو أصل النقل، والقدح في أصل الشيء قدح فيه فكان تقديم النقل قدحا في النقل والعقل جميعا، فوجب تقديم العقل؛ ثم النقل اما أن يتأول، واما أن يفوّض، وأما اذا تعارضا تعارض الضدين امتنع الجمع بينهما، ولم يمتنع ارتفاعهما.

وهذا الكلام قد جعله الرازي واتباعه قانونا كليا فيما يستدل به من كتب الله وكلام أنبيائه وما لا يستدل به،

---

(١) موافقة صريح المنقول لصريح المعقول ١/١ وما بعدها بتصرف.

ولهذا ردوا الاستدلال بما جاء به الأنبياء والمرسلون في صفات الله تعالى، وغير ذلك من الأمور التي أنْبؤوا بها، وظن هؤلاء ان العقل يعارضها، وقد يضم بعضهم الى ذلك ان الأدلة السمعية لا تفيد اليقين..

وأما هذا القانون الذي وضعوه فقد سبقهم اليه طائفة، منهم ابو حامد، وجعله قانونا في جواب المسائل التي سئل عنها في نصوص أشكلت على السائل، كالمسائل التي سأله عنها القاضي ابو بكر في كثير من تلك الأجوبة، وكان يقول: شيخنا ابو حامد دخل في بطون الفلاسفة، ثم أراد ان يخرج منها فما قدر، وحكى هو عن ابي حامد نفسه انه كان يقول: أنا مزجي البضاعة في الحديث، ووضع ابو بكر بن العربي هذا قانونا آخر، مبنياً على طريقة ابي المعالي ومن قبله كالقاضي ابي بكر الباقلاني.

ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء يضع كل فريق لأنفسهم قانونا فيما جاء به الأنبياء عن الله، فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا ان عقولهم عرفته، ويجعلون ما جاء به الأنبياء تبعا، فما وافق قانونهم قبلوه، وما خالفه لم يتبعوه وهذا يشبه ما وضعه النصارى من أمانتهم التي جعلوها عقيدة ايمانهم، وردوا نصوص التوراة والانجيل اليها، لكن تلك الأمانة اعتمدوا فيها على ما فهموه من

نصوص الأنبياء أو ما بلغهم عنهم، وغلطوا في الفهم أو في تصديق الناقل، كسائر الغالطين، ممن يحتج بالسمعيات، فان الغلط اما في الاسناد واما في المتن، وأما هؤلاء فوضعوا قوانينهم على ما رأوا بعقولهم، وقد غلطوا في الرأي والعقل، فالنصارى أقرب الى تعظيم الأنبياء والرسل من هؤلاء، لكن النصارى يشبههم من ابتدع بدعة بفهمه الفاسد من النصوص، أو بتصديقه النقل الكاذب عن الرسول كالخوارج، والوعيدية والمرجئة والامامية وغيرهم، بخلاف بدعة الجهمية والفلاسفة فانها مبنية على ما يقرون بأنه مخالف للمعروف من كلام الأنبياء، وأولئك يظنون أن ما ابتدعوه هو المعروف من كلام الأنبياء، وأنه صحيح عندهم.

ولهؤلاء في نصوص الأنبياء طريقتان: طريقة التبديل، وطريقة التجهيل.

أما أهل التبديل فهم نوعان: أهل الوهم والتخييل، وأهل التحريف والتأويل.

فأهل الوهم والتخييل هم الذين يقولون: ان الأنبياء أخبروا عن الله، وعن اليوم الآخر، وعن الجنة والنار، بل وعن الملائكة، بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه، لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون أن الله جسم عظيم، وأن الأبعاد تعاد، وان لهم نعيما محسوسا وعقابا محسوبا، وان كان

الأمر ليس كذلك في نفس الأمر، لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون به ويتخيلون أن الأمر هكذا، وان كان هذا كذبا فهو كذب لمصلحة الجمهور، اذ كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن الا بهذه الطريق.

وقد وضع ابن سينا وامثاله قانونهم على هذا الأصل... وهؤلاء يقولون: الأنبياء قصدوا بهذه الألفاظ ظواهرها، وقصدوا أن يفهم الجمهور منها هذه الظواهر، وان كانت هذه الظواهر في نفس الأمر كذبا، وباطلا، ومخالفة للحق، فقصدوا افهام الجمهور بالكذب والباطل للمصلحة.

ثم من هؤلاء من يقول: النبي كان يعلم الحق، ولكن أظهر خلافه للمصلحة.

ومنهم من يقول: ما كان يعلم الحق، كما يعلمه نظار الفلاسفة وامثالهم، وهؤلاء يفضلون الفيلسوف الكامل على النبي، ويفضلون الولي الكامل الذي له هذا المشهد على النبي، كما يفضل ابن عربي الطائي، خاتم الأنبياء -في زعمه- على الأنبياء وكما يفضل الفارابي ومبشر بن فاتك وغيرهما الفيلسوف على النبي.

وأما الذين يقولون: ان النبي كان يعلم ذلك فقد يقولون: إن النبي افضل من الفيلسوف، لأنه علم من علمه الفيلسوف

وزيادة، وامكنه ان يخاطب الجمهور بطريقة يعجز عن مثلها الفيلسوف، وابن سينا وامثاله من هؤلاء.

وهذا في الجملة قول المتفلسفة والباطنية، كالملاحدة الاسماعيلية، واصحاب رسائل (اخوان الصفا) وملاحدة الصوفية، وخلق كثير، ومن الناس من يوافق هؤلاء فيما اخبر به الأنبياء عن الله: أنهم قصدوا به التخييل دون التحقيق، وبيان الأمر على ما هو عليه دون اليوم الآخر..

وأما أهل التحريف والتأويل فأمرهم واضح، وكذلك اهل التجهيل.

وفي الجملة، فهذه طرق خلق كثير من المتكلمين وغيرهم، وعليه بنى سائر هؤلاء المخالفين مذاهبهم من المعتزلة وغيرهم.

وهؤلاء مشتركون في القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التي يجعلونها مشكلة او متشابهة، ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير ما يجعله الآخر.

- تقدم النقل على العقل:

قال الشاطبي:[١] ان الله جعل للعقول في ادراكها حدا تنتهي اليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلا الى الادراك في كل

(١) الاعتصام ٢/٢٧٥ وما بعدها بتصرف.

مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في ادراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون... فمعلومات الله لا تتناهى، ومعلومات العبد متناهية، والمتناهي لا يساوي ما لا يتناهى.

وقد دخل في هذه الكلية ذوات الأشياء جملة وتفصيلا، وصفاتها، وأفعالها، وأحكامها جملة وتفصيلا، فالشيء الواحد من جملة الأشياء يعلمه الباري تعالى على التمام والكمال، بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، في ذاته ولا في صفاته ولا في أحواله ولا في أحكامه، بخلاف العبد فان علمه بذلك الشيء قاصر ناقص، سواء كان في تعقل ذاته او صفاته أو أحواله، أو أحكامه، وهو في الإنسان أمر مشاهد محسوس، لا يرتاب فيه عاقل تخرجه التجربة إذا اعتبرها الإنسان في نفسه.

ومضى الشاطبي يعدد الوجوه، ويقيم الأدلة، على ان العقل لا يجعل حاكما باطلاق، وقد ثبت عليه حاكم باطلاق، هو الشرع، بل الواجب ان يقدم ما حقه التقديم، وهو الشرع، ويؤخر ما حقه التأخير، وهو العقل، لأنه لا يصح تقديم الناقص حاكما على الكامل، وهو خلاف المنقول والمعقول، بل ضد النضية هو الموافق للأدلة ولذلك قال:

اجعل الشرع في يمينك، والعقل في يسارك، تنبيها على

تقدم النقل على العقل.

- مكانة العقل:

ومن هنا نستطيع ان ندرك ان العقل عين مبصرة للانسان، يرى بها جلال عظمة الخالق سبحانه وتعالى فيما أبدع، قال تعالى: «ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»[١].

وقال عز وجل: «ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعوداً و على جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار»[٢].

وقال جل شأنه: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[٣].

---

(١) البقرة/ ١٦٤

(٢) آل عمران/ ١٩٠-١٩١

(٣) يونس/ ١٠١

وهؤلاء الذين ينكرون على العقل وجوده ودوره في التذكر والتفكر، ليسوا أهلا للسؤال، لأنه ليس ثمة عقل يدرك، وليس ثمة فكر يعي، وليس ثمة فارق بين هؤلاء، ومن لا يعقل اصلا، وصدق الله العظيم: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾[1]. ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات ان الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع من في القبور ان انت الا نذير﴾[2]. وهم جميعا: «أموات غير أحياء»[3]

واذا ما كان العقل عينا مبصرة للانسان يرى بها جلال عظمة الخالق جل شأنه، ويدرك مشاعر الخشية والجلال، والعظمة والكمال، فان الاسلام وضع الانسان في مكانه المناسب بين خلق الله، لأنه ليس ملكاً يطالب بما يطالب به الملك، وليس شيطانا يهيم على وجهه، انما هو صراع بين حقيقتين عجيب، وتأرجح بين نهايتين غريب، الجسد يدفعه الى أصله ومركزه، بكثافة هذا الأصل وتبلده، وثقل هذا المركز وظلامه، وصدق الله العظيم: «ولقد خلقنا الانسان من

---

(١) الزمر/ ٩

(٢) فاطر/ ١٩-في٢٢

(٣) النحل/ ٢١

صلصال من حمأ مسنون »[1]. « انا خلقناهم من طين لازب ».[2]

والروح تجذبه الى أصلها ومنبعها، وتناديه بمنصبه ومركزه، وتذكره بمكانته ومهمته وتبعث فيه القوة الدافعة، وتحيي فيه الحركة الدافقة، فينتصر على كثافة المادة وحقارتها، وذلك منصبه الذي رشح له، وتلك غايته المنوطة به، فهو الكائن الوحيد الذي تتمثل فيه كل نواحي الوجود، وهو الحد الوسط العجيب في سلسلة الموجودات، وهو المركز الذي يبدأ منه التفلسف، ويتركز حوله النظر، فينتقل منه العقل بسهولة ويسر في حركته التصاعدية الى من هو أرقى منه في الوجود وفي حركته التنازلية الى ما هو دونه فيه.

والانسان مطالب بأن يرعى هذا الغرس الطيب فيه، وان ينتفع به، بطريق العين المبصرة فيه، في دائرة الشرع، لا يحيد ولا يزيغ، لأن العقل لا يستقل بنفسه، ولأنه اذا استبد به الغرور ولم يقبس من النور الالهي ضل وغوى، وسقط وهوى. وصدق الله العظيم: « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور »[3]

---

(١) الحجر/ ٢٦

(٢) الصافات/ ١١

(٣) النور/ ٤٠

- نور على نور:

واذا ما كان العقل عين الانسان المبصرة، التي ينظر بها ويرى، فان النقل هو الشعاع الذي يضيء لهذه العين المبصرة ان تنظر وترى. وصدق الله العظيم: « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط مستقيم »[1] « نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء »[2].

« وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا »[3]. وهما معا متعاضدان، ولذا سلب الحق اسم العقل من الذين حادوا عن فطرتهم السليمة التي فطرهم عليها، لأنهم: « صم بكم عمي فهم لا يعقلون ».[4]

والله اذ بعث رسله، وانزل كتبه، منح الناس عقولهم للنظر والتفكر، والتأمل والتدبر ودعاهم الى ذلك، كما عرفنا، ولهذا كان من الأسس التي قام عليها الاسلام، انه: « لا اكره في الدين ».[5]

ولما كان العقل بهذه المثابة، كان اقرب الناس الى الله

---

(١) المائدة/ ١٥-١٦

(٢) النور/ ٣٥

(٣) الشورى/ ٥٢

(٤) البقرة/ ١٧١

(٥) البقرة/ ٢٥٦

أولئك الذين فتح لهم العقل السليم، والفكر القويم، طريق العلم النافع، بصائر وهدى: «انما يخشى الله من عباده العلماء»[1]. وكان ان جاء اسم العلم في مقام التنويه به اكثر من خمس وسبعين وسبعمائة مرة في القرآن الكريم.

ودائما نجد النقل أمرا ضروريا لا بد منه، ليسد النقص الوارد من تكوين الانسان، والناتج من اختلاف العقول والادراكات، مع ان كل انسان لو ترك بعيدا عن المؤثرات الضارة الغريبة عن فطرته التي فطره الله عليها، لكانت تلك الفطرة قوة دافعة له الى الحق والخير وآخذة بيده الى الحق والخير، ولكان النقل دليلا هاديا ضروريا لبيان الحق والخير ومنقذا من مسارب الظلام، ومتاهات الضلال التي تتسرب اليه، وتتداعى عليه.

ومن هنا يكون دور النقل عظيما لأنه الضمان الوحيد لتلك الفطرة، يقيلها من عثراتها حين تتعثر، ويأخذ بيدها حين تهبط، ولأنه النور الذي يبدد الظلام من حولها في كل آن.

- افراط وتفريط:

واذا كان هناك من يجعل العقل حاكما على النقل، يقبل

---

(١) فاطر/٢٨

منه ما يقبله، ويرد ما يرده، كما اسلفنا، فان هناك ايضا من ينكر على العقل وجوده، ليفهم ويدرك، ويتأمل ويتدبر، وكلا الفريقين بعيد عن الحق، منحرف عن الهدى، فالهابط بالعقل الى عالم البهائم، والمستعلي به الى حد القوامة، كلاهما بعيد عن الصواب، وهذا افراط وتفريط.

وينبغي ان ندرك الفرق بين ما يرفضه العقل وما لا يدركه، لأن الأول يصطدم مع الناموس الكوني، ودور الانسان المنوط به في الحياة، ولأن الثاني هو شأن العقل ازاء ادراكات الكليات لهذا الناموس، وادراكات بعض الجزئيات التي لا يستطيع ان يدركها بحال.

وسنضرب أمثلة واقعية لبعض العلماء والكتاب الذين وقعوا في خطأ مساواة العقل بالنقل وعدم معرفتهم بأصول السنة، ومدى خطورة ذلك في رد كثير من الأحاديث الصحيحة.

- دفاع عن السنة:

وقد نجح هؤلاء الخصوم الى حد ما في التأثير على كثير من ضعاف الايمان والتفكير فرأيت ان أوجب ما يفرضه الحق علينا ان نقاوم هذه الأباطيل، وان نوجهها بعوامل البناء لندحض معاول الهدم والافناء، ونرفع صرح الدين

لنجدد عهد السلف الصالحين.

ولهذا شمرت عن ساعد الجد، وقصدت بيان مشكلات الأحاديث، نصرا للسنة النبوية الشريفة، واحياء لعهودها الطيبة المرضية.

وأرجو أن أكون في دراستي على هذا النحو الذي يلمسه المتتبع لهذه الدراسات قد قدمت جديدا بما حاولت من استقصاء لمختلف الشبهات حول الأحاديث رواية ودراية، لدحضها بمختلف الأدلة المنقولة والمعقولة.

واذا كان غيرنا قد تناول ردودا على تلك الشبهات فان تلك الردود قد خلت من ذلك الاستيعاب الذي نحاوله بعون الله وتوفيقه في هذه الدراسات.

وقد يقول قائل: كان من الأحوط أن تجرد حقائق السنة على حدتها، مع تبيين عظمتها، دون ذكر للشبهات، فان الإعراض عن القول المطروح كما يقول مسلم في مقدمة صحيحه أحرى بإماتته، واهمال ذكر قائله، وأجدر ألا يكون ذلك تنبيها للجهال عليه؛ غير أنا لما تخوفنا من الشرور، واغترار الجهلة بمحدثات الأمور، واسراعهم الى اعتقاد الأخطاء والأقوال الساقطة عند العلماء رأينا الكشف عن فساد قولهم، ورد مقالتهم، جهد الطاقة أجدى على الأنام

وأحمد للعاقبة ان شاء الله.[1]

ثم ان هؤلاء الخفافيش قد كثر الكلام في تأليفهم وطال، واتسع مجال القيل والقال، ممن أصابهم العمى والاختبال، ولم يدركوا ميزان الضبط في الاستدلال، فلا بد أن نتعرض لنقض ضلالاتهم، وإلا فقد أضعنا خيرا كثيرا، وأتينا شرا مستطيرا.

وقد كنت اتهيب ان اخوض غمار البحث عن مشكلات الحديث وردها، لما يعتور ذلك من أهوال قد يشفق منها بعض الباحثين، ويتراجع أمامها كثير من الدارسين، لقلة ما يسعف من المصادر الأصلية، والحاجة إلى مضاعفة التنقيب والبحث من جهة، وضرورة تتبع ما قيل وما يقال من جهة ثانية.

لكني اقدمت آخر الأمر اقتناعا وايمانا بأن الله عز وجل يؤيد أنصار دينه، وحماة سنة نبيه.

واقتضت منهجية البحث أن أعالج مشكلات الأحاديث وفق قوانين الرواية التي هي عصمة من الزلل في هذا

---

(١) مقدمة صحيح مسلم/٢٢ بتصرف.

الشأن، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما عرصت له.

والله أسأل التوفيق والسداد، والعون والرشاد.

انه سميع مجيب

سعد محمد محمد الشيخ المرصفي

روى مسلم قال: حدثني سريج بن يونس، وهارون بن عبد الله، قالا: حدثنا حجاج بن محمد، قال: قال ابن جريج: أخبرني اسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن ابي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل» قال ابراهيم: حدثنا البسطامي «وهو الحسين بن عيسى» وسهل ابن عمار، وابراهيم ابن بنت حفص، وغيرهم عن حجاج بهذا الحديث.(١) هذا سند مسلم ولفظه ورواه أحمد باختصار(٢)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/١٣٣-١٣٤

(٢) مسند أحمد ٢/٣٢٧

وابن معين، وابن منده، والدولابي الثقفي، والبيهقي[١].

وهم ابن كثير:

وهم ابن كثير فقال: هذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه ابن المديني، والبخاري، وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة انما سمعه من كلام كعب الأحبار، وانما اشتبه على بعض الرواة، فجعلوه مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقي[٢].

وقال في تفسير قوله تعالى: «إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام..»[٣]:

روي من غير وجه عن حجاج، وهو ابن محمد الأعور، عن ابن جريج به،وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: «في ستة أيام» ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من روايه أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعا وهو الأصح ،وهو من غرائب الصحيح[٤] وقال: قال البخاري في التاريخ: وقال بعضهم عن كعب، وهو أصح، يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقاه

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٣/ ١١٢

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٦٩

(٣) الاعراف ٥٤

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٠، ٤/ ٩٤

من كعب الأحبار، فانهما كانا يصطحبان .ويتجالسان للحديث، فهذا يحدثه عن صحفه، وهذا يحدثه بما يصدقه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعا الى النبي ﷺ، وأكد رفعه بقوله: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي» ثم في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات، وفيه قصة خلق الأرض وما فيها في سبعة ايام، وهذا خلاف القرآن، لأن الأرض خلقت في اربعة ايام، ثم خلقت السموات في يومين من دخان.[1]

زعم صاحب المنار:

وزعم صاحب المنار ان هذا الحديث من الاسرائيليات فقال: قد ورد في الأخبار والآثار ان هذه الأيام الستة هي من ايام دنيانا، واقتصر عليه بعض مفسرينا، وذكر الحديث وقال: وهذا ظاهر في ان الخلق كان جزافا ودفعة واحدة لكل نوع في يوم من أيامنا القصيرة.

فالجواب: ان كل ما روى في هذه المسألة من الأخبار والآثار مأخوذ من الاسرائيليات لم يصح فيها حديث مرفوع، وحديث ابي هريرة هذا وهو اقواها مردود بمخالفة

---

(١) البداية والنهاية ١/١٧ وانظر الفتح الرباني. ٢٠/٨-٩

متنه لنص كتاب الله، واما سنده فلا يغرنك رواية مسلم به، فهو قد رواه كغيره عن حجاج بن محمد الأعور المصيصي عن ابن جريج، وهو قد تغير في آخر عمره، وثبت انه حدث بعد اختلاط عقله كما في تهذيب التهذيب وغيره، والظاهر ان هذا الحديث مما حدث به بعد اختلاطه ونقل قول ابن كثير وقال: فيكون رفع ابي هريرة له من خلط حجاج بن الأعور، وقد هدانا الله من قبل الى حمل بعض مشكلات احاديث ابي هريرة المعنعنة على الرواية عن كعب الأحبار الذي ادخل على المسلمين شيئا كثيرا من الاسرائيليات الباطلة والمخترعة، وخفي على كثير من المحدثين كذبه ودجله بتعبده، وقد قويت حجتنا على ذلك بطعن اكبر الحفاظ في حديث مرفوع عزي اليه فيه التصريح بالسماع.[1]

تقليد أعمى:

وقلد ابو رية شيخه فقال: ومن العجيب ان أبا هريرة قد صرح في هذا الحديث بسماعه من النبي ﷺ، وانه قد اخذ بيده حين حدثه به، واني لأتحدى الذين يزعمون أنهم على شيء من علم الحديث عندنا، وجميع من هم على شاكلتهم في غير بلادنا أن يحلوا لنا هذا المشكل.

---

(١) تفسير المنار ٨/٤٤٩

إن الحديث صحيح السند على قواعدهم - لا خلاف في ذلك - وقد رواه مسلم في صحيحه ولم يصرح بسماعه من النبي فقط، بل زعم ان رسول الله قد اخذ بيده وهو يحدثه به، وقد قضى أئمة الحديث بأن هذا الحديث مأخوذ عن كعب الأحبار، وأنه مخالف للكتاب العزيز، فمثل هذه الرواية تعد ولا ريب كذبا صراحا، وافتراء على رسول الله، فما حكم من يأتي بها؟ وهل تدخل تحت حكم حديث الرسول: «من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار»[1] أم هناك مخرج لراوي الحديث بذاته! إني والله لفي حاجة الى الانتفاع بعلمهم في هذا الحديث وحده الذي يكشف ولا ريب عن روايات ابي هريرة التي يجب الاحتياط الشديد في تصديقها!.

وقد بلغ من دهاء كعب الأحبار واستغلاله لسذاجة أبي هريرة وغفلته، أن كان يلقنه ما يريد بثه في الدين الاسلامي من خرافات وترهات، حتى اذا رواها ابو هريرة، عاد هو فصدق أبا هريرة، وذلك ليؤكد هذه الاسرائيليات، وليمكن لها من عقول المسلمين، كأن الخبر قد جاء عن أبي هريرة وهو في الحقيقة عن كعب الأحبار.[2]

---

(١) الحديث: «من كذب عليّ متعمد فليتبوأ مقعده من النار» حديث متواتر. ولكن أبارية يخالف، ويزعم انه ليس بهذا اللفظ، انظر / أضواء على السنة/٦١-٦٥

(٢) أضواء على السنة/٢٠٩-٢١٠

دعوى الدكتور محمد أبو شبهة:

وقال الدكتور محمد أبو شبهة: هذا الحديث قد تنبه إليه المحدثون من قديم الزمان وأعلّوه وتكلموا فيه، فمنهم من قال: أنه غير ثابت، لأن اسماعيل بن أمية إنما أخذه عن ابراهيم بن أبي يحيى، وابراهيم لا يحتج به، فقد سئل عنه علي بن المديني شيخ البخاري فقال: « وما أرى اسماعيل بن أمية أخذ هذا الا من ابراهيم بن أبي يحيى » وابراهيم بن أبي يحيى هذا قال فيه الإمام أحمد: «كان قدرياً معتزلياً جهمياً، كل بلاء فيه، ترك الناس حديثه، وكان يضع » وقال ابن معين: «كذاب رافضي» فبمثل هذا السند لا يثبت متن الحديث، ولا المشابكة المسلسل بها بسبب وجود ابراهيم في السند صراحة أو تدليساً[1]. وإذا كان الحديث مختلقاً مكذوباً على النبي وعلى أبي هريرة ومن جاء بعده من الثقات فلا يصح أن يرتب عليه باحث حكماً هو فرع عن ثبوته.

- ومنهم من أنكر رفع الحديث الى النبي ﷺ، وأن أبا هريرة انما أخذه من كعب الأحبار وأن بعض الرواة وهم في رفعه، والأصح وقفه على كعب، وإلى هذا ذهب

---

(١) الاسماء والصفات/ ٣٨٤

امام الأئمة البخاري فقال: «رواه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار وهو الأصح» ووافقه على هذا العلامة ابن كثير... ومهما يكن من شيء فأبو هريرة بريء مما غمزه أبو رية ولمزه واتهمه من رفع الحديث الى رسول الله ﷺ والكذب عليه حتى صار يتهكم بأبي هريرة ما شاء له هواه أن يتهكم ويزيد في ذلك ويعيد، لأنه ان كان الأمر كما قال ابن المديني ومن تابعه فيكون أبو هريرة بريء كل البراءة من تبعة هذا الحديث، ويكون كل ما نسب الى أبي هريرة في الحديث من لفظه ومن سماعه، وقوله: «أخذ رسول الله بيدي» غير ثابت ولا يعدو أن يكون مجرد افتراء قصد به الواضع التلبيس والتمويه واظهار الباطل المزور في صورة الحق الثابت المؤكد، وان كان الأمر كما قال البخاري وابن كثير فيكون أبو هريرة بريء من تبعة رفعه، وانه لم يقل: «سمعت رسول الله... ولا: أخذ بيدي..» الخ، وانما الواهم توهم الرفع فرفعه وأكده بهذا.[1]

رد الطعن في السند والمتن:

ونظرا لأن الطعن الموجه الى السند يكمن في حجاج بن محمد المصيصي الأعور بالدرجة الأولى، نذكر ما قاله ابن

(١) دفاع عن السنة/١٥٨-١٥٩

حجر في تهذيب التهذيب حتى نعرف مكانة هذا الراوي عند المحدثين.

حجاج بن محمد المصيصي:

حجاج بن محمد المصيصي الأعور، ابو محمد مولى سليمان بن مجالد، ترمذي الأصل سكن بغداد، ثم تحول الى المصيصة، روى عن حريز بن عثمان، وابن أبي ذئب، وابن جريج والليث، وشعبة، ويونس بن أبي اسحاق، واسرائيل بن يونس، وحمزة الزيات، وجماعة، وعنه أحمد، ويحيى بن معين، ويحيى، وأبو عبيد، وأبو معمر الذهلي، وأبو خيثمة والنفيلي، وقتيبة، وصاعقة، والذهلي، وابن المنادي، والدوري، وخلق، وروى عنه ابو خالد الأحمر وهو من أقرانه، قال احمد: ما أضبطه وأشد تعاهده للحروف، ورفع امره جدا، وقال مرة: كان يقول: حدثنا ابن جريج، وانما قرأ على ابن جريج، ثم ترك ذلك، فكان يقول: قال ابن جريج: وكان صحيح الأخذ، وقال أحمد أيضاً: سمع التفسير من ابن جريج إملاءً وقرأ بقية الكتب، وقال صالح بن أحمد: سئل أبي أيهما أثبت حجاج أو الأسود بن عامر؟ فقال: حجاج، وقال الزعفراني: سئل ابن مقبل أيهما أحب اليك حجاج أو أبو عاصم؟ فقال: حجاج، وقال المعلمي

الرازي: قد رأيت اصحاب ابن جريج ما رأيت فيهم أثبت من حجاج، وقال علي بن المديني والنسائي: ثقة، وقال ابو ابراهيم اسحاق بن عبد الله السلمي: حجاج نائما اوثق من عبد الرزاق يقظا، وقال ابن سعد: تحول الى المصيصة، ثم قدم بغداد في حاجة فمات بها سنة (٢٠٦) وكان ثقة صدوقا ان شاء الله، وكان قد تغير في آخر عمره حين رجع الى بغداد، وقال ابراهيم الحربي: أخبرني صديق لي قال: لما قدم حجاج الأعور آخر قدمة الى بغداد خلط، فرأيت يحيى بن معين عنده، فرآه خلط، فقال لابنه: لا تدخل عليه أحدا، قال: فلما كان بالعشي دخل الناس فأعطوه كتاب شعبة فقال: حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن عيسى بن مريم عن خيثمة، فقال يحيى لابنه: قد قلت لك.. وقد وثقه أيضا مسلم، والعجلي، وابن قانع، ومسلم بن قاسم، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: مات في ربيع الأول.(١)

هذا هو حجاج بن محمد المصيصي الأعور، وسبق أن ذكرنا ما قاله صاحب المنار من أن الظاهر أن الحديث مما حدث به بعد اختلاطه.

وهنا تأخذنا الدهشة من تقريره هذا، أنى له ذلك!

---

(١) تهذيب التهذيب ٢/٢٠٥-٢٠٦

والمحدثون الذين رووا هذا الحديث يعلمون ذلك جيدا، ولهم مكانتهم التي لا يدانيهم فيها صاحب المنار وأمثاله فاستظهاره هذا لم يسلم له بحال، بل نجد تضاربه في ذكر الاسم واضحا حيث قدم فيه واخر، وطعن في الصحابي الجليل أبي هريرة، لأنه واقع في تأثير رد الحديث بمجرد تحكيم العقل القاصر في النقل، وبمجرد التقليد في رد الحديث.

رأى البخاري في التاريخ الكبير:

وعمدتهم كذلك ما ذكره البخاري في التاريخ الكبير في ترجمة أيوب بن خالد بن أبي أيوب الأنصاري، قال: وروى اسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد الأنصاري، عن عبد الله ابن رافع، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «خلق الله التربة يوم السبت...» وقال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب، وهو أصح.[1]

رأى البيهقي في الأسماء والصفات:

وعمدتهم أيضا ما رواه البيهقي في الأسماء والصفات، قال: أخبرنا عبد الله الحافظ أخبرني أبو يحيى أحمد بن محمد

---

(١) التاريخ الكبير ١/٤١٣-٤١٤ رقم ١٣١٧

السمرقنـدي ببخارى، حدثنا أبو عبد الله محمد بن نصر، حدثني محمد بن يحيى قال: سألت على بن المديني عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «خلق الله التربة يوم السبت..» فقال علي: هذا حديث مدني، رواه هشام بن يوسف، عن ابي جريج عن اسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن أبي رافع مولى ام سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، قال علي: وشبك بيدي ابراهيم ابن أبي يحيى وقال لي: شبك بيدي أيوب بن خالد، وقال لي: شبك بيدي أبو القاسم ﷺ، وقال لي: «خلق الله التربة يوم السبت...» فذكر الحديث بنحوه. قال علي بن المديني: وما أرى اسماعيل بـن أمية أخذ هذا الا من ابراهيم بن أبي يحيى، قال البيهقي: قلت: وقد تابعه على ذلك موسى بن عبيدة الربذي، عن أيوب بن خالد إلا أن موسى بن عبيدة ضعيف.

سند ابن الجزري:

وقال الدكتور / محمد السماحي: بالرجوع الى ثبت الأمير الذي أجازنا بمحتوياته استاذنا الشيخ محمد ــب الله بـن ما يأبـى الشنقيطي، وجدنا فيه السند إلى الجزري قال: أنبأنـا أبو حفص المزني: وشبك بيدي ا ابن الحسن

المقدسي، وشبك بيدي حدثنا عمر بن سعيد الحلبي، وشبك بيدي، أنا ابو الفرج الثقفي، وشبك بيدي أنا الحافظ اسماعيل التميمي وشبك بيدي، انا ابو محمد الحسن السمرقندي، وشبك بيدي، انا الحافظ اسماعيل التميمي، وشبك بيدي، أخبرنا ابو بكر احمد بن عبد العزيز المكي، وشبك بيدي، أنا ابو الحسن محمد بن طالب، وشبك بيدي، انا ابو عمر بن الشرود الصاغاني، وشبك بيدي، قال: شبك بيدي أبو عبد العزيز بن الحسن، قال: شبك بيدي ابراهيم ابن ابي يحيى، وقال: شبك بيدي صفوان بن سليم، وقال: شبك بيدي أيوب بن خالد الأنصاري، وقال: شبك بيدي عبد الله بن رافع، قال: شبك بيدي أبو القاسم ﷺ.

وذكر سند ابن الجزري كذلك بطريقة المسلسل بالمشابكة ابن عابد في ثبته (عقود اللآلي في الأسانيد العوالي).

وذكره أيضا اللكنوي محمد عبد الباقي الأيوبي في كتابه (المناهل السلسلة في الأحاديث المسلسلة) ثم قال بعد ذكره للحديث: أخرجه الديباجي في مسلسلاته ثم قال: قال محمد عابد: وقد جمع السخاوي غالب طرق هذا المسلسل، ثم قال: مدار تسلسله على ابراهيم بن يحيي، وهو ضعيف، وأما المتن فصحيح، وروينا عن الشمس السخاوي بالسند المذكور في

حديث دعاء الفرج: خبرتني سارة بنت عمر، ثم ساق السند الى ابن جريج من طريق حجاج بن محمد المصيصي الأعور، قال ابن جريج: أخبرنا اسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله.. الحديث، قال: أخرجه مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه، وأحمد في مسنده، قال ابن الطيب: وصرح بصحته في العقود والجياد والمقاليد والمنح وغيرها، ولم يلتفتوا لكونه تكلم فيه البخاري في التاريخ، وابن المديني والبيهقي، باحتمال أنه مما رواه أبو هريرة عن كعب الأحبار، لأن رد التقول بالاحتمالات غير معتد به. أ هـ [1]

رد الدكتور / محمد السماحي:

وقد رد الدكتور محمد السماحي على ضلالات أبي رية فقال:[2] لم يكن أبو هريرة بحاجة الى أن يحدث عن كعب عن رسول الله، حتى يحمل ما عنعنه أبو هريرة على أنه أخذه عن كعب، وأبو هريرة قد غش بذلك الأمة، وانخدع به الصحابة، وكبار التابعين، ونقلوا عنه ما رواه عن كعب على أنه من رسول الله، وأوقع العلماء بعد ذلك في هذا اللبس.

ان الذي قرره العلماء أن الصحابي اذا قال: قال رسول

---

(١) أبو هريرة في الميزان/٢١٧-٢١٨ والاسماء والصفات/٣٨٤

(٢) المرجع السابق/٢١٥ وما بعدها بتصرف.

الله، أو عن رسول الله حمل على السماع ما لم يصرح أو تقم قرينة على أنه رواه عن صحابي عن رسول الله ﷺ.

قال الكمال: (اذا قال الصحابي: قال عليه الصلاة والسلام حمل على السماع، وقال القاضي - الباقلاني - يحتمله والإرسال، فلا يضر، إذ لا يرسل إلا عن صحابي، ولا يعرف في الأكابر عن الأصاغر روايته عن تابعي إلا كعب الأحبار في الاسرائيليات) قال شارحه: وتعقبه السبكي بأن الذي نص عليه القاضي في التقريب حمل (قال) على السماع، ولم يحك فيه خلافا، قال السبكي: بل ولا احفظ عن احد فيه خلافاً). أ هـ.

واذا كانت العنعنة من غير الصحابي تحمل على السماع اذا عاصره على قول، او لاقاه على قول آخر، ما لم يكن مدلسا فهل تحمل في الصحابي على السماع، قال ابن الحاج في شرح الكمال: قال الحاكم: الأحاديث المعنعنة التي ليس فيها تدليس متصلة باجماع اهل النقل، وزاد ابو عمرو الداني اشتراط ان يكون معروفا بالرواية عنه، والأوجه حذف هذا الشرط، وقال الخطيب: اهل العلم مجمعون على ان قول المحدث حدثنا فلان صحيح معمول به اذا كان لقيه وسمع منه، وقال الشيخ زين الدين العراقي: اختلفوا في حكم الاسناد المعنعن: فالصحيح الذي عليه العمل وذهب اليه

الجماهير من أئمة الحديث وغيرهم انه من قبيل الاسناد المتصل بشرط سلامة الراوي بالعنعنة من التدليس، وبشرط ثبوت ملاقاته لمن رواه عنه بالعنعنة، ثم قال: وما ذكرنا من اشتراط ثبوت اللقاء هو مذهب ابن المديني، والبخاري، وغيرهما من أئمة هذا العلم، وانكر مسلم في خطبة صحيحه اشتراط ذلك، وادعى انه قول مخترع، لم يسبق قائله اليه، وان القول الشائع المتفق عليه من اهل العلم بالأخبار قديما وحديثا انه يكتفي في ذلك ان يثبت كونهما في عصر واحد، وان لم يأت في خبر قط أنهما اجتمعا وتشافها، قال ابن الصلاح: وفيما قاله مسلم نظر.

أما قوله: «على انه صرح بالسماع في حديث: خلق الله التربة... الخ» فهو قول من لا يدري ما يقول، وكان حقه ان الذين جزموا - على حد قوله - بأنه من رواية كعب لم يتهموا أبا هريرة بأنه كذب على الرسول بان حصلوا ذلك على انه معلول فيما دون ابي هريرة، وقد مر بك رأي البخاري، ورأي البيهقي...

فأنت ترى أن المحدثين اعلوه بأن اسماعيل بن أمية انما اخذه عن ابراهيم بن ابي يحيى وابراهيم اخذه عن ايوب، وقالوا: ان ابراهيم غير محتج به، ومتابعة موسى بن عبيدة لم تقوه، لأن موسى بن عبيدة ضعيف، والحديث مخالف لما عليه

المفسرون والمؤرخون، فهو غير محفوظ، ولو صح ما قاله ابن المديني من ان اسماعيل انما اخذه عن ابراهيم، وابراهيم اخذه عن ايوب، كانت رواية اسماعيل له عن ايوب منقطعة، ولو صحت رواية ابن الجزري - التي سبق ذكرها - من أن ابراهيم بن ابي يحيى انما اخذه عن صفوان بن سليم، وصفوان اخذه عن ايوب، كانت رواية اسماعيل عن ايوب معضلة، اذ يكون سقط منها ابراهيم وصفوان من مكان واحد، غير انك لو علمت أن اسماعيل بن أمية توفي سنة ١٤٤ وتوفي ابراهيم سنة ١٨٤ وتوفي صفوان سنة ١٣٢ وأيوب بن خالد اخذ عنه اسماعيل بن أمية كما في الخلاصة علمت ان الحكم بأن اسماعيل انما اخذه من ابراهيم اتهام صارخ لاسماعيل بالتدليس في شيء مما رواه.

لذلك عدل البخاري فأخرجه في التاريخ في ترجمة أيوب، وقال: (قال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب، وهو أصح) اي انه وهم فيه ايوب على احتمال، ولم يجزم بخطئه كما زعم شيخ المحدثين - على زعم الباحث - رشيد، قال: وهو أصح، وأفعل التفضيل لم ينف الصحة عن ايوب، فهو من قبيل صحيح وأصح، والأصح مقدم على الصحيح، هذا هو كلام المحدثين، فلم يشتط صاحبنا الباحث واستاذه ويرمون ابا هريرة بالكذب؟! مع انك قد علمت أن تعليلهم

للحديث لم يسلم عند كثيرين من المحدثين غيرهم، وعلى رأسهم مسلم، والنسائي، واحمد، ومخالفة المفسرين له والمؤرخين لا تقوى على رده، ولا تجعله غير محفوظ.

الحديث الصحيح:

ومن صحح الحديث، غير ما سبق، الشوكاني، وقد بين هؤلاء الاعلام انه لا تعارض بينه وبين نص القرآن، فان القرآن ذكر ان الله خلق السموات والأرض جميعا في ستة أيام، وخلق الأرض وحدها في يومين، والحديث انما بين ان الله تعالى خلق السموات والأرض جميعا في ستة أيام، ويحتمل ان تكون هذه الأيام السبعة غير الأيام الستة التي ذكرها الله تعالى في خلق السموات والأرض، وحينئذ لا تكون معارضة، وانما الحديث فصَّل كيفية الخلق وحدها، والله اعلم.[1]

علمت ان الحديث صحيح ولا وجه للمخالفة لكتاب الله بحال، فالله اعلم بمراده، قال تعالى: «وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون»[2] وقال: «في يوم كان مقداره خمسين الف سنة»[3] وقال: «وما أوتيتم من العلم الا قليلا»[4]،

---

(١) جامع الأصول ٤//٢٦ بتصرف.

(٢) الحج/٤٧

(٣) المعارج/٤

(٤) الاسراء/٨٥

ويسعنا ما وسع الصحابة الاعلام حينما سمعوا الأحاديث المشكلة وصدقوا ولم يطعنوا لمجرد ان العقل لا يستطيع ان يدرك المعنى، ويسعنا ايضا أن لا نكون ممن يردون ما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، وان لا نخالف اجماع المسلمين سلفا وخلفا في تصديق أبي هريرة رضي الله عنه، وفي عدم الخوض في المتشابه ما دام قد صح سندا ومتنا، وهذه الأيام التي خلق الله عز وجل فيها هذا الخلق غيب لم يشهده احد من البشر: «ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق انفسهم»[١] وكل محاولة تحكمية في التأويل منشؤها الظنون والفروض، ومحاولة تحكيم العقل القاصر في النقل.

٢ - «سحر اليهود للنبي ﷺ»

روى احمد والشيخان وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة! أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان، فقعد احدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجليّ: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال:؟ في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر

(١) الكهف/ ٥١

ذروان، يا عائشة! والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين»[1].

وروي الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ حتى انه ليخيل اليه فعل الشيء وما فعله، حتى اذا كان ذات يوم وهو عندي، دعا الله ودعاه، ثم قال: أشعرت يا عائشة، أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: جاءني رجلان، فجلس احدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ، ثم قال احدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي، من بني زريق، قال: فبماذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر، قال:ثم فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان - ومن الرواة من قال: في بئر ذروان، قال:وذروان: بئرفي بني زريق- فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها، وعليها نخل، قال: ثم رجع الى عائشة، فقال: والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله، أفأخرجته؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثور على الناس منه شرا، وأمر بها فدفنت.

---

(١) أحمد ٤/٣٦٧ والفتح الكبير ٣/٣٩٤ وزاد المسلم ٤/٢٢٠ وما بعدها رقم /٩٥٥ وابن ماجه/٤٥ في الطب.

وفي اخرى للبخاري، وفيها: «كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى انه يأتي النساء ولا يأتيهن» قال سفيان: وهذا اشد ما يكون من السحر اذا كان كذا، وفيه قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم - رجل من بني زريق حليف ليهود، وكان منافقا - قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة، قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان. قال: فأتى البئر، حتى استخرجه، وقال: هذه البئر التي أريتها.

وفي اخرى قالت: «قلت: يا رسول الله، أفلا أحرقته؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله وكرهت أن أثير على الناس شرا، فأمرت بها فدفنت».

وفي اخرى لهما مختصرا «ان النبي ﷺ سحر، حتى كان يخيل اليه أنه يصنع الشيء، ولم يصنعه». ورواه ابن سعد باسناد آخر صحيح[١] والنسائي أيضا بسند صحيح عن زيد ابن أرقم رضي الله عنه قال: «سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياما، فأتاه جبريل فقال: ان رجلا من اليهود سحرك، عقد لك عقدا في بئر كذا وكذا، فأرسل رسول الله ﷺ فاستخرجها فحلها فقام رسول الله ﷺ كأنما

---

(١) البخاري. ١/١٩١-١٩٧ في الطب، وغيره، ومسلم رقم/٢١٨٩ في السلام باب السحر، وابن سعد ٢/٢/٦.

نشط من عقال، فما ذكر ذلك لذلك اليهودي، ولا رآه في وجهه قط »[1]

زعم الجصاص أن الحديث من وضع الملحدين:

زعم ابو بكر احمد بن علي الرازي الجصاص أن الحديث من وضع الملحدين فقال: زعموا أن النبي ﷺ سحر، وان السحر عمل فيه، حتى قال فيه انه يتخيل لي اني اقول الشيء وافعله ولم اقله ولم افعله، وان امرأة يهودية سحرته في جف طلعة، وهو تحت راعونة البئر فاستخرج، وزال عن النبي عليه السلام ذلك العارض، وقد قال الله تعالى مكذبا للكفار فيما ادعوه من ذلك للنبي ﷺ فقال جل من قائل: « وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا »[2] ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين، ثم قال: والعجب ممن يجمع بين تصديق الانبياء عليهم السلام واثبات معجزاتهم وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع قوله تعالى: « ولا يفلح الساحر حيث أتى »[3] فصدق هؤلاء من كذبه الله وأخبر ببطلان دعواه وانتحاله، وجائز أن تكون المرأة بجهلها فعلت ذلك ظنا منها بأن ذلك يعمل في الأجساد

(١) النسائي ٧/١١٢-١١٣ (جامع الأصول ٥/٦٨)

(٢) الفرقان / ٨

(٣) طه/٦٩

وقصدت به النبي ﷺ فأطلع الله نبيه على موضع سرها، وأظهر جهلها فيما ارتكبت وظنت، ليكون ذلك من دلائل نبوته لا أن ذلك ضره وخلط عليه أمره، ولم يقل كل الرواة اختلط عليه امره، وانما هذا اللفظ زيد في الحديث، ولا أصل له.[1]

وهذا كلام يدل على جهله بالرواية، ومدى تخبطه، حيث زعم ان مثل هذه الأخبار من وضع الملحدين!!.

وتعجب من تصديقها!! ثم تخبط حين تحدث عن جواز ذلك، واخيرا رجع الى تخبطه الأول، وتلك جهالات بعضها فوق بعض، تتضح حقيقتها بعد سرد بعض الدعاوى الأخرى.

- دعوى الأصم أن الحديث مخالف لنص القرآن:

قال الشهاب: نقل في (التأويلات) عن أبي بكر الأصم انه قال: ان حديث سحره صلوات الله عليه، المرويّ هنا، متروك لما يلزمه من تصديق الكفرة أنه مسحور، وهو مخالف لنص القرآن، حيث أكذبهم الله فيه، ونقل الرازي عن القاضي أنه قال: هذه الرواية باطلة، وكيف يمكن القول بصحتها، والله تعالى يقول: « والله يعصمك من الناس »[2]

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ١/٥٥-٥٦ بتصرف

(٢) المائدة/٦٧

وقال: « ولا يفلح الساحر حيث أتى »[1] ولأن تجويزه يفضي الى القدح في النبوة، ولأنه لو صح ذلك، لكان من الواجب ان يصلوا الى ضرر جميع الأنبياء الصالحين ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم، وكان ذلك باطل، ولكان الكفار يعيرونه بأنه مسحور، فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين في تلك الدعوى، ولحصل فيه عليه السلام، ذلك العيب، ومعلوم أن ذلك غير جائز. انتهى.

- تقليد القاسمي:

وعلق القاسمي على دعوى الأصم بقوله: ولا غرابة في أن لا يقبل هذا الخبر لما برهن عليه، وان كان مخرجا في الصحاح، وذلك لأنه ليس كل مخرج فيها سالما من النقد، سندا أو معنى، كما يعرفه الراسخون، على أن المناقشة في خبر الآحاد معروفة من عهد الصحابة.[2]

ومضى ينقل الشبه في خبر الآحاد، وهذه الدعوى كسابقتها من حيث الجهالة، بيد أنها أضافت النقد الى الصحيحين، وأن ذلك يعرفه الراسخون!! كما أضافت الشبه في خبر الآحاد!!

---

(١) طه / ٦٩

(٢) تفسير القاسمي ١٧/ ١١٣ رقم ٦٣٠٩

- دعوى الشيخ محمد عبده:

قال الشيخ محمد عبده: وقال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة، ولا ما يجب لها: ان الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح، فيلزم الاعتقاد به، وعدم التصديق من بدع المبتدعين، لأنه ضرب من انكار السحر، وقد جاء القرآن بصحة السحر!! فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح، والحق الصريح في نظر المقلدين بدعة! نعوذكم بالله! يحتج بالقرآن على ثبوت السحر! ويعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه ﷺ، وعده من افتراء المشركين عليه ويؤول في هذه ولا يؤول في تلك! مع أن الذي قصده المشركون ظاهر، لأنهم كانوا يقولون: ان الشيطان يلابسه عليه السلام وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم وضرب من ضروبه، وهو بعينه أثر السحر الذي نسب الى لبيد، فانه قد خالط ادراكه في زعمهم!

والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ، فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبته، وعدم الاعتقاد بما ينفيه وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام، فحيث نسب القول باثبات حصول السحر الى المشركين أعدائه، ووبخهم على زعمهم هذا، فاذن هو ليس بمسحور قطعا.

وأما الحديث - فعلى فرض صحته - فهو حديث آحاد، والآحاد لا يؤخذ في نفيها عنه الا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون! على أن الحديث الذي يصل الينا من طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنه، أما من قامت له الأدلة على انه غير صحيح فلا تقوم به عليه حجة.

وعلى أي حال - فلنا بل علينا أن نفرض الأمر في الحديث - ولا نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل، فانه اذا خولط النبي في عقله - كما زعموا - جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئا وهو لم يبلغه، أو ان شيئا ينزل عليه وهو لم ينزل عليه، والأمر ظاهر لا يحتاج الى بيان، الى ان قال رحمه الله: ما اضر المحب الجاهل، وما اشد خطره على من يظن أنه يحبه. نعوذ بالله من الخذلان، على أن نافي السحر بالمرة لا يجوز أن يعد مبتدعا، لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون في قوله: «آمن الرسول»[1] الآية وفي غيرها من الآيات، ووردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلما ولم يأت في شيء ذكر السحر..

---

(١) البقرة/ ٢٨٥

وقال: ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره، ويعرفون من اللغة ما يكفي لعاقل أن يتكلم ما هذروا هذا الهذر، ولا وصموا الاسلام بهذه الوصمة، لكن من تعود القول بالمحال، لا يمكن الكلام معه بحال، نعوذ بالله من الخبال.[1]

وتلك دعوى تقوم على التقليد في رد هذا الحديث، وتحكيم العقل في النقل، دون ما دراية بأصول الرواية.

- تقليد الشيخ «محمد ابو زهرة:

جاء في تقرير للشيخ عن كتاب «محمد رسول الحرية» لمؤلفه عبد الرحمن الشرقاوي قوله: تألمت كثيرا لما لمست فيه من انحرافات لا تغتفر، ومضى يبين ضلال هذا الكاتب ضد الرسالة والرسول، حيث زعم أن كثيرا من الآيات فيها تحريف لم يكتشفه محمد بعد، وأن بعض القرآن من قول النبي!! إلى غير ذلك من الضلالات ثم تحدث الشيخ عن السحر فقال: أما السحر فقد ذكر في بعض الروايات، ولكن الثقات والمحققين من العلماء ردوها وثبت بالدليل القاطع بطلانها، وأن بعض الثقات قد أدخلت عليه، وأن المستشرقين يجدون في ذكرها توهينا لشأن الدعوة الاسلامية، وأما انه قد أثر في قوته التناسلية فهي مبنية على تأثره

---

(١) أضواء على السنة/٣٧٧-٣٧٨ نقلا عن تفسير عم / ١٨٣-١٨٦

بالسحر، وقد ثبت بطلانها، على ان اكثر الرواة لا يذكرونها.[1]

وهذا تقليد واضح فاضح يدل على مدى عدم العلم بقواعد التحديث.

- شبه منكرى حجية الآحاد «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء»:

نقل الآمدي عن الرافضة ومن شايعهم انكار حجية الآحاد.[2] ويفهم من كلام ابن حزم ان المعتزلة يقولون بذلك[3] ونقل صاحب «المسلم» ان القائلين بذلك هم الروافض واهل الظاهر[4] وهذا النقل غريب، لأن نقول العلماء عنهم تدل على قولهم بحجية خبر الآحاد، وكتب ابن حزم صورة حية لذلك.

وقد ذكر حجية الآحاد العلماء الذين يطول الحديث في ذكرهم، منهم الشافعي في الرسالة[5]. والنووي في شرح مقدمة صحيح مسلم[6] وابن تيمية في مختصر الصواعق المرسلة[7]

(١) مجلة البلاغ الكويتية ٢٣ من شعبان ١٣٩٥ ه. أغسطس ١٩٧٥ م

(٢) الاحكام للآمدي ١ / ١٦٩

(٣) الاحكام لابن حزم ١ / ١٣٣

(٤) المسلم ٢ / ١٣١

(٥) الرسالة/ ٤٥٧

(٦) مقدمة صحيح مسلم/ ٦١ وما بعدها.

(٧) مختصر الصواعق المرسلة/ ٧٣-٧٦، ٥٠٤-٥١٢، ٥٢٤-٥٢٥.

وشبه منكري حجية الآحاد «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء»[1]، ولا أحب أن أسترسل في ذكر هذه الشُّبهة وتفنيدها فقد بينت ذلك بالتفصيل في كتاب «السنة بين أنصارها وخصومها» الذي أرجو أن يطبع قريباً إن شاء الله تعالى.

- لا منافاة بين العصمة ومرض الجسد:

قال ابن القيم بعد ان ذكر الأحاديث الدالة على سحر النبي ﷺ،: «وهذا الحديث ثابت عند اهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته، وقد اعتاص على كثير من اهل الكلام وغيرهم، وانكروه اشد الانكار، وقابلوه بالتكذيب، وصنف بعضهم فيه مصنفا منفردا حمل فيه على هشام - يعني ابن عروة بن الزبير - وكان غاية ما احسن القول فيه ان قال: غلط واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء، قال: لأن النبي - ﷺ - لا يجوز أن يسحر، فإنه تصديق لقول الكفار:« إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً[2]... قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم ان يسحروا، فان ذلك ينافي حماية الله لهم، وعصمتهم من الشياطين.

---

(١) النور / ٣٩

(٢) الفرقان / ٨

وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فان هشاما من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه احد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين وما لهذا الشأن؟.

وقد رواه غير هشام عن عائشة، وقد اتفق اصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث ولم يتكلم فيه احد من أهل الحديث بكلمة، والقصة مشهورة عن أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين، الى أن قال: والسحر الذي اصابه كان مرضا من الأمراض عارضا شفاه الله عنه ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه، فان المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الاغماء، فقد أغمى عليه ﷺ في مرضه، ووقع حين انفكت قدمه، وجحش شقه.[1]، وهذا من البلاء الذي يزيده به الله رفعة في درجاته، ونيل كرامته، وأشد الناس بلاء الأنبياء، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشتم والحبس، فليس ببدع أن يبتلى النبي ﷺ من بعض اعدائه بنوع من السحر كما ابتلي الذي رماه فشجه، وابتلي بالذي القى على ظهره السلا[2] وهو ساجد، فلا نقص

(١) انشق وكان ذلك في غزوة أحد

(٢) ما يخرج من بطن الناقة ونحوها مع ما تلده (المشيمة).

عليهم، ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم، وعلو درجاتهم عند الله..[1]

وقال المازري: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث، وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها، قالوا: وكل ما أدي الى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعه من الشرائع اذ يحتمل على هذا أنه يرى جبريل وليس هو ثم، وأنه يوحى اليه بشيء ولم يوح اليه بشيء، وهذا كله مردود، لأن الدليل قام على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل، وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها، ولا كانت الرسالة من أجلها فهو في ذلك عرضة لما يعترض البشر كالأمراض، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له، مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين.

وقد ورد صريحا في الرواية الأخيرة، ورواية الحميدي: «أنه كان يأتي أهله ولا يأتيهم» وفي مرسل يحيى بن يعمر عند عبد الرزاق: «سحر النبي ﷺ عن عائشة حتى أنكره بصره» وعنده في مرسل سعيد بن المسيب: «حتى كاد ينكره بصره» قال عياض: فظهر بهذا أن السحر انما تسلط

---

(١) دفاع عن السنة / ٢٢٦ وما بعدها نقلا عن التفسير القيم / ٥٦٤ وما بعدها.

على جسده وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقداته.

قال الحافظ: ووقع في مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد: «فقالت أخت لبيد بن الأعصم: ان يكن نبيا فسيخبر وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله» قلت: فوقع الشيء الأول كما في الحديث الصحيح، وقد قال بعض العلماء: لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعل ذلك، وانما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت، فلا يبقى على هذا للملحد حجة، وقال عياض: يحتمل أن يكون المراد بالتخيل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سابق عاداته من الاقتدار على الوطء فاذا دنا من المرأة فتر عن ذلك كما هو شأن المعقود ويكون قوله في الرواية الأخرى: «حتى كاد ينكر بصره» أي صار كالذي أنكر بصره، بحيث أنه اذا رأى الشيء يخيل أنه على غير صفته، فاذا تأمله عرف حقيقته، ويؤيد جميع ما تقدم أنه لم ينقل عنه في خبر من الأخبار أنه قال قولا فكان بخلاف ما أخبر به.[1]

قال الشنقيطي: وأما وقوع المرض له بسبب السحر فلا يجر خللا لمنصب النبوة، لأن المرض الذي لا نقص فيه في

---

(١) فتح الباري ١٢/ ٣٣٧-٣٣٨ بتصرف.

الدنيا يقع للأنبياء، ويزيد من درجاتهم في الآخرة عليهم الصلاة والسلام، وحينئذ فاذا خيل له بسبب مرض السحر أنه يفعل شيئا من امور الدنيا وهو لم يفعله، ثم زال ذلك عنه بالكلية بسبب اطلاع الله تعالى له على مكان السحر واخراجه اياه من محله ودفنه فلا نقص يلحق بالرسالة من هذا كله، لأنه مرض كسائر الأمراض لا تسلط له على عقله، بل هو خاص بظاهر جسده، حيث صار يخيل اليه تارة فعل الشيء من ملامسة بعض ازواجه وهو لم يفعله، وهذا في زمن المرض لا يضر، والعجب ممن يظن هذا الذي وقع من المرض بسبب السحر لرسول الله ﷺ قادحا في رسالته مع ما هو صريح في القرآن في قصة موسى مع سحرة فرعون، حيث صار يخيل اليه من سحرهم أن عصيهم تسعى فثبته الله كما دل عليه قوله تعالى: « قلنا لا تخف انك انت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى، فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى »[1] الى آخر الآيات، ولم يقل احد من أهل العلم، ولا من أهل الذكاء أن ما خيل لموسى عليه الصلاة والسلام أولا من سعي عصي السحرة قادح في رسالته، بل وقوع مثل هذا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام يزيد قوة

(١) طه/٦٨-٧٠

الايمان بهم لكون الله تعالى ينصرهم على أعدائهم، ويخرق لهم العادات بالمعجزات الباهرة، ويخذل السحرة والكفرة، ويجعل العاقبة للمتقين، كما هو مبين في آيات الكتاب المبين.

قال القاضي عياض: قد جاءت روايات حديث عائشة مبينة أن السحر انما تسلط على جسده الشريف ﷺ، وظواهر جوارحه، لا على عقله وقلبه، واعتقاده عليه الصلاة والسلام، ويكون معنى ما في بعض الروايات: حتى يظن انه يأتي اهله ولا يأتيهن، وفي بعض: أنه يخيل اليه أنه يقدر على أزواجه، فاذا دنا منهن لم ينهض لغلبة مرض السحر عليه، فأخذته أخذة السحر، فلم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور المعقود، وكل ما جاء في الرويات من انه عليه الصلاة والسلام يخيل اليه فعل شيء ولم يفعله ونحوه فمحمول على التخيل بالبصر، لا لخلل تطرق الى العقل وليس في ذلك ما يدخل لبسا على الرسالة ولا طعنا لأهل الضلالة. إهـ ملخصا من كلامه في مواضع من الشفاء ومن شرح صحيح مسلم، وصرح فيما نقله عنه الأبي في شرح صحيح مسلم أن في بعض طرق حديث سحر اليهودي ما يدل على أن السحر انما تسلط على جسده لا على عقله، وقد صرح عياض بأن هذا أبعد عن مطاعن الملاحدة، أي لأنه مرض بعقد ساحر له عن النساء مدة فأزاله الله تعالى باظهاره لنبيه محل العقد فأزاله

منه ودفنه، وتم له الشفاء بفضل الله تعالى، وسابق عنايته به عليه الصلاة والسلام.

- متى كان السحر وما مدته؟

وقد بين الحافظ في فتح الباري: مدة مرضه بهذا السحر، والسنة التي وقع فيها بما نصه: وقد بين الواقدي السنة التي وقع فيها السحر، أخرجه عنه ابن سعد بسند له الى عمر بن الحكم مرسل قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة، ودخل المحرم من سنة سبع جاءت رؤساء اليهود الى لبيد بن الأعصم وكان حليفا في بني زريق، وكان ساحرا، فقالوا له: يا أبا الأعصم: أنت أسحرنا، وقد سحرنا محمد فلم نصنع شيئا، ونحن نجعل لك جعلا على أن تسحره لنا سحرا ينكؤه فجعلوه له ثلاثة دنانير، ووقع في رواية أبي ضمرة عند الاسماعيلي: فأقام أربعين ليلة وفي رواية وهيب عن هشام عند أحمد: ستة أشهر، ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يوما من استحكامه، وقال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي ﷺ فيها في السحر حتى ظفرت به في جامع معمر عن الزهري أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصولا بالاسناد

الصحيح فهو المعتمد.[1] والجمع بأن تكون الستة أشهر ابتداء تغير مزاجه عليه الصلاة والسلام، والأربعين يوما من استحكامه هو المتعين لأنه لم يشتهر أن مرضه هذا عليه أتم الصلاة والسلام طال به، ولو طال به لنقل متواترا لتوفر الدواعي على نقله، لشدة شأنه عند أصحابه وتابعيهم: لكنه لم يطل، ولم يتعد حال من عقد عن النساء مدة يسيرة فزال ذلك بالقرب.

- قول عائشة على سبيل المبالغة:

«وتخيل أنه يفعل الشيء وما فعله» لم يرو في الصحيحين الا من لفظ عائشة رضي الله عنها فلم يكن من لفظ رسول الله ﷺ، ولم يشعر لفظها هي أيضا أن ذلك التخيل دام عليه مدة، بل ذكرته على سبيل المبالغة بحتى، فلعله ذات يوم استفهم عائشة عن شيء شك هل فعله أم لا؟ فأطلقت عليه أنه صار يخيل اليه أنه يفعل الشيء، أي من أمر نكاح النساء، وهو لم يفعله، لعقده عنهن، فقالت هي ذلك للناس لتألمها من مرضه عليه الصلاة والسلام، وأما هو عليه الصلاة فلم يرو عنه إلا الحديث الدال على المرض، بدليل قوله في مراجعة الملكين الكائنين في صفة رجلين: «ما

---

(١) المرجع السابق/٣٣٧ وزاد المـلم ٤/٢٢١-٢٢٤ بتصرف.

وجع الرجل » فقال المجيب منها: « مطبوب » وقوله بعدما أخرج المشط والمشاطة وما معها مما عمل فيه السحر: « قد عافاني الله » وفي رواية: « وشفاني » ففي نفس الحديث التصريح بالوجع وبالمعافاة منه، فدل هذا على انه مجرد مرض، وليس في لفظ رسول الله ﷺ أنه يخيل له فعل ما لم يفعله، وتعبير عائشة بذلك انما هو على حسب ما ظهر لها أنه تخيل، ولا يلزم من لفظها أنه شيء دائم عليه... ويؤيد جميع ما قررناه أنه لم ينقل عنه في خبر ولو نقلا ضعيفا أنه قال قولين فكان الأمر بخلاف ما أخبر به من أمور الدنيا أحرى من أمور الشرع، وما حصل له من المرض بسبب سحر اليهودي لو لم يعين موضع السحر الذي سحر به لتوهم أنه كغيره من البشر اذا أصيب بالسحر، لكنه أخبر بموضع السحر فأخرج منه، ووجد على الوصف الذي ذكره عليه الصلاة والسلام، وهكذا حال من أكرمه الله واصطفاه بالرسالة وقد قالت أخت اليهودي الذي سحره: إن يكن نبيا فسيخبر، فقد وقع في مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد، فقالت أخت لبيد بن الأعصم: إن يكن نبيا فسيخبر، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله، قال ابن حجر: فوقع الشق الأول كما في هذا الحديث... فالحاصل أن التخيل على فرض حصوله وقتا في أمر دنيوي لم يستمر، بل زال، وأبطل الله

كيد الساحر، ولم ينله ضرر منه، الا ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض.[1]

- لا تصديق للمشركين ولا موافقة:

واذا كانوا يقولون: ان هذا الحديث يصدق المشركين في قولهم: «وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا»[2] وأن هذا يزيل الثقة بما جاء به الرسول فان الكفار كانوا يقولون: «ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق»[3]. فهل نكذبهم؟ وبالاجمال: كانوا يقولون أقوالا كثيرة فهل نكذبهم فيها لئلا نكون مصدقين للكفار؟ ما قال هذا أحد، بل الصدق يجب أن يصدق، والكذب يجب أن يكذب، وانما معنى ذلك أن الظالمين كانوا ينسبون الى الرسل كل ما يظنونه قادحا في رسالتهم وصدقهم وان كان واقعا حقا لا يقدح فيهم، كما ظن هؤلاء أن السحر يقدح في الرسالة فكذبوا الأخبار فيه، والظن خطأ، اذن ليس كل ما قاله الكفار كذبا، واذن ليس تكذيبهم في كل شيء قالوه لازما.

واننا نعلم يقينا أن الكفار لا يريدون بقولهم هذا أن

---

(١) زاد المسلم ٤/٢٢٥

(٢) الفرقان/٨

(٣) الفرقان / ٧

يثبتوا لرسول الله ﷺ ما أثبته هذا الحديث... إنهم لا يريدون ذلك، وانما يريدون أن رسول الله إنما يصدر عن خبال وجنون في كل ما يقول ويفعل، وفيما يأتي ويذر، وأنه ليس رسولا وأن القرآن ليس من عند الله، وانما هو خبال مسحور، وبناء عليه ليس علينا تصديقه ولا اتباعه، فاذا آمنا بما دل عليه الحديث.. لم نكن مصدقين للمشركين، ولا موافقيهم فيما أرادوا لأن الذي عناه الحديث غير الذي عناه هؤلاء الظالمون، واذا تغاير القصدان لم يكن هناك تصديق ولا موافقة.

وقد علمنا عصمته من جواز الاختلاط عليه في الوحي، وأنه معصوم في تبليغه ببراهين كثيرة، واذا كان البرهان على العصمة مما خافوه موجودا في جميع الحالات لم نخش ما ذكروا[1]

- لا منافاة بين الحديث والقرآن:

قال الشنقيطي:[2] وهذا الحديث الصحيح الذي هو في أعلى درجات الصحيح السبع لاتفاق الشيخين عليه وغيرهما غير مصادم لنص القرآن الذي هو قوله تعالى اخبارا عن قول

---

(١) دفاع عن الحديث النبوي / ٢٠١-٢٠٢ بتصرف.

(٢) زاد المسلم ٤/٢٢٢ بتصرف.

الكفرة: «إن تتبعون إلا رجلا مسحورا»[1] لأن المراد به عندهم أنه مجنون، فهو كقولهم: ان هو الا رجل مجنون، وحاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك، وان قدر ضعيف العقيدة أن ظاهر قوله تعالى في الآية السابقة يصادم هذا الحديث، فقولهم هذا الذي ذكر الله عنهم في القرآن كان قبل قصة سحر اليهودي للنبي ﷺ الذي مرض بسببه - كما عرفنا - وبه تعلم أنه لا منافاة بين الآية المذكورة وبين سحر اليهودي له عليه الصلاة والسلام. وبتأمل ما حققناه هنا يظهر سقوط تخبط أبي بكر الجصاص، وغيره، وهو كلام من لم يحقق في هذه المسألة، ولم يشم رائحة علم الحديث، لأن الحديث اذا اتفق عليه الشيخان صار له حكم المتواتر، كما صرح به الحافظ ابن الصلاح وغيره من الحفاظ، كالحافظ العراقي، وابن دقيق العيد، والحافظ ابن حجر، وغيرهم...

- الحديث من أعلام النبوة:

ولم يقل أحد إن هذا السحر أصاب عقل النبي ﷺ، ولا خلط عليه شيئا من أمر الرسالة، بل أطلعه الله عليه، فأخبر أصحابه بمحله، فوجدوه في المحل الذي أخبر به،

---

(١) الفرقان: ٨

فكان ذلك من أعلام نبوته، وشفى الله رسوله ﷺ من المرض، وباء الساحر بالخزي ولم يفلح، كما قال تعالى: «ولا يفلح الساحر حيث أتى»[1] والأمور لا ينظر فيها الا عواقبها، والنصر في العاقبة يكون دائما للرسل ولمن كان على قدمهم من أممهم، كما دل عليه قوله تعالى: «انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»[2] ولا يضرهم ما يحصل لهم من كفار أممهم، فتأمل منصفا.

(١) طه/٦٩
(٢) غافر/٥١



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

خاتمة

ليعلم من يريد أن يعلم:

من رجل أسلس للعصبية المذهبية قياده، حتى ملكت عليه رأيه، وغلبته على أمره فحادت به عن طريق الهدى.

أو من رجل قرأ شيئا من العلم فداخله الغرور، اذ أعجبته نفسه فتجاوز بها حدها، وظن أن عقله هو العقل الكامل، وأنه «الحكم الترضى حكومته» فذهب يلعب بأحاديث النبي ﷺ، يصحح منها ما وافق هواه، وان كان مكذوبا موضوعا، ويكذب ما لم يعجبه وان كان الثابت الصحيح

أو من رجل استولى المبشرون على عقله، فلا يرى الا بأعينهم، ولا يسمع الا بآذانهم، ولا يهتدي الا بهديهم، ولا ينظر الا على ضوء نارهم يحسبها نورا؛ ثم هو قد سماه أبواه باسم اسلامي، وقد عد من المسلمين - او عليهم - في دفاتر

---

(١) مقدمة الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ١ / ٧١ بتصرف.

المواليد وفي سجلات الاحصاء فيأبى الا أن يدافع عن هذا الاسلام الذي ألبسه جنسية ولم يعتقده دينا، فتراه يتأول القرآن ليخضعه لما تعلم من استاذه، ولا يرضى من الأحاديث حديثا يخالف آراءهم وقواعدهم، يخشى أن تكون حجتهم على الاسلام قائمة!! اذ هو لا يفقه منه شيئا.

أو من رجل مثل سابقه، الا أنه أراح نفسه، فاعتنق ما نفثوه في روعه من دين وعقيدة، ثم هو يأبى أن يعرف الاسلام دينا أو يعترف به، الا في بعض شأنه في التسمي بأسماء المسلمين، وفي شيء من الأنكحة والمواريث ودفن الموتى.

أو من رجل مسلم علّم في مدارس منسوبة للمسلمين، فعرف من أنواع العلوم كثيرا، ولكنه لم يعرف من دينه الا نزرا أو قشوراً، ثم خدعته مدنية الإفرنج عن نفسه، فظنهم بلغوا في المدنية الكمال والفضل، وفي نظريات العلوم اليقين والبداهة، ثم استخفه الغرور فزعم لنفسه أنه أعرف بهذا الدين وأعلم من علمائه وحفظته وخلصائه، فذهب يضرب في الدين يمينا وشمالا يرجو - في زعمه - أ[illegible] ينقذه من جمود رجال الدين!! وأن يصفيه من أوهام رج[illegible] لدين!!

أو من رجل كشف عن دخيلة نفسه [illegible] أعلن إلحاده في

هذا الدين وعداوته ممن قال فيهم القائل: «كفروا بالله تقليدا».

أو من رجل... أو من رجل..

لِيَعْلَمْ هؤلاء كلهم، وليعلم من شاء من غيرهم: أن المحدثين كانوا محدثين ملهمين، تحقيقا لمعجزة سيد المرسلين، حين استنبطوا القواعد المحكمة لنقد رواة الحديث. ومعرفة الصحاح من الزياف، وأنهم ما كانوا هازلين ولا مخدوعين، وأنهم كانوا جادين على هدى وعلى صراط مستقيم، فكانت تلك القواعد التي ارتضوها للتوثق من صحة الأخبار أحكم القواعد وأدقها، ولو ذهب الباحث المتثبت يطبقها في كل مسألة لا اثبات لها الا صحة النقل فقط، لآتته ثمرتها الناضجة ووضعت يده على الخبر اليقين.

أصول السنة عصمة:

حقا ان قوانين الرواية لها الأثر الفعال في وضع الموازين التي تكفل السلامة للعلماء الباحثين، وتقيم الحجة على المفسدين المغالطين، ممن ساءت نواياهم حيال هذا الدين، فاتهموا قواعد التحديث بما لا يقوم على ساق ولا قدم، ولا يستقر عند البحث والنظر، وقد أوضحت مكانة هذه القواعد وتلك القوانين في المقدمة ثم عقبت بالتطبيق العملي

لأصول السنة في الحديثين السابقين، فكان البحث صورة عملية واقعية لبيان عظمة قوانين التحديث رواية ودراية، وأن في أصولها فوائد مهمة فريدة، ومباحث جمة مفيدة، ومعارف رائقة عجيبة، وعوارف رائعة غريبة، وتحقيقات بديعة لطيفة، ومعالم نفيسة شريفة، لا يستغني عنها من يشتغل بالبحث في العلوم الشرعية، والطرق الحكمية، والأدلة اليقينية، وأنها عصمة من الزلل في رواية الحديث الشريف الذي تعرف به جوامع الكلم، وتتفجر منه ينابيع الحكم، لولاه لفعل من شاء ما شاء، وخبط الناس خبط عشواء، وركبوا متن عمياء، ومن هنا كانت تلك الأصول مقدمة العلوم الشرعية ومفتاحها، ومشكاة الأدلة اليقينية ومصباحها، وعمدة المناهج العلمية ورأسها.

ولقد عم الخطب، واستفحل الكرب، وصرنا في اشد الحاجة الى الدفاع عن السنة، ورد الشبهات الواردة، ودحض المفتريات الباطلة.

وأرجو ان يكون هذا البحث المجمل انطلاقة مستمرة في بيان مشكل الحديث في ضوء اصول التحديث رواية ودراية، ورد الشبهات الواردة، ودحض المفتريات الباطلة.

وقد شمرت عن ساعد الجد لمواصلة الكتابة في هذا الموضوع بعون الله وتوفيقه.

توصيات

وانتهي من هذا الاجمال الى التوصيات الآتية:

أولا: ضرورة انشاء موسوعة للسنة النبوية تابعة للمؤتمر العالمي للسيرة والسنة النبوية، حتى لا تخضع للمؤثرات السياسية، يوكل وضع منهجها والعمل فيها الى المتخصصين المشهود لهم بالبحث والدراية.

ثانياً: ضرورة انشاء هيئة متخصصة تابعة للمؤتمر أيضا، للاشراف على ما يطبع ومراجعته ومقاومة الزيغ والالحاد.

ثالثا: يكون من حق الهيئة المتخصصة أن تراجع الكتب التي صدرت دون اذن منها، فاذا ثبت أن فيها انحرافا طالبت بمصادرتها ومنع تداولها، وكشفت ما فيها من زيف وحيف، وجهالة وضلالة.

رابعا: تنقية الكتب التي تتحدث عن الرسالة والرسول - القديم منها والحديث من الأباطيل.

خامسا: نشر الكتب الخاصة بالتخريج، وطبع المخطوط منها، وكذلك الكتب التي تبين فلسفة اصول التحديث

بأسلوب عصري، والرسائل العلمية التي تنال اعلى الدرجات في هذا المجال.

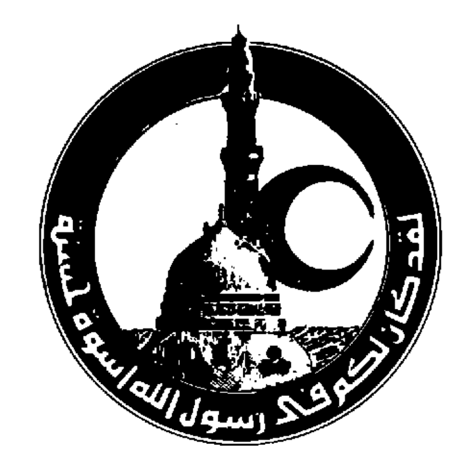
سادسا: دحض مفتريات خصوم السنة من أهل الفرق، وتفنيد طعون المستشرقين وتلاميذهم من الكتاب المعاصرين، وبيان دخل التفكير وسوء التقدير عندهم، وقد شمرت عن ساعد الجد لتفنيد تلك الجهالات.

سابعا: المطالبة بانشاء اقسام خاصة في الكليات الاسلامية، لدراسة مشكلات الأحاديث دراسة موضوعية، ورد الشبهات الواردة، ودحض المفتريات الباطلة، في ضوء اصول التحديث رواية ودراية، حتى يتكون جيل يحمل راية الدفاع عن السنة، تكون لديه ملكة ينبعث بها لمقاومة من يحاول من المفسدين صرف الناس عن سنة خاتم النبيين ﷺ وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته وتمسك بسنته الى يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها

لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
« السعودية »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة ـ محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة ، والسلام على عبده ورسوله نبينا محمد المرسل رحمة للعالمين وحجة للعالمين وحجة على العباد أجمعين ، وعلى آله وأصحابه الذين حملوا كتاب ربهم سبحانه وسنة نبيهم ﷺ الى من بعدهم بغاية الأمانة والاتقان والحفظ التام للمعاني والألفاظ رضي الله عنهم وأرضاهم وجعلنا من اتباعهم باحسان .

أما بعد : فقد أجمع العلماء قديما وحديثا على ان الأصول المعتبرة في اثبات الأحكام ، وبيان الحلال والحرام في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ، ثم اجماع علماء الأمة ، واختلف العلماء في أصول أخرى أهمها القياس وجمهور اهل

العلم على أنه حجة اذا استوفى شروطه المعتبرة، والأدلة علـى هذه الأصول أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر.

أمـا **الأصل الأول**: فهو كـتاب الله العزيز وقد دل كلام ربنا عز وجل في مواضع من كتابه على وجوب اتباع هذا الكتاب والتمسك به والوقوف عند حدوده قال تعالى: «اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون» وقال تعالى: «وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون» وقال تعالى. «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم» وقال تعالى: «إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» وقال تعالى: «وأوحي الي هذا القرآن لأُنذركم به ومن بلغ» وقال تعالى: «هذا بلاغ للناس ولينذروا به» والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقد جاءت الأحاديث الصحاح عن رسول الله ﷺ آمرة بالتمسك والاعتصام به، دالة على أن من تمسك به كان على الهدى ومن تركه كان على الضلال، ومن ذلك ما ثبت عنه ﷺ انه قال في خطبته في حجة الوداع: «اني تارك فيكم ما لن تضلوا ان

اعتصمتم به كتاب الله » رواه مسلم في صحيحه وفي صحيح مسلم أيضا عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال: « اني تارك فيكم ثقلين أو لهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي » وفي لفظ قال في القرآن: « هو حبل الله من تمسك به كان على الهدى ومن تركه كان على الضلال ».

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وفي اجماع أهل العلم والايمان من الصحابة ومن بعدهم على وجوب التمسك بكتاب الله والحكم به والتحاكم اليه مع سنة رسول الله ﷺ ما يكفي ويشفي عن الاطالة في ذكر الأدلة الواردة في هذا الشأن.

أما الأصل الثاني: من الأصول الثلاثة المجمع عليها فهو ما صح عن رسول الله ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريره، ولم يزل أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم يؤمنون بهذا الأصل الأصيل ويحتجون به ويعلمونه الأمة، وقد ألفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة وأوضحوا ذلك في كتب أصول الفقه والمصطلح والأدلة على ذلك لا تحصى كثرة، فمن ذلك ما جاء في كتاب الله العزيز من الأمر باتباعه وطاعته وذلك موجه

الى أهل عصره ومن بعدهم لأنه رسول الله الى الجميع ولأنهم مأمورون باتباعه وطاعته حتى تقوم الساعة، ولأنه عليه الصلاة والسلام هو المفسر لكتاب الله والمبين لما أجمل فيه بأقواله وأفعاله وتقريره، ولولا السنة لم يعرف المسلمون عدد ركعات الصلوات وصفاتها وما يجب فيها ،ولم يعرفوا تفصيل أحكام الصيام والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يعرفوا تفاصيل أحكام المعاملات والمحرمات وما أوجب الله بها من حدود وعقوبات، ومما ورد في ذلك من الآيات قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾.

وقال تعالى في سورة النساء أيضاً: « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » وكيف تمكن طاعته ورد ما تنازع فيه الناس الى كتاب الله وسنة رسوله اذا كانت سنته لا يحتج بها أو كانت كلها غير محفوظة! وعلى هذا القول يكون الله قد أحال عباده الى شيء لا وجود له وهذا من أبطل الباطل ومن أعظم الكفر وسوء الظن به،

وقال عز وجل في سورة النحل: «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون». وقال فيها أيضاآية: «وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون». فكيف يكل الله سبحانه الى رسوله ﷺ تبيين المنزل اليهم وسنته لا وجود لها أو لا حجة فيها: ومثل ذلك قوله تعالى في سورةالنور: ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين﴾. وقال تعالى في السورةنفسها: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون». وفي هذه الآيات الدلالة الواضحة على أن الهداية والرحمة في اتباعه عليه الصلاة والسلام، وكيف يمكن ذلك مع عدم العمل بسنته أو القول بأنه لا صحة لها أو لا يعتمد عليها؟ وقال عز وجل في سورة النور: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» وقال في سورة الحشر: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» والآيات في هذا

المعنى كثيرة وكلها تدل على وجوب طاعته عليه الصلاة والسلام واتباع ما جاء به، كما سبقت الأدلة على وجوب اتباع كتاب الله والتمسك به وطاعة أوامره ونواهيه، وهما أصلان متلازمان من جحد واحداً منهما فقد جحد الآخر وكذب به؛ وذلك كفر وضلال وخروج عن دائرة الاسلام باجماع طاعته واتباع ما جاء به وتحريم معصيته وذلك في حق من كان في عصره وفي حق من يأتي بعده الى يوم القيامة، ومن ذلك ما ثبت عنه في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله» وفي صحيح البخاري عنه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة الا من أبى، قيل: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أباني». وخرج أحمد وأبو داود والحاكم باسناد صحيح عن المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا اني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه».

وخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن ابن أبي رافع عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه

فيقول لا ندري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه ».

وعن الحسن بن جابر قال سمعت المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه يقول: « حرم رسول الله ﷺ يوم خيبر أشياء ثم قال: يوشك أحدكم أن يكذبني وهو متكىء يحدث بحديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه؛ ألا ان ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله » أخرجه الحاكم والترمذي وابن ماجه باسناد صحيح. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأنه كان يوصي أصحابه في خطبته أن يبلغ شاهدهم غائبهم ويقول لهم: رب مبلغ أوعى من سامع، ومن ذلك ما في الصحيحين أن النبي ﷺ لما خطب الناس في حجة الوداع في يوم عرفة وفي يوم النحر قال لهم: « فليبلغ الشاهد الغائب فرب من يبلغه أوعى له ممن سمعه » فلولا أن سنته حجة على من سمعها وعلى من بلغته، ولولا أنها باقية الى يوم القيامة لم يأمرهم بتبليغها، فعلم بذلك أن الحجة بالنسبة قائمة على من سمعها من فيه عليه الصلاة والسلام وعلى من نقلت اليه بالأسانيد الصحيحة.

وقد حفظ أصحاب رسول الله ﷺ سنته عليه الصلاة والسلام القولية والفعلية وبلغوها من بعدهم من التابعين، ثم بلغها التابعون من بعدهم، وهكذا نقلها العلماء الثقات جيلا

بعد جيل وقرنا بعد قرن، وجمعوها في كتبهم وأوضحوا صحيحها من سقيمها، ووضعوا لمعرفة ذلك قوانين وضوابط معلومة بينهم يعلم بها صحيح السنة من ضعيفها، وقد تداول اهل العلم كتب السنة من الصحيحين وغيرهما وحفظوها حفظا تاما كما حفظ الله كتابه العزيز من عبث العابثين وإلحاد الملحدين وتحريف المبطلين، تحقيقا لما دل عليه قوله سبحانه: « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ وحي منزل فقد حفظها الله كما حفظ كتابه وقيض الله لها علماء نقادا، ينفون عنها تحريف المبطلين وتأويل الجاهلين ويذبون عنها كل ما ألصقه بها الجاهلون والكذابون والملحدون؛ لأن الله سبحانه جعلها تفسيراً لكتابه الكريم وبيانا لما أجمل فيه من الأحكام وضمنها أحكاما أخرى لم ينص عليها الكتاب العزيز، كتفصيل أحكام الرضاع، وبعض أحكام المواريث، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، إلى غير ذلك من الأحكام التي جاءت بها السنة الصحيحة ولم تذكر في كتاب الله العزيز.

ذكر بعض ما ورد عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل العلم في تعظيم السنة ووجوب العمل بها..

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ وارتد من ارتد من العرب قال أبو بكر الصديق

رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فقال له عمر رضي الله عنه كيف تقاتلهم وقد قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها» فقال أبو بكر الصديق: أليست الزكاة من حقها! والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر رضي الله عنه: فما هو الا أن عرفت ان الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق، وقد تابعه الصحابة رضي الله عنهم على ذلك فقاتلوا أهل الردة حتى ردوهم الى الاسلام وقتلوا من أصر على ردته، وفي هذه القصة أوضح دليل على تعظيم السنة ووجوب العمل بها. وجاءت الجدة الى الصدِّيق رضي الله عنه تسأله عن ميراثها فقال لها: ليس لك في كتاب الله شيء ولا أعلم أن رسول الله ﷺ قضى لك بشيء وسأسأل الناس، ثم سأل رضي الله عنه الصحابة فشهد عنده بعضهم بأن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس فقضى لها بذلك، وكان عمر رضي الله عنه يوصي عماله أن يقضوا بين الناس بكتاب الله، فان لم يجدوا القضية في كتاب الله فبسنة رسول الله ﷺ. ولما أشكل عليه حكم املاص المرأة وهو اسقاطها جنينا ميتا بسبب تعدي أحد عليها سأل الصحابة رضي الله عنهم عن ذلك، فشهد عنده محمد بن مسلمة والمغيرة بن

شعبه رضي الله عنهما بأن النبي ﷺ قضى في ذلك بغرة عبد أو أمة فقضى بذلك رضي الله عنه. ولما أشكل على عثمان رضي الله عنه حكم اعتداد المرأة في بيتها بعد وفاة زوجها وأخبرته فريعة بنت مالك بن سنان أخت أبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أمرها بعد وفاة زوجها أن تمكث في بيته حتى يبلغ الكتاب أجله قضى بذلك رضي الله عنه،وهكذا قضى بالسنة في اقامة حد الشرب على الوليد بن عقبة.ولما بلغ عليا رضي الله عنه أن عثمان رضي الله عنه ينهي عن متعة الحج أهل علي رضي الله عنه بالحج والعمرة جميعا وقال لا أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس،ولما احتج بعض الناس على ابن عباس رضي الله عنهما في متعة الحج بقول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في تحبيذ افراد الحج قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبو بكر وعمر، فاذا كان من خالف السنة لقول أبي بكر وعمر تخشى عليه العقوبة فكيف بحال من خالفها لقول من دونهما أو لمجرد رأيه واجتهاده. ولما نازع بعض الناس عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في بعض السنة قال له عبد الله: هل نحن مأمورون باتباع النبي ﷺ أم اتباع عمر! ولما قال رجل لعمران بن حصين رضي الله عنهما حدثنا عن كتاب الله وهو يحدثهم عن السنة

غضب رضي الله عنه وقال: ان السنة هي تفسير كتاب الله، ولولا السنة لم نعرف أن الظهر أربع والمغرب ثلاث والفجر ركعتان، ولم نعرف تفصيل أحكام الزكاة الى غير ذلك مما جاءت به السنة من تفصيل الأحكام والقضايا عن الصحابة رضي الله عنهم في تعظيم السنة ووجوب العمل بها والتحذير من مخالفتها كثيرة جدا، ومن ذلك أيضا أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لما حدث بقوله ﷺ: «لا تمنعوا اماء الله مساجد الله» قال بعض أبنائه: والله لنمنعهن، فغضب عليه عبد الله وسبه سبا شديدا وقال: أقول قال رسول الله وتقول والله لنمنعهن! ولما رأى عبد الله بن المغفل المزني رضي الله عنه وهو من أصحاب رسول الله ﷺ بعض اقاربه يخذف نهاه عن ذلك وقال له ان النبي ﷺ نهى عن الخذف وقال: انه لا يصيب صيداً ولا ينكأ عدوا بكسر السن ويفقأ العين، ثم رآه بعد ذلك يخذف فقال: والله لا كلمتك أبدا، أخبرك ان رسول الله ﷺ ينهي عن الخذف ثم تعود! وأخرج البيهقي عن أيوب السختياني التابعي الجليل أنه قال: اذا حدثت الرجل بسنة فقال: دعنا من هذا، وأنبئنا عن القرآن فاعلم أنه ضال. وقال الأوزاعي رحمه الله: السنة قاضية على الكتاب ولم يجيء الكتاب قاضيا على السنة، ومعنى ذلك: أن السنة جاءت لبيان ما أجمل في الكتاب أو تقييد ما أطلقه أو بأحكام لم

تذكر في الكتاب كما في قول الله سبحانه: «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون» وسبق قوله ﷺ: «ألا اني أوتيت الكتاب ومثله معه» وأخرج البيهقي عن عامر الشعبي رحمه الله أنه قال لبعض الناس: «انما هلكتم في حين تركتم الآثار» يعني بذلك الأحاديث الصحيحة، واخرج البيهقي أيضا عن الأوزاعي رحمه الله أنه قال لبعض أصحابه: اذا بلغك عن رسول الله حديث فاياك أن تقول بغيره، فان رسول الله ﷺ كان مبلغا عن الله تعالى. وأخرج البيهقي عن الامام الجليل سفيان بن سعيد الثوري رحمه الله انه قال: انما العلم كله العلم بالآثار، وقال مالك رحمه الله: ما منا إلا راد ومردود عليه الاصاحب هذا القبر وأشار إلى قبر رسول الله ﷺ، وقال أبو حنيفة رحمه الله: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وقال الشافعي رحمه الله: متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثا صحيحا فلم آخذ به فاشهدكم أن عقلي قد ذهب، وقال أيضا رحمه الله: اذا قلت قولا وجاء الحديث عن رسول الله ﷺ بخلافه فأضربوا بقولي الحائط، وقال الامام احمد بن حنبل رحمه الله لبعض اصحابه: لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي وخذ من حيث أخذنا. وقال ايضا رحمه الله: عجبت لقوم عرفوا الاسناد وصحته عن رسول الله ﷺ

يذهبون الى رأي سفيان والله سبحانه يقول:« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنــة أو يصيبهم عذاب أليم »
ثم قـال: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك؛ لعله إذا رد بعض قولـه عليـه الصلاة والسلام أن يقع في قلبه شيء من الزيـغ فيهلك. وأخرج البيهقي عن مجاهد بن جبر التابعي الجليـل أنه قال في قوله سبحانه: « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول » قـــال: الرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول الرد إلى السنة. وأخرج البيهقي عن الزهري رحمه الله أنه قال: كان من مضى من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة، وقال موفق الدين بن قدامة رحمه الله في كتابه روضة الناظر في بيان أصول الأحكـام مـا نصـه: والأصـل الثـاني من الأدلـة سنـة رسول الله ﷺ، وقول رسول الله ﷺ حجة لدلالة المعجزة على صدقه وأمر الله بطاعته وتحذيره من مخالفة أمره انتهى المقصود، وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى:« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن

رسول الله ﷺ أنه قال «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» أي فليخش وليحذر من خالف شريعة الرسول باطنا وظاهرا: «أن تصيبهم فتنة» أي في قلوبهم من كفر ونفاق أو بدعة «أو يصيبهم عذاب أليم» أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك، كما روى الامام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها؛ قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها» أخرجاه من حديث عبد الرزاق، وقال السيوطي رحمه الله في رسالته المسماة مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ما نصه:

«اعلموا رحمكم الله أن من أنكر أن كون حديث النبي ﷺ قولا كان او فعلا بشرطه المعروف في الأصول حجة كفر وخرج عن دائرة الاسلام، وحشر مع اليهود والنصارى أو مع من شاء الله من فرق الكفرة» انتهى المقصود. والآثار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل العلم في تعظيم السنة ووجوب العمل بها والتحذير من مخالفتها كثيرة جدا، وأرجو أن يكون في ما ذكرنا من الآيات

والأحاديث والآثار كفاية ومقنع لطالب الحق، ونسأل الله لنا ولجميع المسلمين التوفيق لما يرضيه والسلامة من أسباب غضبه، وأن يهدينا جميعا صراطه المستقيم انه سميع قريب.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه واتباعه بإحسان...

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الرئيس العام

لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية.


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

موقف النبيّ صلى الله عليه وسلم

من الديانات الثلاث :

الوَثنيّة
واليهوديّة
والنصرانيّة

لفضيلة الشيخ حسن خالد «لبنان»



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه:

محمد رسول الله آمنا به وشهدنا أن ما جاء به هو الحق من عند الله، وليس المطلوب أن يكون هذا ثابتاً في قلوبنا فحسب، بل أن نؤكده لمن أبت نفوسهم إلا الريب في ذلك ممن أوتوا نصيباً من الفكر الرشيد، والقلب الواعي، ممن يدينون بكتاب أو لم يكونوا كذلك.

الحق يفتقر إلى النصرة:

والحق رغم كونه حقاً، يظل مفتقراً إلى بيان ونصرة، لأن كثيراً من العقول تصيبها أحياناً غاشية من جهالة أو هوى، فيختلط عليها الأمر فيه حتى يجليه البيان، تماماً كما يكون حال البصر عندما يغشاه الظلام فتنطمس حقائق الأشياء أمامه ولا تنكشف إلا عندما يلامسها شعاع الضوء.

محمد الأمين:

لقد عاش محمد في قومه حتى الأربعين، فكان مثلاً للخلق الكريم والسلوك القويم، اشتهر فيهم بالصدق والأمانة فلقبوه

بالأمين. وعرف بالعفة والنزاهة وسمو الخصال فأحبوه. وشهد العدد الكثير الدين يستحيل تواطؤهم على الكذب بأنه كان أمياً لا يتلو كتاباً ولا يخطه بيمينه. وقد ألفه الجميع وتسابقوا إلى التقرب منه والتودد إليه، حتى اختارته خديجة زوجاً، وهي من هي شرفاً وحسباً ومالاً ومكانة في الوقت الذي تقدم لها فيه العديد من زعماء القوم فرفضتهم.

تكذيب قومه له:

ولما بعث على رأس الأربعين، وصدع بأمر الله، فأنذر عشيرته الأقربين ودعا قومه إلى الله، انبرى له الأكثرون منهم فكذبوه، وآمن به الأقلون وأكثرهم من ضعفاء القوم. والذين كذبوه تمادوا بالتشهير به وبمن آمن به وتعذيبهم، ثم قاطعوهم فاضطروا إلى الهجرة بدينهم فراراً إلى الله..

دليل صدقه:

وليس المطلوب هنا سوق الأدلة والبراهين على صدقه ﷺ، ولكن مما لا شك فيه أن اتباع الضعفاء له كان ظاهرة صدقه في دعواه، وإن كان قومه يعتبرونها ظاهرة ضعف وفشل، ذلك لأن الضعفاء في القوم وإن كانوا يمثلون في

الغالب الجناح القاصر ويخضعون لوسائل الضغط المختلفة من أسيادهم وكبرائهم، ويفقدون من يتبعونه الكثير من عناصر الدعم، غير أنهم في الغالب يمثلون الصدق والإخلاص في الاتباع، مع التجرد عن الهوى خصوصاً عندما نجدهم يتجملون بالصبر على التعذيب والصمود على التهديد في وجه السلطة، إذ كيف يمكن أن يتحمل كل ذلك فقير وضعيف وهو أحوج ما يكون إلى رضا سيده وعونه إذا لم يكن قد انكشف له الحق وثبت ضياؤه؟.. يؤكد لنا ذلك ما حدثنا عنه التاريخ في وقائع التابعين للرسل والأنبياء على مر الدهور، مما جعل الحكماء يتعرفون بهم على صدق الرسول صاحب الدعوة. وما أمر هرقل ملك الروم عن هذا ببعيد، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بايلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ودعا بترجمانه، فقال أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه النبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال:

أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه. فطرح على أبي سفيان اسئلة عديدة جاء فيها قوله: فأشراف الناس يتبعونه أو ضعفاؤهم؟ فقلت بل ضعفاؤهم. قال أيزيدون أم ينقصون؟ قلت بل يزيدون. قال فهل يرتد أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا .... وبعد أن طرح عليه ما شاء قال له معلقاً على كل إجابة حتى قال: وسألتك اشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه. وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون. وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب[1]. وهكذا فان شهادة قومه له بالأمانة والصدق قبل ظهوره بالنبوة، واتباع الضعفاء له قبل الكبراء، وصبره واعتماده الحكمة والموعظة الحسنة، وتتابع ازدياد المؤمنين وعدم ارتداد أحد منهم

---

(١) فتح الباري الجزء الأول صفحة ٣٢

وصبرهم على الأذى والحرمان المزمن الطويل، وبذلهم النفس قبل النفيس في سبيل الدعوة طمعاً في رضوان الله فحسب، والقرآن الكريم وما حواه من تشريع، وإخبار بالغيب مما كان في غابر الزمان وخفي على الأذهان وما يجد في مستقبل الأيام، وما لفت النظر إليه من الآيات في خلق الانسان وتكوينه وخلق السماوات والأرض وما بينهما، وإلى طبائع بعض عناصر الكون من التراب والماء والهواء وشكل الأرض وكونها سابحة في الفضاء، وما أوتيه ﷺ من جوامع الكلم والمعجزات الكثيرة التي تحدى بها قومه، وشهدت له بالصدق، أقول كل ذلك وهو الأمي، يؤكد بما لا مجال معه للشك أنه رسول الله وأن ما جاء به وحي من عند الله كما قال سبحانه: (والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وماغوى، وما ينطبق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى)[1].

موقفه ﷺ من الوثنية

صورة عن وثنية العرب:

كان العرب قبل الاسلام يغطون في جاهلية عمياء،

---

(١) النجم ١-٥

وكانوا رغم فصاحة منطقهم وبلاغة أدائهم أميين، لا يقرأون ولا يكتبون إلا من هدى الله قال تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين[1]).

وكان من آثار هذه الجهالة، عادات وتقاليد يغلب فيها الانحراف عن الخلق الانساني السوي ومنطقه السديد، وعبادات وعقائد فيها كل الإسفاف والهوان، ولا تقوم سلوكاً ولا تهدي فكراً بل تحكم على من التزموا بها بدوام الارتكاس في الفساد والتردي في الباطل. يقول تعالى: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله[2]). ويقول: (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل،قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا[3]).

---

(١) الجمعة آية ٣

(٢) يونس آية ١٨

(٣) الفرقان ١٧- ١٨

الصنم والوثن:

وكان من مظاهر وثنيتهم أنهم كانوا يتخذون عبادات مختلفة. فمنهم من كان يعبد الصنم وهو ما كان على شكل انسان وقد صنع من معدن أو من خشب، أو يعبد الوثن وهو ما كان على شكل انسان منحوت من حجر، أو يعبد النصب وهو ما قد يكون من صخر ولم يعط صورة انسان أو غير انسان إلا أنه اعتبر مقدساً وأجرت عليه القبيلة طقوساً تعبدية لتصورها بأن له أصلاً سماوياً.

وقد بعث محمد ﷺ وبقايا الوثنية مترسبة في عقول العرب ونفوسهم ومترسخة في حياتهم الاجتماعية، يكتفون بوثن أو صنم يمثل لهم من المعاني والمعتقدات ما هو مبهم وعجيب، ويخلعون عليه ما يحلو لهم من صور القداسة والتعظيم، بل يرفضون أي شيء في هذا السبيل لا يتفق مع ما كان عليه آباؤهم ويهزؤون به وينعتونه بما يشاؤون مما يجعله أمراً غريباً أو ممقوتاً، يقول تعالى: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب، أجعل الآلهة إلَهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب[1]).

---

(١) - ص ٤- ٥

تعدد الأصنام والآلهة:

وقد كان للعرب أوثان وأصنام وآلهة كثيرة حتى إنه لم يكن في قريش رجل بمكة إلا وفي بيته صنم يعظمه ويعبده، ويصنعونه من كل شيء حتى من العجوة أحياناً ثم يأكلونه عند الجوع، فلما كان يوم الفتح قال الواقدي: نادى منادي رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعن في بيته صنماً إلا كسره. فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام. وقد روى جبير بن مطعم أنه كان يرى قبل هذه المناداة الأصنام يطاف بها في مكة فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم. وما من رجل من قريش إلا وفي بيته صنم إذا دخل يمسحه وإذا خرج يمسحه تبركاً به[١].

من أبرز آلهة العرب:

وكان من أبرز آلهة العرب وأصنامهم قبل الاسلام وبعده (هبل) وقد كان مقره الكعبة في مكة المكرمة، يحج إليه العرب من كل فج وصوب. وقد كان مصنوعاً من العقيق على صورة انسان، وقد كسرت ذراعه فأبدله بها القرشيون ذراعاً من ذهب. وقد جلبه عمرو بن لحي من

---

(١) - تاريخ مكة للازرقي الجزء الأول صفحة ١٢٥

هيت من أرض الجزيرة، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به قبل أهله وبعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده، وكانت له خزانة للقربان.

وكان قربانه مائة بعير، كما كان له حاجب. وهو الذي صاح باسمه أبو سفيان عقب يوم أحد فقال: (أعل هبل) ورد عليه عمر بن الخطاب بتوجيه من رسول الله ﷺ (الله أعلى وأجل)[1].

أصنام أخرى:

وكان لهم على الصفا (أساف) وعلى مروة (نائلة) ثم نقلها قصي فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر موضع زمزم. فكان الناس ينحرون عندها، كما كان لهم (الخلعة) بأسفل مكة يلبسونها القلائد ويهدون إليها الشعير والحنطة ويذبحون لها، وكان لهم (مناة) على ساحل البحر مما يلي قديد تعظمها الأوس والخزرج وغسان من الأزد[2].

وقد ظلت (اللات) في الطائف حتى هدمها المغيرة بن شعبة بأمر الرسول ﷺ وأحرقها، وكانت (العزى) بواد من نخلة الشامية حتى قطعها خالد. وكذلك كانت لكفار قريش

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون صفحة ١٨٧

(٢) تاريخ مكة للازرقي الجزء الأول صفحة ١٢٥

شجرة عظيمة خضراء يقال لها (ذات أنواط) في الطريق إلى حنين و(ذو الكفين) للدوسيين و(سواع) لهذيل وغير ذلك كثير[1].

وقد روي عن ابن عباس قوله: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً قد شدها ابليس بالرصاص، فطاف ﷺ على راحلته وهو يقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) ويشير إليها فما منها صنم أشار إلى وجهه إلا وقع على دبره، ولا أشار إلى دبره إلا وقع على وجهه حتى وقعت كلها. وقال ابن اسحاق لما صلى النبي ﷺ الظهر يوم الفتح أمر بالأصنام التي حول الكعبة كلها فجمعت ثم حرقت بالنار وكسرت.[2].

موقف الرسول من الأوثان:

كان رسول الله ﷺ منذ نشأته الاولى معروفاً بنبيل الصفات وجميل الشمائل، يخالط قومه ويعاشرهم ويأخذ معهم قسطه في الحياة العامة على اختلاف صورها، بيد أنه لم يكن يجاريهم في لهوهم وعبثهم وشرابهم وفسادهم، وقد شب بفضل

(١) تاريخ مكة للازرقي الجزء الأول ١٢٥ وما بعدها

(٢) نفس المصدر صفحة ١٢١

الله مطهراً من دنس الجاهلية[1] كما أنه لم يرو عنه أنه سجد لصنم قط لأن ذلك قد يغضب الله[2].

ولما كان في تجارة لخديجة في الشام وقع بينه وبين رجل اختلاف في شيء، فقال له الرجل احلف باللات والعزى، فقال له الرسول: ما حلفت بهما قط، وإني لأمر فاعرض عنهما[3] وقد قال العلامة القسطلاني: ((ولما ترعرع ﷺ كان يخرج إلى الصبيان وهم يلعبون فيجتنبهم. ولما اكتمل شغف بالوحدة المشفوعة بالتحنث الفطري البعيد عن أية شائبة من شوائب الوثنية.))

وقد روى البخاري أنه ﷺ قال: ما هممت بشيء من أمر الجاهلية إلا مرتين، وروى أن إحدى المرتين كان في غنم يرعاها هو وغلام من قريش فقال لصاحبه: اكفني أمر الغنم حتى آتي مكة وكان فيها عرس فيها لهو وزمر، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك القي عليه النوم فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله. وفي المرة الآخرة قال لصاحبه مثل ذلك فألقى عليه النوم كما القي في المرة الأولى[4].

---

(١) سمط النجوم العوالي الجزء الاول صفحة ٢٧١

(٢) مختصر سيرة الرسول محمد بن عبد الوهاب ٤٤

(٣) طبقات ابن سعد ١٣٨

(٤) السهيلي الجزء الأول صفحة ١١٢

وقد روى ابن عباس قال: حدثتني أم أيمن قالت: كانت بوانة صنماً تحضره قريش، تعظمه تنسك له النسائك ويحلقون رؤوسهم عنده، ويعكفون عنده يوماً إلى الله وذلك يوماً في السنة، وكان أبو طالب يحضر مع قومه وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر العيد مع قومه فيأبى ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن إنّا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، وجعلن يقلن ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً! قالت: فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً فقالت له عماته: ما دهاك؟ قال: (إني لأخشى أن يكون بي لمم) «أي طرف جنون» فقلن ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟ قال: إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي وراءك (أي إرجع وراءك يا محمد لا تمسه). قالت فما عاد الى عيد لهم حتى تنبأ[1].

---

(١) لطبقات الجزء الأول صفحة ١٣٩- ١٤٠

موقفه ﷺ منها بعد البعثة:

لقد حمل رسول الله ﷺ من أول يوم بعث فيه إلى الناس رسالة العلم والنور والحق المبين. وهذه الرسالة بما تحمله لا تلتقي مع عبادة الوثن والصنم وتقديس النصب وتعظيم العرافين والكهان في شيء، لأنها لا تلتقي مع الجهالة والهوى، ذلك أن الله تعالى يريد أن يحفظ للانسان حريته الفكرية وكرامته الشخصية، وهما لا يتحققان إلا بفك ارتباطه بأية عبودية تكون منه لإنسان أو لكائن من الكون اللهم الا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد. ولذلك كان أول ما بدىء من الوحي في احدى الروايات قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) بدىء بهذه المفاهيم الجديدة، مفاهيم الإلّه الواحد المفرد، الخالق الأكرم، المعلم الذي يملك كل شيء ويفعل ما يريد.

ومفهوم حصر عبودية الانسان بالاله الواحد، هو نقض عقيدة العرب بما فيهم قريش بالأصنام والأوثان وما إليها من عقائد وأعراف ما انزل الله بها من سلطان.

ولذلك فإنه ﷺ في الوقت الذي كان فيه أحوج ما

يكون إلى النصرة والتأييد اتجه بوحي من الله وأمر منه إلى الأصنام والأوثان والأنصاب والأزلام والى طرائقهم في الذبح لها وعندها فسفهها وعابها وأعلن بطلانها وفسادها. فذكر عبادة الاولين لها وما كان بينهم وبين الانبياء السابقين بسبب ذلك منبهاً إلى موقف الاسلام فقال تعالى: (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتَوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسىٰ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون، ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون، قال أغير الله أبغيكم الهاً وهو فضلكم على العالمين)[1].

وروى أبو واقد الليثي: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها (ذات أنواط) يأتونها كل سنة، فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها، ويعكفون عندها يوماً. قال فرأينا يوماً ونحن نسير مع النبي شجرة عظيمة خضراء فسايرتنا من جانب الطريق فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا (ذات أنواط) كما لهم (ذات أنواط) فقال لهم

---

(١) الإعراف ١٣٨- ١٤٠

رسول الله: (الله اكبر، الله اكبر. قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال انكم قوم تجهلون، الآية، انها السنن سنن من كان قبلكم[1].

مشيراً بهذا إلى قوله ﷺ: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى ولو دخل احدهم جحر ضب لدخلتم[2].

وقد أورد الوحي الكريم في الكتاب قوله تعالى على لسان ابراهيم: (وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة اني أراك وقومك في ضلال مبين[3]). وقوله في دعائه: (واجنبني وبنيّ أن نعبدالأصنام، رب انهن أضللن كثيراً من الناس)[4].

بل ويتهكم على عبادتها ويصفها بانها عبادة مختلقة زوراً وبهتاناً على الحق، ويذكر بصفاء وجرأة بأنها لا تملك الضر ولا النفع لأحد ولا تملك حياة ولا موتاً ولا نشوراً مشيراً بذلك إلى أن المالك لذلك هو الله الذي يستحق وحده العبادة فيقول: (انما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون

---

(١) تاريخ مكة للازرقي الجزء الأول صفحة ١٣٠

(٢) التيسير شرح الجامع الصغير الجزء الثاني صفحة ٢٨٩

(٣) الإنعام ٧٤ (٤) ابراهيم ٣٥- ٣٦

افكا، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عنـد الله الرزق واعبـدوه واشكروا لـه إليـه ترجعون[1]). ويقول (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا[2]).

ويتابع القرآن الكريم اعلان موقف الاسلام من آلهة القوم وعن طريق ذكر موقفه من آلهة من سبقوهم أحياناً فيقول على لسان نوح متهكماً وعائباً: (قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً، ومكروا مكراً كبّاراً، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا، وقد أضلوا كثيرا[3]). ويقول: (أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى[4]). ولا يكتفي بأن يسفه احلامهم ويخطىء عبادتهم ويحكم بضلالها؛ بل ينذرهم بأسوأ المصير ويحكم عليهم وعلى آلهتهم بأن

---

(١) العنكبوت ١٧
(٢) الفرقان ٣
(٣) نوح ٢١- ٢٤
(٤) النجم ١٩- ٢٣

عاقبتهم جميعاً جهنم وبئس المهاد فيقول: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكلٌّ فيها خالدون[1]). ثم يجرد حملة صاعقة على الوثنية ومن انجرفوا في وحلتها وحمأتها حتى عميت قلوبهم وزاغت أبصارهم وضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فلم يكن منه معها مهاودة او ملاينة حتى لقي ربه، ولم يكن العذاب والتنكيل ولا الحبس والتهجير والحرب والتقتيل لتثنيه وتثني أصحابه عن مطاردة الوثنية انى كانت وكيف ظهرت.

الوثنية في نظر الاسلام:

كل ذلك لأن الوثنية- فضلاً عن كونها باطلاً وتزويراً على الحق- تدفع فكر الانسان بالتبعية لكل مجهول وغامض، وتدفعه لقبول الأوهام والرضى بالظنون، والخضوع لألاعيب المهرجين من السحرة والكهان والمنجمين وحيلهم،هؤلاء الذين طالما أضلوا الناس ولا يزالون، كما أنها تسوغ لعقل الانسان القناعة بالعبودية للعجزوالضعف،سواء كانت متمثلة في الحجارة أو في النار كما كان حال المجوس،أو

(١) الانبياء ٩٨- ٩٩

في الشمس والنجوم كما كان شأن المصريين وغيرهم،أو في الشجر والحيوان كما كان حال العرب والمصريين، وكلها عند إنعام النظر ضعيفة إذا ما قورنت بما أوتيه الانسان نفسه وهيء له بفضل الله وتيسيره من قدرة وفاعلية.

إن تطاول الانسان في هذه العبودية الجامحة فيه حكم على نفسه بالجمود والذل والهوان والعجز مع الزمن عن حمل الأمانة حمَّله الله إياها؛ ليكون في الأرض خليفة يعمرها ويستصلحها ويمشي في مناكبها ويسخرها بما فيها وعليها لصالحه ومعاشه.

أفليس الانسان العاقل المتحرك العالم المريد الفعال هو الذي يصنع الأصنام والأوثان وينحت من الجبال ما هو أضخم وأكبر؟ أوليس باستطاعته أن يتصرف فيما حوله تعديلاً وتحويلاً وتقديماً وتأخيراً، وأن يقرب بين المتضادات ويجانس بين المتنافرات ويسخر عناصر الكون فيفعل بها الغرائب والعجائب والمدهشات؟ ألم يذلل الصعاب ويجعل شبه المستحيل مطواعاً، ويشق الطريق في الشعاب ويذلل السير في أعالي الجبال وأغوار الوديان وأقاصي الدنيا، ويرفع الشاهق من البنيان، ويركب متن الهواء وموج

البحر، ويسخر أعماق الأرض وعوالي السماء في خدمته ولمنفعته؟

كيف كان يمكن أن يصل هذا الانسان إلى شيء من هذا لو ظل مسترخياً للعجز مستسلماً إلى الحجر الأصم والحيوان الأعجم أو المخلوق الضعيف يؤمن به ويدعوه رهباً ورغباً؟

لقد ضل العربي في الماضي كما ضل الانسان في كل مكان فاتبع هواه وخضع لمغريات مصالحه فغاص في جهالة طائشة ردحاً طويلاً من الزمن إلى أن جاء صوت الحق يجلجل في أذنيه، يوقظه من غفلته، ويرده إلى صوابه وفطرته السليمة، وينبهه إلى فعل الهوى وخطره ويقول: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون[1]) ويقول: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا[2]).

لا هوادة مع الوثنية:

لقد شن الرسول ﷺ على الوثنية حرباً لا هوادة فيها

---

(١) الجاثية ٢٣ (٢) الفرقان ٤٣- ٤٤

ووقف في وجه جبابرتها بعزم وحزم عزيزاً بدينه لا يخاف لومة لائم يقول تعالى: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم)[1]. ويقول: (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله[2]). وقد جاءه يوماً عتبه بن ربيعة ممثلا قومه فقال:(يا ابن أخي انك منا حيث قد علمت من المكان في النسب،وقد اتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع حتى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها.. إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالا، وإن كنت تريد تشريفاً سودناك علينا، فلا نقطع امراً دونك. وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ) فلما سكت تلا عليه ﷺ بعض ما أنزله الله من الكتاب فرجع مأخوذاً بجمال ما سمع وما رأى ومأخوذاً بعظمته ﷺ وسحر بيانه[3].

ومشت قريش إلى أبي طالب عم النبي ومعها عمارة بن الوليد بن المغيرة وكان أنهد فتى في قريش وأجمله، وطلبوا

---

(١) التحريم ٩

(٢) المجادلة ٢٢

(٣) حياة محمد

إليه أن يتخذه ولداً ويسلمهم محمداً فأبى،ثم ذهبوا إليه مرة ثانية وقالوا له: (إن لك سناً وشرفا ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك الله أحد الفريقين) ولما بعث أبو طالب إلى رسول الله يقص عليه رسالة قريش وأردف ذلك بقوله: فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق) قال رسول الله ﷺ:(يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته[1].).

بل إنه ﷺ. حارب كل ما يتصل بالوثنيين من قريب أو بعيد، وأصر على إفراد الله تعالى بالعبودية،وطالب كل مؤمن بأن يكون مخلصاً له كل الاخلاص والا شارك عمله وقوله شيء من الشرك، وكان عرضة لسخط الله،يقول الله تعالى معلماً الرسول الكريم: (قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين، قل اني أخاف أن عصيت ربي عذاب يوم عظيم،قل الله أعبد مخلصاً

---

(١) حياة محمد ١٦١- ١٦٢

له ديني[1]).

ويقول على لسان ابليس:(ربِّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض،لأغوينهم أجمعين،إلا عبادك منهم المخلصين)[2].

ويقول:(إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً،إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين اجراً عظيما[3]).ويقول: (قل امر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين)[4].

ويقول ﷺ: (تعس عبد الدرهم، تعس عبدالدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش (أي إذا أصابته شوكة فلا تخرج) إن اعطي رضي وإن منع سخط[5]) كما يقول: (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)[6].

اسلوبه صلى الله عليه وسلم مع الوثنيين:

ولقد سلك ﷺ مع المشركين الوثنيين وغيرهم اوضح المسالك وأيسرها ليردهم إلى الحق ويصرفهم عما هم فيه من

---

(١) الزمر ١١ و١٤
(٢) الحجر ٣٩- ٤٠
(٣) النساء ١٤٥- ١٤٦
(٤) الإعراف ٢٩
(٥) البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة
(٦) رواه أبو داود بسنده

جهالة وضلال. فحاورهم بالتي هي أحسن، وضرب لهم الأمثال ،ولفت انظارهم إلى ما في السماوات من الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وإلى الأرض وما عليها من الجبال والبحار والأنهار والشجر والنبات من كل صنف ولون وشكل،وإلى الحيوان وغيرها من الكائنات وما تنطوي عليه من آيات ثم كيف خلقت ثم طورت حتى اكتملت ، كل ذلك ليحفز عقولهم إلى تقبل الحقائق ومجافاة الأباطيل.. خصوصاً وأن الاسلام قد جاء ليرسي دعائم المفاهيم الصالحة ويعمق فضل القيم الانسانية في نفوس الأفراد والجماعات، فهو لا يسعه إذن ان ينقص من قيمة العقل ولا أن يقبل كل ما يؤدي إلى ذلك سواء كان وثنية أوسواها ،ولذلك فهو في الكتاب كما في نصوص الحديث يلح على التذكير بأن الله قد خلق للانسان عقله وربط به بداية التكليف والمسئولية أمام الله والمجتمع فيقول تعالى: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم اموالهم)[1]. كما يكثر من الالفات إلى الآيات والمعالم التي تعرف الانسان على الحق وتدنيه منه فيقول: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم

---

(١) النساء ٦

قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور[١]). ويقول: (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[٢].

ويقول أيضاً: (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون[٣].

ذلك أن هذا العقل الذي أوتيه الانسان هو مدار كرامته وفضله وامتيازه على اترابه من المخلوقات، وتسلطه عليهم بحيث استحق أن يجعله الله خليفة في الأرض، يحرم أن يهمل وتهدر فاعليته، كما يحرم أن يخدر بالأوهام والأساطير والرؤى الباطلة والايحاءات النفسية أو ما شابهها أو بالمشروبات المخمرة أو الحشائش السامة التي تفسد رؤيته

---

(١) الحج ٤٦

(٢) البقرة ١٦٤

(٣) الرعد ٣- ٤

وتخل توازنه وتضيع طاقته..

إن عبادة الأصنام والأوثان واتخاذ الآلهة من البشر والشجر والحجر والحيوان والنجوم وغيرها فضلاً عن كونها باطلة، هي في حد ذاتها مستندة إلى تلك الوسائل مستندة إلى زرع الأوهام والخرافات في نفوس الناشئة والتسلط عليها عن طريق الايحاءات النفسية الظالمة... لذلك كان موقف الاسلام منها موقف الحرب التي لا هوادة فيها ولا ملاينة.

موقف الاسلام من السحر والتنجيم:

ومن هنا كان موقف الاسلام من السحر والتنجيم والعياذة بالجن والعرافة وما يتصل بها موقفاً مستمداً من موقفه من عبادة الأصنام والأوثان وغيرها، موقف التحريم والرفض القاطع. يقول تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت[1]). والطاغوت كما ثبت عام في كل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبودٍ او متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله[2]،فالشيطان طاغوت،والذي يحكم بغير ما انزل الله طاغوت، والذي

(١) النحل ٣٦

(٢) مجموعة القوانين لابن تيمية صفحة ٨

يدعي علم الغيب من دون الله طاغوت، وكل من عبد من دون الله وهو راض بذلك طاغوت.

واللجوء إلى العائذين بالجن لاستطلاع آرائهم بالمغيبات وغيرها حال الاعتقاد بأنهم يعملون ذلك لجوء إلى الطاغوت واحتكام إليه، وكذلك الاعتماد على السحرة والاستعانة بهم للافساد بين الناس واستغلال المغفلين منهم والعبث في الأرض يقول تعالى: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا[1]).

وقد ثبت أن هؤلاء يكون لهم القرين من الشيطان يخبرهم عن المغيبات بما يسترقه من السمع فيخلطون الصدق بالكذب والحق بالباطل كما في الحديث الصحيح، فقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال: (إن الملائكة تنزل في العنان- السحاب- فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم) ويروي مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بينما النبي ﷺ في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار،

(١) النساء ٦٠

فقال النبي ﷺ: (ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟) قالوا: كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم، قال رسول الله ﷺ: (لا فإنه لا يرمى بها لموت أحد أو لحياته ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء، ثم يسأل اهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا؟ فيخبرونهم، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا، وتخطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون).

وقد ثبت أن الأسود العنسي الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه حتى اعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه، وكذلك مسيلمة الكذاب كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الامور. وأمثال هؤلاء كثيرون مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة، وكانت الشياطين تخرج رجليه من

القيد وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يرى الناس رجالاً وركباناً على خيل في الهواء ويقول هي الملائكة وانما كانوا جناً، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ به فقال عبد الملك انك لم تسم الله فسمى الله فطعنه فقتله.[1].

موقفه من الالاعيب الشيطانية:

وكذلك كان موقفه من الألاعيب الشيطانية التي يموه بها على الناس ويسيطر بها على عقولهم، موقف التحريم والنبذ الشديد لأنها تفسد نظر الانسان وتضعف طاقته الفكرية وتنقص جهده الحياتي وتؤذي بصورة خاصة الأفراد وبصورة عامة المجتمعات.

موقفه من الخمور والمخدرات عامة:

ولعلنا هنا ندرك لماذا كان تحريم الاسلام للخمور والمخدرات من الحشائش والمشمومات وما يتعاطى عن طريق البلع أو الابر يقول تعالى: (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون،

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان من مجموعة التوحيد صفحة ٤٥٨- ٤٥٩

إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون)[1].

موقفه من الشفاعة:

ونحن نعلم ان العرب الوثنيين كانوا يعرفون أن خالقهم وخالق الأرض والسماء هو الله، يقول تعالى: (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)[2]. ويقول: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله)[3]. وإن عبادتهم للأوثان والأصنام كانت لاعتقادهم بأنها شفعاؤهم عند الله تقربهم إليه وتزلف منزلتهم منه يقول تعالى: (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى[4]). وهو ما رد عليه القرآن في أكثر من موضع من سوره فيقول: (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون[5]).

وامتددا بهذا الموقف فقد كان موقف الاسلام في رأي

---

(١) المائدة ٩٠- ٩١
(٢) الزخرف ٨٧
(٣) الزمر ٣٨
(٤) الزمر ٣
(٥) الزمر ٤٣- ٤٤

البعض تحريم الشفاعة ورفضها قياساً على تحريم ورفض شفاعة الوثنيين بآلهتهم، وهرباً من السقوط مرة أخرى في حبائل الوثنية التي انقذ الله المؤمنين منها يقول تعالى: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون[1]. فاعتبروا الشفاعة اشراكاً بالله، والشرك بالله خروج عن الملة وانزلاق تام إلى غضب الله وسخطه.

ولهذا فقد كان الاستشفاع بأية ذات مهما علا مقامها حتى ولو كان رسول الله هو في رأي هؤلاء مناف للإخلاص الذي أمر الله به نبينا والمؤمنين عندما يقول: (فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص[2]) ويقول: (فادعوا الله مخلصين له الدين)[3]. ويقول: (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء)[4] وقالوا: من اثبت وجود الوسيط بين الله وبين خلقه فقد حكم على نفسه بالدخول في الشرك لأن هذا عمل المشركين الذين كانوا يقولون عن اوثانهم وأصنامهم انها تماثيل الانبياء الصالحين وأنها تقربهم

---

(١) يونس ١٨
(٢) الزمر ٢- ٣
(٣) غافر ١٤
(٤) الرعد ١٤

إلى الله، وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى حيث يقول: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)[1].

ولقد روى الاعمش وسفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن ابي البختري قال: سئل حذيفة عن قول الله عز وجل: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) هل عبدوهم؟ فقال لا، ولكن احلوا لهم الحرام فاستحلوه، وحرموا عليهم الحلال فحرموه. وروى الترمذي عند عدي ابن حاتم قال: اتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: (ما هذا يا عدي اطرح عنك هذا الوثن) وسمعته يقرأ في سورة براءة (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) ثم قال:(اما انهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا احلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه) وقد نقل القرطبي في ذلك عن أهل المعاني فقال: جعلوا احبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث اطاعوهم في كل شيء[2] وجاء معاذ بن جبل مرة إلى رسول الله ﷺ فسجد

---

(١) التوبة ٣١

(٢) القرطبي الجزء الثاني صفحة ١٢٠

له فقال ﷺ :(ما هذا يا معاذ؟ فقال يا رسول الله رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم، فقال: (يا معاذ لا يصلح السجود إلا لله ولو كنت آمراً احداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها[1].

وقد حسم الله تعالى الكلام في مراد الاشراك به في مواضع متعددة من الكتاب الكريم، ومن ذلك قوله: (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله)[2] وجاء قول الرسول ﷺ مؤكدا ذلك في قوله عندما قال له رجل ما شاء الله وشئت فقال: (أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده) وقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم وإنما انا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله)وقال:(اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد).

موقف الاسلام من القبور:

ويتابع الاسلام اخذ مواقفه من الوثنية ليزيد في تصفية عقائد المسلم من شوائبها ويصونها من لوثات الشرك فنهى المؤمنين عن زيارة القبور في مطلع الدعوة، وذلك لما كان يقع فيها من التفاخر والمباهاة ولما يجري فيها من التسنيم

(١) سنن ابن ماجة وكتاب النكاح

(٢) النمل ٦٢

بالحجارة والرخام وبنيان النواويس عليها. وقد نقل ابن بطال عن الشعبي قوله: لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابني. وكذلك روي عن النخعي قوله: كانوا يكرهون زيارة القبور وعلى هذا طائفة من السلف خصوصاً وأن البخاري لم يرو أحاديث النسخ عن زيارة القبور[1]، بينما ذهبت طائفة اخرى إلى القول بالإباحة. ومنهم مالك الذي روي عنه أنه قال: (كان رسول الله ﷺ نهى عنها ثم أذن، فلو فعل ذلك انسان ولم يقل إلا خيراً لم أرَ بذلك بأساً خصوصاً وأنها تذكر بالآخرة، وتحمل على الحسبان ليوم المصير. فقد روي عنه ﷺ انه زار قبر امه فبكى وأبكى من حوله وقال: (استأذنت ربي في أن ازور قبرها فأذن لي،واستأذنته في ان استغفر لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور فانها تذكركم الآخرة[2].

وقد ثبت انه ﷺ نهى عن زيارة القبور أولاً وذلك باتفاق العلماء وعلق على ذلك أفاضلهم بقولهم لأن ذلك يفضي إلى الشرك. ولكن نقل عنه ايضا أنه ﷺ قال: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا).

---

(١) الجواب الباهر في زوار المقابر لابن تيمية ٤٣- ٤٤

(٢) صحيح مسلم كتاب الجنائز

وعلى كل حال فإن نهي رسول الله ﷺ عن زيارة القبور المتفق عليه يفيد القطع بموقف الاسلام العظيم من الوثنية وحرصه على مجافاة الناس عن ممارسة أي شيء يعود بهم إليها، فزيارة القبور تصل ضعاف العقول وسخفاء الفكر من الناس بمن يحبون روحياً وتسوغ لهم القيام بتصرفات والنطق باقوال تنجرف بهم أحياناً إلى مزالق الشرك...

بل إننا لنرى في هذا العصر عصر العلم والتقدم التكنولوجي والحضاري الباهر، وتفتح الأذهان المدهش من التصرفات الشاذة عن الاسلام عند هذه القبور كما نسمع الكثير مما لا يتفق مع نقاء الايمان واخلاص القلب لله من اولئك الذين يزورونها ويترددون عليها؛ مما يؤكد ضرورة الوعي والحذر الدائم من السقوط فيما نهى الاسلام عنه مما لا يتفق واليقين الثابت بالله.

اتخاذ قبور الانبياء مساجد:

ويدلف بنا الحديث عن القبور عامة وموقف الاسلام منها إلى الحديث عن قبور الانبياء وبناء المساجد عليها. فقد اتفق العلماء على النهي عن ذلك قطعاً لأنه يؤدي بطريقة لا شعورية إلى عبادتهم وهو عين الشرك بالله.

وفي صحيح مسلم انه ﷺ قال قبل ان يموت بخمس: (ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني انهاكم عن ذلك)[١] وروي عن ابن عباس وغيره من السلف قولهم عن سبب عبادة الاوثان مثل (يغوث وسواع ويعوق ونسر)، إن هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم. ولذلك شدد رسول الله ﷺ في تحذير امته من ان يقعوا فيما وقع فيه من سبقهم من الذين اشركوا وأهل الكتاب، ونهاها عن اتخاذ القبور مساجد وعن الصلاة اليها[٢]. بل وزاد في ذلك فأخبر بأن الله تعالى قد لعن اليهود والنصارى لانهم اتخذوا من قبور انبيائهم مساجد.

النهي عن بنيان القبور وتجصيصها:

ومن أجل هذا المعنى الجليل نهى الاسلام المؤمنين عن مشابهة أهل الكتاب بتعظيم القبور ورفع بنيانها وتجصيصها والبناء عليها وإحاطتها بكل ما يوحي بالتعظيم، لئلا يتسرب شيء من هذا المعنى إلى قلوب الفاعلين فيضلوا ويضلوا عن سواء السبيل...

---

(١) صحيح مسلم كتاب الصلاة

(٢) الجواب الباهر

النهي عن صناعة التماثيل واقتنائها:

وارتكازاً إلى هذا المفهوم، وانسجاماً مع صفاء الإيمان ونقائه واخلاصه حرم الاسلام صناعة التماثيل او نحتها من الحجارة سواء كانت للعبادة او للزينة وغير ذلك، لأن فيها مضاهاة لصنع الله، وتدخل على صانعها وناظرها من العجب ما قد يسبب احياناً انحرافاً إلى الوثنية قولاً وعملاً. فقد روت عائشة عنه ﷺ قالت: (قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت سهوة لي (أي كوة) بجرام فيه تماثيل، فلما رآه تلون وجهه وقال: يا عائشة اشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله[١]). فحرم صناعة الأصنام ونحتها وبيعها واقتناءها وعرضها في البيوت والأسواق والنوادي صيانة للعقيدة وحفظاً لها...

النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس ووقت غروبها.

وحرصاً منه على هذا المعنى ولما كان بعض المنحرفين من البشر قد ضلوا عن الحق فسجدوا للنار وسجدوا للشمس كما نقل المؤرخون وكما نقل القرآن الكريم في وصفه لقوم بلقيس ملكة سبأ في سورة النمل: (وجدتها وقومها

---

(١) منهل الواردين شرح رياض الصالحين الجزء الثاني صفحة ٩١٦

يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون[1]). فقد نهى ايضاً المؤمنين عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها.

وقد نقل أن الشيطان يقارن الشمس عند الشروق وعند الغروب حيث روى مسلم في صحيحه: (لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فانها تطلع بين قرني الشيطان) وقد قال ابن تيمية: (والشيطان يضل بني آدم بحسب قدرته فمن عبد الشمس والقمر والكواكب ودعاها كما يفعل اهل دعوة الكواكب فانه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه بعض الامور. ويسمون ذلك روحانية الكواكب وهو شيطان. والشيطان وإن أعان الانسان على بعض مقاصده، فانه يضره أضعاف ما ينفعه وعاقبة من أطاعه إلى شر إلا أن يتوب الله عليه)[2].

تحريم ذبائح المشركين:

ورغم أن الاسلام ليس دين عنصرية ولا عصبية وإن منهجه في الدعوة هو مخاطبة الناس على قدر عقولهم ومفاهيمهم، والتلطف معهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة

---

(١) النمل ٢٤

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان صفحة ٤٦٤ من مجموعة التوحيد.

ومجادلتهم بالتي هي أحسن، وانه يوجه خطابه الى الناس كافة مشركهم وكافرهم. حتى قال الكثيرون من العلماء بأن ما ورد في القرآن الكريم من الخطاب يا أيها الناس فهو موجه إلى المشركين والكفار مع المؤمنين فيسر بذلك للمشرك سماع الحق ومشارفة النور وبخاصة في قوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون[١]). اقول رغم هذا كله فإن الاسلام العظيم فصل بين المسلم والمشرك والوثني في بعض التعامل فحرم عليه ذبائحهم لأنها لم تتبارك بذكر اسم الله عليها عند ذبحها اولا وقبل كل شيء ولمخالفتهم أحياناً بطريقة الذبح..

وتحريم مناكحتهم:

وحرم عليه مناكحتهم قطعاً فلا يستبيح الزواج منهم ولا يصح تزويجهم مهما كان حالهم وأياً كانت مكانتهم الاجتماعية والسياسية والمالية والحضارية، لأن العبرة الأساسية هي بالعقيدة التي ينطوي عليها قلب الانسان وهي في الحقيقة أساس سلامة الأسرة وسعادتها وبالتالي سلامة

(١) التوبة ٦

المجتمع وأمنه وطمأنينته يقول تعالى: (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولوأعجبكم،أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة باذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون[1]).

أوصى بالحيطة والحذر والتعامل معهم:

ولكنه سمح بمواصلة ومعاملة من لم يقاتلوا المؤمنين منهم مع الحذر منهم واليقظة بدليل انه ﷺ سمح لأسماء بنت أبي بكر بقبول هدية والدتها المشركة عندما قدمت على المدينة في الفترة التي كان فيها مهادنة بين رسول الله وكفار قريش كما في البخاري ومسلم،كما فهم ذلك أكثر أهل التأويل لدى دراسة آية المتحنة وهي قوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين[2]). فقالوا انها محكمة.

ومع ذلك فقد انزل منزلتهم الاجتماعية وجعلها سواء مع منزلة الزاني والزانية في النكاح كما هو ظاهر قوله تعالى: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها

(١) البقرة ٢٢١

(٢) المتحنة ٨

إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين[١].

وهو بالاجمال يسمح بالتعامل معهم في حدود محدودة ولكنه يوصي أتباعه دوماً بالحذر منهم وينهاهم عن الأمان لهم لأنهم منافقون في خصالهم وأخلاقهم لا يشدهم مبدأ ولا يثنيهم يقين تتخاطفهم الأهواء وتتنازعهم المصالح، كما يتضح بعد الركون الى عهودهم ومواثيقهم وإيمانهم يقول الله تعالى:

(كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام...) إلى أن يقول (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون[٢]). ويقول: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون[٣]). ولذلك كانت شدته مع البعض منهم وقسوته في معاملتهم وضغطه على المؤمنين لجافاتهم وعدم التعاون معهم أو موالاتهم وموادتهم حتى ولو كانوا آباءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم يقول تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان

---

(١) النور ٢

(٢) التوبة ٧- ٨

(٣) التوبة ١٢

استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون[1]). ويقول: (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم)[2].

حرم عليهم الاستغفار لهم بعد الموت:

بل انه قطع علاقة أتباعه بهم بعد موتهم ومنعهم من الاستغفار لهم أو طلب الرحمة أياً كانت صلتهم بهم لأنهم قد ماتوا وهو محادون الله ورسوله: يقول تعالى: (قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده؛الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء[3]. ولئن كان الله تعالى قد اذن للرسول صلى الله عليه وسلم بزيارة قبر أمه، بيد انه لم يأذن له بالاستغفار لها: فقد روى مسلم في صحيحه عن ابي هريرة قال: زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر امه فبكى وأبكى من حوله فقال: (استأذنت ربي ان استغفر لها فلم يأذن لي

---

(١) التوبة ٢٣
(٢) المجادلة ٢٢
(٣) الممتحنة ٤

واستأْذنته في ان ازورها فأذن لي فزوروا القبور فانها تذكر بالموت)

وأوصى بجهادهم بقسوة عند القتال:

اما في القتال فقد امر بأخذ اشد المواقف واعنفها يقول تعالى: (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم[1]). بل منع أخذ الجزية منهم، وان كان سمح بالاسر والمفاداة على رأي الضحاك والسدي وعطاء وابن زيد[2]، وجعلهم امام احد الخيارين لا ثالث لهما اما الاسلام واقامة اركانه، او القتال. ويقول تعالى مخاطبا رسوله: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير)[3] فهم ينتظرهم فوق هذه الشدة في المعاملة في الدنيا اشد العذاب واقبح المصير.

المشركون نجس:

بل ان اشراكهم بالله قد غمسهم بأقبح حال وأسوئه اذ

---

(١) التوبة ٥
(٢) القرطبي الجزء الثامن صفحة ٣
(٣) التحريم ٩

جعل فكرهم موبوءا وقلوبهم قذرة وكيانهم نجسا ، ولذلك فان الله تعالى يحرم عليهم دخول المسجد الحرام فقال: (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا)[١]. فذهب اجلة العلماء الى تحريم دخول المسجد الحرام على المشرك والكافر مطلقا ، وقاسوا عليه دخول المساجد عامة - وبذلك كتب عمر بن عبد العزيز الى عماله[٢] وفي صحيح مسلم (ان هذه المساجد لا تصلح لشيء من البول والقذر) والكافر لا يخلو عن ذلك وخالف الشافعي في ذلك فأجاز لليهودي والنصراني بدخول المساجد غير المسجد الحرام[٣].

تحريم الكبر:

ولقد كان ثمرات موقف الاسلام الصارم من الوثنية موقفه من الكبر لدى النفس حتى ولو كان مقدار مثقال ذرة ففي الحديث القدسي: (الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار ولا ابالي[٤]. كما

---

(١) التوبة ٢٨

(٢) القرطبي الجزء الثامن صفحة ١٠٤

(٣) القرطبي الجزء الثامن صفحة ١٠٤- ١٠٥

(٤) كشف الخفاء الجزء الثاني ١٠٦

ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال: (لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر) وقال عن مشية المتكبرين: (ان هذه مشية يكرهها الله الا في مثل هذا الموقف) اي موقف قتال الكافرين. ذلك الكبر ظاهرة العجب النفسي وفي العجب غفلة عن الله وجلاله وانشغال بالنفس وصغارها، مما يبعد عن الحق المبين، ويدلف بالذات من حيث لا تشعر الى التسلل في مسارب خطيرة من الشرك مع الله بشكل خفي وصامت.



خاتمة:

لقد نشبت الحرب بين النبي صلى الله عليه وسلم والوثنية من اول يوم بعث فيه حيث اعلن انه رسول رب العالمين،وقد تطورت هذه الحرب مع الزمن من عجبهم اول الأمر ان يجيئهم منذر منهم، الى تصديهم له بالتكذيب وقذفه بالسحر والجنون والشعر ثانية واتهامه بانه يعلمه بشر ثالثة،الى تحديهم له بمطالبته بالمعجزات الخوارق كأن يريهم الله، أو ينزل عليهم الملائكة او يفجر لهم من الأرض ينبوعاً او يرقى في السماء الخ.. او غير ذلك، ورد رب العالمين ذلك كله تنجيما وحسبما يقتضيه الظرف فقال عن الاول: (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)[1] وقال في الثاني: (أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور)[2] وقال: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[3]وقال في الثالث: (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا

(١) الجمعة ٢

(٢) الشورى ٢٤

(٣) النساء ٨٢

واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر[1]). وقال: (ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لأجرا غير ممنون[2]). وأخبر عن الشعراء: (أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا)[3]. وقال في الاتهام القائل بانه يعلمه بشر: (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين[4]). وقال في التحديات:

(قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا[5]). وقال: (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون[6]). الى أن حصل تطاولهم عليه وعلى أصحابه بوسائل الإيذاء المتنوعة فكانت الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة، ثم كانت الهجرة إلى المدينة وتهيأت الفرصة لانشاء الوجود الاسلامي وتجميعه حتى تكونت منه نواة الدويلة، فانتقلت هذه الحرب الى طور جديد اخذت مداها فيه سياسياً، وكان صلى الله عليه وسلم يجنح دائما الى المحاورة الفكرية ويلتمس وسائل الاقناع كما كان يستلهم الله الصبر على اذاهم حتى طفح الكيل ويئس

---

(١) القمر ٢ و٣

(٢) القلم ٢- ٣

(٣) الشعراء ٢٢٥- ٢٢٧

(٤) النحل ١٠٣

(٥) ٥٩.

(٦) الإسراء ٩٣

من مداومة اللين والتحمل، فاذن الله له بالقتال لرد الظلم عنه ودفع العدوان وحفظ الكيان والكرامة،فكانت معارك قاسية استأصل فيها النبي بفضل الله شأفة الشرك من الجزيرة وأرسى دعائم الاسلام ونشر نوره المبين في ارجائها كافة. ولم يكد يستقر الأمر بالاسلام في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى كان قد تمكن من تحقيق وصية النبي صلى الله عليه وسلم وجعل الجزيرة حصنا حصينا للاسلام والمسلمين واخرج منها من كان لا يزال فيها من اليهود والنصارى. وطهر ارضها نهائيا من مظاهر الشرك والوثنية،وصيرها مثابة للناس، يلوذون بها من كل مكان ليجدوا فيها سكينة القلب وطمأنينة النفس وارتياح الفكر.

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود

اليهودية في مكة:

مما لا ريب فيه انه لم يكن في مكة قبل الاسلام يهود ذوو شأن[1] ولذلك فليس ثمة ما يستدعي التطرق الى الحديث عنهم في هذه المرحلة من عمر الإسلام، اللهم الا ما روته بعض كتب السيرة من تنبيه بعض الكهنة والرهبان لذوي النبي صلى الله عليه وسلم الى ضرورة السهر عليه وحمايته من كيد اليهود[2] او ما روي ايضا مما سنرى من ان بعض يهود المدينة كانوا يتآمرون عليه بعد بعثته مع قريش ويساعدونهم لتفشيل دعوته والقضاء عليه

اليهود في المدينة:

ولكن لا مجال لتجاهل مكانة اليهود في المدينة ثم موقفهم منه صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة وموقفه منهم حتى لقي ربه.

نبذة عن تاريخهم في الجزيرة:

ومن الثابت ان اليهود قد هاجروا تباعا من الشام الى

---

(١) المفصل في تاريخ العرب جواد علي الجزء السادس ٥٤٣

(٢) ابن هشام الجزء الاول صفحة ١١٩

جزيرة العرب فرارا من ظلم الرومان والبيزنطيين[١] وانهم اختاروا الجزيرة العربية لهجرتهم بعد ان تحققوا من انه سيبعث فيها نبي، وان فيها ارضا ستكون موضع مهاجره، وانهم بعد بحث طويل عرفوها بأوصافها وهي يثرب، فكان اكثر تجمعهم فيها وحولها وهو ما ذكره السمهودي في كتابه خلاصة الوفا باخبار دار المصطفى. وقد استقرت منهم في يثرب هذه ثلاث اسر كبيرة هي: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، ومنهم تبع الحميري الذي حمل جماعة منهم الى جنوب الجزيرة فنشروا اليهودية في اليمن وما جاورها. وبذلك كانت لليهود مستوطنات قديمة في شمال الجزيرة، في يثرب وخيبر وتبوك وتيماء ووادي القرى وفي جنوبها في اليمن وما جاورها[٢]

نهجهم في الجزيرة:

لقد استمر هؤلاء اليهود محافظين على جنسيتهم اليهودية، ولم يندمجوا في المجتمع العربي اندماجا كليا لاحساسهم المقيم بغربتهم من ناحية ولعصبيتهم العرقية من ناحية ثانية.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب الجزء السادس

(٢) المفصل في تاريخ العرب الجزء السادس صفحة ٥١٨ وما بعدها

عقيدتهم:

واليهودية بمفهومها الحاضر غير اليهودية التي شرعها الله على لسان موسى وسجلها لهم في التوراة، ذلك أن التوراة الحقيقية التي تحمل الدين الصحيح النقي، قد تغيرت قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم واستبدل بها اليهود مواثيق اخرى جمعوا فيها من التعاليم ما جعلوه شريعة لهم وزعموا انها من عند الله وانها لا تعادلها توراة موسى في التقديس.

ترقبهم ظهور نبي:

ولا ريب أن الله تعالى قد ارسل الى اليهود رسلا كثيرين من جنسهم لتذكيرهم بالحق والعودة بهم الى الصراط المستقيم. وكان قد اخذ عليهم الميثاق بأن يستقيموا كما قال تعالى: (ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا، وقال الله اني معكم لئن اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم واقرضتم الله قرضاحسناً؛ لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل[1])

ولقد كان من ركائز هذا الميثاق الايمان بمحمد عليه

---

(١) المائدة ١٢

السلام، وكانوا يعرفون مبعثه وينتظرونه، وقد روت كتب السيرة انهم كانوا من قبل ظهوره يستفتحون على الذين كفروا ويقولون بأنه سيظهر بالجزيرة نبي وانهم سيكونون من أتباعه، وسينتصرون به على منافسيهم من الأوس والخزرج. ولكنهم عند ظهوره نقضوا الميثاق وكفروا بمحمد، وقد قال ابن عباس: (كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود فعاذت بهذا الدعاء وقالوا: انا نسألك بحق النبي الامي الذي وعدتنا ان تخرجه لنا في آخر الزمان أن تنصرنا عليهم. قال فكانوا اذا التقوا بهذا الدعاء هزموا غطفان، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به)[1]. فأنزل الله تعالى: (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)[2].

التلمود عند اليهود:

ولليهود كتاب آخر غير التوارة هو التلمود واليهود مختلفون فيه وفي الحكم عليه ما بين مادح وقادح. وهو عبارة عن مجموعة الشرائع المدنية والاجتماعية واليهودية المتوارثة،

---

(١) القرطبي جزء ٢ صفحة ٢٧ (٢) البقرة ٨٩

وكلها من اضافة الآباء الاولين. وقد جمع ما بين عام ٤٠٠م و ٥٠٠م.

وفي هذا التلمود حديث طويل عن عيسى عليه السلام وطعن فيه وحط من شأنه، كما فيه كلام مفصل عن كيفية معاملة اليهود لغيرهم وما يكنونه لهم من بغض ويبيتون لهم من شر[١].

موقف الرسول من اليهود في مكة:

لم يكن في مكة لدى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وجود يهودي ذو بال وخطر، كما كان امرهم في المدينة. بل كل الذين كان منهم افراد قليلون لا يحسب لهم حساب ولا يخشى بأسهم، وكان الرسول وهو في مكة يبلغ الرسالة مفرغا كل همه لتثبيت عقيدة التوحيد في مواجهة الوثنية، بل والعمل على هدمها وابطالها.

وعقيدة التوحيد تلتقي في الاساس مع عقيدة اليهود وتؤكد ما معهم. ولذلك لم يكن ثمة اي داع للمصادمة مع اليهودية. وان آيات القرآن في هذه الفترة من الوحي كانت تتنزل مستعرضة ماضي اليهود وما كانوا يلاقونه من عذاب من مختلف الحكام على مر العصور، ومتحدثة عن عاقبة

---

(١) اليهودية واليهودية المسيحية فؤادحسنين صفحة ١٢٥- ١٣٧

الطغاة والظلمة والجاحدين لأنعم الله.

بل كان بعضها يشيد بما كان من اهل الكتاب عامة واليهودية خاصة من تصديقهم للرسالات،فقد ورد قوله تعالى: (ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين)[1]. وقوله مستشهدا بهم على صدق الرسالة والقرآن:(والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)[2]. وقوله:(فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فأسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك) [3]. وقوله: (أولم يكن لهم آية أَنْ يعلمه علماء بني اسرائيل) [4] وكل هذه الآيات مكيّة أي في الفترة التي سبقت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة..

ولو تتبعنا آيات القرآن الكريم وكثيرا من السور المكية لرأينا كيف انها كانت توجه الرسول الكريم الى هدي الأنبياء السابقين وتحضه على التأسي بسيرتهم والاقتداء بسلوكهم، يقول تعالى بعد ان استعرض مجموعة انبياء بني إسرائيل:(أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين،أولئك

---

(١) الجاثية ١٦
(٢) الإنعام ١١٤
(٣) يونس ٩٤
(٤) الشعراء ١٩٧

الذين هدى الله فبهداهم اقتده) [1] وجميع هؤلاء الانبياء من بني اسرائيل.. الأمر الذي يحمل على القول بان الاسلام في مطلع عهده لم يتخذ من اليهودية موقفا معاديا، بل على العكس كانت له مواقف كثيرة فتحت الباب امام اليهود للثقة بالنبي والاطمئنان اليه والمبادرة الى احسان العلاقة به وقبول دينه.

استمالة اليهود لمحمد:

كان اليهود الذين يستوطنون المدينة قبل مهاجر النبي صلى الله عليه وسلم اليها يحملون العقائد التي حوتها التوراة المحرفة والتلمود. وهي عبارة عن وحدانية الله الخالق مشوبة بوثنية قديمة بعضها آسيوي والبعض الآخرأفريقي، ولم يستطع انبياء بني اسرائيل مع كل جهودهم، ان يعودوا باليهودية الى أصولها الصحيحة في نفوس شعب اسرائيل. وظل الاعتقاد لديه انه شعب الله المختار ليعلِّم البشر الوحدانية، وان الله قد اوصاه بالسبت والأعياد والوصايا العشر والتابوت، كما عاهده بان يجعل توراته في قلوب ابنائه. وظل موسى هو نبيهم، وهم ينتظرون ظهور المسيح ليخلصهم من العذاب ويجمع شملهم. وشعب اسرائيل يؤمن

---

(١) الانعام ٨٩- ٩٠

بالبعث وبخلود الروح، وينكر نبوة عيسى ومحمد عليهما السلام، وينكر بالتالي الانجيل والقرآن[١].

ورغم هذه العقائد التي ينطوي عليها، بادروا بمجرد دخول النبي صلى الله عليه وسلم المدينة الى احسان استقباله والتودد اليه، املا باستمالته اليهم وضمه الى حلفهم ليعاونهم في تأليف الجزيرة وتوحيدها للتصدي لمجابهة النصرانية التي أجلتهم عن فلسطين التي يعتقدون بانها ارض الميعاد ووطنهم القديم.

مقابلة الرسول لهذه المبادرة:

ولقد رد الرسول تحية اليهود هؤلاء باحسن منها، بل سعى الى توثيق صلاته بهم خصوصا وانهم في نظره اهل كتاب، وموحدون فكان يصوم يوم صومهم، وكانت قبلته في الصلاة بيت المقدس حتى ستة عشر شهرا من هجرته كما ورد في الصحيح وهو البيت الذي تتوثّب اليه قلوب بني اسرائيل.

عقد معاهدة معهم:

وقد أنمت الايام خطوات الصداقة هذه بينه وبين

---

(١) اليهودية والبهودية المسيحة صفحة ٢١/١١٢/١١٣/١١٥

اليهود حتى اكتملت بعقد معاهدات صداقة وتحالف معهم كانت ولا تزال من الوثائق السياسية الرائعة في تاريخ الاسلام بل والانسانية، واعدهم فيها صلى الله عليه وسلم وعاهدهم، واقرهم على دينهم واموالهم واشترط عليهم وشرط لهم، وقرر فيها حرية العقيدة وحرية الرأي وحرمة المدينة والحياة والمال، وتحريم الجريمة، فكانت حدثا جديدا منفتحا في الحياة السياسية والمدنية اذ ذاك، ومما جاء في هذه المعاهدة: (ان من تبعنا من يهود، فان لهم النصرة والاسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم الا من ظلم نفسه فانه لا يوتغ - يهلك الا نفسه - واهل بيته. وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر من حارب من اهل هذه الصحيفة[1].

اهل الكتاب في نظر الدعوة الحديثة:

ومما هو ثابت في الاسلام انه دين لا يبغي إلا نشر السلام والعدل وجمع الكلمة على اساس من التوحيد الخالص

---

(١) راجع هذه الوثيقة في مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة لراشدة محمد حميد الله صفحة ٣٧

لله وحده، لذلك كانت من النبي صلى الله عليه وسلم تلك المقابلة ليهود المدينة، وهم الذين يزعمون انهم يحملون عقيدة التوحيد، املا باجتذابهم اليه ايضا وهم اشد بأسا من اهل مكة واوفر مالا وأكثر جمعا واحسن تنظيما واوسع علما وخبرة، تساندهم الحصون كما تساندهم ميول كثير من الاوسيين والخزرجيين الى ديانتهم[1]. فأفهمهم ان الدعوة الجديدة هي لهم وللعرب جميعا.

وقد جاءت الأيات الاولى نزولا في المدينة تحمل طابع الدعوة العالمية وتصرح بدخول اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فيها، بل تتوجه احيانا الى اليهود باسمهم وتخصهم بالخطاب. يقول تعالى: (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم واياي فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا واياي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)[2]

(١) الروض الأنف جزء ٢ صفحة ٢١

(٢) البقرة ٤٠- ٤٤

ويقول: (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم، فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد).

أثر هذه المعاملة والمعاهدات:

ولقد كان لهذا الرباط الاجتماعي المتواد بين النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه من جهة ويهود المدينة من جهة اخرى انعكاساته الطيبة على مجتمع المدينة، فنعم السكان بالاستقرار الاجتماعي والديني، وسكن المسلمون الى دينهم وكذلك اليهود، لا يخاف احد منهم اذى ولا يخشى عدوانا بل كان له اثره الكبير على مجتمع المسلمين بالذات الذين لا يزالون في مرحلة التجمع والتكوين، اذ منحه فرصة الالتفاف الى الذات وتجميع القوى وتعزيز الوجود حتى لم يكد يمضي على ذلك كبير وقت حتى اشتد واستوى على سوقه وجعل يتسع وينتشر ويزداد اتباعه.

ريبة اليهود وبداية تخوفهم:

ولم يكن هذا الواقع إلا ليبعث مع الزمن في نفوس اليهود الريبة من الدعوة الجديدة وصاحبها والتخوف من خطر نشاطه عليهم، وبخاصة بعد ان بدأت تتسرب الى

بعض ابنائهم. بل وبعض احبارهم أمثال عبد الله بن سلام. فهم ما أحسنوا استقباله ولا اظهروا له المودة الا ليكون لهم منه قوة على خصومهم النصارى، اما بضمه اليهم او بمحالفته، وعيشه في ظلهم وتحت كنفهم. اما ان يزداد هو قوة ويكثر عددا، حتى بات يفكر بأخذ موقف من قريش ردا على ما كان منها تجاهه وتجاه اتباعه المؤمنين، ثم ينكشف جمعهم فينضم منهم من ينضم اليه من ابنائهم وبخاصة بعض احبارهم، ويفشلون نهائيا في استمالته ويرون بأعينهم التفاف الناس حوله وازدياد اندماجهم بمجتمعه يوما بعد يوم، فهذا ما لم يكونوا ينتظرونه، ولذلك بدأت تتفاعل الريبة في نفوسهم وتنعكس عليها خوفا وحذرا شديدين.

ابتداء العداوة:

ولذلك لم يعد ثمة مناص من اعادة النظر في موقفهم الذي كان منهم وقت دخول النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة. وبالفعل فقد اعتمدوا منهجا جديدا للتعامل معه، يظهرون فيه بشخصيتهم المتميزة، ولا ينغمسون فيه في عداوة ظاهرة معه، لقد اعتمدوا منهج الحوار والجدل

وطرح الاسئلة عليه الذي ظاهره محاولة فهم ما عنده لتعقله، وباطنه زعزعة يقين بعض من اتبعه ممن لا يزالون على عتبة الايمان، وصرف من يفكرون باتباعه نهائيا منه، ولملمة فلول المناوئين له والمخالفين، ليكونوا كتلة واحدة قادرة على المجابهة والمواجهة، ثم اذا لم يجد هذا فحرب الدسائس والكيد والمخاتلة والنفاق، ثم القتال السافر والمجابهة المسلحة....

صور من الجدل والاسئلة:

ومن صور هذا الجدل الماكر ما جرى بين فنحاص اليهودي وابي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد ورد ان ابا بكر تحدث الى يهودي يدعى فنحاص ودعاه الى الاسلام فقال له اثر جدال جرى بينهما عن الاسلام: والله يا ابا بكر ما بنا الى الله من فقر، انه الينا لفقير وما نتضرع اليه كما يتضرع الينا. وانا عنه أغنياء وما هو عنا بغني. ولو كان غنيا ما استقرضنا اموالنا كما يزعم صاحبكم. ينهاكم عن الربا ويعطيناه. ولو كان غنيا ما أعطانا. وفنحاص في هذا يشير الى قوله تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة)[1]

---

(١) البقرة ٢٤٥

وبالطبع لم يكن ابو بكر رضي الله عنه ليطيق هذا الأسلوب من الخطاب فما كان منه الا ان لطم فنحاص بشدة وقال له: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله[١] وشكا فنحاص الى النبي صلى الله عليه وسلم ما فعله به ابو بكر، وانكر ما قاله هو له، فنزل قوله تعالى: (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق)[٢]

وقال الحسن وقتادة لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين به المثل ضحكت يهود وقالوا: يشبه كلام الله وذلك للتشكيك به فأنزل الله تعالى قوله: (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها؛ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً)[٣]

وأخرج الترمذي عن جابر بن عبدالله قال: قال أناس

---

(١) المفصل في تاريخ العرب- جواد علي- الجزء السادس صفحة ٥٤٨

(٢) آل عمران ١٨١

(٣) البقرة ٢٦

من اليهود لأناس من اصحاب النبي: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا ، فجاء رجل الى النبي فقال: يا محمد غلب أصحابك اليوم قال: وبم غلبوا؟ قال : سألهم يهود . هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قال: فماذا قالوا؟ قال: قالوا لا ندري. قال أفغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا؟ لكنهم قد سألوا نبيهم ، فقالوا أرنا الله جهرة ، علي يا أعداء الله اني سائلهم عن تربة الجنة وعن (الدرمك) فلما جاؤوا قالوا يا أباالقاسم: كم عدد خزنة جهنم؟ قال: هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة تسعة ، قالوا نعم ،قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ما تربة الجنة؟ قال فسكتوا هنية ثم قالوا أخبره يا أبا القاسم؟ فقال رسول الله (الخبز من الدرمك)[1]

وحينما بلغ اليهود ان محمدا يقول ان الله قد اخذ عليهم الميثاق وان من اسس هذا الميثاق الايمان به قال مالك بن الصيف للنبي صلى الله عليه وسلم: والله ما عهد الينا فيك عهد وما اخذ لك علينا ميثاق ،فأنزل الله تعالى: (اوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم)[2]

---

(١) القرطبي الجزء ١٩ ص ٨٠

(٢) البقرة ١١٠ وابن هشام الجزء ٢ صفحة ٣٦ والمفصل في تاريخ العرب الجزء السادس صفحة ٥٥١

وقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم الى الله فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ قال على ملة ابراهيم ودينه. قالا فان ابراهيم كان يهوديا فقال لهما: فهلما الى التوراة فهي بيننا وبينكم. فأنزل الله تعالى: (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم تولى فريق منهم وهم معرضون)[١]

وسأل شهر بن حوشب يوما رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اربع: عن سر انتقال شبه الأب او الام الى الولد، وعن نومه ويقظة قلبه كيف يكون؟ وعن الذي حرمه اسرائيل على نفسه، وعن الروح. كما سأله حيي بن أخطب وجماعة عن ذي القرنين، وسأله آخرون عن الساعة وغير ذلك كثير ورغم انه صلى الله عليه وسلم قد اخذ عليهم المواثيق انه ان هو اجاب آمنوا، فقد كذبوه ورفضوا مقالته حتى اضطر يوما أن يخرج جماعة منهم من المسجد بعد أن دخلوه ليسألوه بعض أسئلتهم الموسومه دوما بالاحراج والمضايقة وذلك بعد أن رآهم يتهامسون وبعد أن رأى مخايل الريبة والدس تظهر على تصرفاتهم[٢]

---

(١) آل عمران ٢٣

(٢) ابن هشام جزء صفحة ٢٩- ٣٤

صورة من تحدياتهم وتشكيكاتهم ودسائسهم:

وقد قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد مرة لرسول الله يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء، نقرؤه، وفجر لنا أنهارا، نتبعك ونصدقك، فأنزل تعالى: (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل)[١] وقال رافع هذا مرة يا محمد ان كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فانزل الله تعالى في ذلك: (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون)[٢].

لقد سلكوا سبيل تشكيك الناس بالنبي وبالاسلام، واستعانوا بكل حيلة ووسيلة وفجور، فزعموا ان الله هو الذي يعبده بنو اسرائيل، اما الناس الآخرون فلا يحق ان يكون لهم هذا الاله، اذ لا يجوز تسويتهم بغيرهم وهم شعب الله المختار. وقد روت صفية ام المؤمنين قالت لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء، غدا عليه ابي

---

(١) البقرة ١٠٨ وابن هشام الجزء ٢ ص ٢٦

(٢) البقرة ١١٨

حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب فلم يرجعا به حتى كان غروب الشمس فأتيا كالَّيْن كسلانين متساقطين يمشيان الهوينى. فهششت اليهما، فما التفت اليّ احد منهما مع ما بهما من الغم، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي أهو هو؟ اي المبشر به في التوراة؟ قال نعم والله. قال أتثبته؟ يعني هل أنت متأكد من ذلك؟ قال نعم. قال ما في نفسك منه؟ قال عداوته والله ما بقيت أبدا... وليس عن عبث يقول الله تعالى: (لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا)[1]

وقد اقترح عبد الله بن صيف وعدي بن زيد والحرث بن عوف أن يظهروا للناس انهم آمنوا ثم بعد ذلك يعلنون عدولهم عن الإيمان ويجهرون بالكفر، فإذا رأى الناس ذلك قالوا: لولا أنه ظهر لهم كذب محمد لما عدلوا عن الايمان به هم أهل علم ودراية. وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وأكفروا آخره لعلهم يرجعون)[2].

وطرحوا دعوى شعب الله المختار في حوار صريح مع

---

(١) المائدة ٨٢ (٢) آل عمران ٧٢

النبي صلى الله عليه وسلم ،فقد ورد عندما دعاهم الى الاسلام فأجابوه: أتخوننا يا محمد ونحن ابناء الله واحباؤه،فرد الله عليهم بأن حبيب الله هو المؤمن التقي ، وأما من كفر وعصى فهو عدوه كما اخبـر بان من احبه تمنى لقاءه. ولكن اليهود لا يتمنون هذا اللقاء لانهم يعلمون حقيقة امرهم فقال تعالى: (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ،ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. ولتجدنهم أحرص الناس على حياة)[1] وقال: (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى! تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)[2]. ورد عليهم ايضا دعواهم بأنهم لن تمسهم النار فقال: (وقالوا لن تمسنا النار الا ايامامعدودة! قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون. بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[3].

وقد بذلوا قصارى جهدهم لصرف الناس عن القرآن،

---

(١) البقرة ٩٤- ٩٦

(٢) البقرة ١١١

(٣) البقرة ٨٠- ٨١

وفتنة المسلمين في دينهم، وذلك عن طريق نقل الاخبار الكاذبة عن توراتهم ليضلوا بها المؤمنين فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: كان اهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين: (لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون)[1]

وقد روى عن ابن جرير عن عبد الله بن مسعود انه قال: لا تسألوا اهل الكتاب عن شيء فانْهم لن يهدوكم وقد ضلوا؛ اما ان تكذبوا بحق او تصدقوا بباطل. وكثيرا ما حاول بعض البارزين منهم استجرار الرسول الله صلى الله عليه وسلم واستمالته فقد اخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن ابي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال كعب بن اسد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من اليهود: اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا: يا محمد انك عرفت انا احبار اليهود واشرافهم وساداتهم وانا ان اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وان بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم اليك فتقضي لنا عليهم

(١) البخاري جزء ٩ ص ١٣٦ طبعة الشعب

ونؤمن لك ونصدقك،فابى ذلك[1] وانزل الله عز وجل فيهم (وأن احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليـك، فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)[2].

ومن الشكوك التي اثاروها على شريعته صلى الله عليه وسلم انهم قالوا انه يدعي انه اولى الناس بابراهيم وانه على طريقته، وهو في نفس الوقت يحل أكل الأبل وهي محرمة عند ابراهيم، فأنزل الله تعالى ردا عليهم وتكذيبا لهم بان الطعام واللحوم كانت حلا لبني اسرائيل، اي يعقوب، الا ما حرم اسرائيل على نفسه، وذلك من قبل ان تنزل التوراة، وتحداهم ان يتلوا التوراة ليجدوا صدق هذا القول وكذب دعواهم، يقول تعالى: (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين)[3] وقد

---

(١) تفسير المنار الجزء ٦ ص ١٢٤

(٢) المائدة ٤٩

(٣) آل عمران ٩٣

سأله جماعة منهم عن الشيء الذي حرمه اسرائيل على نفسه وسببه فقال لهم: انشدكم بالله وبأيامه عند بني اسرائيل هل تعلمون انه كان احب الطعام والشراب الى اسرائيل ألبان الأبل ولحومها، وانه اشتكى شكوى فعافاه الله منها فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب اليه شكرا لله، فحرم على نفسه لحوم الأبل وألبانها[1]، ونقل ابن اسحاق عن ابن عباس ان الذي حرمه اسرائيل على نفسه هو زائدتا الكبد والكليتان والشحم إلا ما على الظهر منه[2]

وحاولوا استغلال تغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس الى البيت الحرام فقالوا ان كان اتجاه محمد الى بيت المقدس صوابا فلماذا ترك الصواب الى غيره وهو الكعبة؟ وان كان اتجاهه الى بيت المقدس خطأ كان ذلك دليلا على جهله وتضليله لأتباعه واضاعته لصلاة أتباعه التي صلوها متجهين اليها، وقد رد الله عليهم بقوله: (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم، وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون

---

(١) ابن هشام الجزء ٢ ص ٣٤

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٥

الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله، وما كان ليضيع إيمانكم)[1] (اي صلاتكم الى البيت المقدس)

ثم جاهروا بانكار القرآن ان يكون كتابا من عند الله وعللوا ذلك بان واسطة انزاله على محمد هو جبريل وجبريل عدو لهم لانه كان ينزل عليهم باشق التكاليف فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله: (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدو لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين.[2]

صور للعداوة السافرة والنفاق:

وكثيرا ما دفعهم حسدهم للرسول وبغضهم للاسلام والمسلمين الى أن فضلوا الشرك وعبادة الاوثان على التوحيد، فقد ورد ان حيي بن أخطب وأبا رافع سلام بن ابي الحقيق والربيع بن الربيع بن ابي الحقيق وأبا عمار الوائلي وهم من بني النضير ونفرا من بني وائل ساروا في

---

(١) البقرة ١٤٢- ١٤٣

(٢) البقرة ٩٧- ٩٨

وفد الى مكة لتأليب قريش على محمد صلى الله عليه وسلم، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق، وفيهم نزل قوله تعالى: (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا، أم لهم نصيب من الملك فاذاً لا يؤتون الناس نقيرا، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه وكفى بجهنم سعيرا)[١]. وقد حملتهم عداوتهم هذه النابعة من حقدهم وحسدهم وعنصريتهم ان بالغوا في المكابرة وجحود الحق والتخلي عما انتهى اليهم من العلم الصحيح؟ فقال حيي ابن اخطب وكعب بن أسد وابو رافع لعبد الله بن سلام حين اسلم: ما تكون النبوة في العرب ولكن صاحبك ملك[٢].

وأطلقوا السنتهم بالفاظ نابية تناولوا بها شخص النبي

---

(١) النساء ٥١- ٥٥

(٢) ابن هشام الجزء ٢ صفحة ٤٤

صلى الله عليه وسلم مواجهة،او غير مواجهة وجندوا مجموعة منهم للطعن به علنا وبين الذين يعادونه فكان بعضهم اذا سلم عليه صلى الله عليه وسلم لوى لسانه بلفظة السلام فقال: السام عليك يا محمد، والسام هو الموت. فكان النبي صلى الله عليه وسلم يرد عليه: وعليك. ويأبى أن يزيد على ذلك فضلا منه وترفعا، وقد حصل ذلك مرة وعائشة رضي الله عنها حاضرة فسمعت ذلك وردت بقولها: بل عليكم السام واللعنة: فقال لها رسول الله: يا عائشة ان الله رفيق يحب الرفق في الامر كله. فقالت أولم تسمع ما قالوا؟ قال: قلت وعليكم.

وكان كعب الأشرف - وهو عربي من طيء وأمه يهودية غنيا وشاعرا يعطي احبار اليهود ليستمروا على مناوأته صلى الله عليه وسلم. ولما انتصر صلى الله عليه وسلم في بدر غاظه ذلك فذهب الى قريش يحرضهم على الثأر مكثرا من هجر الرسول ومشببا بنساء المسلمين[1].

وكذلك كان أبو عفك وعصماء بنت مروان وسلام ابن ابي الحقيق وكنانة ابن ابي الحقيق واخوه الربيع وحيي ابن اخطب.

---

(١) ابن هشام صفحة ١٢٣

ولكن لما استفحل امرهم وزاد نشاطهم في التحريض على الرسول والطعن فيه والعيب على الاسلام لم يعد بد من التصدي، لهم فانتقم منهم جميعا وارسل اليهم من قتلهم وأدب بهم الآخرين وجعلهم سلفا ومثلا... وحاولت زينب بنت الحارث روجة سلام بن مكشم النضيري قتله صلى الله عليه وسلم فأهدت له بعد فتح خيبر شاة مسمومة فانجاه الله منها ولكن مات فيها بعض المسلمين فقتلها رسول الله قصاصا[1].
ثم حاولوا ايذاءه بتسليط السحر عليه وكذلك المشعوذين، فعهدوا الى لبيد بن الاعصم اليهودي ليتتبعه ويوجه سحره عليه عله ينال منه[2]، والعلماء وان كانوا في ذلك في خلاف ما بين مؤكد لوقوع اذاه عليه وناف له، فان مما لا شك فيه ان هذا الخبر ينقل الينا صورة جلية من صور حقد هؤلاء اليهود على الرسول صلى الله عليه وسلم وعزمهم الضاري للايقاع به مهما كلف الأمر.

وقد ابتدعوا اخطر ما ابتدعوه في مواجهته خط النفاق، فكونوا جماعة منهم ومن بعض العرب الذين الف بينهم حقدهم وحسدهم او تمكنوا من استغفالهم واستمالتهم،

---

(١) ابن هشام الجزء ٢ صفحة ٢٤٣

(٢) البخاري طبعة الشعب جزء ٤ ١٢٣

فكانوا يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر ، يخادعون بذلك الله ورسوله والمؤمنين، وقد برع عدد كبير منهم في هذه المهمة وكانت لهم وقائع واحداث مع الرسول ومع المؤمنين سجلتها كتب السيرة واشار اليها القرآن الكريم في سورة (البقرة والنساء والتوبة والاحزاب والحشر والمنافقون) وغيرها ، واكد فيها كلها ان هؤلاء المنافقين في نفاقهم هذا انما يخدعون انفسهم، لان ذلك لا يخفي على الله وهو كاشفه لرسوله ، وانهم في النهاية في الدرك الاسفل من النار ، وان الله جامعهم والكافرين في جهنم جميعا .

ورغم كل ذلك التآمر فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصبر عليهم ويعاملهم كما لو كانوا مؤمنين لحكمة اوضحها وسنوردها فيما بعد . ولما مات رأسهم وهو عبد الله ابن ابي بن سلول جاء ابنه الى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منه ان يعطيه قميصه ليكفن به أباه فاعطاه الرسول قميصه ، ولما عاتبه بعض الصحابة في ذلك قال: (ان قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً ، واني لأرجو ان يسلم بفعلي هذا الف رجل من قومه) وقد وقع في مغازي ابن اسحاق وفي بعض كتب التفسير انه قد اسلم وتاب لهذه الفعلة الف رجل

من منافقي الخزرج[1]، وعقب غزوة بني المصطلق قال عبد الله هذا تعليقا على شجار وقع بين أنصاري من الخزرج ومهاجري: او قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدنا وجلابيب قريش هذه الا كما قال الاول: سمِّن كلبك يأكلك. اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل. ولما بلغ عمر بن الخطاب هذه المقالة وهو عند رسول الله، قال له مر عباد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يا عمر اذا تحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه[2]، ولكن اكتفى النبي صلى الله عليه وسلم باتباع خطة الاذلال وذلك بتكليف ابنه عبد الله بأن يأخذ من ابيه اقراره بخطئه. وقد رتب عليه بأن لا يسمح له ابنه بالعودة الى المدينة حتى يشهد على نفسه بقوله هو الذليل ورسول الله هو العزيز.

وقد ظل الأمر هكذا مع هذه الفئة من الناس، حتى افتضح امرهم اخيراً بآيات سورة براءة. واسدل الستار نهائيا في الجزيرة عليها.

محاورتهم الرسول: وكثيرا ما كان يدفع بهم غرورهم الى

(١) القرطبي جزء ٨ صفحة ٢١٦

(٢) ابن هشام الجزء ٢٣ صفحة ٢١٧

تحدي الرسول وحمله على مناجزتهم ولكن كان يصبر عليهم ويلاينهم حتى تكون البادرة منهم. من ذلك انه بعد رجوعه من بدر جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال لهم: (يا معشر يهود اسلموا قبل ان يصيبكم الله بمثل ما اصاب قريشا) فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك انك قاتلت نفرا من قريش كانوا اغمارا لا يعرفون القتال، انك والله لو قاتلتنا لعرفت انا نحن الناس وانك لم تلق مثلنا، فأنزل الله فيهم: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد)[1].

وذات يوم تعدت جماعة من بني قينقاع على امرأة مسلمة واوشكوا ان يهتكوا سترها فاستنجدت ببعض المسلمين، وكانت واقعة بني قينقاع المشهورة حيث ارسل الرسول بجيش حاصرهم خمسة عشر يوما نزلوا في نهايتها على حكمه صلى الله عليه وسلم، ولكن تشفع بهم رأس المنافقين عبد الله بن ابي بن سلول والح الحاحا شديدا في ذلك حتى اضطر معه الرسول صلى الله عليه وسلم الى النزول على شفاعته، فعفا عنهم واكتفى باجلائهم عن منازلهم الى

---

(١) آل عمران ١٢

اذرعات في الشام[1]، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) الى قوله تعالى: (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون)[2].

ونقض بنو النضير عهدهم وحاولوا قتله صلى الله عليه وسلم وذلك بتثبيت العزم على القاء صخرة عليه، فانقذه منهم جبريل عليه السلام الذي اخبره بصنيعهم، وقد حاصرهم ايضا رسول الله حتى استسلموا ورضوا بان يجلوا عن المدينة لا يحملون معهم الا ما تحمله ابلهم من اموال ما عدا الدورع، فجلوا الى خيبر ثم سار بعضهم إلى الشام.[3] وفي هذه الغزوة نزلت سورة الحشر بكاملها...

وكذلك فعل بنو قريظة الذين تآمروا على النبي مع قريش رغم عهدهم، وذلك في وقعة الاحزاب. فحاربهم الرسول بعد انتهاء وقعة الاحزاب، ولم يقبل ان يكون جزاؤهم الا القتل للرجال والسبي للذراري والنساء وتقسيم

---

(١) البخاري جزء ٤ صفحة ١٢٠.

(٢) المائدة ٥١- ٥٦

(٣) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٦

الاموال. وفي هذه الغزوة نزلت سورة الاحزاب.

ولم تكن خيبر ووادي القرى وتيماء وفدك أقل ايذاء للرسول وتعديا عليه وعلى اصحابه وتصديا لدعوته واستهزاء بها من السابقين، ولذلك لم يكن بد من تتبعهم جميعا مرحلة بعد اخرى بغزوات عسكرية منظمة انتهت كلها بنصر المؤمنين وهزيمة اليهود وكسر شوكتهم واستئصال شافتهم.

لقد بالغ هؤلاء اليهود في عداوتهم للاسلام ولمحمد عليه السلام وللحق، فاتبعوا اهواءهم واستجابوا لاحقادهم وحسدهم، وتجاوزوا كل حد واعتبار، وكل معنى وقيمة، ولم يبالوا باية عقيدة او دين. ووصل بهم الأمر ان مالأوا كما رأينا سابقا الوثنيين ضده، بل مالأوا مدعي النبوة والكذابين امثال طلحة بن خويلد الاسدي والاسود العنسي...

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود: من الاطلاع على ما تقدم يتبين لنا مدى ما انغرز في نفس اليهود عامة من كره لغيرهم، ورفض لكل خير او حق او علم يكون من سواهم، وحقد اسود ينبعث من قلوب قُدَّت من

الصخور على أية جهة تدعي من دونها تعليم الناس وهدايتهم الى الصراط المستقيم.

كما ظهر لنا بالتالي بوضوح في الوقائع التي ادرجناها عمق غرور انفسهم وكبرها وتجلي حقدها على محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته الجديدة، ورفضها الاصغاء لأية كلمة حق والاستجابة لأية دعوى خيرة؛ ذلك ان قلوبهم كما وصفوها كانت غلفا، وفي آذانهم وقر، وعلى ابصارهم غشاوة وفي نفوسهم مرض.

وقد تجلى لنا من خلال ما نقلناه عنهم من فكر ووقائع واخبار ما كان للرسول صلى الله عليه وسلم بتوجيه من الوحي العظيم من موقف تجاه هذه الطغام من البشر، ولكن مع ذلك فلا مندوحة من استعراض ذلك في حديث خاص به.

تلخيص لاعمال اليهود ومواقفهم من الرسول والاسلام:
لقد استهزأوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وشهروا به وجندوا له من ابنائهم واتباعهم من يتفرغ لذلك، واستهزأوا بالاسلام، وهددوا المسلمين بقتالهم بعد غزوة بدر، وأفشلوا المعاهدة التي عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم معهم،

وحاولوا شل حركته وقوته الفكرية والجسدية باستخدام كل الوسائل الظاهرة والباطنة حتى السحر ، كما حاولوا قتله بمختلف الوسائل ولكن حفظه الله تعالى من كيدهم، ثم نقضوا العهد، وآذوا المسلمين اقتصاديا ، فجربوا كل الوسائل لاحتكار السلع بل والماء حتى كان احدهم يبيع ماء بئر رومة للمسلمين الأمر الذي اضطر النبي لشرائها فاشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه ووهبها للمسلمين. وعملوا جهارا وخفاء لتفريق وتفتيت جمع المسلمين ووحدتهم بإثارة دعاوى الجاهلية فيهم ولكن باؤوا بالفشل المبين بفضل الوحي الذي كان يتابع واقع المسلمين ويعزز وجودهم. وتآمروا مع المشركين ضد النبي صلى الله عليه وسلم ونسوا انهم اهل كتاب واتباع نبي.

كان كل ذلك منهم وغيره مما يجوز ان نكون قد غفلنا عنه في هذا البحث المختصر فماذا كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم وكيف كان تصديه له.؟

لا بد من التذكير باننا عندما نذكر موقف الرسول صلى الله عليه وسلم نعني هنا بالغالب موقف الاسلام اي موقف الوحي الذي كانت ناصية الرسالة بيده، ولهذا فان الرسول

صلى الله عليه وسلم خرج من مكة مهاجرا باذن الله تبارك وتعالى ومحفوظا بعين رعايته وعنايته ومشيعا بكل الامدادات الادبية والمادية التي يفتقر اليها.

فهو اذن لم يدخل المدينة الا وكانت نفسه مهيأة كل التهيؤ لتحمل مسئولياته فيها سواء كان في مواجهة اليهود خاصة او مواجهة جميع سكان المدينة عامة، ولقد كان من اهم ما شحنه به الوحي الكريم من ميزات ومشخصات لتحمل المسئولية صفة الصبر وتوطين النفس لتلقي الكثير من الاذى والعنت، والسلوك المنهجي الحكيم المميز بالمعاملة الحسنة لكسب المناوئين والمخالفين، يقول تعالى: (فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون)[١] ويقول: (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور)[٢]. ويقول: (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم)[٣].

ومن هنا كان تصدي الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) الروم ٦٠
(٢) آل عمران ١٨٦
(٣) العنكبوت

للعدوان اليهودي ومكرهم ولأراجيفهم وحقدهم ونفاقهم تصدّي المتمكن الواثق، العليم الخبير الذي لا يؤخذ على غرة او غفلة او من ضعف، وكان تصرفه تصرف المالك لزمام أمره الذي لا يظلم ولا ينحرف ولا يزل ولا يجهل.

ولقد كان من مقتضى الحكمة الرائدة الهادية المهدية ان يتحمل الرسول صلى الله عليه وسلم بالمرونة واللين وسعة الصدر والتحمل، أملا بتوفير الأجواء الصالحة لهؤلاء اليهود ومن انجرف معهم علهم يرشدون ويهتدون، وبالتالي اذا لم يشاؤوا ذلك يقيم الحجة عليهم فيأخذهم بحق وينال منهم بعدل. حتى اذا ما اذن الله له بقتال المعتدين واجه ذلك مع اتباعه دون ان يكون قد تجاوز الحدود.

ولقد كشف الوحي الشريف بالاضافة الى ما سبق- سواء كان عن طريق القرآن او الحديث النبوي- ما انطوت عليه العقيدة اليهودية من زيف وتحريف، وما اتسمت به من ضلال ووثنية كما كشف ما انطوت عليه النفس اليهودية من عنصرية وغرور ونفاق وأثرة، ونبه الى خطر كل هذه الامور على الجماعة الانسانية بشكل عام والمسلمة بشكل خاص، وان مراحل التعامل معهم التي تعرضنا للفت النظر

الى طرف منها فيا سبق لتوضح هذه الحقيقة بجلاء.

ولقد كان من سأم الرسول صلى الله عليه وسلم ويأسه من هؤلاء ومن أن تنزل الدعوة الصالحة من نفوسهم منزل الرضى والقبول، او ان يتحقق معهم قدر ولو ضئيل من التعاون والتفاهم يصلح مع التعايش، أن اعلن بجزم قاطع غضب الله عليهم ولعنته اياهم، ونهيه المؤمنين عن مناصرتهم ومناصحتهم فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور[1]). وقال: (ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة[2])

هؤلاء الذين عصوا الله في الماضي ولا يزالون وقتلوا الأنبياء بغير حق واعتدوا على حدوده ومحارمه، واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا وقابلوا تذكيرات الله تعالى ووصاياه وتحذيراته بقلوب هي كالحجارة او اشد قسوة، لا تخشع ولا تلين ولا ترتدع حتى قال فيهم تبارك وتعالى: (ذلك بأنهم يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما

---

(١) الممتحنة ١٣ (٢) آل عمران ١١٢

عصوا وكانوا يعتدون)[١].

فلا عجب ان يأخذ الرسول منهم اشد المواقف اخيراً وبعد طول علاج وصبر، وان يطردهم نهائيا من الجزيرة العربية لتسلم للمسلمين وحدهم ولتنجو من مكرهم وكيدهم وعبثهم وتلاعبهم بالحق، روى الامام احمد عن ابي عبيدة ابن الجراح قال: آخر ما تكلم به رسول الله قال: (أخرجوا يهود اهل الحجاز ونصارى نجران من جزيرة العرب).

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع الا مسلما) بل انه ليبدو لنا اليوم وفي هذا العصر الذي نعيش فيه ومن خلال تجاربنا الحديثة مع هؤلاء ان كل ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من انزال العقاب سواء كان على صعيد الافراد الذين تطرفوا في ايذائه وايذاء المسلمين او على صعيد الجماعة أنه كان في محله، بل دون ما يستحقون احيانا آخذا بمبدأ (فمن عفا وأصلح فأجره على الله[٢]). (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور)[٣]

(١) البقرة ٦١
(٢) الشورى ٤٠
(٣) الشورى ٤٣

لقد سلك صلى الله عليه وسلم مع اليهود كل سبيل للتفاهم والتعاون واستنجد بكل اسلوب، ولم يبادر الى اتخاذ اي موقف حاسم معهم الا بعد ان اصبح عدم أخذه سينقلب عليه وعلى دعوته. ولكنهم رغم ذلك لم ينتهوا ولم يرعووا بل ازداد طمعهم فيه وتابعوا تنفيذ خطة الحقد والتآمر والكيد والعدوان، وذهبوا على التاريخ يلعبون بالادوار تلو الادوار لقتل عظيم في الاسلام او لنسف كيان او لتفريق جمع او لنشر فتنة او لدس فكرة خبيثة او خبر كاذب.

ويقول المؤرخون ان كعب الاحبار هو الذي تآمر على قتل عمر رضي الله عنه، وان عبد الله بن سبأ هو الذي دفع الناس في مصر للثورة على عثمان رضي الله عنه وبالتالي لقتله، وهو الذي فرق المسلمين الى سنة وشيعة وطوائف متعددة بما بثه فيهم من فكر وثني وشعوبي وما زينه لهم من مفاهيم ما انزل الله بها من سلطان. واليهود بالاجمال هم الذين بعثوا الحركة الصليبية في اوروبا وجيشوا جيوشها وأثاروا حفاظ الناس فيها حتى كان منها ما كان من بلاء ومحن على الشرق العربي خاصة وبلاد الاسلام والانسانية

عامة، حتى انتهوا اخيرا الى محنة فلسطين التي لا تزال تكوى بلهيبها وتصلى بنارها.

فهل سيستمر يا ترى هذا البلاء وتتلاحق فتنته، ام ان الله تعالى سيهدي قومنا ويجمع شملهم ويوقظ قلوبهم ويوقد النفوس بحرارة الايمان والاخلاص ويكون منهم الموقف الحاسم الكريم العزيز؟....

موقف النبي صلى الله عليه وسلم من النصارى.

١ - **اضطهاد اليهود والرومان للمسيحية**: ما كان يمضي على مبعث عيسى عليه السلام الى بني أسرائيل وقت طويل حتى انبرت له اليهود بصلفها وغرورها ومكرها، واجتهدت تدس عليه الدسائس للايقاع به لدى السلطات الرومانية اذ ذاك، حتى نجحت واصدر الحاكم الروماني حكمه بصلبه. ولكن الله تعالى تدخل في الامر وانقذه في الوقت المناسب اذ القى شبهه على احد الذين تآمروا عليه، فقبض عليه وصلب ورفع الله تعالى عيسى عليه السلام اليه ولم يمكن عدوه منه فلم يصلبه ولم يقتله ولكن شُبِّه له...

٢ - انتقال العداوة الى اتباع عيسى عليه السلام، وفي اثر ذلك انتقلت هذه العداوة الى اتباعه والمؤمنين به، وانتقل اليهم معها التعذيب والتنكيل حتى اضطروا لأن يسيحوا في الارض بحثا عن النجاة والامان. فوجد اكثرهم في رؤوس الجبال وبطون الاودية واعماق الصحارى ملاذا لهم يعوذون به من جبروت الحكام الرومانيين وظلمهم.

٣ - تشويه المسيحية بالوثنية: ولم يكد يمضي على ذلك ثلاثة قرون حتى كان قد اندس الى تعاليم عيسى عليه السلام بفعل الفلسفة الشائعة اذ ذاك والتي كان احد اركانها امينوس وافلوطين، ثم بفعل التنظيم الثالوثي في الوثنية القديمة لدولة الرومان كثير من الصوفية الهندية والوثنية الرومانية. والتعاليم البوذية والبرهمية[1]..وشوهت جمالها وعكرت صفاءها وطمست ضياءها ولبست الحق فيها بالباطل...

٤ - وصولها الى الجزيرة العربية: ولقد كانت الجزيرة العربية احدى المعاقل التي لجأ اليها بعض الفارين بدينهم من أولئك النصارى المعذبين، فنقلوا الى

---

(١) أضواء على المسيحية متولي يوسف شلبي صفحة ٣٠ وما بعدها.

بعض ابنائها عقيدتهم وتعاليمها ، وكان مع الزمن انتشار النصرانية في اطرافها .

٥ - **دخول النصرانية اليها عن طريق الرقيق**: ولقد كان دخول النصرانية ايضا الى الجزيرة العربية عن طريق تجارة الرقيق الابيض والاسود من افريقيا والامبراطورية الرومانية والصقالبة والجرمان من الجنسين ذكورا واناثا، حتى تنصر من العرب قبائل عديدة ذكر منهم بعض المؤرخين قبائل غسان وتغلب وتنوخ ولخم وجذام وسليح وعاملة وغيرها .[1]

٦ - **ظهورها في مكة والمدينة**: وكان للمدينة ومكة من هؤلاء النصارى الوافدين نصيب ،وكان منهم من يلقن تعاليمه ومعتقداته الى من حوله خصوصا وانه قد ثبت ان بعضهم تعلم العربية وتروض على النطق بها وان كان قد ظل الاكثرون منهم يرطنون أو يتلعثمون لدى التعبير بها[2].

٧ - **خديجة وبعض هؤلاء**: وقد نقل السهيلي ان السيدة خديجة كانت تسمى الطاهرة في الجاهلية والاسلام .

---

(١) المفصل في تاريخ العرب جواد علي الجزء السادس صفحة ٥٨٨ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي الجزء السادس ٥٨١ - ٦٠٢

وانها كانت تسمى سيدة قريش وان النبي صلى الله عليه وسلم حين اخبرها عن جبريل ولم تكن سمعت باسمه قط ركبت الى بحيرا الراهب واسمه سرجس فيما ذكر المسعودي فسألته عن جبريل فقال:قدوس.. قدوس. ياسيدة نساء قريش أنى لك بهذا الاسم؟ فقالت بعلي وابن عمي محمد اخبرني انه يأتيه فقال: قدوس قدوس...ما علم به الا نبي مقرب، فانه السفير بين الله وبين انبيائه، وان الشيطان لا يجترىء ان يتمثل به ولا ان يتسمى باسمه[١]،وروي في مكان آخر ان هذا الراهب ليس بحيرا وانما هو نسطورا وهو الذي لقبه ميسرة، وورد انه كان بمكة غلام لعتبة بن ربيعة اسمه عداس كان عنده علم الكتاب وان خديجة ارسلت اليه تسأله عن جبريل فقال: قدوس قدوس. أنى لهذه البلاد ان يذكر فيها جبريل يا سيدة نساء قريش،فأخبرته بما يقول النبي صلى الله عليه وسلم فقال عداس مثل مقالة الراهب فكان مما زادها الله تعالى به ايمانا ويقينا.

---

(١) الروض الانف الجزء الأول صفحة ١٢٣

٨ - **ابو طالب مع بحيرا:** ونقل ايضا ان ابا طالب سافر بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن تسع سنين أو اثنتي عشرة سنة الى الشام ومر في طريقه على بصرى، ونزل على الراهب بحيرا الذي اخبره بان ابن اخيه يكون له شأن عظيم، وطلب اليه ان يحذر عليه اليهود.

٩ - **بعض من تنصر وقرأ الانجيل من العرب:** وذكر المسعودي اسماء عدد ممن تنصر قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من العرب، فنذكر منهم ورقة بن نوفل وصيرمة بن ابي أنس، وابا عامر الاوسي وعبيد الله ابن جحش. ومن هؤلاء من مات قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم ومنهم من مات بعده، مثل عبيد الله بن جحش الاسدي زوج ام حبيبة بنت ابي سفيان وقد مات عنها في الحبشة وتزوجها من بعده رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد زوجه اياها النجاشي ملك الحبشة وامهرها عنه أربعمائة دينار[١].

١٠ - **رسول الله ودسيسة المشركين:** وروى البعض ان اغلب

(١) المسعودي الجزء الأول صفحة ٨٢- ٩٠

الرقيـق الأبيـض الذي كان في مكة، كان على النصرانية، وانه كان فيهم من تعلم العربية ونطق بها. كما كان فيهم من لم يفقهها، وقال ابن هشام: ان رسول الله كان كثيرا ما يجلس عند المروة الى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر عبد لبني الحضرمي وكانوا يقولون: (والله ما يعلم محمدا كثيرا مما يأتي به الآجبر النصراني) فأنزل الله تعالى: (ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)[1]

والواقع هو ان رسول الله ﷺ كان يتردد على هذا لغلام لما كان يستأنس ببعض ما لديه من عقيدة أملا باقناعه باعتناق الاسلام.

وقد اشارت بعض كتب السيرة الى غلام آخر بمكة اسمه بلعام وكان قينا، وذكرت ان الرسول ﷺ كان يدخل عليه ويخرج من عنده، فقال المشركون انه كان ﷺ يتعلم منه. وقيل ان ذلك الرجل الذي قال اهل مكة ان الرسول كان يتعلم منه اسمه ابو اليسر وكان نصرانيا.[2] وقد ورد في

---

(١) النحل آية ١٠٣

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي الجزء السادس صفحة ١٢٠.

كتاب الاصابه ان رسول الله ﷺ كان يعلم بمكة قينا اسمه بلعام. وكان اعجمي اللسان، فكان المشركون يرون الرسول يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا انما يتعلم من بلعام.

١١ -**المستشرقون وهذه الفرية:** ولقد استغل هذه الاخبار المنشورة في كتب السيرة بعض المستشرقين المغرضين فتعلقوا بها ونشطوا في الترويج لها ونفش مضمونها والدس من خلالها حتى خرجوا بها عما تحمله، وقد بالغوا كثيرا فيها، واعتمدوها للاثبات بأن محمدا مفتر وانه اخذ كتابه ودينه عن امثال هؤلاء...

وقد قال جولد تسيهر في اكثر من موضع من كتابه العقيدة والشريعة في الاسلام ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى رحمه الله: (وقد ساهم في تكوين عناصر هذه المذاهب - يعني الاسلامية - الدين اليهودي والدين المسيحي على سواء) ويقول: فتبشير النبي العربي ليس الا مزجا منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية... وهذه التعاليم التي اخذها عن تلك العناصر الاجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورة لتثبيت ضرب من الحياة في الاتجاه

الذي تريده الارادة الآلهية[1]

وقد علق عليها الدكتور محمد يوسف موسى رحمه الله في اكثر من مناسبة تعليقات مستفيضة داحضة؛خصوصا وان هذا الكتاب شأن أمثاله يكتفي بايراد الشبهة ويعجز عن اسنادها بالدليل والبرهان متهربا بأن المجال لا يتسع للافاضة فيه، وكان مما قاله رحمه الله:(يذكر (يعني جولد تسيهر) ان الاسلام اقتبس من الديانتين الموسوية والعيسوية في القواعد الوضعية الواقعية، وليت شعري ماذا يريد بهذا الكلام المبهم.؟ فهل يريد ان في الاسلام صلاة كما فيهما صلاة؟ ولكن افلا يعلم ان الصلاة في الاسلام غيرها فيهما وكذلك الصيام والزكاة).

ونقول اضافة الى ذلك ان نظام الحج وهيآته في الاسلام غير نظام الحج في الديانتين اليهودية والنصرانية، ثم نظام البيوع والقصاص والديات، والمواريث والوصايا والطلاق، هل هي وغيرها كثير مما لا مجال لايراده هنا موجودة في هاتين الديانتين؟. وهل يستطيع محمد العربي القرشي الأمي ان يبتدع مثل هذه الانظمة التعبدية والاجتماعية والقانونية

(١) العقيدة والشريعة جولد تسيهر صفحة ٥- ١٧ وما بعدها.

والسياسية في اشكالها البديعة العجيبة ومضامينها المدهشة؟.

ثم من قال ان محمدا صلى الله عليه وسلم ادعى انه صاحب الاسلام ومبدعه الا يكفي هؤلاء ما يكرره الله تعالى في القرآن مخاطبا اياه (ان انت الا نذير)[1]. و(إن عليك الا البلاغ)[2]. و (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان أتبع الا ما يوحى الي وما أنا الا نذير مبين[3]). ليفهموا هذه الحقيقة ويعقلوها كما هي؟.

ان هذه الحقيقة قد اقر بها المفكرون المحايدون منهم امثال الدكتور موريس بوكاي الذي يقول في كتابه التوراة والانجيل والقرآن والعلم الحديث: (ان القرآن نص الوحي المنزل على محمد من سيد الملائكة جبريل[4] ويقول: (والذي يدهش فكر من يواجه مثل هذا النص للمرة الأولى هو غزارة الموضوعات مثل الخلق والفلك وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالارض وجنس الحيوان والنبات وتكاثر الانسان تلك الامور التي نجد عنها في التوراة دون

---

(١) فاطر ٢٣

(٢) الشورى ٤٨

(٣) الاحقاف ٩

(٤) التوراة والانجيل والقرآن والعلم الحديث للدكتور موريس بوكاي ١١

نص القرآن اخطاء علمية كبيرة تحملني على التساؤل: اذا كان كاتب القرآن بشرا، فكيف امكنه في القرن السابع الميلادي كتابة مثل ما ثبت انه اليوم متفق مع المعارف العلمية الحديثة[1])

ويقول: (ان هذه الملاحظة الاخيرة تجعل افتراض من يرون محمدا كاتبا للقرآن مرفوضا؛ اذ كيف يتيسر لرجل حرم العلم في نشأته ان يصبح - على الاقل من وجهة نظر القيمة الادبية - الكاتب الاول في الادب العربي كله يخبر عن حقائق في النظام العلمي تتجاوز وسع اي كائن انساني في هذا الزمن ودون ان يكون فيه اي أخطاء.)

(ان الاعتبارات التي سنتوسع فيها في هذه الدراسة، ستوصلنا من وجهة النظر العلمية فقط الى الحكم بأن من المستحيل تصور رجل عاش في القرن السابع الميلادي، واستطاع ان يورد في القرآن افكارا في موضوعات متنوعة جدا - ليست افكار عصره - تلتقي مع ما سيكشفه منها بعد قرون متأخرة عنه. اما بالنسبة الي فليس للقرآن اي تفسير بشري[2]).

---

(١) التوراة والانجيل والقرآن والعلم الحديث للدكتور بوكاي ص ١١٤.

(٢) التوراة والانجيل والقرآن للدكتور موريس بوكاي ص ١١٨.

ان الذي نقل حول موضوع تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بالنصرانية لا يعدو ان يكون ثمرة اثبات لقاء واحد أو اثنين او مطلق لقاء مع بعض متنصرة الجزيرة او الوافدين اليها من الرهبان وكلها وامثالها كثير لا تكفي لنقل هذا الدين الغني، وهم المخالفون له في كثير من الأصول والفروع والشكل والموضوع.

هذا ومحمد صلى الله عليه وسلم كان اميا. والذين امنوا به من قومه المكيين والمدنيين وعرب الجزيرة واليهود والنصارى من أبنائها الذين عايشوا هؤلاء الذين ينسب اليهم تعلم الرسول منهم واخذه عنهم لورجح عندهم شيء من هذا لعرفوه، ولما آمنوا به هو، ولما اتبعوه، ولما قاتلوا واستشهدوا في سبيل ذلك، بل لكان الأصح والافضل ان يكون ايمانهم باولئك الذين اخذ عنهم، وشيء من هذا لم يكن وهو ما يقطع بسخف هذه الفرية وتهاترها...

على ان الرسول صلى الله عليه وسلم يكرر اكثر من مرة في احاديثه، كما ينقل مرارا في الكتاب عن رب العزة انه ومن سبقه من الانبياء والرسل سواء كانوا من بني اسرائيل او من غيرهم ممن حملوا كتابا او صحيفة، مبلغون لرسالات ربهم التي حملهم اياها الى الناس وانه؛ ولذلك لا يملك

تحريف ذلك والا لحل به ما قاله تعالى: (انه لقول رسول كريم،وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون،ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين،ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من احد عنه حاجزين[1].

وليس المطلوب هنا التوسع في مناقشة هذا الموضوع وان كنا قد تعرضنا له برفق فلضرورة المقام، ولكن مما لا بد منه تقرير ان محمدا صلى الله عليه وسلم هو رسول رب العالمين الى الناس جميعا وانه مع اخوته الرسل السابقين عليه قد اشتركوا في الاصول التي نقلوها عن الله وحياً، الامر الذي يوضح ان ما في تعاليمهم من شبه انما مرده الى انها صادرة في اصولها عن معين واحد.

١٢- وجود النصرانيــة والنصــارى في الجزيرة: ومما لا مشاحة فيه ان النصرانية كانت قد تسربت الى قلب الجزيرة بعد ارتفاع عيسى عليه السلام بزمن، وتمركزت في اطراف منها، اهمها اليمن عامة ونجران خاصة، ويروى ان حادثة اصحاب الاخدود قد وقعت فيها وكانت سبب وجود النصرانية فيها وفيما حولها..

(١) الحاقة ٤٠- ٤٧

١٣- حادثة الاخدود:

وقد نقل انه قد نزل في نجران في غابر الازمان احد الصالحين من اهل دين عيسى عليه السلام المقيمين على الانجيل واسمه فيميون ،وتعرف اليه احد ابناء نجران واسمه عبد الله الثامر، وحفظ عنه اسم الله الاعظم وصار له شأن، حتى انه كان لا يدعو الله لمريض الا عوفي، وكان لا يدعو لأحد الا بعد ان يدخله في دين الله، الأمر الذي جمع عليه أهل نجران. فرفع شأنه الى الملك فدعاه وقال له: افسدت علي الناس وخالفت ديني ودين آبائي. واراد ان يقتله، ولكنه عجز عن ذلك في كل محاولاته. فقال له عبد الله لن تتمكن من ذلك حتى تؤمن بالله امام جميع الناس فآمن وقتل الغلام، فآمن جميع الناس برب الغلام،فكان ذلك بداية انتشار النصرانية في هذه المنطقة. وحتى ينتقم الملك من الناس خدلهم اخدودا والقى فيه الحطب. واجج النار فيه فاشتعل. ثم جعل يطرح عليه من اصر على النصرانية. وفي هذه الحادثة انزل الله مواسيا نبيه قوله: (قتل أصحاب

الاخدود، النار ذات الوقود، اذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد). الى آخر السورة[1].

١٤- بداية الموقف من النصرانية:

ويلوح لنا في هذه السورة التي جزم الفسرون كافة بأنها مكية انها من اوائل السور نزولا، لانها قصدت الى تعزيز معنويات المسلمين واستنهاض همتهم وتثبيتهم في ايمانهم. يقول الآلوسي في تفسيره: (ولا خلاف في مكيتها.. ووجه مناسبتها لما قبلها باشتمالها كالتي قبل على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين مع التنويه بشأن القرآن وفخامة قدره، وفي البحر (اي تفسير المحيط لابي حيان) انه سبحانه وتعالى لما ذكر انه اعلم بما يجمعه المشركون لرسول الله والمؤمنين من المكر والخداع والايذاء بانواع الاذى كالضرب والقتل والصلب والحرق بالشمس واحماء الصحر ووضع اجساد الذين يريدون ان يفتنوه عليه، ذكر سبحانه ان هذه الشنشنة كانت فيمن تقدم من

---

(١) سورة البروج ٤- ٨

الأمم... فهذه السورة عظة لقريش، وتثبيت لمن يعززه من المؤمنين.[1]

واذا كان الامر كذلك فيفرض ان تكون بدايات موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من النصرانية كانت في أوائل عهده في الدعوة في مكة. ولعل استشهاده تعالى في حادثة الاخدود في هذه السورة لتدعيم المسلمين وشد أزر النبي صلى الله عليه وسلم، فيه ما فيه من لفت النظر الى النصارى وما يمكن ان يكون له معهم من أمل كبير في الاعتراف بالحق والخضوع له.

١٥- هجرة الحبشة:

وان الذي يرجح هذا الافتراض ان الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى اصحابه في مطلع الدعوة يصيبهم من البلاء الشيء الكثير، وانهم سيكونون في كرب شديد إن استمروا في هذا الوضع فكر لهم بمخرج يخفف عنهم الشدة ويفرج عنهم، فقال لهم: لو خرجتم الى ارض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده احد، وهي ارض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما

(١) تفسير الألوسي جزء ٣٠ ص ٨٥

انتم فيه، وانهم بالفعل قد خرجوا ووجدوا عنـده ما ترقبه لهم الرسول منه.

١٦- تاريخ هذه الهجرة:

ولقد كان مخرجهم الى الحبشة في رجب من السنة الخامسة من حين نبيء رسول الله صلى الله عليه وسلم[١]، وكانت الحبشة داراً لنصارى يعبدون المسيح ولا يقولون هو عبد الله[٢]

١٧- عقيدة اهل الحبشة:

يملكهم ملك يطلق عليه لقب النجاشي. وقد كان نصرانياً على طريقة قومه، شاب عقيدته ما شاب عقيدتهم من الوثنية واصابها ما اصابها من التحريف؛ ولكنـه مع ذلـك احسن جوار المسلمين، ورفض تسليمهم الى قومهم الذين ارسلوا اليه من يطلب ذلك منه، وقال كلمته: (والله لا أسلمهم) ثم قال لمهاجرين المسلمين: (اذهبوا فانتم شيوم بارضي) أي (آمنون).

١٨- الحكمة من اختيار الهجرة اليه:

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم عقيدته

---

(١) الطبقات الكبرى الجزء الأول ص ١٨٨

(٢) ابن هشام الجزء الأول ص ٢٠٤

هذه، ولكنه اختاره لهم لما كان يعلمه عنه من حسن جواره، وأمن بلاده في ظل عدله، ولذلك قال له جعفر رضي الله عنه في حديثه معه: (لقد خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ان لا نظلم عندك.)[1]

١٩- اسلام النجاشي:

وقد ظل النجاشي على حاله هذه من الاعتقاد الى ان كتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة سبع من الهجرة كتابا يدعوه فيه الى الاسلام، فلما قرىء عليه أسلم وقال لو قدرت آتيه لأتيته[2]

واختيار الرسول صلى الله عليه وسلم للنجاشي ملك الحبشة ليكون ملاذ المسلمين المعذبين في ارضهم، وأمله في ان يجد اصحابه عنده الجوار الحسن والامان والاطمئنان وحرية الاعتقاد يدل على سلامة فكره، وبساطته وعدم تعقده، خصوصا وانه يعلم ان النصارى قوم قد خالط دينهم وثنيات ووقع فيه انحرافات وتحريفات، لكنهم على كل حال يظلون خيرا من المشركين؛ وذلك لانهم قوم يؤمنون بالانبياء

---

(١) ابن هشام الجزء الأول ص ٢١٣

(٢) الطبقات الكبرى الجزء الأول ١٩٢

والرسل ويحملون كتابا ان لم يكن يصدق ما فيه، فانه لا يكذبه، فهو في موقفه هذا من النصرانية خير من موقف اليهود من الاسلام عندما جاء يستطلعهم خبر دين محمد....

٢٠- موقف النبي والمؤمنين من الروم:

والموقف نفسه يتكرر من النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين تجاه النصارى عندما انتصر آل ساسان في عهد ابرويز على هرقل ملك الروم ودخلوا الشام ظافرين سنة ٦١٤م ونزلت سورة تبشر المسلمين بنصر قريب يحرزه الروم على الفرس كأنما تريد ان تواسي نفوسهم المألومة، ولقد ورد ان المشركين كانوا يهتمون باخبار فارس ويتمنون انتصارها على الروم لأنهم واياهم اهل اوثان، وكان المسلمون على العكس من ذلك يهتمون بأخبار الروم ويتمنون انتصارهم على الفرس. فلما انتصر كسرى ابرويز على الروم وفتح القسطنطينية وبنى فيها بيت النار ساء النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فانزل الله تعالى أوائل سورة الروم: (الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين.)

٢١- رهان أبي بكر:

ولما بلغت هذه الآية مسامع ابي بكر خرج يتحدث بها في قومه. فقال له ناس من قريش: زعم صاحبك ان الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك ،قال:بلى وذلك قبل تحريم الرهان، فتراهن ابو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان واتفقوا ان البضع ست سنوات،وجعلوا الرهان ثلاث قلائص.وجاء ابو بكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره عن الذي جرى بينه وبين القرشيين، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (هلاَّ احتطت فان البضع ما بين الثلاث والتسع. ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل) ففعل ابو بكر وجعلوا القلائص سبعا والأجل الى تسع سنين. ولم تمض هذه المدة حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيلهم بالمدائن وبنوا رومية ،وكسب ابو بكر الرهان، ولكن لما قبضه امره صلى الله عليه وسلم بالتصدق به[1].

* * *

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢- ٣

٢٢- **انفتاح الاسلام على الافضل**: لقد كانت غلبة فارس على الروم اوائل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في مكة واتباعه يومئذ قليل[١]،ولا شك ان مواقف الرسول ﷺ هذه من النجاشي ومن الروم تعبر دونما ريب عما يتحلى به الاسلام من الانصاف والعدل، وما يلتزمه من الاستقامة ويتصف به من الانفتاح على الافضل ايا كان ولمن كان

٢٣- **موقف المخلصين من اهل الكتاب**: وكذلك كان موقف اليهود والنصارى المخلصين الصادقين مع الله ومع انفسهم، فانهم ما ان بلغهم مبعث نبي حتى بادروا الى لقائه ودرس اوصافه واحواله واعماله، ثم آمنوا به بعد ان تحققوا من انطباقها على الاوصاف الثابتة له في كتبهم، وقد روت كتب السير والحديث انه قدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلا وهو في مكة او قريب من ذلك، من النصارى حين ظهر خبره في الحبشة، فوجدوه في المجلس فكلموه وسألوه ورجال قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح الجزء الأول ٨٨

مساءلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ارادوا دعاهم وتــلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق،ثم استجابوا له وآمـنوا بـه وصدقوه. فـلما قـاموا من عنــده اعترضهم ابو جهل في نفر من قريش فقالوا: « خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من اهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل،فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال؟. ما نعلم ركبا احمق منكم!فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا اعمالنا ولكم اعمالكم، لا نـالو لانفسنا خيرا[1]. وفيهم نزلت الآيات الكريمة التالية: (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئـة ومما رزقناهم ينفقون، واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين[2]

---

(١) الجواب الصحيح الجزء الأول ص ٨٧

(٢) القصص ٥٢- ٥٥

٢٤- تعميم الدعوة:

ولئن كانت دعوة جميع الرسل السابقين من بني اسرائيل وغيرهم مقتصرة على اقوامهم فان رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عامة الى الناس كافة، وذلك بأمر الله الثابت في كتابه الكريم بقوله: (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)[١] (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون)[٢]. ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم حتى قبل عام الحديبية يوجه دعوته الى قومه في مكة ومن حوله والى اهل المدينة ومن حولها، ويتصدى لكل من يلقاه في المواسم خارج مكة وخارج المدينة وغيرها ليبلغه الدعوة، وما ان هادن قريشا عام الحديبية حتى مد بصره الى تخوم الجزيرة وما بعدها، واتجه في دعوته الى العالمين. فأرسل كتبه مع رسله الى الملوك والامراء جميعا، والى النصارى بالذات في الشام ومصر والحبشة.

---

(١) الأنبياء ١٠٧
(٢) سبأ ٢٨

٢٥- موقف هرقل:

وقد نقلت بعض كتب التفسير انه لما تسلم هرقل كتاب النبي صلى الله عليه وسلم جمع اساقفة الروم فألبوا عليه ذلك، وتخلف عن الاجتماع كبيرهم، فأرسل اليه ثلاثا فأبى الحضور فسعى اليه، فلما قابله قال له: (اليس قد عرفت انه رسول الله؟ قال بلى. قال اليس قد رأيت ما ركبوا مني، فأنت اطوع فيهم مني فتعال فادعهم. قال أوتأذن لي في ذلك قال نعم. قال فجاء بسواده الى كنيستهم العظمى فلما رأوه خروا له سجدا الملك وغيره، فقام في المذبح فقال: يا أبناء الموتى، هذا النبي الذي بشر به عيسى، وانا أشهد ان لا اله الا الله وان محمد رسول الله، فنخروا ووثبوا اليه فعضوه بأفواههم حتى قتلوه[1].

كما ورد ان هرقل لما تسلم كتاب رسول الله من الرسول جعله في قصبة من ذهب وامسكها عنده تعظيما له بعد ان قال ما قال مما روته كتب الحديث، ومما يؤكده معرفته للحق وثبوته له حيث قال: (يا معشر الروم هل لكم في الفلاح

---

(١) الجواب الصحيح الجزء الأول ٩٦

والـرشد وان يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي، فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الابواب فوجدوها قد أغلقت دونهم، فلما رأى هرقل نفرتهم ويئس من الايمان منهم ردهم عليه وقال: (اني قلت مقالتي آنفا اختبر بها شدتكم على دينكم فقد أيت)[1] فنكص على عقبيه خوفا على ملكه.

وقد جرد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبليغ الناس اجمعين ومن ضمنهم النصارى رسلا عديدين، فأرسل كما رأينا الى قيصر والمقوقس والنجاشي والى كسرى الذي مزق كتابه فاستحق دعاءه بأن يمزق الله ملكه فتمزق،والى باذان أمير كسرى على اليمن فأسلم مع ابنائه، ثم الى الحارث ابي شمر الغساني والى جيفر والى المنذر بن ساوى العبدي في البحرين فأسلم،ثم الى عديد من الأمراء ووجوه العرب فأسلم من أسلم وعاند من عاند وكفر[2].

وثبت ان ملك مصر رد على كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ردا جميلا لطيفا وارفقه بهدايا ارسلها اليه صلى الله عليه وسلم رغم انه اعترف بانه رسول الله المنتظر والذي بشرت به الانبياء من قبل[3].

---

(١) الجواب الصحيح الجزء الأول ٩٥

(٢) الطبقات الكبرى الجزء الثاني ص ٣٢- ٥٦

(٣) الجواب الصحيح الجزء الأول ص ٩٧.

٢٦- موقف ملوك النصارى من كتب الرسل لأول وهلة:

وليس مصادفة ان يكون موقف ملوك النصارى في البداية ما كان عند تسلم كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فكتبهم تشهد بقرب بعثة نبي ذكرت اوصافه وهم لاشك عرفوا تحققها فيه صلى الله عليه وسلم، فكتبهم ومفاجأة الرسول لهم بكتابه ودعوته لهم للاسلام اربكتهم وجعلتهم بسبب حرصهم على الملك وعلى زينة الحياة يترددون: أيقبلون على الاسلام ويلبون نداء الرسول ويتخلون بالتالي عن الملك والسلطان وربما يموتون من جراء هجمة عامة الناس وجهلائهم عليهم، أم يؤثرون البقاء فيما هم فيه من الدعة والملك والنعيم؟ ولقد كان اختيار بعضهم هذا لضعفهم، بينما كان اختيار آخرين الاسلام مهما كلفهم الأمر.

فقد آمن النجاشي وعزم على السعي اليه صلى الله عليه وسلم لولا تحققه من تعذر ذلك عليه، واعترف المقوقس بانه يجد معه آلة النبوة وانه ليس بالكاهن ولا الساحر وأرسل اليه الهدية المعروفة[١]، وتردد هرقل فأصابه الخزي في الحياة

(١) راجع كتب السير والحديث في هذا الموضوع.

الدنيا ولعذاب الآخرة أخرى...

٢٧- الفرق بين موقف النصارى من النبي وموقف اليهود:

هذا ولا بد من الاشارة هنا الى ما بين موقفي اليهود والنصارى من النبي صلى الله عليه وسلم من فرق في الفترة التي كان فيها صلى الله عليه وسلم مبلغا لدعوته في مكة. فقد ثبت كما أشرنا ان وجود النصارى في مكة والمدينة كان بعدد لا بأس به، كما كان وجود اليهود في مكة وبخاصة في المدينة، ولكن ثبت ان غالبية وجود النصارى كان في ظل الرق والعبودية، فلم تكن لهم في الاغلب كما كان لليهود حرية الحركة والعمل وحرية الرأي والكلام.

ومع ذلك فقد نقلت كتب السيرة ايمان البعض، منهم: جبر ويسار وكانا عبدين لآل الحضرمي، ويعيش مولى لحويطب بن عبد العزى، وبلعام وكان روميا اعجمي اللسان، وصهيب وكان في خدمة عبد الله بن جدعان وغيرهم وانهم جميعا قد اسلموا[1].

كما نقلت تآمر بعض متنصرة العرب على الاسلام

---

(١) ابن هشام الجزء الثاني صفحة ٤٥

وعلى النبي صلى الله عليه وسلم، مثل ابي عامر الراهب الذي تمكن من اقناع بعض شباب الأوس من اعتناق دينه وخروجهم معه مغاضبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤيدين لقريش، ثم لما يئس من نجاح اهل مكة في القضاء على الرسول فر الى بلاد الشام ليطلب مددا من الروم[1].

ولكن بصورة عامة ظل النصارى مستضعفين وعاجزين عن المبادرة الى موقف جماعي داخل الجزيرة من الرسول صلى الله عليه وسلم تخذيلا او تأييدا. غير ان هذا لم يمنع من حصول الاحتكاك بين المسلمين والنصارى على اختلاف اوصافهم وظروفهم من جهة، وقيام الحوار الديني بينهم حول العقيدة وفي كثير من الاراء الدينية من جهة ثانية...

وهذا ما يسر للكتاب الكريم اخذ المواقف بالنسبة لعقائد النصرانية وسرد الكثير من الاحكام فيها ومن المعتنقين لها. ويسر للمؤمنين منهم هذه المواقف وادراك مداها وغورها.

وعلى كل حال فان القرآن الكريم في الوقت الذي

---

(١) طبقات ابن سعد الجزء الثاني ١١٩- ١٢٠.

اصدر حكمه فيه على اليهود بأنهم اشد الناس مع المشركين عداوة للذين آمنوا، فأبرز فيهم ظاهرة العداوة وما تحمل من معاني الحقد والكيد والتآمر والاذى وغير ذلك، حكم على النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا فنسب اليهم طبيعة الود والمحاسنة والملاينة مع ان اقربيتهم في المودة لا تنفي اتصافهم بالعداوة وما تستتبع احيانا، وذلك لان التوجيه يهدف الى طبائع هؤلاء واولئك في الغالب التي تميزت به من دون الناس.

٢٨- **وفد نجران**: ولقد كان من ابرز صور اللقاء والمواجهة بين الاسلام والنصرانية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه بالذات ذلك الذي حصل بينه وبين وفد نجران الذي جاءه ليستمع اليه ويحاوره ويقرر موقفه منه.

وان كانت السير لتنقل احاديث مستفيضة عما جرى بين الرسول وزعماء هذا الوفد، ويقول ابن اسحاق: (قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ستون راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من اشرافهم منهم ثلاثة يؤول اليهم امرهم: العاقب امير القوم وذو رأيهم واسمه عبد المسيح. والسيد

شماسهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم. وأبو حارثة ابن علقمة اسقفهم وحبرهم وامامهم وعالمهم[1].

ودخلوا المسجد عليهم ثياب الحبرة وأردية مكفوفة بالحرير، فقاموا يصلون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله صلى الله عليه (دعوهم) ثم اتوا النبي فأعرض عنهم ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان ذلك من اجل زيكم هذا، فانصرفوا يومهم ذلك، ثم غدوا عليه بزي الرهبان فسلموا عليه فرد عليهم ودعاهم الى الاسلام فأبوا وكثر الكلام والحجاج بينهم، وتلا عليهم القرآن، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أنكرتم ما أقول لكم فهلم أُباهلكم[2] فقالوا يا ابا القاسم دعنا ننظر في امرنا ثم نأتيك بما تريد ان نفعل فيما دعوتنا اليه. فانصرفوا ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال والله يا معشر النصارى لقد عرفتم ان محمدا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم (يعني عيسى) ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقي

---

(١) ابن هشام الجزء الثاني صفحة ٤٥

(٢) طبقات ابن سعد الجزء الثاني ١١٩- ١٢٠

كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وانه للاستئصال منكم ان فعلتم،فان كنتم قد ابيتم الا الف دينكم والاقامة على ما انتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا الى بلادكم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ان لا نلاعنك وان نتركك على دينك[1]، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفي حلة وعلى عارية من الدروع والرماح والبعير والجياد ،وعلى أن لنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على انفسهم وملتهم وارضهم واموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم. وانهم رجعوا الى بلادهم. فلم يلبث السيد والعاقب ان عادا الى النبي واسلما[2].

٢٩- **العقيدة النصرانية**:من معتقدات النصارى الاساسية ان المسيح هو الله وانه هو ابن الله، وانه ثالث ثلاثة. اما انه هو الله في زعمهم، فلأنه كان يحيي الموتى ويبرىء الاكمه والاسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا ،وكان

---

(١) ابن هشام الجزء الثاني صفحة ٤٥.

(٢) طبقات ابن سعد الجزء الثاني صفحة ١١٩- ١٢٠.

ذلك بأمر لله. واما انه هو ابن الله في زعمهم، فلأنه لا أب له، وأما انه ثالث ثلاثة في زعمهم فلأن الله تعالى يقول: فعلنا وامرنا وقضينا، ولو كان واحدا لقال فعلت وامرت وقضيت ولذلك كان الله هو وعيسى ومريم.

ولما جرى الحوار مع رسول الله حول هذا دعا الرسول الحبرين الى الاسلام، فقالا: لقد اسلمنا. قال: انكما لم تسلما. قالا بلى قد اسلمنا قبلك. قال كذبتما يمنعكما من الاسلام دعاؤكما لله ولــدا وعبادتكما الصليب واكلكما الخنزير. قالا فمن ابوه يا محمد؟. فصمت عنهما رسول الله ولم يجبهما حتى نزل قوله تعالى: من صدر سورة آل عمران الى نهاية بضع وثمانين آية منها

ولقد كان في هذه الأيات رد حاسم قضى فيه على الشبه المصطنعة من اصحاب هذه العقيدة وبين العقيدة السليمة في الله كما ينبغي ان تكون. وخلاصة ما فيها:

١- ان الله واحد لا اله الا هو الحي القيوم، منزه عما يقوله النصارى وعما ينسبونه لعيسى من الموت والصلب والزوال عن سلطانه.

٢- هذا الاله الواحد العظيم هو الذي انزل على محمد

الكتاب كما انزل التوراة على موسى والانجيل على عيسى. وفي القرآن الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الاحزاب من أمر عيسى وغيره.

٣-ان الله العظيم الفرد الصمد عظيم السلطان متمكن من خلقه شديد العذاب والانتقام.

٤-والله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء وهو الذي يصور الخلق في الارحام. وهو يعلم ما يكيده الكائدون في امر عيسى عليه السلام.

٥-الله الجليل سبحانه وتعالى قد انزل عليك الكتاب وفيه آيات محكمات لا تحتمل التأويلات المتعددة ،ولا تتعارض عليها الاحتمالات ،وهي حجة له تعالى على عباده وعصمة لهم لانها ترد الباطل. وآيات متشابهات تتمثل بالناظر فيها الى استجلاء وجوه مختلفة وطرق متباينة، وقد ابتلى الله فيها العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام، فأهل الزيغ يعطفون المتشابه على اهوائهم ويجادلون به عن آرائهم، فيضلون الحديث ،ما الراسخون في العلم فيردونه الى الحكم أخذاً من قوله تعالى: (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) وعلماً بان الكل من عند

الله فلا يخالف بعضه بعضا..
٦- وقد شهد الله انه لا اله الا هو وانه قائم بالقسط، فحسم بشهادته العليا التي لا تفتقر الى تزكية لوثوقها من ذاتها، ثم بشهادة الملائكة خير المخلوقات واسماها، وشهادة حكماء الناس واوفرهم نصيبا من العلم والادراك.
٧- ان الدين عند الله الاسلام. واختلاف الذين اوتوا الكتاب في هذا بغي وعدوان على الحق.
٨- أدع الذين يحاجونك الى الاسلام فان قبلوا فبها وقد اهتدوا، والا فدعهم وشأنهم فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد.
٩- والاسلام هو ما انت عليه من التوحيد والتصديق برسالات الرسل. اما اهل الكتاب فهم حائدون عن الطريق المستقيم، ومنهم من قتل النبيين، وافتروا على الله ما لم ينزل، وقالوا لن تمسنا النار الا أياماً معدودات.
١٠ يخَبِّرُ النبي صلى الله عليه وسلم بكثير من اخبار الاولين المغيبة عليه، بما اكتنف خلق مريم وحياتها، وبدعاء زكريا بأن يكون له الولد واستجابة الله له بهبته يحيى عليه السلام، وببيان مقام مريم عند الله

وكيف بشرتها الملائكة بعيسى وما سيكون منه من عظائم الأمور وخوارقها.

١ وعيسى اذن ليس بدعا في الناس انه من بني آدم خلقه الله كما خلق آدم،ومثله عند الله كمثل آدم الذي خلقه من تراب وقال له كن فكان...

١٢ وتأكيدا لصحة كل ما سبق تحدى القرآن الكريم النصارى وقال للرسول صلى الله عليه وسلم اطلب منهم المباهلة، اي تعالوا نطلب من الله ان ينزل لعنته على الكافرين مناوالكاذبين،وعند ذاك يتبين الصادق من المفتري والمستقيم من المنحرف.

١٣ - **امتناع وفد نجران من المباهلة**: وقد ذكرنا قبل ان وفد نجران النصارى استنكفوا عن هذه المباهلة خوفا من خطرها عليهم الأمر الذي استلزم بوضوح كذب وبطلان ما هم عليه.

ولا ريب ان هذه الايات كانت حاسمة بما كشفته من موقف محمد صلى الله عليه وسلم وموقف الاسلام من النصرانية، وبما استندت اليه من حجج داحضة وبراهين قاطعة اكدت انحراف القوم وضلال ما هم عليه وزيغان قلوبهم عن الصراط المستقيم، وان

مصيرهم الى حساب شديد وبخاصة بعد هذا البيان الذي ترتاح اليه العقول المنصفة وتطمئن له القلوب المخلصة التي لا يتحكم بها الهوى.

١٤ **الهوى وفعله في الاصرار على الباطل**: ورغم هذا فقد لعب الهوى بعقول اولئك وغيرهم،وأصر كثير من نصارى الجزيرة ونصارى البلدان المتاخمة على البقاء على ما هم عليه فيما شرعه لهم اكابرهم من القوانين والناموس مما لم يوجد في كتب الانبياء الأولين اليسير منه، ذلك انه يمثل مجموعة مما نقل عن الانبياء والحواريين، وعن اكابرهم مما ابتدعوه لهم من دين المشركين والوثنيين،وما كانوا عليه من عبادة الصور والاستشفاع باصحابها والسجود لها والقول بالتثليث وعبادة الصليب واستحلال لحم الخنزير وتعبدهم بالرهبانية وامتناعهم عن الختان وتركهم طهارة الحدث والخبث، فلا يوجبون غسل جنابة ولا وضوء ولا يوجبون في صلاتهم اجتناب شيء من الخبائث اياً كانت بولا او عذرة او غير ذلك[1]

---

(١) الجواب الصحيح الجزء الأول ١١٤- ١٢٤

١٥- **بدء الصراع مع النصرانية:** ولقد قلنا آنفا ان كتب السيرةلم تشر مطلقا الى وقوع أي تصادم بين الرسول صلى الله عليه وسلم ونصارى الجزيرة - ولكن مع ذلك فان هذا لم يمنع من ان يمارسوا معه اساليب الدس عليه وعلى الاسلام ويتحركوا التحرك الصامت الخبيء كما رأينا من ابي عامر الراهب، وكما ثبت انه وقع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث نقل بعض المؤرخين بانه لا يستبعدأن يكون اهل الكتاب عموما قد ساعدوا في قيام حركة الردة في الجزيرة، وحركة المتنبئين ومانعي الزكاة للقضاء على الاسلام من الداخل، هذا الاسلام الذي يعتبرونه خطرا عليهم، كما لايستبعد ان يكون الاحباش والروم في جملة من كان يحرض على الدس للاسلام والتآمر عليه خصوصا وان بعض من اعلن الردة مثل (النعمان الغرور) وهو نصراني قد تلقى هو ومن كان معه من النصارى المرتدين عونا من الخارج، ولعل هذا ما حمل الخليفة على اتباع قاعدة اجلاء الدساسين من اهل الكتاب مهما كان نوعهممن جزيرة

العرب لحمايــة الاسلام من خطر الفتنــة وخطر الردة[1].

١٦- **لماذا امر الرسول باجلاء اليهود والنصارى**: ولعل هذا الخبر يساعدنا الى حد بعيد على فهم الحكمة فيما نقله الامام احمد عن ابي عبيدة بن الجراح قال: كان آخر مـا تكـلم به الرسول صلى الله عليه وسلم: (أخرجوا يهود اهل الحجاز ونصارى اهل نجران من جزيرة العرب[2].
اذ يجوز ان يكون صلى الله عليه وسلم قد لمس حيائيا؟ ما كان يكيده له هؤلاء جميعا سراً وعلناً، مع ما يحملونه من الشبه الضالة والمضلة فادرك بنظرته الصادقة الحكيمة مدى خطرهم على الحق والخير وعقيدة الاسلام وكيان المسلمين والجزيرة العربية قلعة الاسلام، فاصدر حكمه وطلب من خلفائه ان يجدوا في تنفيذ ذلك من بعده..

١٧- **تحرك الروم**: ومما يؤكد صحة هذا الاتجاه ما وقع من الروم قبيل انتقاله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق

---

(١) المفصل في تاريخ العرب الجزء السادس ٦٢٠.

(٢) الجواب الصحيح الجزء الأول ١٠٢

الأعلى»، هؤلاء الذين فرح المؤمنون بانتصارهم على الفرس واعتبروه نصراً للاديان الكتابية على الوثنية، فانهم ما ان وصلهم خبر انتشار دعوة الاسلام في الجزيرة وتمكنها من ارجائها؛حتى فكروا بما قد يصيب ملكهم فيها لو تم لهذا الدين الجديد استمرار الغلب على ما حوله والانتشار، ولذلك فقد بادروا الى الائتمار به والكيد له والبطش به انامكن، فارسلوا له جيشا لجبا، عدته في بعض الروايات مئة الف مقاتل، بل ومئتا الف مقاتل في رواية اخرى، فكانت غزوة تبوك التي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، ولم يقع فيها قتال، لانسحاب الروم بينما استمر الرسول صلى الله عليه وسلم مقيما عدة ايام مع اصحابه، تمكن فيها من عقد معاهدات صلح مع بعض نصارى تلك المنطقة، مثل الاكيدر صاحب دومة الجندل الذي صالحه الرسول على الجزية،ومثل صاحب ايلة كذلك[1]،ولم يكد يمضي على وفاة الرسول كبير وقت حتى اتسع هذا الصراع

---

(١) المفصل في تاريخ العرب الجزء السادس صفحة ٦٠٠.

وانتقل الى عقر دار الروم وكانت معارك انتهت بانتصارات حاسمة للاسلام والمسلمين على النصرانية واتباعها....

١٨ - الاسلام والنصرانية: ولقد وضح من قبل انه لم يكن من محمد صلى الله عليه وسلم واتباعه المؤمنين بادىء ذي بدء تجاه النصارى الا أن تقدموا منهم بتعريفهم على الدين الجديد الذي هو الاسلام ودعوتهم لقبوله والدخول فيه - خصوصا وانه دين يؤيد الكثير من اصول دينهم من الايمان بالكتب والنبيين والملائكة واليوم الآخر والحساب والعقاب والجنة والنار وغيرها. وليس في هذا اي تجن او تحد بل فيه كل الاحسان والمحبة وبخاصة اذا تأكد بان المسلمين لم يكرهوا هؤلاء على الدخول في الاسلام.

بيد ان هؤلاء النصارى اعتبروا هذا من الرسول وصحبه تحديا لسلطانهم ونفوذهم على الأرض، فكبر عليهم ذلك واستصعبوا ان يقبلوا الخضوع لعربي أمي والانقياد له ليكون لهم قائدا ومعلما وهاديا، فنفروا منه وأعرضوا عنه قبل ان يكلفوا انفسهم مسؤولية فهم ما عنده والتحقق مما اذا كان نبيا او غير ذلك وهم اهل الكتاب الذين يخبرهم

كتابهم بقرب مبعث نبي مخلص للناس ومنقذ لهم من الضلال المبين.

والذي يؤسف ان هذا النفور جعلهم ينطوون على كره وحقد اعميين وشديدين اندفعوا معها ليكيلوا له ولأتباعه التهم، ويفتروا عليه بالكذب، ويحرضوا أناسهم دونما اي مبرر على النيل منه ومن دينه وأمته بقسوة وغلظة، وهو الذي ما تكلم عن عيسى وأمه الا خير الكلام وأحلاه وما تحدث عن الانجيل والتوراة الا اصدق الحديث[1].

ولم يقف الأمر بهؤلاء عند هذا الحد، بل استطال حتى اقاموا بين الاسلام والنصارى حاجزا من العداوة والحقد والخصومة الشديدة قائما على الجهالة والهوى والعمى، حتى انتهى الى خوض صراع مرير واليم فكري وعقائدي من جهة ودموي وعسكري من جهة أخرى كوي بناره اناس برآء، واستطال مع تقلب الزمن وتعمقه تكون الغلبة فيه طورا للمسلمين واخرى للنصارى، حتى كان هذا العصر الحديث الذي يشهد احدث ما انتهى اليه العلم من اكتشافات على كل صعيد فتحت ابصار الناس وبصائرهم

(١) راجع أمثلة من أقوال المستشرقين في موسوعة لاروس الفرنسية وفي كتاب حياة محمد (لحسين هيكل ص ٢٩- ٣١).

على دقيق صنع الله وروائع ابداعه وخلقه في الانسان والحيوان والنبات والهواء والذر في الارض وفي السماء وما بينهما.

ومع ذلك فقد استمر اصحاب الحقد على حقدهم تنازعهم اهواؤهم وتجرفهم انانياتهم في اتجاه مداومة الصراع ومتابعة الحرب على الاسلام والمسلمين ،غير عابئين لما رأوا في الارض وفي السماء والآفاق والانسان من دلائل تؤكد صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق دعوته الى الناس اجمعين؛ وهو الذي حمل اليهم جميعا قوله تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق من ربهم أولم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد؟ الا انهم في مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شيء محيط[1]

وان من آثار هذا الصراع المرير القائم على الحقد صنوفا متعددة من النشاط التربوي التبشيري، والنشاط الصحي التبشيري، والنشاط التبشيري في الخدمات الرعائية العامة، في حقول الصحة والزراعة والعمل الاجتماعي وغير ذلك التي يشهد اخطر آثارها اليوم لبنان وافريقيا السوداء واندونيسيا والهند وغيرها.

---

(١) فصلت: ٥٣

ولو يكلف هؤلاء انفسهم بعض عناء المراجعة الفكرية لما يحاربون من فكر وعقيدة وسلوك لرأو كيف انهم يتجنون اولا وقبل كل شيء على انفسهم، ثم بالتالي على الناس، ويحملون الى حد بعيد وزر تردي الاوضاع العامة في المجتمع الانساني وتخلف ركبه في طريق التقدم والتطور، كما يحملون وزر ما يعانيه هذا المجتمع الانساني الكبير من آلام ويكابده من مشقة وحرمان واحزان.


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

فهرس